

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

كلية الآداب والحضارة الإسلامية

قسم اللغة العربية



جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

— قسنطينة —

## إستراتيجيات الخطابة الإسلامية

عصر صدر الإسلام

(بين الوظيفتين التعاملية والتفاعلية)

أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه علوم في اللغويات

إشراف الأستاذ الدكتور:

صالح خديش

إعداد الطالب:

عمار بعداش

أعضاء لجنة المناقشة

| الاسم واللقب | الرتبة               | الجامعة الرئيسية                            | الصفة |
|--------------|----------------------|---------------------------------------------|-------|
| رابح دوب     | أستاذ التعليم العالي | الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية-قسنطينة- | رئيسا |
| صالح خديش    | أستاذ التعليم العالي | جامعة عباس لغرور-خنشلة                      | مشرفا |
| رشيد شعلال   | أستاذ التعليم العالي | جامعة 8ماي45-قلمة                           | عضوا  |
| ذهبية بورويس | أستاذ التعليم العالي | الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية-قسنطينة  | عضوا  |
| سكينة قدور   | أستاذ التعليم العالي | الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية-قسنطينة- | عضوا  |
| وردة معلم    | أستاذ محاضر أ        | جامعة 8ماي45-قلمة                           | عضوا  |

السنة الجامعية 1436-1437 هـ / 2015-2016م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

"إِنْ غَنَانَا الْإِدْبِي أَرَبَى مِنْ غَنَانَا الْمَادِي، فَنَحْنُ نَحْمِلُ  
رِسَالَةَ الْإِسْلَامِ: رِسَالَةَ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ الَّتِي أَشْرَقَ بِهَا  
الْوُجُودُ، وَاسْتَنَارَ بِهَا الْفِكْرُ، وَاسْتَقَامَ بِهَا الْضَمِيرُ،  
وَاسْتَفَادَتِ مِنْهَا قَدِيمَا أَجْنَاثٍ مِنْ أَحْمَرٍ وَأَسْوَدَ، وَتَبَوَّاتِ  
بِهَا هَذِهِ الْأُمَّةَ مَكَانَةَ التَّوْجِيهِ وَالْقِيَادَةِ أَمْدًا غَيْرَ  
قَصِيرٍ..."

لَكِنَّمَا فَرَّطْتُ فِي الْوَاجِبِ الَّذِي اصْطَفَاهَا لَهُ الْقَدَرُ  
فَهَوَّتْ:

ثُمَّ عَرَفْتُ بَعْدَ لَأَيِّ سَبَابٍ زِيغَهَا فَصَحْتُ."

الشيخ: محمد الغزالي

إهداء

إلى عالمي:

الأكبر والأصغر...

انتمائي وامتدادتي...

في حضرتكم...

كلما أدبني الدهر أراني ضعف عقلي

وإذا ما ازددت علما زادني علما بجهلي

عمار

## شكر وعرفان

• قال تعالى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾

[لقمان: 12]

• وقال ﷺ: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس»

• فله الشكر على ما امتن به وأجزل من غير حول مني ولا قوة.

• ثم لأستاذي الفاضل الكريم، الأستاذ الدكتور: صالح خديش،

الذي تعهد غرسي هذا منذ كان بذرة تحملها خيرة، إلى

أن استوى على سوقه... فكم كانت تعظم في عيني

صغائره، ويصغر في عينيه أعظمها، وكم سهرت

لشارحات، ثم نمت - بعد لقائه - ملء الجفون.

• وإلى كل من شدّ برأيه أزرِي، وشركني في أمري، فأمّداً

وأعاناً وإقباً بكلمة طيبة، وما أكثرهم ...

عمار بعداش

# المقدمة

على الرغم من الغموض والإبهام الذي يهيمن على كثير من المصطلحات والمفاهيم المرتبطة بالنظرية التداولية، فإنها استطاعت بفضل جملة من الأفكار والملاحظات، الإجابة عن تساؤلات عديدة، لم تتمكن المدارس اللسانية - منها البنوية - من الإجابة عنها. ولعل مرد ذلك إلى ما يوفره هذا المنهج اللغوي المفعم من آليات ووسائل علمية تدفع الباحث إلى طرح أسئلة جوهرية ومن ثم الإجابة عنها من خلال البحث في طرائق التعبير المختلفة، والدوافع الكامنة وراء تغير الجمل ذات المعنى المتقارب تركيبيا في ضوء ما يحيط بها من سياقات مختلفة؛ فالنظريات التداولية تسعى في جوهرها إلى طرح أسئلة من قبيل من يتكلم؟ ومن يتلقى؟ وما الذي يصاحب عملية التواصل؟ ولم نلجأ إلى التلميح ونأى عن التصريح؟ وغيرها من الأسئلة الدافعة إلى البحث في النص دون تلافي ما ينتجه، وما يصاحب العملية التواصلية من ظروف اجتماعية، ودينية، وغيرها.

ففي حين تعتمد البنوية في تحليل اللغة، على الجملة باعتبارها أعلى مستوى، تركز التداولية بكل اتجاهاتها، على القول الذي تعتبره مخالفا تماما لمفهوم الجملة، على فرض تأسيسه على عنصر الإسناد، وهو ما يقرره غير واحد؛ ف(بنفنست) - مثلا - يرى أنه نتيجة لفعل متحقق ضمن ظروف وأحوال سياقية، وعلى ذلك تتعدى دلالة القول، دلالة الجملة، مما يحتم النظر في مختلف الأحوال التي تسببت في بنائه.

إن موضوع التداولية إذن هو القول، أو الخطاب في شكله العادي أو اليومي، لأن الخطاب بجميع مستوياته لا يعدو أن يكون وضعية تخاطبية مشكّلة من متخاطبين، وإن استقلت كل وضعية بخصائصها التي تصنفها ضمن مستوى معين، فالسياق هو العنصر الرئيس الذي يميز بين خطاب وخطاب، ويحدد تحديدا فعليا مستوى كل منها، من خلال منظومة علائقية قوامها السلوك الاجتماعي، واستعمال اللغة، أو مجمل المعطيات المشتركة بين المرسل والمتلقي، والوضعية النفسية، والثقافية، وما بينهما من تجارب، ومعلومات شائعة، على حد تعبير (جان ديوا).

كما يؤدي السياق الدور الفعال، في تحقيق النمط التداولي للغة، ولذلك تتمركز حوله جميع اتجاهات التداولية، حتى صار مؤشرا قويا دالا على التطور التدريجي، من مستوى

لآخر، على اعتبار اعتماد كل مستوى من المستويات، على ما يوفره السياق من قدرات تحليلية، مما أفضى إلى ظهور ثلاثة تيارات مختلفة، ومتداخلة في آن معا، شكَّلت النَّسَقَ العامَّ لما يسمَّى بالنظريات التداولية.

ولكن ما المقصود بإستراتيجيات الخطاب؟ وما القيمة المعرفية التي توفرها دراسته؟

يعتبر موضوع إستراتيجيات الخطاب، أحد الموضوعات اللغوية المهمة، لارتباطه بمختلف مجالات الحياة، منها: المجال الاجتماعي، والمجال التعليمي، والسياسي، والاقتصادي وغيرها؛ فللمجتمع سياقات كثيرة تتطلب تنوع الخطاب لبلوغ أهداف الناس المتباينة، وعلى هذا نشأت الحاجة إلى كشف إستراتيجيات المتخاطبين المتنوعة ومن ثمة تطويرها، واستعمالها دون إغفال تطوير ذوات الناس التخاطبية، وتفادي ما قد يحول دون توظيف فعَّالٍ لهذه الإستراتيجيات على اعتبار الأهداف والميولات، ودرجات الاستيعاب، واختلاف التكوين، إذ لا شك أن المعلم يحتاج أكثر من سواه إلى امتلاك أكبر عدد ممكن من الإستراتيجيات، الموصلة للفهم والإفهام، في حين يلجأ التاجر إلى امتلاك أدوات الحجاج، التي تجعل خطابه أكثر إقناعا وهدمًا جرًّا، لأن تعدد السياقات مظنة تعدد الخطابات اللغوية وهو مؤشر يدعو إلى تنويع الإستراتيجيات لأن اعتماد مستعمل اللغة على إستراتيجية واحدة واقتصراره عليها في كل سياقاته، سمة من سمات الجمود في التفكير، كما قد يدل ذلك على جهله بما تتميز به اللغة من تنوع وظائفها.

هذه الوظائف، التي تصنف عادة تبعا لاهتمام الدارس، فقد قصرها المنظور التداولي مثلا، علىوظيفتين رئيسيتين، ترتبطان بمقاصد مستعمل اللغة، وبوضعه الاجتماعي، وأهدافهوميولاته، هما:

- 1- الوظيفة التعاملية: وهي ما تقوم به اللغة من نقل فعال للمعلومات وفيها يركز المرسل جهده على بناء خطاب محوره المرسل إليه.
- 2- الوظيفة التفاعلية: تتجلى في العلاقات الاجتماعية وما يصحبها من غايات ومسرحها عادة المعاملات اليومية.

وتندرج تحت هاتين الوظيفتين بشكل مجمل، جلُّ الوظائف اللغوية التي أنتجتها

الاتجاهات اللسانية المختلفة، غير أنه لا يمكن تحديد أيٍّ من هذه الوظائف من وجهة نظر تداولية إلا إذا استعنا<sup>(1)</sup> بالاستراتيجيات التي يوظفها المرسل، وهي الأخرى وثيقة الصلة بما يتوخاه المرسل من مقاصد، أو لنقل إجمالاً بالسياق وعناصره المتعددة.

وبهذا بدا واضحاً الخطر الرفيع، الذي يتبوؤه موضوع إستراتيجيات الخطاب، بوصفه طريقاً موصلة إلى مقاصد المرسل، وما يعينه على إدارة الحديث، وإنزاله منزلته، أيّاً كان نوعه، طلباً للكشف عن مهارات الخطاب، وكفاءات المرسل التداولية، ولا شك أن النبي ﷺ، أحق من تكلم العربية بذلك، خاصة في ضوء ما وصلنا من شهادات العرب الأقحاح، الصرخاء، حول بلاغته وقدرته ﷺ - على التأثير والإقناع، وحسن إدارته للحديث، وتدرجه في الوصول بالمتلقي إلى المقصد، فضلاً عن شهادته هو لنفسه. وقد أرشدنا بحثنا إلى اختيار بعض خطبه ﷺ وخطب بعض من عاصره، واتصل به، ليكون عنوان الدراسة موسوماً بـ "إستراتيجيات الخطابة الإسلامية"<sup>(2)</sup> عصر صدر الإسلام بين الوظيفتين التفاعلية والتفاعلية. كما ضاعف اهتمامنا بهذا العنوان، ورود بعض الإشارات والشذرات المتناثرة في كتب المتقدمين، من اللغويين والبلاغيين، والتي لمسنها من خلال تدريس مقاييس: البلاغة، والتداولية وتحليل الخطاب، من ذلك ما ورد عند، الجاحظ، وسيبويه، وابن يعيش، وابن جني، والجرجاني، والسكاكي والسيوطي، وغيرهم، وهي إشارات لا يمكن إغفالها، لارتباطها الوثيق بكثير من المصطلحات والمفاهيم التداولية.

1- "إذا نحن استعملنا ضمير الجمع في كتاباتنا، فلأن هذا الاستعمال تقليد عرياًصيل في صيغة التكلم من صيغ الكلام، ثم لأنه هو الاستعمال المتعارف عليه في المقال العلمي والتأليف الأكاديمي، فضلاً عن أنه يفيد معنى (المشاركة) و(القرب)، إذ يجعل المتكلم ناطقاً باسمه وباسم غيره، ولا غير أقرب إليه من المخاطب، حتى كأن هذا المخاطب عالم بما يخبره به المتكلم ومشارك له فيه، فيكون ضمير الجمع، من هذه الجهة، أبلغ في الدلالة على التأدب والتواضع من صيغة المفرد، ولا دلالة له إطلاقاً على تعظيم الذات ولا على الإعجاب بالنفس". عبد الرحمن (طه): اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص: 13.

2- نعي بمصطلح (الإسلامية) الخطابة المنسوبة إلى المضمون، أي تلك التي تنطلق من منطلق عقدي، هو التصور الإسلامي للكون والحياة، وقد أوردناه محاثاً لعصر صدر الإسلام، لأننا نرى أن الأدب العربي في عصر النبوة والخلافة الراشدة، كان أدباً إسلامياً في جملته، وإن بدأت "دائرة الأدب المضاد تتسع عبر القرون بمقدار بعد المسلمين عن الالتزام بالإسلام..." ينظر: أبو صالح (عبد القدوس): شبهة المصطلح، مجلة الأدب الإسلامي، فصلية تصدرها رابطة الأدب الإسلامي العالمية، مؤسسة الرسالة، السنة الثانية، المجلد الثاني، العدد الثامن، سبتمبر - أكتوبر - نوفمبر (1416هـ-1995م)، ص: 3.

بالإضافة إلى ولوعنا بالدراسات المحدثّة، ذات الطابع الأكاديمي، التي مزجت بين النظرية التداولية في صورتها الغربية، وما يقتضيه الواقع اللغوي العربي من جهة، والوعي بما صاحب تلك النظريات الغربية من تباين واختلاف من جهة أخرى، كدراسات (طه عبد الرحمن) التي سعت إلى إثبات ما بين الفكرين؛ الغربي والعربي من وشائج متينة؛ لغوية، وفلسفية، مع نزوع جلي إلى التأصيل، والتنظير والاستمداد من التراث الإسلامي، ودراسة (عبد الهادي بن ظافر الشهري) الموسومة بـ(إستراتيجيات الخطاب مقارنة تداولية لغوية)، والتي تناول فيها أهم الإستراتيجيات الخطابية، مع سعيه إلى ربطها بنماذج تطبيقية، وهما الدراستان اللتان أسهمتتا في تبئير هذه الأطروحة، لما تميزتا به من عمق، وسعة، ووعي بالطبيعة التداولية للتراث الإسلامي، لولا ما طبعهما من عموم، وإغراق في التنظير والتفعيد.

كما نشير إلى فضل بعض المؤلفات ذات السبق، كدراسات (أحمد المتوكل) ذات البعد الوظيفي ودراسة (محمد العمري) التي عنوانها (في بلاغة الخطاب الإقناعي) وهي دراسات جادة، حاول فيها أصحابها تسليط أدوات المنهج التداولي مثلما تمثله، على مدونات عربية، لولا ما اتسمت به من عموم وإجمال.

ومن الكتب المترجمة التي اتكأت عليها دراستنا، كتاب تحليل الخطاب لـ(براون ويول) ترجمة محمد لطفي الزليطي ومنير التريكي، وهما الدراسة التي رسخت في أنفسنا بما ألحّت إليه، إيماننا بجدوى هذا المنهج دون سواه، وقدرته على التوغل في النص دون هضم ما يحيط به، ومن ثم دفعتنا إلى تبنيه، في سبيل كشف الخصائص اللغوية التداولية المعينة على إنتاج خطاب متوافق، من خلال تحليل خطابة عصر صدر الإسلام، ممثلة فيما نقلته إلينا كتب السير والتراجم والتاريخ الإسلامي، والتي يكاد يجمعها جهد أحمد زكي صفوت في كتابه (جمهرة خطب العرب).

كما أفضى بنا أخيراً، إلى الاقتناع بضرورة سبر أغوار هذا الموضوع، ما تشهده الساحة البحثية العربية من قلة الدراسات اللغوية، الحديثة، الضاربة في غمار الموروث الديني، خاصة ما تعلق منها بالعهد النبوي، على الرغم مما يشكّله من قيمة لا يستهان بها، فهو - بلا مدافع - القاعدة الصلبة، التي اتكأت عليها العصور المتلاحقة، تنظيراً، وتقعيداً، ومع ذلك ظلت

النصوص المنتجة في تلك الفترة بكرا، خلوا من دراسات جادة تستنطقها، وتستخلص خصائصها، ومميزاتها التي جعلت لها في قلوب وعقول المتلقين على اختلاف مداركهم وتعدد مشاربهم تلك المكانة المهيبة.

كل ذلك حفزنا على المبادرة، بتطبيق المنهج التداولي، في إنتاج الخطاب، بوصفه مستوى تصنيفيا، إجرائيا، في الدراسات اللغوية، يعدو كونه مجرد دراسة دلالية، إلى البحث في علاقة العلامات اللغوية بمؤوليتها؛ أي يسعى إلى إبراز اللغة في الاستعمال وبالتالي يؤسس لدراسات تعنى بمقاصد المرسل، وكيفية تبليغها في مستوى أرفع من مستوى الدلالة الحرفية، كما يمكن هذا المنهج مطبقه من كشف طريقة توظيف المرسل للغة، بمستوياتها المختلفة، في سياقاتها المتباينة، وهو ما يجمعه غالبا فضاء الخطاب، مع التعرف على مدى مواءمة هذا الخطاب لذلك السياق من خلال ربطه بعناصره، وما ينبثق عن قوانينه من ظواهر؛ كالاقتراض المسبق، والأقوال المضمرة، والحجاج، وغيرها.

وقد فرضت طبيعة مادة البحث تقسيمه إلى: مدخل، وثلاثة فصول، مصدرة بمقدمة، ومذيلة بخاتمة.

أفرد المدخل لرصد العلاقة بين التداولية والخطاب فكان عنوانه "مفاهيم أولية"، حاولنا فيه الإجابة عن سؤالين إشكاليين هما: ما التداولية؟ وما مفهومها للخطاب؟.

بينما قُسم الفصل الأول إلى ثلاثة مباحث، كانت تنظيرا للبعد التداولي للخطاب، فجعل المبحث الأول للكشف عن علاقة الخطاب بالسياق، وخصّص المبحث الثاني لإظهار ما بين الوظيفة والخطاب من وشائج، بينما قُصِرَ المبحث الثالث على الحديث عن علاقة الخطاب بالإستراتيجية الخطابية من حيث هي مناط العملية التواصلية، وبيت القصيد فيها.

وكان عنوان الفصل الثاني "الخطاب بين التضامن والتلميح" وفيه أظهرت الدراسة نزوعا إلى التطبيق باستحضار نماذج من خطب عصر صدر الإسلام، بقصد إظهار ما فيها من إستراتيجيات خطابية كـ "الإستراتيجية التضامنية" و "الإستراتيجية التلميحية".

ليستقل الفصل الثالث بتشريح الخطاب من وجهة نظر "الإستراتيجيتين التوجيهية

والإقناعية". في حين خُصِّصَت الخاتمة لتسجيل أهم النتائج المتوصل إليها.

وفي الأخير لايسعنا إلا أن نشكر شكرا جزيلا، كل من أسهم في إخراج هذا البحث، بدءا بالأستاذ المشرف، الذي كان لنا نعم العون على تجاوز عقبات كثيرة، كادت تحول بيننا وبين تحقيق مرامي هذه الدراسة، منها على وجه التحديد، سعة حقل البحث واضطراب مصطلحاته، وقلة الدراسات المنظرة والمطبقة والمشتغلة علموموضوعي الإستراتيجيات والوظائف؛ فقد وجدنا في أحيان كثيرة رهيني رؤى مبعثرة، وتصورات خداج، أكثرها منقول عن غير العربية، دون احتكام إلى نظرية محددة الأسس، بيّنة المعالم، وقد كان - بعد الله تعالى - لإدراك الأستاذ المشرف، وعلمه مع تواضعه، وسمو أخلاقه، ولين عريكته، ونبل محتده، دور بالغ في الأخذ بأيدينا، وإخراجنا من بحر متلاطم المصطلحات، متضاربها، (وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض).

ووصولاً إلى أعضاء لجنة المناقشة، الذين تكرموا بقراءته، وتحشموا عناء تتبع ما فيه من هنات، وسدّ ما حواه جهدنا البشري من ثغرات، أرجو من الله أن يجعلها لهم حسنات، ولنا إلى الكمال سلّماً، ورحم الله من أهدى إلى عيوبي.

والله من وراء القصد هو الهادي إلى سواء السبيل.



# المدخل: التداولية والخطاب

## أولاً: التداولية:

يذهب جل منظري التداولية<sup>(1)</sup> (PRAGMATICS) (PRAGMATIQUE) إلى أنها درس جديد وغزير وغامض تعوزه الحدود الواضحة التي تجمعها وتمنعه؛ ذلك أنه من أكثر المجالات حيوية لما يستوعبه من معارف الفلسفة، وعلم النفس، وعلم الاجتماع وغيرها، إلا أنه في الوقت نفسه بدأ يعرف نوعاً من النضج الفكري، والمعرفي الذي كفل له ضرباً من الاستقلال العلمي<sup>(2)</sup>.

## I. ماالتداولية؟

قبل الإجابة عن هذا السؤال لا بد من تحديد منطلقات فلسفية، وتاريخية، وفكرية نتخذها معالماً في سبيل الوصول إلى مفهوم، نراه أقرب إلى الحقل الذي نحن بصددده، ومن ثم أجدي للدراسة وأقدر على إظهار الجانب الإستراتيجي للخطاب من خلال وظائفه.

على أنه تجب الإشارة إلى مختلف التجاذبات، التي عرفها المصطلح من لدن حقول معرفية متعددة، متى ما أتيح لنا المجال، دون أن يشي ذلك برغبة هذا البحث في استقصاء أزمة المصطلح، التي نحسبها أكبر وأعقد من أن تعالج في مثل هذه الصفحات، ومن بين ما يجب تسجيله نذكر:

1- أن هناك من الباحثين من تتبع حياة المصطلح عند الأمم القديمة اليونانية والرومانية، وأثبت له وجوداً حرفياً؛ فقد أشار (عيد بلبع) إلى أن للتداولية جذوراً بعيدة «ترجع إلى وشائج تربطها بعمق تاريخ الفكر الغربي، فعلى الرغم من أن التداولية فرع جديد نسبياً في اللسانيات الحديثة، فإن البحث عنها يمكن أن يرجع قديماً، إلى اليونان والرومان؛ حيث إن المصطلح (PRAGMATICUS) يوجد في اللاتينية

1- هي الترجمة الأشهر للمصطلحين الإنجليزي والفرنسي على التوالي (PRAGMATICS) (PRAGMATIQUE) وسيأتي بيان ذلك.

2- ينظر أرمينكو (فرانسواز): المقاربة التداولية، تر: علوش (سعيد)، مركز الإنماء القومي، رأس بيروت، لبنان، دط. 1986 ص: 07، وبلانشيه (فيليب): التداولية من أوستين إلى غوفمان: تر: الحباشة (صابر)، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية - سورية، ط1، 2007، ص: 17.

المتأخرة، كما أن المصطلح (PRAGMATICOS) يوجد في اليونانية وكلا المصطلحين بمعنى العملي<sup>(1)</sup>.

وإن كان مثل هذا الإثبات لا ينهض بدليل قوي لأن وجود الكلمة لا يقتضي بالضرورة انتخابها مصطلحا قار الدلالة، وإلا لأمكن عدّ كلّ الكلمات التي استعملت في معانٍ بعينها، مصطلحات، أكثرها في اللاتينية، وفي غير اللاتينية، ثم ما الذي يثبت أن هذا المصطلح لم يشكل بداية المذهب الفلسفي البراغماتي؟ الذي يُصِرُّ عدد من الدارسين على انتماء التداولية إليه<sup>(2)</sup>.

2- يرى (محمد عناني) أن هناك فرقا جذريا بين ما يسمى علم التداولية (PRAGMATICS) والمذهب البراغماتي (PRAGMATISM) لأن الأول يستخدم بكثرة في المجال اللغوي بينما يستخدم الثاني في مجال الفلسفة والثقافة الأمريكية خصوصا، ويترجم الأول إلى العربية غالبا بـ (التداولية) بينما استقرت ترجمة الثاني في الثقافة العربية بالذرائعية أو النفعية<sup>(3)</sup>.

وإلى ذلك يذهب (عيد بلبع) حين يعتبرهما شيئين وليس شيئا واحدا «على الرغم من أن التداولية لا تنفصل عن المذهب الفلسفي الذي يترجم بالذرائعية انفصالا تاما»<sup>(4)</sup>، ثم يعود فيناقض نفسه عندما يعتبر التداولية أقدم بكثير من المذهب الفلسفي لا شيء إلا لأنها ترجع إلى المصطلحين اللاتيني (PRAGMATICUS) واليوناني (PRAGMATICOS)<sup>(5)</sup>.

ولعل هذا التناقض هو الذي أوقع بعض من حاول تحرير المصطلح — لاحقا — في الثقافة العربية، في خلط كبير، حين استقر على استعمال مصطلح (التداولية) ثم عاد إلى توظيف الكلمة المعربة (البراجماتية) في مقابل (PRAGMATISM) زاعما أن الوصف كفيلا بالتفريق

1- بلبع (عيد): التداولية، البعد الثالث في سيميوطيقا موريس، بلسية للنشر والتوزيع، مصر، ط1، 2009، ص: 25.

2- يشدد محمد عناني على هذا التمايز الراديكالي بين البراغماتية (PRAGMATISM) والتداولية (PRAGMATICS)، ينظر: عناني (محمد): المصطلحات الأدبية الحديثة، الشركة المصرية العالمية، لونغمان، القاهرة، دط، 1996، ص: 77-78.

3- نفسه: ص: 78-87.

4- بلبع (عيد): التداولية، البعد الثالث في سيميوطيقا موريس، ص: 24.

5- ينظر نفسه: ص: 25.

بينهما.<sup>(1)</sup> مع أن سمات التقارب بين المصطلحين أوضح من أن يشار إليها، ف(محمد عناني) نفسه يثبت أن مصطلح (البراغماتية) يحتفي بدراسة اللغة في شتى السياقات والمواقف العملية أي تداولها عمليا، وعلاقة ذلك بمن يستخدمها عمليا، تفريقا لها عن مذهب العلاقات الداخلية بين الألفاظ.<sup>(2)</sup>

3- استنطق (نواري سعودي أبو زيد) مبنى المصطلح الفرنسي (PRAGMATIQUE) الذي ينحدر- حسب- إلى الكلمة اللاتينية (PRAGMATICUS)، وقد استعملت في حدود 1440م وهي مبنية على الجذر (PRAGMA)، ومعناه (الفاعل) «ثم صارت الكلمة بفعل اللاحقة تطلق على كل ما له نسبة إلى الفعل أو التحقق العملي. أما في الفرنسية فقبل أن تدخل مجال الدراسات الفلسفية والأدبية، فإنها استعملت في المجال القانوني وتحديدًا في عبارة (PRAGMATIQUESANCTION) وتعني المرسوم أو المنشور أو نحوه، الذي يهدف إلى تسوية قضية هامة باقتراح الحلول العملية والنهائية، في الوقت نفسه، ثم كان توظيفها في مجال العلوم البحتة»<sup>(3)</sup>. فنشأة التداولية- حسب هذا الطرح- لم تكن فلسفية، أو لغوية، بل شهدت استعمالا قانونيا محضا، أهَّلَهَا فيما بعد لكي تتحقق فلسفيا وأدبيا وعلميا، من خلال استعمالها للدلالة على مستوى لساني أفقي «يعد أعلى تفاعل لهرمالبنية اللغوية، وهي علوية متفرعة مدججة»<sup>(4)</sup>.

كما يحمل هذا الطرح أيضا فكرة جديدة لا نكاد نجد لها كبير ذكر في الدراسات التي تناولت موضوع نشأة التداولية، مؤداها أن نشأة المصطلح في اللغات الأوروبية، يختلف باختلاف الأصقاع، فقد بدأ في اللغة الفرنسية قانونيا، ليستحيل فلسفيا، وأدبيا وعلميا في وقت متأخر، وأكَّـد ذلك (فيليب بلانشيه) (ph. Blanchier) حين قصر هذا المصطلح- في

1- يرى يوسف أبو العدوس أن بإمكانه وصف البراغماتية باللغوية أو الفلسفية، لإظهار الفرق بين المصطلحين، ينظر أبو العدوس (يوسف): البراغماتية مصطلحا نقديا، ضمن أعمال المؤتمر الدولي الثاني للنقد الأدبي بإشراف، عز الدين إسماعيل، القاهرة، 2000م، ص: 62.

2- ينظر عناني (محمد): المصطلحات الأدبية الحديثة، ص: 72.

3- سعودي (أبو زيد، نواري): في تداولية الخطاب الأدبي المبادئ والإجراء، بيت الحكمة، العلمة- الجزائر، ط1، 2009، ص: 18.

4- نفسه ص: 19.

اللغة الفرنسية- على معنيين هما: (المحسوس) و(الملائم للحقيقة) بينما لا يكاد يدل في اللغة الانجليزية إلا على «ما له علاقة بالأعمال والوقائع الحقيقية»<sup>(1)</sup>.

4- يعتبر (عبد السلام إسماعيل علوي) ومن هذا حذوه<sup>(2)</sup> أن النشأة الفعلية للتداولية لم تكن إلا فلسفية، "في حوض فلسفة اللغة العادية"، وهو تيار فلسفي نشأ مع رواد الفلسفة والمنطق أمثال (فريجه)(FREGE)، و(راسل)(RUSSEL) الذين مهدوا لتداوليات نظرية انطلاقاً من فكرة المعارف والعلاقات.

و هو في الوقت نفسه يثبت دوراً فاعلاً لتأملات بعض الباحثين الذين اهتموا منذ أمد بعيد بآثار الخطاب في المتخاطبين، ومن هؤلاء الباحثين سوسولوجيون، ومحللون نفسانيون ومتخصصون في البلاغة ولسانيو تحليل الخطاب، أمثال: (أسكومبر)(ASCOMBRE) و(بيرلمان)(PERLMAN)، و(ديكرو)(DUCROT)، و(أوركينيوني)(ORRICCHIONI)<sup>(3)</sup>.

ويتفق معه في هذا الطرح الباحث الجزائري (مسعود صحراوي)، حين يرجع نشأة التداولية إلى تفصيلين تاريخيين هامين حدثا في مسار المعرفة المعاصرة، يتمثل «الأول في ظهور توجهات منطقية جديدة، لاصورية، توجهات أدركت قصور المنطق الصوري في صيغته القديمة والحديثة، ووقفت على عجزه عن أن يكون أداة مفيدة في وصف وتفسير الظاهرة التدلالية كما تتجلى فعلاً في العلوم الإنسانية والاجتماعية بشكل عام وفي التفاعل الحجاجي بشكل خاص»<sup>(4)</sup>.

فقصور المنطق الصوري، ولا جدواه في الدراسات اللغوية، وقلة كفايته بالنظر إلى التساؤلات الجادة التي صارت تطرح على مستوى فهم اللغة نفسها، هو الذي عجل بإيجاد بديل أكثر جرأة على الإجابة، غير أن الدمج بين تيار التداولية الشكلية وتحليل اللغة العادية

1- ينظر: بلانشيه (فيليب): التداولية من أوستين إلى غوفمان: تر: الحباشة (صابر)، ص: 17.

2- ينظر إسماعيلي علوي (عبد السلام): ما التداوليات؟، ضمن كتاب: (التداوليات علم استعمال اللغة)، إعداد وتقديم، حافظ إسماعيل علوي: عالم الكتب الحديث، إربد- الأردن، ط1، 2011، ص: 17.

3- ينظر نفسه: ص: نفسها.

4- صحراوي (مسعود): في الجهاز المفاهيمي للدرس التداولي المعاصر، ضمن كتاب: (التداوليات علم استعمال اللغة)، إعداد وتقديم: حافظ إسماعيل علوي، ص: 25.

لم يتحقق حسب (فرنسواز أرمينكو) (A. FRANCOISE) إلا مع بداية السبعينات و«كان رائد هذا (الضم) (ستالناكر) (STALNAKER) و(هانسون) (HANSSON)».<sup>(1)</sup>

ولذلك لم تكد تخرج تعريفات التداولية عن إطار ربط مفهومها باستعمال اللغة.<sup>(2)</sup>

إن مفهوم التداولية في سياقها الغربي لا يكاد يفهم إلا في إطار ما ألفت به الفلسفة التحليلية من ظلال وارفة على المجال اللغوي، خاصة، تمييز الفيلسوف الألماني (غوتلوب فريجه) (GOTTLOB FREGE) (1848-1925) «بين اسم العلم والاسم المحمول»<sup>(3)</sup> وهما عماد "القضية الحملية" ولا شك في أن هذا التمييز من اكتشافات المنطق الحديث لأن أرسطو - مع أنه عرف هذا الفارق - كان يخلط بين القضية الحملية وغير الحملية<sup>(4)</sup>، ولم يتم التمييز بينهما إلا بعد صياغة المنطق الحديث.<sup>(5)</sup>

وقد اقتفى الفيلسوف النمساوي (لودفيغ فون فيتغنشتاين) (L. WITTGENSTEIN) (1889-1957) أثر (فريجه)، فأصبحت مهمة الفلسفة التحليلية واضحة «ألا وهي إعادة صياغة الإشكالات والموضوعات الفلسفية على أساس علمي [...] ويتمثل ذلك الأساس في اللغة»<sup>(6)</sup>.  
5- يعتبر (مسعود صحراوي) أن التفصيل الأول، سابق الذكر، لم يكن كافياً لبلورة نظرية لغوية شاملة تعنى باللغة في الاستعمال، في ظل هيمنة المنحى الشكلي الصوري بزعامة البنيوية<sup>(7)</sup>، وأن ما ساعد على بروز التداولية باعتبارها مثل الاتجاه الوظيفي، هو «اختراق

1- أرمينكو (فرانسواز): المقاربة التداولية، ترجمة سعيد علوش، ص: 15.

2- ينظر بلبع (عيد): التداولية، البعد الثالث في سيميوطيقا موريس، ص: 18.

3- القضية الحملية هي التي تتكون من طرفين: اسم علم ومحمول يسند إلى اسم العلم، والقضية غير الحملية أو العلائقية هي التي تتكون من علاقات أخرى خارجة عن الإطار الحملية. ينظر زيدان (محمود): فلسفة اللغة، دار النهضة العربية، بيروت-لبنان، دط، 1985، ص: 13.

4- ينظر نفسه، ص: 12.

5- ينظر صحراوي (مسعود): في الجهاز المفاهيمي للدرس التداولي المعاصر، ص: 33.

6- نفسه، ص: 35.

7- درج باحثونا على استعمال هذا المصطلح في مقابل الأجنبي (structuralisme)، وهو وإن كان شائعاً إلا أنه مخالف لأصول النسبة إلى بابه، والأصوب (بنوية) أو (بنيّة)، وقد أشار إلى ذلك كل من عبد الملك مرتاض وجميل صليبا، واختار الأول (بنويّة) =

ساحة العلوم اللغوية بتيارات فلسفية ونفسية واتصالية»<sup>(1)</sup>.

وهو بهذا يؤسس مفهوم التداولية على شقين؛ «على تعالق البنية اللغوية بمجال استعمالها دون إغفال الصلات الرابطة بين العلوم المتشابكة والمتكاملة مفاهيميا، كالفلسفة والتداوليات اللغوية، وعلم النفس المعرفي وعلوم الاتصال»<sup>(2)</sup>.

فاستخدام مصطلح التداولية، استدعاءً غير مباشر لمعارف تنتمي إلى حقول مفاهيمية تضم مستويات متداخلة، كالبنية اللغوية، والاستدلالات التداولية وقواعد التخاطب وعلاقة البنية اللغوية بظروف الاستعمال، وهي بذلك حلقة وصل بين حقول معرفية عديدة منها: الفلسفة التحليلية (فلسفة اللغة العادية) وعلم النفس المعرفي (نظرية الملاءمة على الخصوص) (THEORIE DE PERTINANCE) ومنها علوم التواصل، واللسانيات وعلوم اللغة.<sup>(3)</sup>

6- ينطلق بعض الدارسين في تحديد مفهوم التداولية من منطلق لساني بحث، حين يربط المصطلح - في التقليد المنطقي الغربي - بتقسيم دراسة أي نظام علامي إلى مستويات ثلاثة تمثل زوايا النظر لمقاربة هذا النظام وهي:

أ \_ التركيب: وموضوعه شكل الجملة؛ وصورتها من حيث استقامتها فهو يدرس العلاقة الشكلية بين العلاقات.

ب \_ الدلالة: وتدرس العلاقة بين العلامات وما تحيل ليه.

ج \_ التداولية: ويهتم بالعلاقة بين العلامات ومؤولياتها (مستعملاتها) وتدرس معنى الجملة في المقام<sup>(4)</sup> «إلا أن لمفهوم التداولية، أو المستوى التداولي بعدا آخر في ارتباطه بالمقام، والمقام

=لأنه "أخف نطقا، وأكثر اقتصادا لغويا"، وهو اختيار هذه الدراسة إلا فيما تنقل عن غيرها. ينظر: مرتاض (عبد الملك)، في نظرية النقد، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، بوزريعة- الجزائر، دط، 2005، ص: 190-192.

1- نفسه: ص: 25.

2- صحراوي (مسعود): التداولية عند العلماء العرب: دار الطليعة، بيروت- لبنان، ط1، 2005، ص: 15-16.

3- ينظر نفسه: ص: 32.

4- ينظر الشهري (عبد الهادي بن ظافر): إستراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت- لبنان، ط1، 2004، ص: 21. والمبخوت (شكري): نظرية الأعمال اللغوية، مسكيلياني للنشر والتوزيع، تونس، ط1، ديسمبر

مفهوم يمكن تضيقه كما يمكن توسيعه، فحدوده الدنيا هي تصور متخاطبين في مكان وزمان معينين، وهذه الحدود الدنيا يمكن أن نعبر عنها لغويا على نحو صريح كما يمكن ألا نعبر عنها»<sup>(1)</sup>.

ويبرز هنا تعريف (شارلز موريس) (1938 MORRIS) الذي يعتبر فيه التداولية جزءا من «السيمائية، التي تعالج العلاقة بين العلامات ومستعملي هذه العلامات»<sup>(2)</sup>، و(موريس) هذا هو الذي يعزى إليه فضل السبق في استعمال مصطلح التداولية انطلاقا من عنايته بتحديد الإطار العام لعلم العلامات أو "السيمائية"<sup>(3)</sup>.

فالنسق التاريخي والمعرفي الذي يساق فيه هذا التعريف لا يعدو أن يكون تأريخا لبدايات ظهور الدرس التداولي «ففي اتجاه بيرس - موريس - كارناب وموريس - سيبوك (SEBEOK) واتجاه ميد - موريس. وميد - باتسون (MEAD-BATESON) تظهر التداولية كإحدى مكونات السيمائية، مكتسبة مظهرها تجريديا وطبيعيا أساسا»<sup>(4)</sup>.

ويعن في تعريفها لسانيا كل من: (آن ماري ديير) (ANNE- MARIE DILLER) و(فرونسواريكاني) (FRANÇOIS RECONTI) حين يعتبرانها دراسة استعمال اللغة في الخطاب شاهدة في ذلك على مقدرتها الخطائية<sup>(5)</sup>.

وهو تعريف لا يفصل - هو الآخر - بين الدلالية والتداولية، ويشركهما في المعنى مما يجعله تعريفا لسانيا بحتا.

ويرجع هذا التيار الفضل في إدراج مصطلح (PRAGMATHIQUE) في الدراسات اللسانية «إلى شارل موريس وهو اصطلاح لكانط (KANT) كان قد أخذ به بيرس

2008، ص: 14. وينظر أيضا مقبول (إدريس): الأسس الإستيمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه، عالم الكتب الحديث

للنشر والتوزيع، إربد - الأردن، ط 1، 2006، ص: 262. وأرمينكو (فرانسواز): المقاربة التداولية، تر: سعيد علوش، ص: 08.

1- المبخوت (شكري): نظرية الأعمال اللغوية، ص: 14.

2- أرمينكو (فرانسواز): المقاربة التداولية، ص: 08.

3- ينظر الشهري: إستراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، ص: 21.

4- أرمينكو (فرانسواز): المقاربة التداولية، ص: 08.

5- ينظر نفسه: ص: 12.

(PEIRCE) في بناء نظرية عامة للعلامات، هذه النظرية التي تقوم على فكرة السيميوزيس (SEMIOSIS) وهو السيورة التي يشتغل من خلالها شيء ما كعلامة»<sup>(1)</sup>.

وتستوي هذه الفكرة على ثلاثة عوامل هي: ما يدرك كعلامة، ومرجع العلامة ثم الأثر المحدث في التأويل، وتعلق التداوليات بالعامل الثالث، لأنها حسب "موريس" تختص بالعلاقة بين العلامات واستعمالاتها.<sup>(2)</sup>

7- يرى مقترح ترجمة (التداولية) الفيلسوف المغربي (طه عبد الرحمن) أن هذه اللفظة تفيد في العلم الحديث، الممارسة المعبر عنها بـ (LAPRAXIS) وهو المعنى ذاته الذي أوردته (أرمينكو فرانسواز) حين عرضت للمصطلح فقالت: «تعني كلمة التداولية عند بعضهم (البراكسيس) إذ على التداولية أن تعين مهمتها في إدماج السلوك اللغوي داخل نظرية الفعل».<sup>(3)</sup>

8- يكاد يحمل (عبد الهادي بن ظافر الشهري) كل ما عرفه هذا المصطلح من تجاذبات، فكرية ومعرفية، ومفهومية - في سياقه الغربي - بقوله: «وقد عمد الباحثون إلى هذا المنهج ليمدهم برؤى متعددة نتيجة لقصور الدراسات الشكلية وإهمالها لمقاربة اللغة في تحليلها الحقيقي أي في الاستعمال التواصل بين الناس»<sup>(4)</sup>، خاصة بعد أن تبادت المدرسة الشكلية في إغفال وظيفة اللغة باعتبارها ذات ارتباط وثيق بالاستعمال والسياق، ومن ثم يرى الباحث أن التعاريف المختلفة للتداولية لا تشكل سوى صورة طبيعية لمجال اهتمام المعرف نفسه؛ فقد يقتصر الباحث على دراسة المعنى، وليس المعنى بمفهومه الدلالي البحث بل المعنى في سياق التواصل [...] فيعرفها بأنها: «دراسة المعنى التواصل، أو معنى المرسل في كيفية قدرته على إفهام المرسل إليه، بدرجة تتجاوز معنى ما قاله، وقد يعرفها انطلاقاً من اهتمامه بتحديد مراجع الألفاظ وأثرها في الخطاب، ومنها الإشارات [...] كما قد تعرف التداولية، من وجهة نظر

1- إسماعيلي علوي (عبد السلام): ما التداوليات؟ ص: 19.

2- نفسه: صص: 19-20. وينظر الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 21. وينظر أيضاً: بوقرة (نعمان): المدارس اللسانية المعاصرة، مكتبة الآداب، القاهرة- مصر، دط، 2004، ص: 167.

3- ينظر: أرمينكو (فرانسواز): المقاربة التداولية، تر: علوش (سعيد)، ص: 11.

4- الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 21.

المرسل، بأنها كيفية إدراك المعايير والمبادئ التي توجهه عند إنتاج الخطاب بما في ذلك استعمال مختلف الجوانب اللغوية في ضوء عناصر السياق»<sup>(1)</sup>.

وهو التعريف الذي تركز إليه، وترتضيه هذه الدراسة، لأنه يسمح لها بتتبع أثر السياق في بنية الخطاب، والوقوف على العلاقة المتميزة والمتبادلة بين الشكل اللغوي، والـسياق\_المقام\_ عند دمج المعنى السياقي بالشكل اللغوي<sup>(2)</sup>.

إن التعريفات السالفة على الرغم من تمايزها إلا أنها تعلي جميعاً من دور السياق في تحديد البعد التداولي للخطاب، ذلك أن السياق (المقام) هو أحد أهداف المقاربة التداولية، الذي لا يمارفيه اثنان، من منظريها، حتى وإن كان مفهوم السياق نفسه لا يخلو من الغموض والتجاذب<sup>(3)</sup>.

إن الحديث عن السياق، ودوره البالغ في إجلاء البعد التداولي للخطاب، وتحقيقه يجعلنا غير بعيدين عن حدود نظرية التلفظ (THEORIE DE L'ENONCIATION)، التي لا تكاد تصرف نظرها هي الأخرى، عن علاقة الملفوظ بالسياق. لما لاجتماع عوامله اللغوية وغير اللغوية، من أثر في إيضاح الماهية التبادلية للغة (الماهية الاستعملية)، ومن ثم شكل التلفظ أساس التداولية باعتبارها منهجاً يسعى للكشف عند «شكل لغوي أو أسلوب لغوي ملفوظ في سياق معين»<sup>(4)</sup>.

إذ لا يمكن أن نفصل بين هذه السياقات فصلاً إجرائياً، ونحن نتفاعل مع الخطاب، لأن طبيعة المنهج التداولي ومعناه وكفايته، إنما تأتت له من خلال انعكاس هذا التنوع السياقي وتداخله مع الخطاب.

ثم إن طبيعة السياق التي سبق أن أثبتناها، تفرض في أحيان كثيرة منطقتها الديناميكية،

1- نفسه: ص: 22.

2- ينظر: النجار (منال محمد هشام سعيد)، نظرية المقام في ضوء البراغماتية، عالم الكتب الحديث، إربد- الأردن، ط1، 2011، ص: 18.

3- ينظر نفسه: الصفحة نفسها.

4- نفسه: ص: 20.

المتحول، مما يجعل فهمنا للسياق يضيق ويتسع.

## II. في السياق العربي (المصطلح بين الترجمة والتعريب والإقليمية):

إن الأمر الذي نريد أن لا نتجاوزه ونحن بصدد التقديم لهذه الدراسة هو كثرة ما يصادفنا من مقابلات عربية إزاء المصطلح الأجنبي (PRAGMATICS)، وهو خطب كان سيسهل تهوينه، لولا أمران:

1- ارتباطه بأزمة مصطلح ضاربة في الساحة البحثية العربية المعاصرة؛ فما المصطلح التداولي إلا كغيره من المصطلحات الأخرى النقدية واللغوية وحتى العلمية، التي استفاض باحثونا، في استقصاء أسبابها، وآثارها على صورة هذه العلوم في عقول طلابنا، وأذهانهم، وما تضيفه من اضطراب فكري تجسده منظومة مصطلحية لا يكاد يقر لها قرار، كما تعبر تعبيراً صادقاً من جهة أخرى عن الواقع الفكري الذي آل إليه العرب حديثاً، وهم يسعون إلى اصطناع رؤية فكرية، صلبة، تكفل لهم مجارة غيرهم من الأمم، في شتى الميادين، فلعل هذه الدراسة وهي تشير إلى هذا الإشكال، أن تحرك همم بعض الباحثين<sup>(1)</sup> لإعادة مراجعة المصطلحات العلمية، بما يكفل للباحثين المبتدئين الاستفادة منها بدل الضياع في صحرائها.

2- يلحظ الدارس بجلاء، وهو يواجه هذا الزخم المصطلحي المدجج، بخلفيات فلسفية عريقة، أن نقل المصطلحات سواء أكان من الإنجليزية أم الفرنسية، لم يراعِ الوشائج المعرفية والفكرية التي تربط بينها، كما لم يحترم تداول المصطلح في الثقافة التي أنتجته، وقد أشار إلى ذلك (محمد عناني) عند تنبيهه إلى عدم الخلط بين علم التداولية (PRAGMATICS) والمذهب البراجماتيقي (PRAGMATISM) فالثاني يركز على كل ما له أهمية عملية بالبشر، ويتجنب البحث في القضايا المطلقة أو المجردة، ويستخدم بكثرة في مجال الثقافة الأمريكية خصوصاً، ويؤدي عربياً بمصطلحات فلسفية من مثل: «الذرائعية أو النفعية، بينما يكثر استعمال الأول

1- كما فعل الباحث الجزائري بلخير (عمر)، وإن لم يعد الإشارة إلى "الركام الكبير من المصطلحات والمفاهيم التي نشأت من مشارب متفاوتة [و التي] جعلت الباحث يقف حائراً في أمره ويفتقد إلى نقطة بداية، ينطلق منها... ينظر: إجراءات التحليل التداولي للخطاب، مجلة الثقافة، فصلية ثقافية تصدر عن وزارة الثقافة، ع/19، أبريل 2009، عبر موقع: <https://omarbelkheir.wordpress.com>، ص:1. يوم 2015/8/12 في الساعة: 23:00.

في المجال اللغوي ويترجم غالبا بالتداولية»<sup>(1)</sup>.

ويعتبر (عيد بليغ) مصطلح البراجماتية (PRAGMATISM) قديما نسبيا عن مصطلح التداولية (PRAGMATICS) "فأول من استعمل مصطلح البراجماتية (PRAGMATISM) هو (تشارلز ساندرس بيرس) (CHARLES SANDERS PEIRCE) (1842-1914)، أبو السيميوطيقا الأمريكية [...] وذلك في يناير 1878م ومعناه علمي أو صالح لغرض معين وتبعه (وليم جيمس) (WILLIAM JAMES).<sup>(2)</sup>

وإن أشار بعد ذلك إلى إمكان وجود تأثير وتأثير بين المذهبين من خلال تتبع جذوره اليونانية والرومانية، محاولا الرد على رأي (محمد عناني) السابق من خلال استعراض نقاط التقاء المذهبين.<sup>(3)</sup>

وذهبت الباحثة الجزائرية<sup>(4)</sup> (راضية خفيف بوبكري) إلى أن البراجماتية غير الذرائعية، حين قالت: «يمكننا أن نرجع أصل التداولية إلى اتجاهين مختلفين: اتجاه ينطلق في دراسة التداولية من كونها نظرية في التعامل الاجتماعي يهتم بالجانب الاستعمالي، أي استعمال اللغة، برعاية أوستن، واتجاه فلسفي منطقي تعود جذوره إلى بيرس الذي أطلق عليه اسم البراجماتية 1905 ووليم جيمس الذي سماها بالذرائعية عام 1978» على الرغم من أنها اعتمدت على المصطلح الأجنبي نفسه (PRAGMATISM) فاستعملته معربا تارة ومترجما تارة أخرى؟.

وقد حاول "يوسف أبو العدوس" تحرير المصطلح في مقاله (البراجماتية مصطلحا نقديا) إلا أنه لم يفصل عمليا بين البراجماتية والتداولية، بل واصل الخلط في أكثر من موضع<sup>(5)</sup> بين البراجماتية (PRAGMATISM) والبراجماتية (PRAGMATICS)، مدّعا كفاية التمييز بينهما بالوصف، (البراجماتية) اللسانية، اللغوية.

1- عناني (محمد): المصطلحات الأدبية الحديثة، ص: 77-78.

2- بليغ (عيد): التداولية، البعد الثالث، ص: 24-25.

3- نفسه: ص: 25، 26، 27.

4 - خفيف بوبكري (راضية): التداولية وتحليل الخطاب الأدبي، مقارنة نظرية، مجلة الموقف الأدبي، مجلة أدبية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق - سورية، ع/399، تموز 2004، ص: 22.

5 - ينظر أبو العدوس (يوسف): ص: 62، 67.

ومن بين المصطلحات الكثيرة، التي تترجم بها مصطلح (PRAGMATICS) نذكر: التداولية، المقاماتية، علم المقاصد، التعاملية، الموافقية، إلا أن أكثر هذه المصطلحات انتشارا هو التداولية<sup>(1)</sup>، وجمعه بعضهم (التداوليات)<sup>(2)</sup>، وقد وردت هذه الترجمة عند عدد من الباحثين منهم:

- أحمد المتوكل: الوظائف التداولية في اللغة العربية، الدار البيضاء، ط1، 1985، وصدرت ترجمة سعيد علوش لكتاب (المقاربة التداولية) لـ (فرانسواز أرمينكو) عن مركز الإنماء القومي، الرباط، المغرب، 1986.

- في حين تأخر صدور كتاب صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص إلى عام 1992.

- ولعل أول من استعمل مصطلح التداولية وتبناه، وأعطاه وجودا اصطلاحيا عربيا، هو المنطقي والفيلسوف المغربي (طه عبد الرحمن) في حدود 1970، وعرفها بأنها الممارسة المعبر عنها بـ (البراكسيس) (LA PRAXIS) وإن استعمله مفردا وجمعا.<sup>(3)</sup>

### III. التداولية منهجا لغويا:

تتأسس التداولية منهجا لغويا، على مخطط (شارل موريس) الذي يثبت فيه ثلاثة أبعاد للسيمائية هي:

1- النحو أو التركيب (SYNTAX): وفيه تدرس علاقة العلامات بالأشياء التي تؤول إليها هذه العلامات.

2- الدلالة (SEMANTICS): وهي تدرس علاقة العلامات بالأشياء التي تؤول إليها هذه العلامات.

3- التداولية (PRAGMATICS): وتتولى دراسة علاقة العلامات بمؤولياتها أو مستعملاتها،

1- ينظر المتوكل (أحمد): الوظائف التداولية في اللغة العربية، دار الثقافة، الدار البيضاء - المغرب، ط1، 1985، (مقدمة). وينظر أرمينكو (فرانسواز): المقاربة التداولية، ترجمة سعيد علوش، ص: 34. ويراجع أيضا عيد بلع: التداولية، البعد الثالث في سيميوطيقا موريس، ص: 24 وما بعدها.

2- ينظر إسماعيلي علوي (عبد السلام): التداوليات علم استعمال اللغة، ص: 17 وما بعدها.

3- ينظر طه (عبد الرحمن): الدلالات والتداوليات، أشكال الحدود، ضمن كتاب: (البحث اللساني والسميائي)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط - المغرب، دط، 1981، ص: 299.

و لذلك تركزت موضوعاتها في دراسة معنى الجملة أو (القضية) في المقام.<sup>(1)</sup>

وبغض النظر عن وجود حياة سابقة للمصطلح في العصور اليونانية والرومانية من عدمه، إلا أنه أضحى من الثابت تاريخياً أن متتبع هذا البعد الثالث هو (تشارلس بيرس) ثم طورها بعده تلميذه (شارل موريس) الذي أدخلها حيز الدراسات اللغوية، وأعطاهم وجوداً كفل لها- فيما بعد- ضرباً من الاستقلال العلمي.

وقد اعتبرت الباحثة (فرنسواز أرمينكو)- وهي بصدد التأريخ للتداولية- كلاً من (بيرس) و(موريس) من المؤسسين، في حين صُنِّفت (فريجه) و(فيتجنشتاين) كمؤسسين غير مباشرين ووصفت كلا من (كارناب) و(بارهيل) بالمؤسسين المتعاقبين<sup>(2)</sup>.

وبهذا انتقلت التداولية من "غرفة مهملات"<sup>(3)</sup> أو "مركبة للدراويش"<sup>(4)</sup> في بداية ظهورها إلى "قاعدة اللسانيات" كما عند (كارناب) (CARNAP)<sup>(5)</sup> لتصبح بعد فترة وجيزة من أكثر المقاربات تلاقياً مع تحليل الخطاب، ومع مقاربات أخرى كاللسانيات، وعلم الدلالة.<sup>(6)</sup>

وقد أهَّلها كلُّ ذلك، لأن تستغل منهجاً، يدرس اللغة، له أسسه ومفاهيمه، وأدواته الإجرائية، مما دفع ببعض الباحثين إلى التساؤل عن حدود هذه المقاربة الجديدة، ومستوياتها،

1- ينظر الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 21. وبلع (عيد): التداولية، البعد الثالث في سيميوطيقا موريس، ص: 17. والمبخوت: نظرية الأعمال اللغوية، ص: 14. ومقبول: الأسس الإستمولوجية والتداولية، ص: 262.

2- ينظر: المقاربة التداولية، تر: سعيد علوش، ص: 15.

3- اختيار سعيد علوش: ينظر نفسه، ص: 12.

4- وهي الترجمة التي اختارها عمر بلخير للمصطلح الذي استعمله أوركويوني (POUBELLE). ينظر بلخير (عمر): تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، 2003، ص: 7. وترجمها في موضع آخر بـ"القمامة الإسبانية"، ينظر: إجراءات التحليل التداولي للخطاب، مجلة الثقافة، فصلية ثقافية تصدر عن وزارة الثقافة، ع/ 19، أفريل 2009، عبر موقع: <https://omarbelkheir.wordpress.com>، يوم 2015/8/12 في الساعة 23:00، ص: 1.

5- ينظر أرمينكو (فرانسواز): المقاربة التداولية، تر: سعيد علوش، ص: 07.

6- ينظر سعودي (أبو زيد، نوري): في تداولية الخطاب الأدبي، المبادئ والإجراء، ص: 20-21. وينظر بلع (عيد): التداولية البعد الثالث في سيميوطيقا موريس، ص: 183.

بل ومدى شرعية نسبتها للسانيات؟<sup>(1)</sup>. يقول (عيد بلبع) في هذا الصدد: «...وينبغي أن ننبه إلى أن هذا التداخل بين التداولية والمقاربات الأخرى، يندرج في قائمة التداخلات بين هذه المقاربات نفسها، وأن بعض هذه التداخلات ما يزال ينشأ جدلٌ غير قليل حول قبوله، أو رفضه، خصوصاً في حقل اللسانيات التي تنتمي إليه المقاربة، والذي ما يزال منقسماً على نفسه في قبولها أو رفضها»<sup>(2)</sup>.

ولكن ما الحاجة التي أوجدت مثل هذه المقاربة وما المجالات التي يمكن أن تشغلها في ظل وجود ترسانة من "المدارس اللسانية التقليدية"؟

تتولى (فرنسواز أرمينكو) الإجابة عن الشُّقِّ الأول بقولها: «ونفهم عند هذا الحد بأن التداولية، وهي تستدعي القرار الإبستمولوجي، القاضي بإبعاد الكلام من الحقل اللساني، بحكم كونه ظاهرة فردية محضة، تخالف في ذلك وجهة النظر البنيوية كما تخالف نحو (تشومسكي) (CHAUMSKIE) الذي خيب الآمال التي علقت عليه، وعلى عكس ذلك تعد التداولية استطالة لسانية أخرى للسانيات التلفظ التي دشنها (بنفينيست) (BENVENISTE)»<sup>(3)</sup>.

فالمقاربة التداولية حسب (فرانسواز) ليست مجرد فتح جديد في مجال البحث اللساني بقدر ما هي "خليفة" و"وريث شرعي" كفيل بتغيير مجرى الدراسات الحديثة، لانتكائه على منظومة متشعبة تُشكِّل «مفترق طرقٍ غنيةً لتداخل اختصاصات اللسانيين، المناطقة، السيميائيين، الفلاسفة، السيكلوجيين والسوسيولوجيين»<sup>(4)</sup>.

وهي من جهة أخرى توسع لساني قائم على السياق الذي به تتضح الماهية التداولية للغة (الماهية الاستعمالية) ولذلك اعتبر التلفظ أساس التداولية، خاصة عندما تتخذ معنى جريان

1- ينظر أرمينكو (فرانسواز): المقاربة التداولية، تر: سعيد علوش، ص: 15.

2- التداولية، البعد الثالث في سيميوطيقا موريس، ص: 182.

3- المقاربة التداولية، تر: سعيد علوش، ص: 9.

4- نفسه، ص: 11.

الكلام على اللسان أي اكتساب اللغة وتوظيفها في ممارسة وتفاعل (L'INTERACTION)<sup>(1)</sup> يقول (عبد السلام إسماعيلي علوي): «لقد أصبح اعتبار المعطيات العادية جدا والملموسة في التواصل أمرا ضروريا، وقد أثبتت في ذلك مجموعة من الأسئلة التي باتت محيرة وتتطلب إجابات نظرية، ومثل هذا الباعث الأساسي لضرورة قيام تحليل تداولي في الفلسفة مثلث جوانب اهتمامه قضايا تعلقت بالإحالة والمرجع، تعلقت بالاقتضاء والاستلزام والفعل، قضايا مثلت دروسا حيوية في الفلسفة ودشنت لمشروع لسانيات التداول»<sup>(2)</sup>.

فقد برز - إذن - هذا الاتجاه في مقابل الاتجاه الشكلي (البنوي، التوليدي) الذي «يُعنى بدراسة المنجز في صورته الآنية بغض النظر عن السياق الذي أنتج فيه، أو علاقته بالمرسل وقصده بإنتاجه، ويتم ذلك بتحليل لغة بعينها مثل اللغة العربية بوصفها كيانا مستقلا ذات بنية كلية»<sup>(3)</sup> لا ينظر إليها إلا من خلال العلائق المتحركة في مستوياتها، بدءا بتحليل الأصوات وصولا إلى مستوى الدلالة، وهو منهج لا يكاد يولي عناية تذكر للكلام الفردي، شأنه في ذلك شأن النحو التوليدي، التحويلي الذي راح يركز على «تفسير الظاهرة اللغوية في عمقها قبل الإنجاز»<sup>(4)</sup>.

وغني عن القول، أن هذا الضرب من الدراسات اللغوية، وقف عاجزا عن مجازاة بعض الظواهر اللغوية كظاهرة الإحالة وتحديد مرجعها، والإضمار، والروابط الخطائية وغيرها، وهذا ما برر الجنوح إلى دراسة اللغة في مستوى أعلى من الجملة، مما جعل هذا التوجه «يفقد سيطرته على البحوث اللسانية حيث ظهرت إلى الفضاء دراسات تجاوزت القدرة إلى الإنجاز وأكدت على قيام الذاتية في التواصل»<sup>(5)</sup>.

1- ينظر مقبول (إدريس): الأسس الإستيمولوجية والتداولية، ص: 14.

2- ما التداوليات؟، ضمن كتاب: (التداوليات علم استعمال اللغة)، ص: 17-18.

3- الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 7.

4- نفسه، ص: 8. وينظر صحراوي (مسعود): في الجهاز المفاهيمي للدرس التداولي المعاصر، ضمن كتاب: (التداوليات علم استعمال اللغة)، ص: 30.

5- إسماعيلي علوي (عبد السلام): ما التداوليات؟، ضمن كتاب: (التداوليات علم استعمال اللغة)، ص: 19. وينظر: ابن سلامة (الريعي): الوجيز في مناهج البحث الأدبي وفنيات البحث العلمي، منشورات جامعة منتوري، قسنطينة- الجزائر، ط2، 2008، ص: 54-56.

من خلال ما سبق يمكن أن نسجل بعض القضايا، التي اعتبرتها (أرمينكو)، ملحة وجديدة، وقصرتها على ست قضايا هي:

(1) الذاتية: وترصد المتغيرات التي تعترى الفاعل (المتكلم) (المتحدث) انطلاقا من التواصل لا الفكر.

(2) الغيرية: وهو الذي أتموضع معه في مجتمع تواصل، مما يقتضي الإمام بالقضايا التي تخصه.

(3) "الكوجيتو" الديكارتي و"أفكر" هو تفكير حقيقي، في كل مرة أتلظ فيها بذلك، فهو حقيقي من خلال ضرورة تداولية، كما أن تناقضه خاطئ دائما تداوليا.

(4) الاستنباط المتعالي للمقولات عند كانط: وتتلخص وجهة النظر التداولية في الأخذ بعين الاعتبار المظهر اللغوي "المحض" لهذا الاستنباط وكذلك المظهر التداولي للوجهة التفاعلية.

(5) و يعبر عن هذا المظهر التفاعلي بطريقة أكثر وضوحا في المناقشات التي تشخص تاريخ العلوم.

(6) ويمكن للتيمّة التداولية أن توضع في عمق المنطق، بالعودة إلى المنطق الإغريقي.<sup>(1)</sup>

غير أن هذه الحقول الكثيرة والمتشعبة، التي شرعت للبحث التداولي، ومكنت له في ميدان البحوث اللسانية، ظلت دائما تشكك في أهميته وجدواه، من خلال التساؤل الملح عن الوشائج المنهجية والمعرفية التي تؤسس لمنهج تداولي موحد ذي مجالات مختلفة، وإن صار من اليقين مبلغ حاجة الباحثين «إلى هذا المنهج، ليمدهم برؤى متعددة، نتيجة لقصور الدراسات الشكلية وإهمالها لمقاربة اللغة في تحليلها الحقيقي، أي في الاستعمال التواصل بين الناس»<sup>(2)</sup>.

ويلخص الباحث الجزائري (مسعود صحراوي) ما يمكن أن تضطلع به التداولية -إجابة عن الشق الثاني للسؤال السابق- في أربع نقاط حاسمة هي:

1- دراسة استعمال اللغة؛ فهي لا تدرس استعمال "البنية اللغوية" ذاتها ولكن تدرس اللغة حين استعمالها في الطبقات المقامية المختلفة..

1- ينظر: المقاربة التداولية، ص: 10.

2- الشهري (عبد الهادي بن ظافر): إستراتيجيات الخطاب، مقارنة لغوية تداولية، ص: 21.

- 2- بيان كيفية جريان العمليات الاستدلالية في معالجة الملفوظات.
  - 3- إظهار فضل التواصل غير الحرفي على التواصل الحرفي.
  - 4- تفسير أسباب فشل المعالجة اللسانية البنوية الصرف في معالجة الملفوظات.
- إلا أنه يشدد في المقام نفسه على أن التداولية ليست سلة مهملات اللسانيات بحيث ينسب إليها كل مجال، عجز عن فك ملابساته البحث اللساني التقليدي، وهذا يقتضي جدة الطرح التداولي موضوعاً ومنهجاً.<sup>(1)</sup>

إلا أن السؤال الملح، الذي لا يزال يترصدنا، ونحن نساير هذا النهج العلمي، هو ما طبيعة العلاقة التي يمكن أن تبرر وتُشرّع ارتباط المقاربة التداولية اللغوية التي سلف محضها والخطاب؟ خاصة في ظل تفضيل الدراسات اللسانية النصية مصطلح (النص) بوصفه كياناً موحدًا لا سلسلة بسيطة من الجمل<sup>(2)</sup>، وهيمنتها على حقول البحث اللغوية والأدبية؟

### ثانياً: الخطاب:

يرجع اهتمام التداولية بالخطاب الأدبي إلى اعتبارها إياه بناءً خاصاً، تشكلت خصوصيته الجمالية والأدبية من ارتباطه الوثيق بمقام أو سياق خاص<sup>(3)</sup>.

وإن كان - قبل ذلك - في عرف الأسلوبيين من أمثال (ريفاتير) لا يرقى (أي الخطاب) إلى حكم الأدب، إلا إذا كان مؤثراً في متلقيه، حاملاً إياه على الانتباه<sup>(4)</sup> ويرى (مانغونو) أن الخطاب الأدبي متعدد الدلالات؛ فهو مرادف للكلام لدى

1- في الجهاز المفاهيمي للدرس التداولي المعاصر، ص: 40.

2- ينظر: مانغونو (دومينيك): المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، تر: محمد يحياتن، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2008، ص: 128.

3- كان مفهوم الخطاب وما يزال مثار جدل كبير؛ فقد شاع استعماله في عدة معان تتراوح بين "اعتباره مجرد إنجاز بديهي للغة" وبين كونه "كلاماً في موقع الممارسة من خلال السياق أو من خلال مرجعية برغماتية القصد (pragmatique de l'intention)"، للتوسع ينظر: أشار (بيار): سوسيلوجيا اللغة، تعريب: ثرو (عبد الوهاب)، منشورات عويدات، بيروت - لبنان، ط1، 1996، ص: 20-27.

4- ينظر: المسدي (عبد السلام): الأسلوبية والأسلوب، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت - لبنان، ط5، 2006، ص: 68.

(دوسوسير DE SAUSSURE) والمعنى ذاته مقرر في اللسانيات البنوية؛ ذلك أنها اهتمت بالوظيفة الأدبية لا بالمفهوم الأدبي مما حدا بها إلى اعتباره بنية مغلقة ومنتهية<sup>(1)</sup> وقد عرفه - مانغونو- بأنه ملفوظ طويل أو متتالية من الجمل تكوّن مجموعة منغلقة يمكن من خلالها معاناة بنية سلسلة العناصر بواسطة المنهجية التوزيعية، وإن لم يفرق بين مفهومي النص والخطاب إلا من حيث ارتباط الثاني بمقام تلفظي متميز، و"جرت العادة أن يربط [الأول] بخصيصتين متلاحتين أيما تلاحم، تميزانه عن ملفوظ أو خطاب: بنية قوية، وهو مستقل نسبيا عن السياق"<sup>(2)</sup>.

وهو بهذا يجعله معارضا للّسان الذي ينظر إليه باعتباره كلا منتهيا، وثابت العناصر نسبيا، أما الخطاب فهو المآل الذي تمارس فيه الإنتاجية وما المآل إلا "السياق" الذي يحدد قيما جديدة لوحداث اللسان، فتعدد دلالات وحدة معجمية ما هو أثر الخطاب الذي يتحول بدوره إلى أثر اللسان؛<sup>(3)</sup> أي أن الخطاب خاص بالاستعمال والمعنى مع زيادة مقام التواصل وخاصية الإنتاج والدلالية. مما جعله أقرب نسبا إلى التداولية على نقيض قسيمه(النص).

وحاول (عبد السلام المسدي) أن يحيط تعريفيا بالأسلوب ومميزاته؛ فأورد عدة مقاربات منها، أن ما يميز «الخطاب الأدبي، هو انقطاع وظيفته المرجعية، لأنه لا يرجعنا إلى شيء»<sup>(4)</sup> أي أنه لا يحيلنا إلى أي مرجع مكثفيا بذاته فهو قائل ومقول في آن معا، ومنه أصبح الخطاب الأدبي من مبدعات الحداثة<sup>(5)</sup>.

وعلى هذا النحو تتواتر مفاهيم أبرز الأسلوبيين العرب للخطاب، فنجد(نور الدين

1- ينظر: عياشي (منذر): النص وتحليلاته، مجلة الفكر العربي المعاصر، ع/96-97، 1992، ص:55.

2- مانغونو (دومينيك): المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، تر: محمد يحياتن، ص:128.

3- ينظر: شرشار (عبد القادر): تحليل الخطاب الأدبي وقضايا النص، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق- سورية، دط، 2006، ص:37. وينظر مفصلا: السد (نور الدين): الأسلوبية وتحليل الخطاب، دراسة في النقد العربي الحديث (الأسلوبية والأسلوب)، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، د ط، د ت، ج2، ص:26-27.

4- الأسلوبية والأسلوب، ص:91.

5- يصعب نسبة مفهوم بعينه للمسدي لكثرة ما عرضه من مفاهيم دون إظهار ميل واضح لأحدها، كما سيأتي.

السد) يقرر تعريف "بارث BARTH" الشهير: «أن الخطاب الأدبي خلق لغة من لغة»<sup>(1)</sup> إلا أنه يركز على ما يميز الخطاب من سواه من قصده إلى التلميح دون التصريح، وهو ما هدهد إلى جعل الخطاب قائما على محورين هما: الاستعمال النفعي، والاستعمال الفني، وقد غيّر هذان المحوران، نظرة اللسانيين إلى الخطاب الأدبي، تحديدا، إذ غدا مجرد نوع من أنواع الخطابات، من دينية وإشهارية، وسياسية، يمتاز كل منها من غيره بسمات ثابتة، تشكل أركان هويته.

إن هذا البحث -من لدن الأسلوبيين العرب - عن خصائص الخطاب ومميزاته التي تجعله منفصلا عما ليس بخطاب، يدفعنا إلى التساؤل عن أثر الكم في وسم الخطاب؟

يجيبنا (عبد الملك مرتاض) في غمرة تحامل (السّد) على تعريف (مصلوح)، الذي يعتبر فيه الخطاب «رسالة موجهة من المنشئ إلى المتلقي، تستخدم فيها الشفرة اللغوية المشتركة بينهما، ولا يقتضي ذلك أن يكون كلاهما على علم بمجموع الأنماط والعلاقات الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية التي تكوّن نظام اللغة... وهذا النظام يلي متطلبات عملية الاتصال بين آراء الجماعة اللغوية، وتشكل علاقاته من خلال ممارستهم كافة ألوان النشاط الفردي والاجتماعي في حياتهم»<sup>(2)</sup>.

فيجزم (مرتاض) -محاربا تودوروف- بأن الخطاب الأدبي ما توافرت فيه خصائص مميزة كالكلية والاتساق والترابط، دون اعتبار شرط الطول والقصر، بحسب ما تقتضيه الحال وما يتطلبه المقام، فكما يصدق أن يكون جملة، قد يصدق أن يكون كتابا في عدد من المجلدات<sup>(3)</sup>.

إنّ (سعدا) حسب (نورالدين السد) وقف نظره للخطاب، بوصفه منتوجا غائيا نفعيا دائرا في فلك الوظيفة التواصلية، ممعنا فيها، على الرغم من وجود وظائف أخرى، تتجاوز

1- السد (نور الدين): الأسلوبية وتحليل الخطاب، دراسة في النقد العربي الحديث، ج2، ص: 11.

2- مصلوح (سعد): الأسلوب، دراسة لغوية إحصائية، دار الفكر العربي، القاهرة- مصر، ط1، 1985، ص: 23.

3- ينظر: مرتاض (عبد الملك): أ- ي : دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة أين ليلاي لمحمد العيد، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د ط، 1992، ص: 16.

حدود التوصيل، وإن كنا لا نرى مبررا لهذا التحامل، لما قدمنا من احتكام الدارسين في تحديد مفهوم الخطاب لخلفيات شتى<sup>(1)</sup>، وإن كان هو نفسه - أي السّد - يقرُّ بأن ما ذهب إليه سعد مصلوح يمكن أن ينطبق على مستويات من الخطابات، منها «الخطاب العادي التواصلية المباشر والنفعي ولا نعدم في الأدب العربي هذه السمات»<sup>(2)</sup>. التي تشكل ثراء جديرا بالدرس وكفيلا باستنطاق خطابات كثيرة مغيبة.

## I. مصطلح الخطاب: في السياق العربي (بين حرفية اللفظ ولا نهائية المعنى):

يحسن أن ننوه بادئ ذي بدء أن هذا المصطلح لم ينتشر في الدراسات العربية الحديثة إلا من حيث هو مصطلح وافد عن الثقافات الغربية، كان يفترض به أن يكون بلسما لإشكالات كثيرة أوجدها استخدام مصطلح (النص) الذي نجد له حضورا عارما في تراثنا اللغوي والنقدي والديني والفكري عموما.

إن عودة سريعة إلى معاجمنا العربية، جديرة بأن تركز في عقولنا حقيقة، تحذر هذه المادة [ن ص ص] في تفكيرنا العربي الإسلامي، ففي لسان العرب مثلا: «نَصَّ الحديثَ يَنْصُهُ نَصًّا، رَفَعَهُ وَكُلُّ مَا أَظْهَرَ فَقَدْ نُصَّ، وَيُقَالُ نَصَّ الحديثَ إِلَى فلانٍ أَي رَفَعَهُ... وَالْمِنْصَةُ مَا تُظْهَرُ عَلَيْهِ العروسُ لُتْرَى... وَالنَّصُّ، وَالنَّصِيصُ: السَّيْرُ الشَّدِيدُ والحُتُّ وَأَصْلُ النَّصِّ أَقْصَى الشَّيْءِ وَغَايَتُهُ»<sup>(3)</sup>.

وأورد (الزمخشري) هذا اللفظ، على أنه يفيد الارتفاع والانتصاب<sup>(4)</sup>. وعلى هذا النحو سار فهم المصطلح عند أغلب الأصوليين، ولذلك اقترن بالكلام المبين، والحجّة التي تتأبّى على

1- وهو ما ذهب إليه مفتاح (محمد) حين اعتبر التقيّد بمنهج مدرسة واحدة في تحليل الخطاب فيه كثير من الابتسار والتعسف، وقد حدّد الخطاب- في ضوء ذلك - بأنه "مدونة حدثٍ كلاميٍّ ذي وظائفٍ متعددة" ينظر: تحليل الخطاب الشعري، إستراتيجية التناص، دار التنوير، بيروت- لبنان، ط1، 1985، ص: 120.

2- السد (نور الدين): الأسلوبية وتحليل الخطاب، دراسة في النقد العربي الحديث، ج2، ص74.

3- ينظر: ابن منظور (أبو الفضل، محمد بن مكرم بن علي): لسان العرب، تح: عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة - مصر، دط، دت، ج6/4441-4442.

4- الزمخشري (أبو القاسم، محمود بن عمر): أساس البلاغة: تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط1، 1998، ج2/275.

التأويل والممارسة والاحتمال، فتعلق أول ما تعلق بالقرآن والحديث، ثم طال الأدب شعرا ونثرا<sup>(1)</sup>.

إن كل ما تقدم، يحيلنا إلى تسجيل حقيقة أخرى، أكثر وضوحا، ألا وهي، أن تجاوز ما ذكرناه من إشكالات استخدام مصطلح (النص)، إثر استجلاب مصطلح "الخطاب"، لم يزد الواقع المعرفي العربي، إلا تعقيدا، وتشرذما، لأن التمكين له وترسيخ قدمه، مصطلحا إجرائيا، صار من الصعوبة بمكان، لانبنائه على صفة المعارضة، والضدية، واللاحدية، مما دفع أحد الباحثين إلى القول إن «تحديد تعريف دقيق لدى الأصولية لمصطلح (الخطاب)، وفي الثقافة العربية يقتضي بعض التريث، ذلك لأنه مصطلح شامل يتسع لكثير من الدلالات فضلا على اتساع المفهوم ليشمل كلام الله، ويشمل دلالات أخرى حافة»<sup>(2)</sup>.

إن الدلالات الحافة، التي دفعت وتدفع باحثين كثر إلى التريث هي حقا مدعاة لأن تستوقف كل ضارب في غمار البحث يافعا كان أو متمرسا، لأن عدم الاستقرار على حدود فاصلة بين مصطلحات كثيرة يستعمل الواحد منها للدلالة على الآخر يتساوى فيه العرب والغربون؛ ففي معجم اللسانياتل(جان دي بوا)(Jean du bois)، يستعمل(الكلام) مصطلحا مرادفا للملفوظ(énoncé=discours)<sup>(3)</sup>، وإن أشار في ثنايا تفصيله، إلى أربعة معان للمصطلح(énoncé)<sup>(4)</sup>.

وفعل قريبا من ذلك الباحثان:(غريماس) و(كورتيس)، حين أوردا مصطلحي الخطاب والنص مترادفين (Texte = Discours) محتكمين في ذلك إلى مؤثرات سيميائية غير لسانية، ترى أن الخطاب ذو مستويات الواحد فوق الآخر.<sup>(5)</sup>

1- للتوسع ينظر: شرشار(عبد القادر): تحليل الخطاب الأدبي وقضايا النص، ص ص: 9-19.

2- بوخاتم (مولاي): مصطلحات التحليل السيميائي، السرد والخطاب نموذجا، الموقف الأدبي، ع/411، تموز 2005، دمشق، سورية، ص: 22.

3- Dubois(jean) et autres, Larousse le Dictionnaire de Linguistique et Des sciences du Langage, RotolitoLombarda, Italie,2012, p p :150-151.

4- Du Bois (jean) et autres , op.cit. ,p : 151.

5 -Greimas(A. J) et Courtes (J), Sémiotique, Dictionnaire raisonné de la Théorie du langage, Hachette Université, 1986,P :49.

في حين نجد المعاجم اللغوية الفرنسية تفرق بين كلمة (Discours) ذات الأصل اللاتيني (DISCURSIS) والنص (Texte) التي تطلق على المتن.

وهي لا تكاد تخرج في أصلها اللاتيني (TEXTUS) عن الكتاب المقدس أو كتاب القدّاس أو النسيج (TISSU)<sup>(1)</sup>، ولعل الارتباط الوثيق بين النص والقداسة يذكرنا بدلالة الكلمة في الثقافتين الإسلامية واللاتينية، على الكتاب المقدس، والقرآن والحديث.

لا يسعنا في ظل هذا التضارب المصطلحي، إلا أن نسجل بعض المنطلقات التي من شأنها أن تعقل جماع الحيرة والتشتت، وتؤسس لقاعدة معرفية لا تنأى بنا بعيدا عما يقتضيه موضوع بحثنا:

(1) يبدو مفهوم الخطاب - في العصر الحديث - أكثر تجاوزا للذاتية، وأشد تمثيلا للمعرفة العقلية التي أذكى جذوتها الفيلسوف (ديكارت)؛ فقد اعتبر (ميشال فوكو) (M.FAUCALT) مصطلح الخطاب، أنموذجا فلسفيا يعد فتحا في مجال المعرفة العقلية<sup>(2)</sup>.

(2) يمكن رد هذا الزخم التعريفي والمفهومي إلى المرجعيات المتحركة في إنتاج مفهوم المصطلح في ثقافة ما، وإلى الحقول المعرفية، التي ينطلق منها عادة المشتغلون بها، بحثا عن تسويق استعمال المصطلح، وتبرير إلحاقه بمجال معين، ولذلك يدّعي اللسانيون، والنقاد والفلاسفة تجذر مصطلح الخطاب، وكفايته لأداء معان فلسفية أو لسانية أو نقدية ويمكن هاهنا الاستئناس بجهود (عبد السلام المسدي) بخصوص مصطلح الخطاب وعلاقته "ببحريات المعرفة".

لقد حاول (المسدي) الوقوف عند مصطلحات متقاربة هي: (الملفوظ = الجملة = النص) (Enoncé) من جهة، و(الخطاب) من جهة أخرى، وعرف كل واحد منهما؛ فقال عن الملفوظ هو «جملة ما يتلفظ به الإنسان ويكون محددا ببداية ونهاية كأن يكون محصورا بين

1- Larousse Classique, p:1184. et v. Du Bois (jean) et autres, op.cit,p: 482.et v. aussi , Larousse Dictionnaire encyclopédique 2000, bordas/her,1999,pp :1499-1500.

2- ينظر: المسدي: الأسلوبية والأسلوب، صص: 198-199.

سكوتين، في الخطاب الشفوي، أو بين علامات ابتداء وانتهاء في الخطاب المكتوب»<sup>(1)</sup>. واعتبر الخطاب «كيانا عضويا يحدده انسجام نوعي وعلاقة تناسب قائمة بين أجزائه، واللغة مفهوما كليا واللسان مفهوما نمطيا، والكلام مفهوما إنجازيا»<sup>(2)</sup>.

(3) وبخصوص التفرقة بين المصطلحين (نص / خطاب) يذهب محمد مفتاح إلى:

أ- أن النص «عبارة عن وحدات لغوية طبيعية منضدة، متسقة» أما الخطاب فهو «عبارة عن وحدات لغوية طبيعية منضدة، متسقة، منسجمة»<sup>(3)</sup>.

ب- وهو بهذا يرى أن الخطاب أعم من النص فيقول: «التخاطب أعم من التناص»<sup>(4)</sup>.

4) وذهب عبد المالك مرتاض إلى أن:

أ- مصطلح (خطاب) مصطلح عريق، تبناه الألسنيون المعاصرون.

ب- الخطابات متعددة وغير متشاكلة منها السياسي، والديني والتاريخي والأدبي.

ج- استعمال مصطلح (خطاب) في الدراسات الشعرية، يصدق على كل حسن من الكلام الذي يقع به التخاطب.. سواء أكان شفويا أم معنوياً<sup>(5)</sup>.

إلا أن الذي يُنْعَى عليه هو تحبطه في إنتاج المصطلحات وعدم التزامه منهجيا وفكريا بخط واحد، وتأرجحه بين مدارس شتى، فنجد تارة يترجم لفظ (LANGAGE) باللغة الفنية، وتارة يعرّبه (اللانقاج) كما أنه سوى بين النص والنسيج، وفَرّق بين الخطاب والنص ثم

1- السابق: ص: 147.

2- نفسه.

3- مفتاح (محمد): التشابه والاختلاف، ص: 35. وينظر: تحليل الخطاب الشعري، إستراتيجية التناص، ص: 180-182.

4- مفتاح (محمد): التشابه والاختلاف، ص: 55.

5- مرتاض (عبد المالك): تحليل الخطاب السردى، معالجة تفكيكية سيميائية مركبة لزقاق المدق، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،

1995، ص: 262.

عاد فعرف الخطاب بأنه «نسيج من الألفاظ»<sup>(1)</sup>.

(5) تسوية (صلاح فضل) بين مصطلحي (خطاب) و(نص) يرجع أساسا إلى ما نقله عن المنظرين اللسانيين، والسيميائيين من أمثال: (دو سوسير) و(رولان بارت)، و(جاك دريدا) وهؤلاء جميعا عدّوا الخطاب - حسب صلاح فضل - بحالة وسيطة تقوم بين اللغة والكلام<sup>(2)</sup> تبعا لارتباط النص بالكتابة من جهة وارتباط كليهما بالخطاب من جهة أخرى.

(6) استقرار أغلب الدراسات العربية الحديثة، على استعمال مفترق، واع بمصطلحي (النص) و(الخطاب)، فالأول يستعمل في مقابل (TEXTE) بينما يوظف الثاني في الترجمة لـ (DISCOURS)<sup>(3)</sup>.

## II. بين الخطاب والخطابة:

لقد حاولنا فيما سبق أن نمسك بالخيط الرفيع الذي يفصل بين مصطلحي (النص) و(الخطاب) وما من شك في أن هذا الخيط الدقيق جدا، هو نفسه، قد يزيد وينقص، ويتلاشى ويعظم، تبعا لأهواء ومرجعيات الدارس نفسه، إن في الثقافة الغربية أو العربية، ومنه، جاز لنا كما جاز لغيرنا من قبل، أن نوجه مفهوم الخطاب الوجهة التي تبدو أكثر تجانسا مع موضوع بحثنا، وخدمة لهدف هذه الدراسة، ما دام مفهوم الخطاب متأرجحا بين اعتبارات ثلاثة هي: باعتباره «أكبر من الجملة، أو بوصفه استعمال أي وحدة لغوية، أو بوصفه الملفوظ»<sup>(4)</sup>.

تترتب عن هذه الاعتبارات، تعاريف متباينة، يبدو أقربها إلى حقل دراستنا حدّ الخطاب

1- ينظر: مرتاض (عبد المالك): كتابة النص من أين؟ وإلى أين؟، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص: 17-18، 21، 43. وعناصر التراث الشعبي في اللاز، دراسة المعتقدات والأمثال الشعبية الجزائرية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، دت، ص: 52.

2- ينظر: صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، الشركة المصرية العالمية للنشر، لوجمان- مصر، ط1، 1996، ص: 304-308.

3- ينظر شرشار (عبد القادر): تحليل الخطاب الأدبي وقضايا النص، ص: 9.

4- ينظر: الشهري (عبد الهادي بن ظافر): إستراتيجيات الخطاب، ص: 37.

بأنه "استعمال اللغة" أي: «إلقاء الضوء على مقاصد المتكلم في عقده الصلة التواصلية بالمتلقي تحت طائلة الظروف والملايسات - المقاربة التداولية- التي تجعل من المقصد والمقام قاعدة متينة في مقارنة الخطابات المختلفة»<sup>(1)</sup>، وهو أمر أمعنت اللسانيات في تجاهله والتملص منه، ولعل هذا التعريف المتبنى تدوليا هو ما دفع ببعض الدارسين إلى اعتبار التداولية "سلة مهملات اللسانيات".

كما أن الخطاب وفق هذا التعريف «يلقي الضوء على كيفية تحقيق بعض الوظائف اللغوية التي يستطيع المرسل من خلالها أن يعبر عن مقاصده ويحقق أهدافه؛ مما يبرز العلاقة المتبادلة بين نظام اللغة وسياق استعمالها».<sup>(2)</sup>

ولكن ما الذي يسوغ الربط بين مفهوم الخطاب تداوليا، ومدلول (الخطابة) كما هو في التراث الإنساني؟

إن أول ما نلاحظه على هذه العلاقة، هو اختلاف الجذرين اللغويين اللذين اشتق منهما الخطاب في الثقافتين العربية والغربية؛ إذ تبدو العلاقة شرعية في تراثنا العربي، لأنها قائمة على مسوغين هامين هما:

أ- الاشتقاق اللغوي: (خَطَبَ، يَخْطُبُ، خِطَابًا، وَخَطَابَةً)، فقد ورد في لسان العرب: «الْخِطَابُ والمِخَاطَبَةُ مراجعة الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطابا، وهما يتخاطبان. قال الليث: إن الخطبة مصدر الخطيب، لا يجوز إلا على وجه واحد، وهو أن الخطبة اسم الكلام الذي يتكلم به الخطيب، فيوضع موضع المصدر».<sup>(3)</sup>

ب- التجنيس: «فالخطابة في ميدان النثر بمنزلة القصيدة في ميدان الوزن فهي الإطار المثالي الذي تتجلى فيه البلاغة النثرية»<sup>(4)</sup>، وهو المفهوم الذي اتكأ عليه علماء الكلام خاصة المعتزلة في قصرهم البلاغة على الخطابة في حين تتخذ هذه العلاقة شكلا تجاذيبيا، جدليا، إذا

1- سعودي (أبو زيد، نوري): في تداولية الخطاب الأدبي: المبادئ والإجراء، ص: 16.

2- الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 38. وينظر: صلاح فضل: بلاغة الخطاب، ص: 317.

3- ابن منظور: لسان العرب، ج 1194/2.

4- شرشار (عبد القادر): تحليل الخطاب الأدبي وقضايا النص، ص: 11.

تعلق الأمر بالثقافة الغربية، لاختلاف الجذرين اللغويين أولاً وتباين النظرتين القديمة والحديثة لكل من الخطاب والخطابة ثانياً، فعلى المستوى الاشتقاقي يتضح اتكاء الخطابة على جذر لاتيني مغاير للخطاب (Rhétorique ≠ Discours).

كما يظهر جلياً انقطاع الفهم الأرسطي الرابط بين الخطابة والبلاغة، من جهة والفاصل بين الخطابة والشعر من جهة أخرى<sup>(1)</sup>؛ فقد عرفها بقوله: «إنها الكلام المقنع، وهي نوع من القياس وتقابل في اللغة اللاتينية (Rhétorique)»<sup>(2)</sup>.

فهي بهذا المعنى تتمايز عن الخطاب من جهة، وعن المفهوم المقرر عن العرب قديماً، من جهة أخرى، وقد تكون أقرب شيء لمفهوم البلاغة العلمية، التي سعى إلى ترسيخ قدمها المعتزلة.

يمكن أن نطمئن في نهاية هذه المناقشة، إلى أنه لا تعارض بين "الخطاب" و"الخطابة"؛ إذ يجوز إنزال أحدهما منزل الآخر، دون أن يوحي ذلك بنوع من التشطّي المفهومي، الذي قد يفضي إلى لبس محتمل، وإن كنا نسجل إلى جانب ذلك شمولية الخطاب، واحتواءه للخطابة؛ إذ لا فرق بين الخطاب في صوره المتعددة، من قصر أو طول، أو مشافهة أو كتابة، كما أنه لا فرق بين حضور المتلقي، أو غيابه، على اعتبار أن الخطاب، وما يصاحبه ينوب عن ذلك، ويحتويه، بأشكال مختلفة، لغوية، وغير لغوية.

لقد صار جلياً بعد كل هذا، أن مفهوم الخطاب تداولياً، لا يقوم على التفرقة بين مضامين الخطابات، ولا يولي اهتماماً بالغاً للتقسيمات التقليدية، التي تقف عند الحدود المميزة للخطاب السياسي، أو الديني، أو القانوني، لأن استحضار "القصدية" و"الإستراتيجية" يُسوّي بين المضامين، والموضوعات.

1- ينظر: السابق، ص: 11-12.

2- صليبيا (جميل): المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنجليزية واللاتينية، الشركة العالمية للكتاب، بيروت - لبنان 1994، ج1، ص: 531.

ولذلك ينبني مفهوم الخطاب -تداوليا- على وظيفتين، أساسيتين، هما: التعاملية<sup>(1)</sup>، والتفاعلية، وهما بدورهما ترسخان قيام الخطاب -أي خطاب- على جملة العناصر الهيكلية، المتمثلة في: المرسل، والمرسل إليه، والسياق، هذا الأخير يتميز دون سواه، بأنه مؤشر فاصل في تحديد الهدف والمقصد من الخطاب، فاستعمال اللغة هو الذي يخرجها من التجرد والسكون، إلى التفاعل والتواصل لأنَّ ما «يتم التبادل به ليس اللغة وفق مصطلح (سوسور) بل الخطاب الذي يستلهم المعنى من الخارج، أي من السوق اللُّغوي (marché linguistique)».<sup>(2)</sup>

وهو ما سيكشف عنه الفصل الثاني، من خلال الربط بين مختلف هذه العناصر الهيكلية، الفاعلة في عملية التواصل.

---

1- ترجمها خطابي (محمد) بـ"النقلية" وقد بدا واضحا أثر "دايك" فيه، عندما قسم الخطاب باعتبار وظيفته إلى دلالي وتداولي. ينظر: لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- المغرب، ط1، 1991، ص: 167-169.

2- أشار (بيار): سوسولوجيا اللغة، تعريب: ثرو (عبد الوهاب)، منشورات عويدات، بيروت - لبنان، ط1، 1996، (مقدمة المعرَّب) ص: 10.

# الفصل الأول:

## في أبعاد الخطاب التداولية



# المبحث الأول:

## الخطاب والسياق

## \*تمهيد:

يعتبر السياق إطار الخطاب العام الذي يحيا فيه، طلبا لتحقيق مقاصد متوخاة بين المرسل والمرسل إليه، فهو «بمثابة العنصر الفاعل في توضيح، الكلام بل في صحته والوصول به إلى درجة القبول في معناه ومبناه»<sup>(1)</sup>، ولذلك يجزم (براون) و(يول) بأن «الفكرة القائلة بإمكان تحليل سلسلة لغوية... تحليلا كاملا بدون مراعاة للسياق قد أصبحت في السنين الأخيرة محل شك كبير»<sup>(2)</sup>.

فلا يمكن تصور مقارنة لسانية، تتخذ الخطاب موضوعا لها، تنأى بنفسها عن ظروف إنتاج هذا الخطاب، سواء أكان مسموعا أم مكتوبا «لأن اللغة في المقام الأول جزء من نشاط تواصل اجتماعي، ومن ثم فإن معرفة السياق الذي تستخدم فيه اللغة يوضح المعنى الوظيفي للغة ويفرض عليها قيمة حضورية معينة»<sup>(3)</sup>.

وقد أفدنا سلفا أن الخطاب -تداوليا- إنما هو مجال تظهر الأدوات اللغوية، والآليات الخطابية المنتقاة بفعل سلطة السياق مما يجعله «أكثر العناصر المهيمنة في الخطاب لما لآثاره من انعكاس على العناصر الأخرى وبالتالي على تكوين الخطاب نفسه»<sup>(4)</sup> فالخطاب بهذا المعنى ممارسة تجري تداوليا في السياق، ولذلك تتسم هذه العناصر بالتغير الدائم وهذا ما يشرع تسميتها بعناصر سياق الخطاب<sup>(5)</sup>.

إن ارتباط السياق بالخطاب، هو ما يحقق وظائفية اللغة، ويجدد ما أُخلق من العلاقات بين الرموز ومؤولياتها، على افتراض تقسيم (موريس) السابق، للسيميوطيقا، وهو نفسه، يولد ما لا حصر له من المقاصد التي ينزع إليها المرسل، بمعنى أن ما يعنيه الخطاب يعتمد على الإجابة

1- كمال بشر: التفكير اللغوي بين الجديد والقديم، دار غريب، القاهرة- مصر، ط1، 2005، ص: 367، 368.

2- براونويول: تحليل الخطاب، تر: محمد لطفي الزليطي ومنير التريكي، النشر العلمي والمطابع، جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، 1997، ص: 32.

3- عاطف مذكور، علم اللغة بين التراث والمعاصرة، دار الثقافة، القاهرة- مصر، دط، 1987، ص: 237.

4- الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 39-40.

5- ينظر: ردة ابن ضيف الله الطلحي: دلالة السياق، مطبعة جامعة أم القرى، مكة \_ المملكة العربية السعودية، ط1، 1423هـ، ص: 185-188.

عن أسئلة ضمنية من مثل: من يتلفظ؟ ولماذا؟ ومتى؟ ومن المتلفظ به؟ وما المقاصد المتوخاة؟<sup>(1)</sup> ولعله في ضوء هذا يبرز تعريف بعض الدارسين للتداولية، بأنها «دراسة لهيمنة المقام على معنى العبارة.»<sup>(2)</sup> أو ترجمتها "بعلم المقاصد" أو دعوة (ماكس بلاك) لأن تسمى -التداولية- "بالنظرية السياقية."<sup>(3)</sup>

بل لعل هذا ما عزا به (منال النجار) إلى الثورة على التداولية ومقولاتها في سياقها الغربي، وتبنيها للنظرية المقامية العربية، حيث تقول: «... وإن هذا التقيد البلاغي بالمقام سبب كاف لتفياً نظرية مقامية تعنى بالفهم والإفهام... فتدعم الارتباط الوثيق بين المقام والمقال أو بين التركيب والمقصد... وهذه النظرية لا تدّعي أنها ستعطي طرقاً جديدة للتمييز بين المعاني، لكنها ستبعد كل القراءات المضللة فتحول بيننا وبين مفاهيم خاطئة.»<sup>(4)</sup>

ولسنا ندري ما الذي تقصده بالقراءات المضللة، والمفاهيم الخاطئة؟! إذا كانت دعوتها لتبني السياق، هي نفسها دعوة غيرها من التداوليين إلى عدم تجاوز هذا المكون الهام في العملية التواصلية؟ أم تُراها كانت تريد أن تدعو إلى تعطيل هذه المفاهيم الغربية، واستعمال قريناتها اللاتي تولدن محض ثقافة عربية إسلامية؟ إذ نجدتها تجهر في موضع آخر بأنه «يحق لنا إيجاد مصطلح عربي لهما (نقصد البراغماتية والسياق)، ومع أن هناك بعض اللغويين المعاصرين من أهم أسسهم الابتعاد عن المصطلح القديم ما أمكن، إلا أنني وجدت هذين المصطلحين، نستطيع أن نبني لهما تاريخاً في معرفتنا، وأدبنا، وثقافتنا، فأرى أن البلاغة العربية إلى حد ما هي البراغماتية والسياق هو المقام.»<sup>(5)</sup>

1- ينظر: خطابي (محمد)، لسانيات النص (مدخل إلى انسجام الخطاب)، ص: 303.

2- ديكرو (أزوالد) وشايفر (جون ماري): القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان، تر: منذر عياشي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء \_ المغرب، ط2، 2007، ص: 677.

3- أرمينكو: المقاربة التداولية، ترجمة: سعيد علوش، ص: 18.

4- النجار (منال): المقولات البلاغية، دراسة مقامية، براغماتية، ضمن كتاب (التداوليات علم استعمال اللغة)، ص ص: 597-598.

5- نفسه: ص: 63.

مع أنها سبق أن انطلقت من مقدمات معرفية، حكمت فيها للبراغماتية (التداولية)، معتبرة محاولاتها البحثية، مجرد تأسيس لقراءة مصطلح المقام، تداوليا (براغماتيا)، كما قرئ بلاغيا ونحويا وبلاغيا وأديبا ونقديا، لأنه «لا علماء العرب القدامى ولا القارئ كانوا يمتلكون هذا البعد البراغماتي ومقصديته، فإذا قرأناه براغماتيا فإننا سنرى علماء العربية أدركوا بعض قوانين البراغماتية وأسسها».<sup>(1)</sup>

فهي تنفي مرة، امتلاك العرب للبعد البراغماتي في تناولهم للخطاب، ثم تعود فتثبت لهم علما مكتملا، يقوم بإزاء هذا العلم المستحدث الذي اسمه "التداولية" عندما تقول: «أرى أن البلاغة العربية إلى حد ما، هي البراغماتية، والسياق هو المقام».

إن مثل هذا الخلط المفاهيمي، الذي وقعت فيه الباحثة، هو ما حذر منه باحثون أكفأ قبلها، من أمثال (عبد السلام المسدي)<sup>(2)</sup>، و(عبد القادر الفاسي الفهري) «لأن توظيف المصطلح القديم لنقل مفاهيم جديدة قد يفسد تمثل المفهوم الجديد والمحلي على السواء ولا يمكن إعادة توظيف المصطلح القديم، وتخصيصه إذا كان موظفا، لأن هذا يؤدي إلى مشترك لفظي غير مرغوب فيه، بالإضافة إلى سوء الفهم»<sup>(3)</sup>.

ثم إلى متى يستمر باحثونا في تنفيهِ تراث الآخر، وفكره، أو اختزاله في مقولات (أنوية)، هي في الأصل نتاج عصر بعينه، وثقافة لا يزعم أحد نزولها من السماء، وعدم تأثرها في شتى مكوناتها ب(آخر) له مقوماته، وخصوصياته المعرفية والفكرية؟ كما أنه وفي المقابل من غير العلمي التنكر للذات، وغمطها ما وصلت إلى إنتاجه من معارف وأفكار، بحجة هيمنة النموذج الغربي، وأهليته، وتقادم وتهاوي غيره من النماذج.

فعملية التأويل تعتمد أساسا على حظ المتلقي من "معرفته للعالم" ومدى استثماره هذه المعرفة لتحصيل المعنى الضمني المتولد عبر الاستنتاج، الذي يبنى بدوره على المعلومات

1- السابق: ص. ن.

2- ينظر: المسدي (عبد السلام): قاموس اللسانيات، الدار العربية للكتاب، دط، 1984، ص: 55-56.

3- الفاسي الفهري (عبد القادر): المصطلح اللساني، ضمن (أشغال الملتقى الدولي الثالث في اللسانيات)، تونس، 1986، ص: 144-145.

الاجتماعية والثقافية وهي استنتاجات يفرضها - حسب يول وبراون - المقام لا المنطق، ولذلك جزماً بأن مفاهيم تحليل الخطاب المقاصدية لا تعدو هذه المكونات، أعني الأدوات الإشارية، والمعنى الضمني والاستنتاج، وهذا ما يبرر رفضهما إخضاع الخطاب للمنطق، الذي لا يعبر اهتماماً لمناسبة الحدث التواصل في ارتباطه بالسياق<sup>(1)</sup>.

إن كل هذا الحديث المتشعب عن السياق، قد يزيد من عناء البحث عن معنى قار له، بل قد يرسخ في أذهاننا لا جدوى تعريفه، إذ «من الانتقادات التي وجهت لنظرية السياق أنها تتسم بالغموض وينقصها الوضوح»<sup>(2)</sup>. وهو بالقدر نفسه يثبت حقيقة لا نجد بداً من تسجيلها ألا وهي: أن لفظ السياق يطلق على مفهومين:

- 1- لغوي بحت، وهو الأكثر شيوعاً في البحث المعاصر.
  - 2- سياق التلفظ، أو سياق الحال، أو سياق الموقف، وهو مفهوم يبدو أكثر اتساعاً وشمولاً، وأقدر على تحقيق مقاصد الخطاب بمعناه التداولي<sup>(3)</sup>.
- ولهذا سرعان ما تجاوز الباحثون المحدثون، المفهوم اللغوي الذي وصفه (براون) و(يول) بـ "الشكلي" الضيق، إلى مفهوم أرحب، تطبعه صفة «الديناميكية المحركة، فليس السياق مجرد حالة لفظ، وإنما هو على الأقل متوالية من أحوال اللفظ [...] وعلى ذلك فكل سياق هو عبارة عن اتجاه مجرى الأحداث»<sup>(4)</sup>.
- ولشدّ ما استوقفتنا عبارة للباحث (عيد بلبع)، وهو يتحدث عن مفهوم السياق بين

---

1- ينظر براون ويول: تحليل الخطاب، ترجمة، محمد لطفي الزليطي ومنير التريكي: ص: 70-81.

2- النجار (منال): مفهوم البراغماتية ونظرية المقام في المقولات المعرفية ولدى علماء العربية ضمن كتاب (التداولية علم استعمال اللغة)، ص: 71 وما بعدها وينظر أيضاً: الشهري، إستراتيجيات الخطاب، ص: 40، 41. وينظر كذلك حميدة (مصطفى): نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة العربية، مكتبة لبنان، ناشرون، بيروت - لبنان، ط1، 1997، ص: 111.

3- ينظر: الشهري (عبد الهادي بن ظافر): نحو توسيع مفهوم الخطاب، مقاربة سيميائية تواصلية، فصول، ع77، شتاء- ربيع 2010، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص: 71 وما بعدها وينظر أيضاً: إستراتيجيات الخطاب، ص: 40-41 وينظر كذلك، مصطفى حميدة: نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة العربية، ص: 111.

4- دايك(فان): النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، ترجمة: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء- المغرب، د ط، 2000، ص: 258.

الفكرين، العربي، والغربي؛ فبعد أن أشار إلى محاولات كل من: (تمام حسان)، و(محمد عبد المطلب)، و(عبد الفتاح البركاوي)، و(عبد الله الغدامي) الربط بين الثقافتين، العربية، والإسلامية، قال: «وإذا كنا قدمنا... دلائل على حضور فكرة السياق في الحضارة العربية الإسلامية فليس هذا من قبيل إبراز المقولات العربية بقدر ما هو انطلاق من فكرتنا التي نلح على أهميتها فيما يتعلق بالتسوية السياقية للمقولات والنظريات الغربية الحديثة، ونقصد بها تهيئة المتلقي العربي لاستقبال النظرية الغربية باستحضار النموذج العربي وتهيئته لاستقبال النظرية العربية باستحضار النموذج الغربي... ولا ندعي معه أن النظرية في أحد السياقين كانت السبب في وجود الأخرى، كما أننا لا ندعي في الوقت نفسه أن فكرة (السياق) في الخلفية المعرفية العربية كان لها أدنى علاقة رافدية للتداولية الحديثة»<sup>(1)</sup>.

إن هذا المنهج-حسب رأينا-هو المنهج المثمر، المنصف، الذي من شأنه أن يؤتي أكله في التعامل مع الثقافات، كلها، سواء الغربية منها، والشرقية، وهو المنهج الذي يشهد له تاريخ الحضارات، جميعها، ولا شك أن القراءة المنصفة لتراثنا العربي الإسلامي، نفسه، تفرضه، وتعلي خطره، وما يضير هذه الدراسة لو أخذت به، وهي تتحسس مفاهيم هذا العلم الوافد الذي تعرف منه، وتنكر.

1- بليغ(عيد): التداولية، البعد الثالث في سيميوطيقا موريس، ص ص: 122-193.

## 1- مفهوم السياق:

يرجع استعمال مصطلح السياق في الثقافة الغربية إلى عالم الاجتماع (مالينوفسكي) (Malinowski) وعنه أخذ (فيرث) (Firth) وأدخله مجال الدراسات الأدبية<sup>(1)</sup>.

وإن كان هذا لا يعني إهمال اللغويين قبله، دور السياق في فهم اللغة - كما أشرنا من قبل - (دوسوسير) نفسه كان يقول إن «عبارة ما في تركيب ما لا تكتسب قيمتها إلا بتقابلها مع ما يسبقها أو ما يليها أو الاثنين معا»<sup>(2)</sup>، يريد أن النص نفسه هو مضمار السياق الذي تقرأ فيه الكلمات بما يتناسب مع رتبها داخله، وهو ما عرف بالسياق اللغوي.

غير أن الدراسات اللغوية لم تقف عند هذه الحدود الضيقة للسياق، عندما نادى (فيرث) بتفعيل الوظيفة الاجتماعية للغة، على اعتبار أن تمثل "السياق" ليس إلا لخدمة المعنى، المحدد عمليا كوظيفة في سياق<sup>(3)</sup>، أي أن المعنى في جوهره هو محصلة تفاعل النص مع السياق (CONTEXT) إذ لا يخرج أي تحليل لغوي عن العناصر الآتية:

- (1) شخصية المتكلم والسامع وتكوينهما الثقافي، والشخصيات المصاحبة وأدوارها.
- (2) العوامل والظواهر الاجتماعية والمناخية التي لها علاقة باللغة، والسلوك اللغوي زمن التكلم.
- (3) أثر الكلام في المشتركين فيه (نوع الوظيفة الكلامية) من إقناع، أو إيلام، أو إغراء أو إضحاك... الخ.
- (4) تحديد البيئة، وما ينجر عنها من عدم الخلط بين اللغات أو اللهجات، أي تحديد البيئة

1- ينظر: عزة شبل محمد: علم لغة النص، النظرية والتطبيق، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط1، 2007، ص:3، وينظر أيضا: علي عزت: اللغة ونظرية السياق، مجلة الفكر المعاصر، القاهرة، مصر، ع76، 1971، ص:23.

2- ده سوسر (فرديناند): محاضرات في الألسنية العامة: ترجمة: يوسف غازي ومحمد النصر، المؤسسة الجزائرية للطباعة والنشر - الجزائر، دط، 1986، ص: 149. والعبارة الأصلية هي قوله:

- un terme n'acquiert sa valeur que parce qu' il est opposé à ce qui précède ou ce qui suit, ou à tous les deux » de Saussure (Ferdinand): Cours de Linguistique Générale, Enag, édition, distribution-Alger, 3ème édi, 2004, p: 197.

3- ينظر: عزة شبل محمد: علم لغة النص، ص:2. وينظر أيضا: أحمد مختار عمر: علم الدلالة، عالم الكتب المعاصرة، مصر، ط6، مايو 2006، ص:186.

الثقافية أو الاجتماعية التي تحتضن اللغة المراد دراستها.

(5) تحليل الكلام إلى عناصره الأولية، عبر المستويات التقليدية، النحوية والصرفية والصوتية، مع مراعاة تلاهما حتى نصل في النهاية إلى المعنى اللغوي للكلام.<sup>(1)</sup>

ومن هنا، وجب أن نسجل - مرة ثانية - تأثر (فيرث) العميق، بمقولات (مالينوفسكي) والذي «أقر بدينه له»<sup>(2)</sup> في إنتاج النظرية السياقية.

إن أهمية جهود (مالينوفسكي) تكمن أساسا في إيجاده لخلفية فكرة زاخرة تأسس عليها مصطلحا (سياق الموقف) و(السياق الثقافي)، فقد «لاحظ أن اللغة المستخدمة في الكتب ليست القاعدة العامة، إنما تمثل وظيفة اشتقاقية... فاللغة ليست في الأصل مرآة عاكسة للفكر ولكنها - كما أكد - أسلوب في الحركة... وليس إمضاء فكرة».<sup>(3)</sup>

فالنماذج الخطائية التي تتداولها الكتب - في تقدير مالينوفسكي - لا تشكل حقيقة اللغة، ولا تلزمنا باحتدائها، لأنها مجرد "نماذج مشتقة" و"أساليب في الحركة" أنتجت سياقات ثقافية واجتماعية معينة، وهنا تبرز تفاعلية اللغة باعتبارها نظاما والثقافة أو المجتمع باعتبارهما، سياقاً.

إن كثيرا من العبارات التي نستعملها - حسب مالينوفسكي - في مجتمعنا السوفسطائي هذا لها دلالات خاصة، تتناسب مع أنشطة الناس اليومية، مثل عبارة: كيف حالك؟ التي تستخدم لإنشاء عاطفة<sup>(4)</sup>، يضاف إلى ذلك الطبيعة السيميائية لبعض الكلمات، من حيث كونها علامات في ثقافات معينة، تميل إلى دين أو مذهب أو انتماء عرقي، وهو ما يعزز خطورة فعل الترجمة دون وعي بالسياق الثقافي الأصلي، الذي أنتج فيه الخطاب<sup>(5)</sup>، ويمكن في هذا المقام الإشارة إلى جهود عدة، سعى أصحابها إلى تطوير آراء (مالينوفسكي) و(فيرث) منها:

1- ينظر: السابق: علم لغة النص، ص: 2.

2- بلبع (عيد): التداولية، ص: 195.

3- نفسه، ص. ن.

4- ينظر: نفسه: ص. ن.

5- عزة شبل محمد: علم لغة النص، ص: 3- 4.

- محاولات (ديل هايمز) (DELL HYMES)
- وجهود (بروان) و (يول).
- وجهود مدرسة لندن "السياقية" التي قامت على إسهامات (فيرث) وقد ضمت أعلاما مثل: (هاليداى) (HALLIDAY) و (ماكتوش) (MCINTOSH) و (ميتشال) (MITCHELL) و (سانكلير) (SINCLAIR) و «عدّ (ليون) (LYONS) أحدَ التطورين الهامين المرتبطين بفيرث (نظريته السياقية للمعنى)»<sup>(1)</sup>
- ولعل أكثر الجهود تجاوزا لمنظور "علم الدلالة" ونظريته للسياق، وأشدّها بعثا لمكانم الفكر التداولي في الخطاب، جهود كل من (بروان) و (يول) اللذين عالجا علاقة السياق بالخطاب في إطار تواصلتي قائم على البحث على المعاني لأجل الإفهام؛ فعملية الفهم هي التي تفعل الاهتمام بأداء الخطاب في السياق لأن لبعض الوحدات اللغوية اتصال وثيق بالسياق الذي وردت فيه، كالأدوات الإشارية «هنا، الآن، أنا، أنت هذا، ذلك، هم... الخ، وفهم مدلولات هذه الوحدات لا يستقيم إلا عبر استحضار المقطع الخطابي، ومن ثم معرفة هوية المتكلم والمتلقي والإطار الزمني للحدث اللغوي»<sup>(2)</sup>.
- ومن هنا قد تشحن هذه الوحدات بمعان ضمنية تدرك بعد فحص العلاقة بين المتكلم والمتلقي، لأن ما يحمله الخطاب - ضمينا - قد يخالف ما يصرح به - ظاهريا - وكمثال لذلك يسوق (بروان) و (يول) هذا المقطع:
- «أ- لم يبق لديّ أي بنزين ← طلب العون وليس وصف حالة معينة.
- ب- توجد محطة على بعد أمتار ← إننا نعلم أن المحطات تبيع البنزين، وأن عبارة (على بعد أمتار) مسافة غير بعيدة عن موقع المحادثة، ف(ب) ملتزم هنا بالمبدأ التعاوني، وهو أن المحطة مفتوحة وتبيع البنزين وعلى بعد يسير»<sup>(3)</sup>.

1- أحمد مختار عمر: علم الدلالة، ص: 68.

2- بروان ويول: تحليل الخطاب، تر: الزليطي والتركي، ص: 35.

3- نفسه: ص: 41.

إن المعرفة التي بنى عليها (براون) و(بول) فهمها لدور السياق في إنتاج المعنى، هي ما سميها، "العلم ببعض الحقائق عن العالم" وهي المعرفة التي تُظهر محلل الخطاب أقل تأصلاً علمياً من موضع اللغوي الشكلائي الذي يصف «(قواعد اللغة) ومدى احترام أو عدم احترام مستعمل اللغة لها، إنه بالأحرى في موقع المتلقي الذي يؤول الخطاب تأويلات قد يكون لها معنى أولاً».<sup>(1)</sup>

ولذلك تتعلق عملية التواصل بعوامل غير لغوية (خارجية) تصاحب المؤول وتأخذ بيده لتحصيل المعنى (الفهم)، فلا يمكن الوصول إلى تأويل النص دون النظر في هذه العناصر، التي تؤدي وظيفتين متزامنتين هما: الإمداد المعرفي والضبط التأويلي؛<sup>(2)</sup> فهي جهة أخرى تمسك بزمامه، وتضبط عملية التأويل لديه حين تحصر مجالاتها وتدعم المقصود منها.<sup>(3)</sup>

إن السياق الذي ترومه هذه الدراسة - هو الذي يطبع - في مفهومه الأوسع - الدراسات التداولية، بطابع خاص، ينأى بها عن حدود علمي الدلالة، والنحو من حيث اهتمامها باللغة في الاستعمال، على الرغم من عدم نفي اشتغال المكون التداولي للمكونين النحوي والدلالي، بل إن ذلك المكون التداولي سيصبح قاعدة اللسانيات إذ يتأسس كل من النحو والدلالة والمعارف التداولية.<sup>(4)</sup>

ومن هنا لا نجد أدق من مصطلح السياق (غير اللغوي)، للتعبير «عن مجموع الظروف الاجتماعية أو العلاقات الاجتماعية التي يمكن أن تؤخذ بعين الاعتبار لدراسة العلاقات الموجودة بين السلوك الاجتماعي والسلوك اللغوي»،<sup>(5)</sup> فهو - اختصاراً - يحوي كل العوامل المؤثرة في تفسير التعبير، سواء أكانت ثقافية أم عاطفية أم سياسية... الخ، وبهذا يتسع ليصدق على الجو العام الذي يؤدي فيه الحدث الكلامي، فيندرج تحته، الزمكان، والمتكلم والسامع

1- السابق: ص: 42. وينظر: دي بوغراند (روبرت)، النص والخطاب والإجراء، تر: تمام حسان، عالم الكتب، ط1، 1998، بيروت - لبنان، ص: 86.

2- بلع (عيد): التداولية، البعد الثالث في سيميوطيقا موريس، ص: 202.

3- ينظر: خطابي (محمد): لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، ص: 52.

4- ينظر: أرمينكو (فرانسواز): المقاربة التداولية، ص: 34.

5- ينظر: النجار (منال)، مفهوم البراغماتية، ص: 72.

والأفعال، والمعرفة المشتركة بينهما؛ كالأعراف، والتقاليد والمسلمات، والمعتقدات وغيرها، ولعله بهذا الشمول المفهومي يكاد يضاهي مصطلح (المقام) المتأصل في تراثنا العربي.

### 1-1- بين السياق والمقام "من التصارع المكماني"<sup>(1)</sup> إلى التوحد الموضوعي:

لقد أفضى تغييب المعرفة العربية، ترجمة، ونشرا، إلى تحييد الكثير من المصطلحات العلمية، التي لا يشك أحد في دقتها، وقدرتها على أداء مفاهيم تبدو لحداثتها وطروئها مستعصية؛ متأية؛ وقد كان من آثار هذا التغييب، قيام معرفة الآخر عن جهل تام بمنتجات الحضارة العربية الإسلامية، استحال مع حركة الزمن إلى تجاهل، واستصغار؛ ولعل ما زاد الأمر سوءا سكون حركة الأنا العربي الإسلامي، وتقوقعه على ذاته، ثم خروجه من شرنقة الجمود وضيقها إلى ساحة التقليد والتعصب، فكان أن وجدت مصطلحات غربية حديثة لم تجد لها كفؤا مساوقا محايا لها في الثقافة العربية؛ أو ربما وجدت هذا الكفاء، ولكنه لم يكن يفارق حال السكون والإسبات التي لزمته منذ عقود.

في ضوء هذا التجاذب الحضاري الفكري، ظهرت أصوات متعالية، تدعو إلى حركة تأصيلية واسعة تخضع كل ما جاءت به المعرفة الإنسانية من مصطلحات لقراءة تصل الماضي بالحاضر، وتحقق الامتداد في المكان والزمان، على اعتبار تحقق التوحد المعرفي، لكثير من هذه المصطلحات.

ومن هذا المنطلق-ارتأت الدراسة-أن تتعد وهي تستوضح الخيط الأبيض من الخيط الأسود، من الفرق بين السياق، والمقام، ولها أن تطرح في هذه الوقفة أسئلة تراها أكد الواجبات، قبل أن تصطنع لنفسها منظومة مصطلحية معينة، ترتب بها مصطلحات البحث، وتمسك جزئياته، ولعل أكثر هذه الأسئلة حضورا وإلحاحا، هو هل يوجد فرق يمكن الوقوف

1- نعي به المكان والزمان في مقابل الأجنبي (l'espace-temps) وإن شاع استعمال (الزمان) الذي نرى مخالفته للمنطق، والمصطلح الأصلي، المترجم، وندين بفضل تنبيهنا إلى هذا التجاوز المصطلحي المستشري في أوساطنا البحثية، للأستاذ الزميل: مومني (السعيد)، للاستفاضة ينظر: المكان الشعري من نهر الرماد لخليل حاوي، قراءة المكان في علاقته بالتشكيل الشعري، رسالة ماجستير، إشراف: بوجعة بوبعوي، جامعة عنابة، 1999-2000، ص ص: 22-27. وينظر: مصطفى محمود، أينشتاين والنسبية، دار العودة، بيروت- لبنان، دت، ص ص: 27-69. وأيضا: خليل أحمد خليل، معجم المصطلحات الأسطورية، دار الفكر اللبناني، بيروت- لبنان، ط 1، 1996، ص: 121.

عليه بين السياق والمقام؟

- ترى (منال النجار) أن تقسيم (أولمان) السياق إلى نوعين؛ لغوي وغير لغوي، يحيلنا إلى مصطلحين عربيين قديمين شاعرا عند بلاغيينا، هما: النظم، والمقام؛ فالسياق غير اللغوي هو «المقام في علم العربية... أما السياق اللغوي فيتمثل في العلاقات الصوتية والصرفية، والنحوية والمعجمية وهو النظم في علم العربية».<sup>(1)</sup>

ولذلك استجازت لنفسها أن توظف مصطلح (المقام) في مقابل النظرية السياقية، مرة ثم جعلته كفؤا مساويا للتداولية مرة ثانية، على أساس أن «غاية البراغمية هي النظر إلى شكل لغوي أو أسلوب لغوي ملفوظ في سياق معين أي مقام معين»<sup>(2)</sup> فهي لا تفرق بين (السياق) و(المقام) إلا من حيث الموضوع، في حين يشغل الأول على المستويات اللغوية، يختص الثاني بالنظر في سوى هذه المستويات، وإن كان السؤال مطروحا حول مدى استيعاب النظم، ومطابقته لمصطلح (السياق)؟!

- ويرى (تمام حسان) أن ارتباط مصطلح (المقام) بالبلاغة العربية ارتباطا سكوني، قائم على النمذجة، والمعارية والقالبية، والنمطية، فمن خلال تعريف البلاغة بأنها "مراعاة لمقتضى الحال"، ومن خلال المقولة البلاغية "لكل مقام مقال"، قدم البلاغيون العرب عبارتين تصلحان للتطبيق في كل الثقافات، وإن كان جهدهم هذا لم يجد من الدعاية ما وجده جهده (مالينوفسكي)، على الرغم من أنهم سبقوه بحوالي ألف عام<sup>(3)</sup>.

وهو يقر بأن مصطلح (المقام) يؤدي تماما ما قصده (مالينوفسكي) (بسياق الموقف) وينبه إلى جهود المفسرين في مراعاة هذا السياق عند العودة إلى سبب النزول ومجموع الظروف التي تصاحب إنتاج النص القرآني... هذا الجهد - في اعتقادي - هو الذي يدفعنا إلى

1- النجار(منال)، مفهوم البراغمية، ص: 71، 72.

2- نفسه: ص: 72.

3- ينظر: حسان(تمام): الأصول، دار الثقافة، الدار البيضاء، د ط، 1411هـ، ص: 332. وينظر: اللغة والنقد الأدبي، مجلة فصول، مج4، ع1، القاهرة، ص: 127، وينظر أيضا: اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، ومطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء - المغرب، د ط، 1994، ص: 372.

أن نسجل أن (تماما) لم يستثمر المرحلتين الهامتين اللتين عرفتهما البلاغة العربية، أعني مرحلتي: البلاغة الممارسة، والبلاغة العلم؛ إذ يمكن فهم نزوع المفسرين إلى تحكيم (المقام) في فهم النص القرآني إلى تغليب البعد التداولي، في مقابل، تركيز البلاغيين على الاحتكام إلى البعدين النحوي، والدلالي... (السياق اللغوي).

فالبلاغة الممارسة، لم تكن لترضى بالمعيارية والقالبية، وهي تستدعي مع كل قراءة (سياق الموقف) أو (المقام) وتحتكم إليه في فهم المعنى، وترشح المقصود منه، أي أنها تخضع باستمرار المكونين اللغوي والدلالي، للمكون التداولي باعتباره محور الفهم والتواصل، والمقام نفسه هو ما سيسهم في ترشيح معنى آخر وتحويله، وهي الخاصية التي أثبتها "فان دايك"<sup>(1)</sup> للسياق، حين وسمه بـ "الديناميكية المحركة"، فالمواقف لا تظل «متماثلة في الزمان وإنما تتغير، وعلى ذلك فكل سياق هو عبارة عن اتجاه مجرى الأحداث، وقد يكون اتجاه الأحداث هذا... دالا على حالة ابتدائية، وأحوال وسطى، وحالة نهائية» إنها الحالات نفسها التي عبر عنها الأصوليون قديما بعبارة "العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب" وهم يوجهون دلالة النص القرآني إلى معان ممكنة ولا نهائية، ونظرة متأنية في بعض آيات القرآن كفيل بإجلاء ذلك<sup>(2)</sup>.

1- إن (تماما) على الرغم من تحفظه في استعمال مصطلح (المقام) بمعناه القديم المغاير لما يدل عليه (السياق) في الثقافة الغربية، إلا أنه يفضل استخدام (المقام) بمعناه الذي يرتضيه هو، ويفهمه وفق منهجه المحدد، والمخالف للعرب أنفسهم، ويسحبه على المفهوم الغربي الحديث ويغلبه عليه حين يقول: «...وعلى الرغم من هذا الفارق بين فهمي وفهم البلاغيين للمصطلح الواحد، أجد لفظ المقام أصلح ما أعبر به عما أفهمه من المصطلح الحديث (Context of situation) الذي يستعمله المحدثون»<sup>(3)</sup>.

1- دايك (فان): النص والسياق، تر: عبد القادر قنيني، ص: 258.

2- مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ فإنها نزلت في التحذير من ترك الإعداد لقتال العدو، والاشتغال بالأموال والأولاد، ثم أصبحت بحكم لا نهائية المعنى، وعموم اللفظ، دالة على كل ما يفضي إلى الإفساد، والإهلاك، والمضرة. ينظر: الصابوني (محمد علي): صفوة التفاسير، دار الكتب العلمية ودار القرآن، بيروت-لبنان، ط1، 1999، ج1، ص: 91-92.

3- حسان (تمام): الأصول، ص: 332.

- وفي المقابل نجد رأيا جديرا بالذكر، عرضه (عيد بلبع)، وهو يلخص رأي (عبد الفتاح البركاوي) حول المسألة، ذهب فيه إلى أن مفهوم السياق «في معنى الظرف الخارجي يرادفه في التراث العربي كل من المقام والحال والموقف، وأن مفهوم السياق يتسع أيضا ليشمل ما يعرف في الدراسات اللغوية الحديثة بـسياق النص (Verbalcontext) وسياق الموقف أو المقام الخارجي وهو ما يعرف بـ (Context of situation) أي أن هذا السياق كما فهمه العلماء العرب يشتمل على عناصر دلالة تستفاد من المقال ومن المقام جميعا»<sup>(1)</sup>.

إن ما يمكن أن نطمئن إليه في ختام هذا التقصي هو أن استعمال مصطلح السياق، يحول بيننا وبين الوقوع في لبس التأرجح المفهومي بين مصطلحين لهما حدودهما الفكرية والفلسفية التي تأبى إلا أن تفرق بينهما مكانا وزمانا.

كما أن مراعاتنا للمصطلح الغربي بوصفه أداة إجرائية قد يمكننا من فهم النظرية بأكملها، ويجعلنا نجزم بأن مصطلح (السياق) أنسب وأسلم من حيث دلالاته «على الممارسة المتصلة للفعل اللغوي الذي يتجاوز مجرد التلفظ بالخطاب بدءا من لحظة إعمال الذهن للتفكير في إنتاجه بما يضمن تحقيق مناسبته التداولية»<sup>(2)</sup>.

## 2- أنواع السياق:

يمكن أن ننطلق في تقسيم السياق، من فرعين أساسيين سلفت الإشارة إليهما وهما:

- 1- السياق اللغوي، الذي يعنى بالمستويات، الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية.
  - 2- وغير اللغوي وفيه يتجاوز المحلل حدود النص، إلى مستويات شهود النص ذاته كالسياق العاطفي، والثقافي، والاجتماعي...
- كما يمكن أن نسلم بوجود نمطين من السياق باعتبار النص؛ أحدهما داخلي، والآخر خارجي، وهما في الأصل يصدران عن مشكاة واحدة.

ولكن يحسن قبل أن نشرع في تتبع ما تفرع عن هذين التقسيمين، في الدراسات الغربية

1- بلبع (عيد): التداولية، البعد الثالث في سيميوطيقا مورييس، ص: 203.

2- الشهري (عبد الهادي بن ظافر): إستراتيجيات الخطاب، ص: 91.

والعربية، أن نشير إلى صعوبة التقيد برؤيا واحدة عند تغليب تسمية على تسمية، أو تفريع على تفريع، في خضم عدم التزام كثير من الدارسين، بخلفية معرفية واحدة أو خلطهم بين أكثر من خلفية في استنباطهم أو ترجمتهم لأنواع السياق؛ فمنهم من تاه وسط المعالجات المتباينة والرؤى المتضاربة للمدارس الغربية، والمقولات العربية، من تداوليين، وسياقيين، وعربية تراثية، فأوجد تصنيفا هلاميا، نرى أن ذكره يغني عن نشره، لغلبة الخلفية الفلسفية عليه وقلة خدمته لموضوع البحث.<sup>(1)</sup>

ومنهم من التزم خطأ تأصيليا قارب فيه المقولات، ثم أسقطها على بعض المصطلحات العربية، البلاغية والنقدية، والنحوية، مكتفيا ببعث نماذج قديمة، في أثواب قشبية.<sup>(2)</sup> على أن هناك بعض الدراسات الجادة التي اتخذت بعدا بعينه منطلقا لها، وراحت تبحث عن أنواع السياق وفق ما يخدم رؤياها، وهي كثيرة، موزعة بين السياقيين، والسيمائيين، والتداوليين، وفيما يلي سرد لأبرزها:

أ- اقترح (آمار)(K.AMMER) تقسيم السياق إلى أربعة أقسام:

- 1- السياق اللغوي: ويعنى بتغيرات دلالة الكلمة في السياقات اللغوية المختلفة.
- 2- السياق العاطفي: ومحدد درجة قوة أو ضعف الانفعالي المصاحب للأداء اللغوي.
- 3- السياق الموقف: ويهتم بالموقف الخارجي الذي يتحكم في دلالة الكلمة.
- 4- السياق الثقافي وفيه يحتكم إلى المحيط الثقافي أو الاجتماعي الذي تؤدي فيه الكلمة.<sup>(3)</sup>

ولعل أبرز ما يميز هذا التقسيم، هو خضوعه لمدرسة لندن السياقية، التي وضع رائدها (فيرث) تأكيدا كبيرا على الوظيفة الاجتماعية للغة،<sup>(4)</sup> متأثرا في ذلك بآراء (مالينوفسكي)،

1- ينظر: بلع(عيد): التداولية، البعد الثالث في سيميوطيقا موريس، ص ص: 204-226.

2- كدراسة الباحثة: منال النجار، نظرية المقام في ضوء البراغمية.

3- ينظر: أحمد مختار عمر: علم الدلالة، ص ص: 69-71.

4- نفسه: ص: 68.

ولذلك كان يرى أن سياق الموقف، مجرد قطعة صغيرة من العملية الاجتماعية التي يعد جزءا منها، أو هو جزء من أدوات العالم اللغوي، فكان أن اقترح الأنواع الآتية:

1- الملامح المتوقعة للشركاء أو الأشخاص:

أ- الفعل اللفظي للشركاء (في التواصل اللغوي)

ب- الفعل غير اللفظي للشركاء.

2- الأغراض المتوافقة.

3- آثار الفعل اللفظي.<sup>(1)</sup>

- ومما ميّز هذا الجهد - كذلك - هو انطلاقه من حقل غير لغوي (انثروبولوجي) وتركيزه على التغير الدلالي للكلمة، باعتبارها حاملة للمعنى، مندرجة في لغة فطرية، وهو أمر يردّه (بالمر)(PALMER) الذي يعتبر (مالينوفسكي) - ومن هذا حذوه - مخطئا؛ فعلى الرغم من احتمال وجود متكلمين إلا أنه لا يمكن التسليم بوجود معنى تعدّد من خلاله اللغة فطرية.<sup>(2)</sup>

ب- ترى (فرانسواز أرمينكو) أن التداولية درجات، يمكن حصرها بداءة في ثلاث بحسب أنماط السياق الفاعلة فيها، أو المهيمنة عليها؛ فتداولية الدرجة الأولى: هي دراسة للرموز الإشارية، ضمن ظروف استعمالها (أي سياق تلفظها) وسياقها هو السياق الوجودي، أو الإحالي (المخاطبون ومحددات الفضاء والزمن).

أما تداولية الدرجة الثانية: فتدرس طريقة تعبير القضايا، في ارتباطها بالجملة المتلفظ بها في الحالات الهامة، وسياقها هو سياق الإخبار والاعتقادات المتقاسمة، لا السياق الذهني، بل السياق المترجم إلى تحديدات العوالم الممكنة.

وأما تداولية الدرجة الثالثة: فهي نظرية أفعال الكلام، وتحتاج إلى سياق مركب هو الذي يحدد مقصدية التلفظ.<sup>(3)</sup>

1- ينظر: بليغ (عيد): التداولية، ص: 197.

2- نفسه: ص: 196.

3- ينظر: أرمينكو: تر: سعيد علوش: ص ص: 38-39.

ج- ومجاعة لهذا الرأي ينقل الشهري رأيا لـ (باريت) (PARRET)، يعتبر فيه "أن تصنيف السياق هو أيسر الطرق لتصنيف التداوليات إلى عدة أنواع [...] ونتج عن ذلك خمسة أنواع من السياق يطابقها العدد نفسه من التداوليات وهذه الأنواع هي:

- سياق القرائن (السياق النصي) (نحو النص) يقابل المصطلح الأجنبي (CO-TEXTASCONTEXT).

- السياق الوجودي (EXISTENTIALCONTEXT).

- السياق المقامي (SITUATIONAL CONTEXT).

- سياق الفعل (ACTIONALCONTEXT).

- السياق النفسي (PSYCHOLOGICALCONTEXT) <sup>(1)</sup>.

- إن هذا التناسل الذي يعرفه الحقل التداولي، إنما مرده لثراء هذا الحقل وغنائه، وتشعبه، ولا يبعد أن يتفرع عن هذه الأنماط، أنماط أخرى، فما ذكرته (أرمينكو) لم يكن إلا مجرد برنامج لـ (هانسون) (HANSSON) وضعه سنة 1974 من منطلق ما اعتبرته هي إسهاما منه في تطوير التداولية، «وذلك بتمييزه لثلاث درجات، واختيار اصطلاح الدرجات بدل الأجزاء يدل على فكرة العبور المتنامي من مخطط إلى آخر... ويمكننا القول باغتناء السياق من درجة إلى أخرى وتعمده كذلك» <sup>(2)</sup>.

وفيما يلي أبرز أنواع السياق التي تضمنتها المؤلفات التداولية:

- 1-2- السياق النصي (Co-text as context): وهو (سياق القرائن) أو (نحو النص):

لقد حاول النحو التحويلي في معالجته اللغة تجاوز ما وقع فيه النحو التقليدي؛ إذ وجد نفسه واقعا في المأزق ذاته، لأنه لم يفهم اللغة إلا من حيث هي نظام افتراضي، وليس فاعلا أو مستخدما؛ ومن ثم أخذت عليه مآخذ شتى منها:

1- الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 42.

2- أرمينكو: المقاربة التداولية، تر: سعيد علوش، ص: 38.

أ- أن لا يكشف وهو يعالج النصوص عن نموذج مقبول للنشاط الإنساني، لعدم اعتناؤه بربط النص مع المواقف الإنسانية الفعلية.

ب- أنه أهمل قضايا محورية كالنصوص الشاذة، والتفاعل الاتصالي وذلك لأن مثل هذه القضايا لا يمكن حلها إلا بواسطة السياق والإحالات الخارجية، للنص،<sup>(1)</sup> وهو ما لم يفتن إليه هذا النحو، الذي لم يبرح حد الجملة في تحليله للنصوص، شأنه في ذلك شأن النحاة من البنيويين والتوزيعيين، بل وحتى الداليون أنفسهم ظلوا يراوحون مكانهم دون أن يتخطوا محتوى القضية.<sup>(2)</sup>

إن ما قدمه نحو النص يتجلى أساساً في تأسيسه لمنهج لغوي، انتقل بالتحليل اللغوي من مستوى الجملة إلى مستوى النص، موظفاً مجموعة من الأدوات التي لا غنى عنها في التحليل النصي تتمثل -علاوة على اللغة- في الجوانب النفسية، والأطر الاجتماعية والمقامية للنص نفسه.<sup>(3)</sup> وهو ما أهله لتحليل وحدات لغوية كبرى، ونماذج حجاجية في بعض أنواع الخطابات كالخطاب السياسي، من خلال تمكينه المرسل إليه من اكتشاف دلالة هذه الوحدات الكبرى<sup>(4)</sup> وما بينها من «خصائص الاتساق والانسجام التي تجعل النص عبارة عن تسلسل للجمال»<sup>(5)</sup>، بيد أن هذا التماسك النصي لا يمكن تفسيره إلا باستشعار علاقته بالإجراءات الاجتماعية والنفسية<sup>(6)</sup> وهي السمات التي دفعت به إلى صميم الدرستالدولي.

## 2-2- السياق الوجودي (Existential context): إذا كان السياق النصي ذا

مرجعية لغوية صرفة، فإن السياق الوجودي لا يمكن رده إلا للمرجعية الفلسفية المنطقية؛ فهو يقوم على فكرة فلسفية بحتة مفادها «أن التتابعات اللغوية أو السيميائية تكتسب معانيها من

1- ينظر: البطاشي (خليل بن ياسر): الترابط النصي في ضوء التحليل اللساني للخطاب، دار جرير للنشر والتوزيع، عمان - الأردن، ط1، 1430 هـ - 2009 م، ص: 34-35.

2- ينظر: الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 42.

3- ينظر: البطاشي (خليل بن ياسر): الترابط النصي في ضوء التحليل اللساني للخطاب، ص: 59.

4- ينظر: الشهري، إستراتيجيات الخطاب، ص: 42.

5- مانغونو (دومينيكي): المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، تر: محمد يحياتن، ص: 129.

6- ينظر: الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 42.

خلال علاقتها بمراجعها ويتم الانتقال من الدلالة إلى التداولية حالما يُدرك أن المرسل والمرسل إليه، وكذلك موقعهم الزماني - المكاني، هي مؤشرات للسياق الوجودي»<sup>(1)</sup> وعندها فقط يمكن صبغ التعبيرات اللغوية إشارياً، بردها إلى مكونات سياقها الوجودي (عالم الأشياء، حالاتها، الأحداث).

**2-3- السياق المقامي (Situational context):** وهو سياق مؤسسي، يتجاوز حدود السياق الوجودي، أو بالأحرى يضبط ويحكم المرجعيات التي يصدر عنها المرسل، وينمذجها، حين يربطها بمقام تواصل معين، «فهو هنا يعبرُ بنا من شيء فيزيقي خالص إلى شيء وسيط ثقافياً»<sup>(2)</sup>.

وهو عند (أرمينكو)، سياق موقعي، أو تداولي، لأنه يهيمن على المحادثات بين الأشخاص الذين يتقاسمون الثقافة نفسها، كالمزايدة في الأعمال، والمغازلة، والتحدث بسر في الأذن...<sup>(3)</sup>.

ويعتمد عليه علماء اللغة الاجتماعيون لتحديد الدور الذي يمكن أن يؤديه طرفا الخطاب في سياق مؤسسي معين (محكمة، مدرسة) أو (سوق، مطعم) «إذ توطر هذه المحددات خصائص المحادثة في النصوص الكبرى وكذلك في بناء الخطاب الإقناعي والحجاجي من خلال قوانين وأنظمة معينة»<sup>(4)</sup>.

## 2-4- سياق الفعل (Actional Context):

ترجمه (سعيد علوش) بـ(السياق المتداخل الأفعال) وقصدت به (فرانسواز) «تسلسل أفعال اللغة في مقطع متداخل الخطابات، إذ يتخذ المحاطبون أدواراً تداولية محضة هي الاقتراح والاعتراض، والتضييق»<sup>(5)</sup> مما يستدعي تتابع الأفعال اللغوية بوصفها أفعالاً إرادية يقصد المرسل

1- السابق، ص: 43، وينظر: أرمينكو: المقاربة التداولية، تر: سعيد علوش، ص: 48.

2- نفسه: الصفحة نفسها.

3- نفسه: الصفحة نفسها.

4- الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 43.

5- أرمينكو (فرانسواز): المقاربة التداولية، تر: سعيد علوش، ص: 49.

إنجازها ويريد من المرسل إليه أن يدرك هذا القصد<sup>(1)</sup> ولا شك في أن كليهما محتكم بالضرورة لمبدأي التفاعل التواصل، والسياق الموقف، في تحديد قصدية هذه الأفعال اللغوية، وكمثال على ذلك نورد هذه الأفعال المتداخلة: ﴿قَالَ رَبِّ ارْنِيْ أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَنِي﴾<sup>(2)</sup>.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرْوَدُ فَتَنْهَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾<sup>(3)</sup> ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾<sup>(4)</sup>

فعلى الرغم من أن "تسلسل أفعال اللغة قضية منتهية"<sup>(4)</sup> إلا أن تخصيص دلالة بعض الأفعال في سياق مقامي معين، يجعلها جزءا من هذا السياق، فلا يمكن تحديد دلالة الفعل "أنظر" إلا من خلال تحديد رتبته المتداخلة، والمتسلسلة "بعد الفعل أرني"، وقل مثل ذلك عن الفعل "أخرج" الذي ورد بعد "أعتدت" فالعلاقة بين المرسل، والمرسل إليه، محكومة بتفاعل الأطراف، وهو ما يولد سياقاً تواصلياً بينها، يُعبّر عنه "بالسياق المتداخل من الأفعال" أو "بسياق الفعل".

— وهو ما تبين لاحقاً عند (أوستين)(Austin) عندما أقر بأن للجملة قوة إنجازية، يحددها العرف الاجتماعي (التعاقدي)، ثم ظهر أكثر من خلال طرح (جرايس)(Grice) لمبدأ التعاون في الحوار إذ لا يمكن تحقيق مقصدية الفعل، دون تفاعل تعاوني، ومنسق بين أطراف الحوار.<sup>(5)</sup>

ويبدو جلياً مما سبق أن هذا السياق — دون غيره من أنواع السياق — أشد التصاقاً بالنظريات اللغوية، كما أنه يجب التأكيد من وجهة النظر التداولية، على الطبيعة الإرادية

1- الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 43.

2- سورة الأعراف، آية: 143.

3- سورة يوسف، آية: 30-31.

4- أرمينكو: المقاربة التداولية، تر: سعيد علوش، ص: 79.

5- ينظر: بلخير(عمر): تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، ص: 13، والشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 44.

الإنجازية للأفعال اللغوية لدى المرسل<sup>(1)</sup>.

## 2-5- السياق النفسي (Psychological context)

تبنى الطبيعة التداولية للغة، على أمرين، أحدهما اعتبار الخطاب فعلا، والثاني عدّ هذا الفعل قصدا مشروطا، ومنه تنظيم هذه المقاصد، والرغبات في حالات ذهنية، تُؤلّد نوعا من التفاعل، وهذه الحالات هي «مناط اهتمام الوصف، والتفسير التداولي؛ بوصفها - اللغة - السياق النفسي لإنتاج اللغة وفهمها، كما تقتضي صلتها بالتداولية من خلال الاقتصار على ذلك الجزء من النشاط الذي يجسد ذاته فقط من خلال الأنظمة النحوية المحددة في إنتاج التسلسلات اللغوية وفهمها»<sup>(2)</sup> أي أن حالات ذهنية كثيرة لا تنتمي إلى حقل التداولية من حيث اهتمامها باكتساب اللغة، والأساس البيولوجي وما إليهما.

وعموما يمكن أن نخلص في نهاية هذا المبحث، إلى أن الفصل المنهجي، المفهومي للسياقات وأنواعها، لا يعني أنها كذلك إجرائيا، بل هي على الخلاف: متداخلة، لا يستغني أيٌّ منها عن الأنواع الأخرى.

ثم إن معنى السياق قد يضيق ويتسع، ويزيد وينقص، تبعا لبنية مكوناته إلى الفعل التأويلي، «ومن هنا تتعلق عملية التواصل دائما بعناصر خارجية شارحة ومبينة للمعنى، إذ لا يمكن للمؤول بحال من الأحوال الوصول إلى تأويل النص دون النظر في هذه العناصر»<sup>(3)</sup>.

وهذه الطبيعة الديناميكية - للسياق - هي التي تغني المنهج التداولي، وتحقق كفاءته في التعامل مع الخطاب، على اعتبار العلاقة الوثيقة القائمة على الانعكاس بين كل منهما (الخطاب - السياق).

فالسباق - إذن - «كما قد نفهمه، مفهوما مركزيا، يمتلك طابعه التداولي، إلا أن الصعوبة تأتي من عدم معرفتنا أين يبدأ أو أين ينتهي، ونلاحظ "اتساعه" شيئا فشيئا بمقدار ما

1- السابق: الصفحة نفسها.

2- نفسه: الصفحة نفسها.

3- بليغ: التداولية، البعد الثالث في سيميوطيقا مورييس، ص: 202.

نمرٌ من درجة تداولية إلى أخرى»<sup>(1)</sup>.

ولعل مكن هذه الصعوبة مرده إلى أمرين هما:

(1) اعتماده مؤشرا على التأويل، ومن ثم عدم اتضاح دوره في إنتاج المعنى، فأمر السياق عجيب «كل العجب يشتمل على المقيدات والمحددات والمقتضيات والموجهات لعملية التأويل، كما يشتمل في الوقت نفسه على تعدد دوائره بقدرتها على تحقيق انفتاح الدلالة، واستيعابها لمزيد من التأويلات»<sup>(2)</sup>.

(2) أنه لا يوجد إجماع حول طبيعة مقوماته، ومكوناته، وعناصره؛ لأنه يتطور تبعا لتطور الخطاب، خاصة مفهومه الأرحب الأوسع، الذي يتخذ من كل ما هو غير لغوي مجالا له. ولذلك، كان لزاما علينا ضبط مفهوم عناصر السياق، ومقوماته، قبل مواصلة غمار البحث.

### 3- مقومات السياق: أو عناصره:

وهي محل خلاف بين الباحثين، على اختلاف مجالاتهم، ولعل هذا الخلاف هو ما يتيح لنا اختيار المقومات، التي نرى أنها تسهم أكثر من غيرها في تجسيد البعد التواصلية للمقاربة التداولية، والوقوف عندها؛ لأن ذلك من شأنه أن يعزز اقتناعنا بدور السياق في حمل المرسل على اختيار إستراتيجية خطابية معينة، أو دفعه للتخلي عنها.

إن عدم تحقق الإجماع حول عناصر السياق، يدفعنا إلى التساؤل عن أكثر هذه العناصر، فاعلية، في إنتاج المعنى، وحصول الفهم والإفهام؟

- يجيبنا (دال هايمس) (DELLHHYMES) مثبتا ستة عشر<sup>(3)</sup> مكونا (16) تصاحب "حدث التكلم" تتوزع على حروف الكلمة الإنجليزية (SPEAKING).

1-أرمينكو: المقاربة التداولية، تر: سعيد علوش، ص: 48.

2-بلع: التداولية، البعد الثالث في سيميوطيقا موريس، ص: 211.

3- ينظر: عزة شبل محمد: علم لغة النص، ص: 4، وينظر: مانغونو (دومينيك): المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، تر: محمد يحياتن، ص ص: 27-28.

S-SETTING المحيط: الزمان والمكان والشروط المادية الأخرى المحيطة بالحدث الكلامي.

SSEENE-المشهد: الجانب السيكلوجي المتمم للمحيط.

P-PARTICIPANTS (المشاركون): المرسل والمتلقي.

E-ENDS الحدود: الغرض، النتائج والغرض، الأهداف.

A-ACT SEQUENCES (تتابعات الفعل): شكل ومحتوى الرسالة.

KKEYS-المفاتيح: نغمة المحادثة (جادة، سخرية، تهكم).

I-INSTRUMENTALITIES (الوسائل): القنوات، مكتوبة، برقية،... وأشكال الكلام، لهجات اللغة المعيارية... الخ.

N-NORMS (القواعد): قواعد التفاعل، كالمقاطعة أثناء المحادثة، وقواعد التفسير من قبل المستمع.

G-GENRES (الأنواع): الحكاية الشعبية، الإعلان... الخ.

—أما البعض الآخر «فيدرج معارف المشاركين حول العالم ومعارف بعضهم عن البعض الآخر والمعرفة بالخلفية الثقافية للمجتمع حيث ينتج الخطاب»<sup>(1)</sup>.

وسبق أن عرفنا أن (فيرث) يختزل<sup>(2)</sup> السياق في جملة العناصر، المكونة للموقف الكلامي، ومنها شخصية المتكلم، والسامع، وتكوينهما الثقافي، وشخصيات من يشهد الكلام غير المتكلم والسامع — إن وجدوا — وكل ما له علاقة بالسلوك اللغوي، والظواهر الاجتماعية ذات العلاقة باللغة، والسلوك اللغوي، لمن يشارك في الموقف الكلامي، كحالة الجو — إن كان لها دخل — وكالوضع السياسي، ومكان الكلام... الخ.

وحلل الباحث المغربي (طه عبد الرحمن) طبيعة السياق، وما تقتضيه من عناصر مختلفة؛ فردها إجمالاً إلى ما هو ذاتي؛ كمعتقدات المتكلم، ومقاصده، واهتماماته، ورغباته، ومنها ما

1- السابق: ص: 28.

2- ينظر: السعمران (محمود): علم اللغة، دار النهضة للطباعة والنشر، بيروت — لبنان، ص: 310-311.

هو موضوعي؛ يشتمل على الوقائع الخارجية، التي تم فيها القول، كالمكان والزمان، ثم العنصر الدوائي؛ أي الذي بين ذوات المتخاطبين، ويقصد به المعرفة المشتركة بين المتخاطبين.<sup>(1)</sup>

ويظهر جلياً تأثير صاحب الرأي السابق بما أثبتته المقاربات التداولية حول مفهوم السياق والتي ترى أنه «الوظيفة الملموسة التي توضع وتنطق من خلالها مقاصد تخص المكان والزمان وهوية المتكلمين... الخ، وكل ما نحن في حاجة إليه من أجل فهم وتقويم ما يقال». <sup>(2)</sup> ولكن ما هي هذه العناصر التي نحتاجها فعلاً من أجل فهم وتقويم ما يقال؟

يرى (مانغونو) أنه رغم الاختلاف الحاد حول مقومات السياق إلا أن نواةً من هذه المقومات مجمعٌ عليها وهي: المشاركون في الخطاب، والإطار الزمكاني، والغاية <sup>(3)</sup>.

وهي عناصر تجعلنا ندرك قيمتها إذا حررنا منها أو عندما «تنقل إلينا المقاصد عبر وسيط وفي حالة معزولة عن السياق». <sup>(4)</sup>

لقد غدا من البين جداً - من خلال ما سبق - أن مقومات السياق الفاعلة التي تحقق البعد التداولي للخطاب، تتمثل في:

3-1- المرسل: موظف اللغة، ومنتج الخطاب، وهو محور العملية التواصلية وصاحب الفعل التلفظي الذي «ينقل اللغة من المستوى الصوري إلى المستوى التداولي ويغدو الخطاب، عندها مؤشراً على كفاءته؛ بالقدرة على التكيف مع محيطه» <sup>(5)</sup>.

3-2- المرسل إليه: المقصود بالخطاب، والطرف الثاني في العملية التواصلية، بل هو عند البلاغيين أجل من ذلك، لأن بناء الخطاب لا يكون إلا بمراعاة حاله، وما تقتضيه منزلته.

وتمثل المرسل إليه في ذهن المرسل هو ما يجعله ذا قدرة تنويعية، وأفق واسع يمارس فيه

1- ينظر: عبد الرحمن (طه): الدلائل والتداوليات "أشكال الحدود" البحث اللساني والسميائي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط - جامعة محمد الخامس المغرب، 1401هـ، ص: 302.

2- أرمينكو (فرانسواز): المقاربة التداولية، ص: 9.

3- ينظر: مانغونو: المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، تر: محمد يجياتن، ص: 28.

4- أرمينكو: المقاربة التداولية، تر: سعيد علوش، ص: 9.

5- الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 478.

اختياراته الإستراتيجية الخطابية<sup>(1)</sup> التي تعطي الخطاب قيمته التواصلية من حيث هو خطاب للتداول، لا خطابا معياريا شكليا صرفا، تتساوى عند الأشكال في مقابل اختلاف المقاصد. فاعتبار المرسل إليه هو الذي يدفع بالمرسل إلى اختيار إحدى الطرائق التعبيرية الآتية رغم تحصيلها لمقصد واحد:

أ) إفتح النافذة ← الاستعلاء — استخدام السلطة لإنجاز فعل الأمر المباشر.

المرسل إليه ← دون المرسل منزلة.

ب) لتفتح النافذة ← التماس ← المرسل إليه يتساوى أو يكافئ المرسل وقد أدّى تمتّله في ذهن المرسل إلى إنتاج خطاب، جانب فيه

فعل الأمر المباشر باستعمال ما يدل على الالتماس (لام الأمر + الفعل المضارع).

ج) من فضلك، إفتح النافذة — صورة الخطاب في هذين المثالين (ج، ج) ج) إفتح النافذة، من فضلك، رجاء، لطفاً — تجسد حال المرسل إليه والعلاقة الجامعة بينهما.

د) الجو حار — تتجسد بوضوح حال المرسل إليهم من خلال عدول المرسل عن استعمال الفعل الأمر، وتوظيفه لأساليب أخرتتوب عنه، (الاستفهام) انتقاله إلى المستوى الإيحائي.

هـ) قد يكتفي المرسل ببعض السلوكات { مما يوحي بطلب إنجاز فعل كنزع المعطف، أو التلويح بيديه } معين.

وهناك ما لا حصر له من المواقف التواصلية، التي تحتاج أشكالا خطابية توظف إستراتيجيات مختلفة، يفرضها المرسل إليه إما بما يبدو من حاله، أو بما يفترضه المرسل مسبقا.

### 3-3- الوقائع الخارجية: (العناصر المشتركة):

تتخذ نوع العلاقة بين المرسل والمرسل إليه، في النماذج الخطابية السابقة، من خلال

1- السابق: ص: 48.

مجموع الوقائع الخارجية المستقرة في ذهن كل منهما، فنجدها تتخذ طابعا رسميا إذا كان المرسل مالكا للسلطة كما في المثال (أ) في ضوء هذا المعطى اختار المرسل إستراتيجية تجاه المرسل إليه، متوقعا منه رد فعل معين.

وقد تتغير هذه الإستراتيجية الخطابية، مع تغير طبيعة العلاقة التي تربط بين طرفي الخطاب، وما يحمل كل منهما من معارف مشتركة عن الآخر، وتُعد هذه المعرفة، «من العناصر المؤثرة، وهي الرصيد المشترك، [...] وهي الأرضية التي يعتمد عليها طرفا الخطاب في إنجاز التواصل؛ إذ ينطلق المرسل من عناصرها السياقية في إنتاج خطابه، كما يعوّل عليها المرسل إليه في تأويله»<sup>(1)</sup>.

ولكن ما نوع المعرفة التي يحتاجها طرفا الخطاب؟ وما طبيعتها؟ وكيف لها أن تحقق الفهم والإفهام؟

يحيينا صاحب المعجم اللساني، حين يحصر السياق في «مجموعة من الشروط الاجتماعية التي نراعيها في دراسة العلاقات بين السلوك الاجتماعي والسلوك اللساني، إنه تلك المعطيات التي تكون لصيقة بالمرسل والمستقبل في مقام ثقافي وسيكولوجي، إنه عبارة عن تجارب هذا وذاك»<sup>(2)</sup>.

فشكل الخطاب، وإستراتيجية المرسل لا تتحدد - بحسب (دي بوا) - إلا في ضوء المعرفة المشتركة السابقة، أو المحايثة لإنتاج هذا الخطاب، وتتلخص حسبه في ثلاثة مظاهر: أحدها لصيق بالمرسل، لأنه منتج الخطاب وبأثره، وصاحب الغاية التي لأجلها أنشأه.

وثانيهما: متعلق بالمستقبل؛ باعتبار المقصود بهذا الخطاب، وهو مدار تحقق الفعل الخطابي، ونجاعة الإستراتيجية التخاطبية، وحصول الفهم عنده منوط، بتحقيق التواصل ومناسبة المقال للمقام.

وينفرد ثالثها، بمقام التواصل، وهو عنده «مجموعة من الشروط السيكلوجية، والسوسيولوجية، والتاريخية، (أو العوامل الخارج لسانية)، التي تحدد إرسال ملفوظ، أو عدة

1- السابق: ص: 49.

2- DUBOIS : Dictionnaire de linguistique, P :120.

ملفوظات، في وقت معلوم من الزمن، وفي مكان محدد»<sup>(1)</sup> وهو مقام معقد، مركب، يستثمر فيه طرفا الخطاب، كل ما يُمكنهما من تحقيق الفائدة التواصلية، ويتجلى هذا كله في ما يتلفظ به كل منهما وهو ما عبر عنه (دي بوا) بـ(السياق المقامي)، أو(سياق الحال).

إذن، يمكن أن نردّ مجموع الوقائع الخارجية إلى: المكان، والمعرفة بالعالم، والمعرفة باللغة (سنن التخاطب) في جميع مستوياتها «بما في ذلك دلالاتها وعلاقتها بثقافتهما»<sup>(2)</sup> (المرسل والمرسل إليه).

ويبقى أن نشير في الأخير إلى ما وضعه العرب - القدماء - من كتب وتصانيف كثيرة، بلاغية، ونحوية، وفقهية وأصولية، تعد خير مثال، لحاجة المتكلم/ المخاطب إلى ضرب من المعرفة تفتح له ما استغلق، كاشتراطهم فيمن يتصدى للقرآن تفسيراً، أن يكون عالماً بالشعر، والناسخ والمنسوخ وأسباب النزول، حافظاً للحديث عالماً بالسيرة... مطلعاً على عادات العرب وأيامها، وأديانها، ومعتقداتها... الخ، وهو مذهب مشهور عن(ابن عباس).

واشتراطهم في الخطيب معرفته بأحوال المخاطبين ومقاماتهم، وثقافتهم مع مراعاة ما يقتضيه كل ذلك من الإيجاز أو الإطناب، أو التلميح أو التصريح...

يقول (الجاحظ): «ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين، وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً، ولكل حالة من ذلك مقاماً، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات»<sup>(3)</sup>.

فلا يخفى ما في هذه الإشارة من تلميحات مكثفة، إلى محورية السياق، واعتباره عند إنتاج الخطاب من قِبَل المرسل، واحتكامه إليه في تقسيم المعاني، نشرأ، وطياً، تَبَعاً لأحوال المرسل إليه، ومقاماته، ومقتضياتها، ولعل عبارة "لكل مقام مقال" تؤدي ما نرمي إليه، وتغني عن كثير من الأمثلة، التي يحول المقام دون بسطها.

1- DUBOIS : Dictionnaire de linguistique, op. cit P :444.

2- الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص:49.

3- الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، مصر، ط2، 1960م، ج2، ص ص: 138-139.



# المبحث الثاني:

## الخطاب والموظيفة

يمكن أن ننطلق في سبر أغوار هذا المبحث، من اعتبار الخطاب كيانا، تشكله اللغة؛ فهو وحدة لغوية طبيعية، توظف باستمرار، في عملية التواصل، ولذلك لا وجود لخطاب، دون لغة، ومن هنا تتجلى أهمية دراستها، والبحث فيها من قبل المدارس المختلفة، سواء العربية منها، والغربية.

### 1- اللغة/ الخطاب، البنية والوظيفة:

ويمكن اختزال جهود الدارسين -على اختلاف رؤاهم وحقول اشتغالهم-، في اتجاهين كبيرين هما: الاتجاه الشكلي والاتجاه التواصلية<sup>(1)</sup> وزاد بعضهم الآخر اتجاهًا ثالثًا، أسماه الاتجاه التلفظي<sup>(2)</sup>.

#### 1-1- النموذج الشكلي (الصوري):

تجمع المقاربات الصورية للخطاب، خاصيتان اثنتان هما:

- أ- تركيزها على صورة الخطاب: فهي تركز على دراسة النظام اللغوي في مستويات اللغة المعروفة مثل المستوى الصوتي والمستوى التركيبي والدلالي<sup>(3)</sup>.
- ب- عدم الاستناد إلى معطيات خارجة عن هذه البنية، من قبيل المتخاطبين والسياق والمعنى<sup>(4)</sup>، لأن الفهم البنوي للتحليل، قائم على إقامة العلاقات الممكنة بين مختلف الوحدات الداخلية للخطاب، في مقابل إغفال العلاقات الوظيفية الخارجة عنه، والتي تبعث انتماء الخطاب إلى سياق إنتاجه.

ويمكن تمثل هذا الاتجاه بوضوح، في جهود العرب القدماء، من خلال الدراسات النحوية، والصرفية، والبلاغية، وما قدمه أمثال "سيبويه" و(ابن جني) و(السكاكي) في محاولاتهم تقعيد النحو والصرف، والبلاغة، بوضع قوانين منطقية، صارمة، كالقياس، والتقدير، والاطراد، والشذوذ، وما إليها.

1- ينظر: الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 5-11.

2- ينظر: العربي (ربيع): الحد بين النص والخطاب، مجلة علامات، ع33، ص: 38.

3- ينظر: نفسه: ص: 7.

4- ينظر: نفسه، ص: 35.

ويكاد يمثل هذا الاتجاه تمثيلاً كاملاً، (السكاكي) في (مفتاح العلوم) لولا ربطه بين العلوم المختلفة وإقراره بدورها في إنتاج المعنى البلاغي.

أما عند الغرب، فيُعَدُّ (هاريس) (HARRIS) أول من اهتم بالخطاب، في إطاره الصوري، ووسمه بأنه متوالية خطية تضم أكثر من جملة<sup>(1)</sup>.

كما يعتبر المنهج البنوي، من المناهج التي جسدت هذا الاتجاه، بفضل ما أوجدته من بدائل، ومستويات تحليلية، قدمتها على أنها مفتاح الدراسة العلمية، الجادة، الصارمة، التي لا تنتج إلا أحكاماً معيارية، ثابتة غير قابلة للنقض، وأوعزت إلى أتباعها، إقصاء كل ما هو خارج عن النص، في سبيل "علمنة" العالم والابتعاد عن المضامين والدوات، وجدير بالذكر أن هذه الدعوى - في الغرب - لم تلبث أن أنتجت مصطلحات مكنت لتجاوز التحليل الجملي، من قبيل، تحليل الخطاب ونحو النص بفضل تقديمهم هذا الأخير على أنه «نسيج لغوي، منغلق على ذاته»<sup>(2)</sup>، يمكن إدراك القواعد المتحكمة فيه، عبر استكشاف شبكة العلاقات في مستويات بعينها.

#### 1-2- النموذج التواصلية (الوظيفي): ويرتكز هو الآخر على ركيزتين هما:

- أ- أن للغات وظائف خارجة عن نسقها اللغوي.
  - ب- وأن لهذه الوظائف الخارجية تأثير واضح على النسق الداخلي للغة.
- ولذلك لا يتوانى هذا الاتجاه في ربط الخطاب بالسياق، ويعتبر الخطاب، نسقاً تتحقق عبره وظائف خاصة، لا تظهر إلا عندما نحدد دور كل عنصر من عناصر الملفوظ في تشكيل الصورة العامة للخطاب، دون إغفال ما يحيط به من سياقات مختلفة، نفسية واجتماعية...<sup>(3)</sup>، وقد جسدت هذا الاتجاه في التراث العربي، دراسات، أمثال (ابن سنان الحفاجي) و(السكاكي)، و(الجرجاني) و(الجاحظ)، و(القرطاجني) و(العلوي) بالإضافة إلى ما جاء عند

1- ينظر: السابق، الصفحة، نفسها.

2- ينظر: الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 8.

3- ينظر: نفسه، ص: 9.

(ابن خلدون) في المقدمة وغيرهم<sup>(1)</sup>.

وقد سبقت الإشارة - في المبحث السابق - إلى ما يمثله المقام بالنسبة لمنتج الكلام عند العرب.

أما عند الغربيين، فقد أفضى الاهتمام المفرط بالشكل، والاحتكام إليه إلى تأزم التحليل البنوي للنص<sup>(2)</sup>، ووقوفه عند حدود الجملة، وعدم تمكنه من مجارة ظواهر لغوية طارئة، كالإحالة، وتحديد المرجع، والإضمار والروابط الخطابية وغيرها. الأمر الذي عجل، بميلاد مقارنة جديدة، لا تقف عند حدود الجملة بقدر ما تتخذه منطلقاً للفهم والتفسير، عبر تفعيل فضاءات جديدة، يقول فان دايك (VanDijk): «لقد توقفت القواعد واللسانيات التقليدية غالباً عند حدود وصف الجملة... وأما في علم النص، فإننا نقوم بخطوة إلى الأمام»<sup>(3)</sup>.

وقد شكلت هذه الخطوة فارقاً بين الاتجاهين الشكلي والتواصلية، فأعقبتها جهود حثيثة لأمثال: (هاليداي) (HALLYDAY) و(رقية حسن) (1976) اللذين اعتبرا الخطاب، وحدة دلالية، ذات بنية دلالية تكشف عن توليف متماسك للجميل، بل ذهباً إلى أبعد من ذلك حين قالاً بتلازم مصطلحي السياق والنص. فهما عندهما مظهران للعملية نفسها، إذ لكل نص نص آخر مصاحب له هو (السياق) (CONTEXT)، وقد شملت فكرة ما يصاحب النص «كل العوامل اللغوية، وغير اللغوية»<sup>(4)</sup>، ثم اعتمدت هذه القاعدة فيما بعد مناهج كثيرة، منها: لسانيات النص، التداولية، النحو الوظيفي واللسانيات الاجتماعية، وتحليل الخطاب، وغيرها...

غير أنه من الجدير، إعادة التذكير، في ختام هذا المطلب، بالمفهوم اللامتناهي

1- ينظر: السابق، ص: 6.

2- ينظر: بلخير (عمر): السياق في ظل النظرية المعرفية، مجلة الأثر، ع 18 / جوان 2013، ص: 114.

3- دايك (فان): النص بني ووظائف، مدخل أولي إلى علم النص، تر: منذر عياشي، ضمن كتاب (العلاماتية وعلم النص)، المركز الثقافي العربي، بيروت - لبنان، ط 1، 2004، ص: 147.

4- ينظر: عزة شبل محمد، علم لغة النص، ص: 8.

للسياق، في تعالقه، مع مبادئ، ومنطلقات كل مدرسة من هذه المدارس، وإن كان الجامع بينها، إدراكها للعلاقة الطبيعية، المتأصلة، بين اللغة، تنظيراً، وتفسيراً، وتأويلاً من جهة، والسياق من جهة ثانية<sup>(1)</sup>، نغني بذلك تجاوز بعض الاتجاهات الحديثة، للمفاهيم التقليدية للسياق، على غرار ما يسمى - حالياً- بـ(التداولية المعرفية)، وهي فرع من فروع التداولية، تستعين في فهم وتأويل الخطاب بأسس ذات علاقة بعلم النفس اللغوي وعلوم الأعصاب، ومفاهيم من قبيل الذاكرة طويلة المدى (MLT)، والمعرفة الموسوعية للمتكلم، والأنظمة الخاصة، وغيرهما من المفاهيم والمصطلحات، التي لا تحصر السياق، في الظواهر الخارجية، المتحركة في الكلام بين المتخاطبين<sup>(2)</sup>.

### 1- 3- النموذج التلفظي:

لقد غدا من الواضح جداً، حاجة الدرس اللغوي الحديث إلى مقارنة جديدة، لا تنكر ما للنموذجين السالفين من مزايا، وسمات، تأخذ بيد محلل الخطاب، فإن كان المنهج الأول (الشكلي) قاصراً عن إدراك العلاقة المتينة بين الخطاب والسياق، فهو في الوقت نفسه منتج مفهوم النظام اللغوي، والبنية الداخلية وإليه يعزى فضل اكتشاف العلاقات الأكثر ضموراً في النسيج اللغوي للنص، وتقديم قواعد، وقوانين ساعدت على الفهم، والتأويل دون الحاجة إلى استدعاء المكون غير اللغوي، الخارجي، وتدارك المنهج الثاني (الوظيفي) لهذه الخلة، ومغالاته، في تحكيم السياق، وتكبير التأويل به، إلى حد صار المعنى، لا ينتج إلا خارج النص بحجة الطبيعة التواصلية للغة، يجعلنا غير فخورين، بما ينتجه لنا من مجالات التحرك لتحرير المعنى، هذا المعنى الذي يبدو في نظر كلا النموذجين، خداجاً، يتيماً، سرعان ما يضطر إلى اختيار وضع غير مريح، بفعل العلاقة غير التكاملية، بين الآليات الشكلية، والآليات الوظيفية المسهمة في إحلاله.

1- للاستفاضة في هذا الموضوع ينظر: صحراوي (مسعود): التداولية عند العلماء العرب، والمتوكل: اقتراحات من الفكر اللغوي العربي القديم بوصف ظاهرة الاستلزام الحوارية، الرباط، كلية الآداب، 1981، البحث اللساني والسيميائي، وبلخير (عمر): تحليل الخطاب المسرحي في منظور النظرية التداولية، منشورات الاختلاف، الجزائر 2003.

2- ينظر: بلخير (عمر): السياق في ظل النظرية المعرفية، ص: 115.

ولذلك ظهرت محاولات جادة، للتوفيق بين المنهجين، ورأب الصدع الذي ما فتئ تتسع هوته، من خلال الاعتماد على مفهومين متكاملين هما: «أن اللغة ظاهرة (بيولوجية) نفسية من جهة أولى، وظاهرة اجتماعية من جهة أخرى، مما يجيز وصفها بأنها ذات بعدين: بعد داخلي، وبعد خارجي»<sup>(1)</sup> أي أن التفسيرات النحوية لا يمكن أن تقوم إلا على أساس شكلي، في حين تتخذ التأويلات التداولية بعدا وظيفيا، وبهذا يولد نموذج ثالث يربط الخطاب بالتلفظ وذلك لأن «التلفظات هي وحدات الإنتاج اللغوي، سواء أكانت مكتوبة، أو منطوقة، وهي بالضرورة مرتبطة بالسياق»<sup>(2)</sup>.

وقد عزت الباحثة المغربية (ربيعة العربي)، هذا الطرح (لشفرن) (1994) وقدمته على أنه بديل لما سبق طرحه من مقاربات، لما له من مقدرة على ربط الخطاب بالتلفظ، وما ينجر عن هذا الربط، من أبعاد تحليلية تجعل البنية اللغوية بنية سياقية لأنها متصلة بتصور عماده الجمع بين الإلحاح الوظيفي على الاستعمال اللغوي والإلحاح الصوري على النماذج الموسعة<sup>(3)</sup>.

وهناك من أطلق على هذا المنحى، التوافقي، مصطلح المنهج التداولي، على اعتبار اضطلاعهم بمهام التأويل، والتحليل، وفق مقارنة تتبلور فيها "وظائف اللغة"<sup>(4)</sup> وهي مقارنة تتجاوز مفهوم (بنفيسست)، لأنها لا تقوم على معيار الكم، أي أنها تنطلق من أن الوحدة الدنيا للخطاب، هي الكلمة، لا الجملة، إذا استحضرنا عنصر السياق.

## 2- وظائف اللغة والتواصل:

شكلت فكرة البحث في وظيفة اللغة، منطلقا للكثير من المدارس اللغوية الغربية الحديثة، خاصة بعد الفتح اللساني الذي أعقب صدور كتاب (دوسوسير)، "محاضرات في اللسانيات العامة"، سنة 1916، ومن بين التصورات التي سعت إلى الخوض في هذا الشأن، نذكر، التصور التواصلية، والتصور السردية، والتصور المنطقي، والتصور الفلسفي، والتصور الثقافي والتصور

1- الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 11.

2- العربي (ربيعة): الحد بين النص والخطاب، ص: 38.

3- نفسه: ص: 38.

4- الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 11.

السيمائي، والتصور التربوي، والتصور الأنثروبولوجي والتصور التداولي... وإن كان الاهتمام بفكرة الوظيفة اللغوية، قد طرح «على محك النقاش في مدرسة براغ التشيكية من جهة، وفي المدرسة البنوية الفرنسية الوظيفية من جهة أخرى»<sup>(1)</sup>.

وسنحاول فيما يلي على تتبع هذا المسار، في الثقافة الغربية، بدءاً بـ(دوسوسير) ووصولاً إلى التصور التداولي، الذي بشر به (براون) و(بول)، مروراً بتصورات متعددة المشارب، والانتماءات، إلا أن الجامع بينها جميعاً هو استقصاؤها، لمفهوم الوظيفة في ارتباطه باللغة والتواصل.

## 2-1- مفهوم الوظيفة:

إن ارتباط مفهوم الوظيفة باللغة، قائم أساساً على بداية البحث البنوي، في ماهية اللغة من حيث هي نظام، وقد بدا ذلك واضحاً في جهود مدرسة براغ اللغوية، التي لم تعدم روح (جاكسون). ولكن قبل أن يميل بنا الحديث إلى هذا الجانب، لا بد من تحديد بعض المنطلقات الاصطلاحية، المرتبطة بالمسار التاريخي لكل من الوظيفة، والتواصل، وما انجر عنهما من تبعات معرفية، ولنبدأ أولاً بمفهوم الوظيفة اللغوية اصطلاحاً، وحدود ما ترمي إليه:

يشمل مفهوم الوظيفة اللغوية، كل ما يؤديه أي عنصر لغوي داخل ملفوظ معين مثل: «الفونيم (الصوت) والكرافيم (الوحدة الخطية) والمورفيم (المقطع الصرفي) والمونيم (الكلمة)، والمركب، والجملة والصورة البلاغية، أو ذلك الدور الذي يؤديه العنصر السيميائي من رمز وإشارة، وأيقونة، وصورة ومخطط داخل سياق تواصلية ما»<sup>(2)</sup>.

فمن الجلي تنازع هذا المفهوم من قبل حقول معرفية شتى، تتراوح ما بين أدبية، ونحوية، ولغوية، وغير لغوية، تتشارك جميعها في أنها تقر مفهوم الوظيفة، لبعض مكوناتها، فالفاعل ذو وظيفة معينة داخل بنائه المنتمي إليه، وكذلك المبتدأ والخبر، والمفعول به، أو الرمز السيميائي

1- حمداوي (جميل): نظريات وظائف اللغة، <http://www.doroob.com/?Feed=Rss2&author=750>، ص: 1، تمت

زيارة الموقع يوم 2012/04/27 في الساعة 12:00.

2- نفسه: الصفحة، نفسها.

من خلال رده إلى وضعية تواصلية معينة، وباعتباره ملفوظاً<sup>(1)</sup>.

كما نتبين من قراءة هذا المفهوم أن القول بوظائفية العناصر المشكلة، المتفاعلة بعضها ببعض، يجعلنا نسلم، بأساسية بعضها، وثانوية بعضها الآخر، ولذلك وقع تفاوت الباحثين في هذا المجال في استنباط مختلف الوظائف، بالإضافة إلى احتكام كل منهم إلى خلفية معرفية أو فلسفية تختلف عن خلفية سابقه، وفيما يلي أشهر الدارسين الذين تناول وظائف اللغة في البحث اللساني المعاصر، نستحضرهم في هذا المقام من منطلق مفهوم اللغة نفسه، وما دار حوله من أخذ ورد بين من لم يجد بداً في فهمه للغة من القول بوظيفيتها التواصلية، وبين من خلع عنها هذا الوصف، وجعلها مجرد نسق مجرد يؤدي وظائف متعددة أهمها وظيفة التعبير عن الفكر، بمعنى أنه يمكن وصف خصائص هذا النسق - اللغوي - دون الاعتداد بوظيفته، وقد مثل هذا المنحى ودافع عنه بشراسة (تشومسكي) وأتباعه شرقاً وغرباً<sup>(2)</sup>.

#### أ- "فردناندو سوسير" (F.de Saussure): من النفسي إلى الفيزيولوجي:

شكّل تفريق (دو سوسير) بين ما هو ملكة بشرية (اللغة)، وما هو مواضعة اجتماعية (اللسان)، وما هو نشاط ذاتي فردي (الكلام)، ما سمي "بالفتح اللساني" الذي انجر عنه اهتمام اللسانيين - بعده - بثلاثة عناصر تواصلية هي: العنصر النفسي (الصورة الإصغائية أو اللفظية)، والتصورات (المفاهيم)، والسيرورة الفيزيائية (الموجات المنقولة عبر القناة)، وأخيراً السيرورة العضوية، وتظهر في التصويت والاستماع<sup>(3)</sup>، ثم بنى تلامذته - في ضوء هذا المفهوم - عدة مسلمات في فهمهم للسان أهمها:

1) ربط اللغة مفهوماً بالتواصل، ولعله تقليد ابتدعه البنيويون أولاً، ثم اطرّد في دراسات من جاء بعدهم<sup>(4)</sup>.

1- للتوسع، ينظر: تغزاوي (يوسف): الوظائف التداولية وإستراتيجيات التواصل اللغوي في نظرية النحو الوظيفي، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2014، ص: 107 وما بعدها.

2- رايص (نور الدين): نظرية التواصل واللسانيات الحديثة، مطبعة سايس - فاس، المغرب، ط1، 2007، ص: 17. وينظر: أوكان (عمر): اللغة والخطاب، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2011، ص: 63.

3- ينظر: نفسه، ص: 69.

4- ينظر: رايص (نور الدين): نظرية التواصل واللسانيات الحديثة، ص: 81 وما بعدها، و: تغزاوي (يوسف): الوظائف التداولية وإستراتيجيات التواصل اللغوي في نظرية النحو الوظيفي ص: 92.

(2) اعتبار اللسان مؤسسة اجتماعية:

غير أنه من المفيد لهذا البحث، الإشارة إلى أن هذه القاعدة الأخيرة، هي التي اتخذت مطيةً للتساؤل عن الوظيفة الطبيعية للغة، والتي حصرها (دو سوسير) مبدئياً في التواصل، ليترك المجال واسعاً لباحثين آخرين، أمثال: العالم الأنثروبولوجي الشهير (مالينوفسكي) (MALINOWSKI).

### ب- "مالينوفسكي" والتصور الأنثروبولوجي:

يُعدُّ (مالينوفسكي) (1923) أبَ فكرة السياق، بمفهومه الحديث، فعنه أخذ (فيرث) (FERTH) وطوره<sup>(1)</sup>، خاصة مفهوم السياق الثقافي الذي اعتبره محددًا أساساً في فهم اللغة، فمن الصعب «فهم أي رسالة ما لم تكن على علم بالأداء الصوتي المرئي المصاحب لها [...] ولذا فإن تحديد الدلالات في هذه الأحوال يستلزم تحديد المحيط الثقافي والاجتماعي الذي تستخدم فيه الكلمة»<sup>(2)</sup> في سبيل استكشاف الوظيفة والدلالة الكامنة وراءها.

ومن أهم ما توصل إليه (مالينوفسكي) من وظائف: الوظيفتان البراجماتية والسحرية، فبعد أن قام بدراسة لغات بعض الشعوب البدائية في إحدى جزر المحيط الهادي، كأهالي (تروبرياندا) (TROBRIAND)، سجل بعض الوظائف التواصلية المرتبطة بالسياق التكويني للغة، كالوظيفة السحرية وبعض الوظائف الأخرى المتعلقة بالسرد والحدث<sup>(3)</sup> كالوظيفة الانتباهية<sup>(4)</sup>.

1- عزة شبل محمد: علم لغة النص، ص: 03.

2- نفسه: الصفحة نفسها.

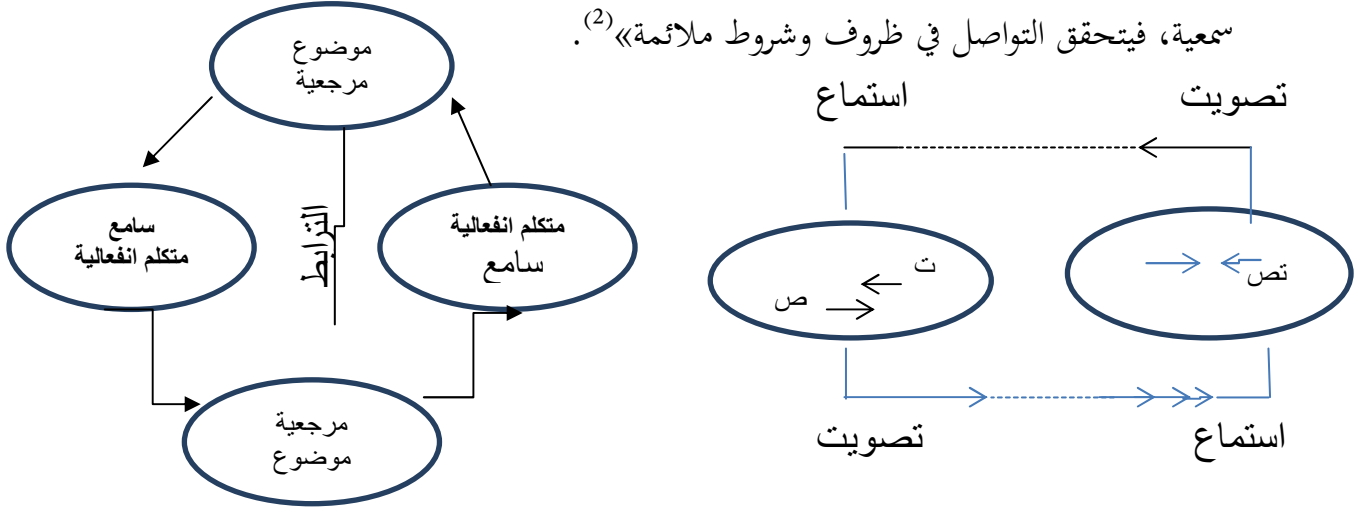
3- يراجع: حمداوي (جميل): نظريات وظائف اللغة، <http://www.doroob.com/?Feed=Rss2&author=750>، ص: 3، تمت زيارة الموقع يوم 2012/04/27 في الساعة 12:00. وهاليداي ورقية حسن: وظائف اللغة، تر: أحمد محمود نخلة ضمن (آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر)، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية- مصر، دط، 2002، ص: 267.

4- ينظر: بدوح (حسن): المحاور مقارنة تداولية، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط: 1، 2012، ص: 52.

### ج- "كارل بوهلر": من الانغلاق الصوري إلى الانفتاح التمثيلي:

إنطلق (بوهلر BUHLER) من فكرة الدارة السوسيرية، المبنية على الشقّين النفسي، والفيزيولوجي، للبحث عن وظائف جديدة للغة بعيدا عما أقره (دوسوسير) نفسه، ويمكن تلخيص نموذج المستحدث في ضمائر ثلاثة هي: "أنا-أنت-هو" أي: المرسل<sup>(1)</sup> (ضمير المتكلم) والمرسل إليه (ضمير المخاطب) وضمير الغائب أي شخص ما أو شيء ما نتحدث عنهما.

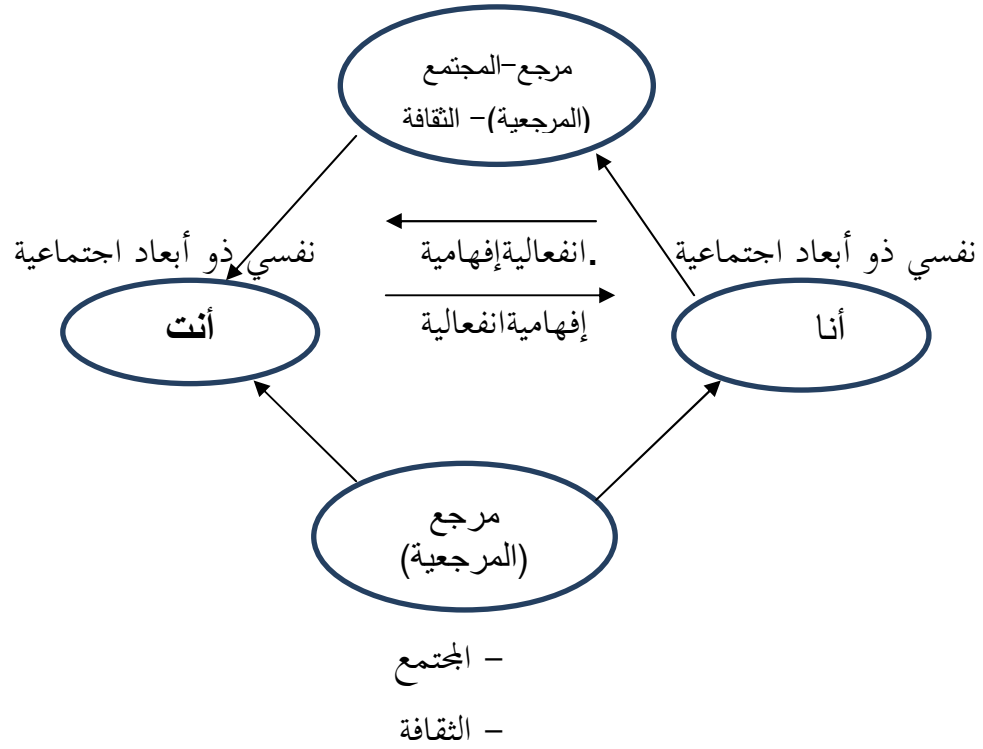
إن أول ما يلحظ في مخطط (بوهلر)، انطلاقه من التصور النفسي، في البحث عن وظائف اللغة، من حيث ارتباط ممارستها بالمجتمع من جهة، وثقافة هذا المجتمع من جهة أخرى، بمعنى أن الفرد المتكلم الذي كان عند (دوسوسير) مجردا أصبح عند (بوهلر) "شخصا" فاعلا اجتماعيا، حاملا لقيمة نفسية "يؤثر ويتأثر" ومن هنا ظهرت تجاوز نموذج التواصل للانغلاق السوسيري، المبني على تعاقب القدرتين النفسية والفيزيائية «التيستخدمها لربط الطرف الثاني لجهازه التواصلية بحيث يعيد إرسال تصور جديد عبر صورة سمعية، فيتحقق التواصل في ظروف وشروط ملائمة»<sup>(2)</sup>.



### خطاطة أ: دورة الكلام عند دو سوسير<sup>(3)</sup> خطاطة ب: دورة الكلام عند بوهلر<sup>(1)</sup>

1 -بومزبر(الطاهر): التواصل اللساني والشعرية، مقارنة تحليلية لنظرية رومان جاكسون، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة، الجزائر، ط: 1، 2007م، ص: 19.  
2-نفسه: ص: 19.  
3-أوكان(عمر): اللغة والخطاب، ص: 67.

لقد أضفى تصور (بوهلر) الجديد، كما هو مبين أعلاه، على العملية التواصلية، صبغة مغايرة، بما منحها، من انفتاح على المجتمع (بمجال التواصل) والثقافة "المتحركة في هذا التواصل".



### \*خطاطة ج: تصور شخصي لنموذج "بوهلر" التواصلية.

وقد تولدت تبعا لهذا التصور وظائف جديدة هي: الانفعالية، والإفهامية، والمرجعية «تقابل الوظيفة الانفعالية، ضمير المتكلم (المرسل)، وتقابل الوظيفة الإفهامية ضمير المخاطب أي المرسل إليه، بينما تقابل الوظيفة المرجعية (التمثيلية) ضمير الغائب أي الشيء أو الشخص الذي يتحدث عنه المتخاطبان»<sup>(2)</sup>، كما يبينه الرسم التخطيطي أعلاه، وهي الوظائف التي أصبحت مرتكز الباحثين بعد ذلك وعلى رأسهم (جاكبسون)<sup>(3)</sup> و(بوبر)<sup>(4)</sup> (POPPER).

1- بومزير (الطاهر): التواصل اللساني والشعرية، ص: 20.

2- السابق: ص: 20.

3- يرى هاليداي أن بوهلر كان محكوما بالتصور الموروث عن أفلاطون وهو: التمييز بين المتكلم والمخاطب والغائب وهذا بدوره مأخوذ عن النحو البلاغي الذي ساد قبل أفلاطون، وهو يقوم على تعلق الأنظمة الكلامية بفصيحة الشخص، مفرقا بين الأول وهو المتكلم والثاني وهو المخاطب والثالث وهو ما عداهما. ينظر: هاليداي ورقية حسن: وظائف اللغة، تر: أحمد محمود نخلة: ضمن "آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر"، ص: 268.

### د- "كارل بوبر" (KARL POPPER) (1953) والوظيفة الحجاجية:

يعتبر عدد من الباحثين<sup>(1)</sup> (بوبر) أحد أكبر المتأثرين بـ (بوهلر) وفكره الفلسفي في فهم اللغة، إذ غالباً ما يذكر في سياقها، إلا أنه يعزى إليه فضل إضافة الوظيفة الحجاجية، عام 1953، تتويجاً لوظائف (بوهلر) السابقة، وجرياً مع اعتبار التصور النفسي في تحديد وظائف اللغة.

### هـ- "رومان جاكسون" (ROMAN JACKOBSON) (1963) "نقطة التحول":

وهو أحد أكثر اللسانيين تأثيراً في البحث اللساني الحديث، في قضية الوظائف اللغوية، وقد لقي نموذج التواصل رواجاً لم يشهده سواه في العالمين الغربي والعربي<sup>(2)</sup>، وتبنته مدارس لغوية عديدة، جعلت منه منطلقاً لتفسير ماهية اللغة في بعدها التواصلية.

لقد كان لبداية (جackson) الأدبية أثر واضح في تشكل نظريته للغة وما تقوم به من وظائف، يأتي التواصل على رأسها، خاصة مع بزوغ مدرسة (براغ) (PRAGUE) (1926) وهي المدرسة البنوية التي يعود فضل تأسيسها لـ (تروبتسكوي) و (جackson) هذا الأخير الذي آمن بأن «الشغل الأساس للسانيات... هو دراسة جميع وظائف اللغة، بما فيها وظيفتها التواصلية»<sup>(3)</sup>.

وقد لخص فواعل العملية التواصلية في ستة عناصر هي:

1) المرسل (DESTINATEUR): وهو مصدر الخطاب وقد تداوله اللسانيون «في قوالب اصطلاحية متباينة مثل: (الباث L' émetteur) و (المخاطب) أو (الناقل) أو (المتحدث)»<sup>(4)</sup>.

1- حمدوي (جميل): نظريات وظائف اللغة، <http://www.doroob.com/?Feed=Rss2&author=750>، ص: 3، تمت زيارة الموقع يوم 2012/04/27 في الساعة 12:00.

2- ينظر: رايص (نور الدين): نظرية التواصل واللسانيات الحديثة، ص: 94-95. وبركة (بسام) وماتيو قويدر وهاشم الأيوبي، مبادئ تحليل النصوص الأدبية، مكتبة لبنان ناشرون والشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان، ط1، 2002 ص: 8-9.

3- بدوح (حسن): المحاور، مقاربة تداولية، ص: 47.

4- بومزير (الطاهر): التواصل اللساني والشعرية، ص: 24.

**2) المرسلُ إليه (RECEPTEUR):** وهو "الطرف الثاني"<sup>(1)</sup>، ويقوم «بعملية التفكيك (Décodage) لكل أجزاء الرسالة سواء أكانت كلمة، أم جملة، أم نصا...»<sup>(2)</sup>.

**3) الرِّسَالَةُ (MESSAGE):** وهي صورة التواصل، ومحتواه، ففيها تتجسد أفكار المرسل إنَّ الشفوية، أو الكتابية، و«تتم هذه العملية استجابة لمجموعة من الدوافع النفسية والفيزيولوجية للمرسل»<sup>(3)</sup>، وقد لاحظ (الطاهر بومزير) أن هذه الوحدات المشكلة للمحتوى، لا تتمظهر لغويا فحسب، وإنما قد ترد لمعناها العام فتشمل إشارات الصم والبكم، وإشارات المرور، وكل الأنظمة الإشارية الأخرى... بمعنى أن محتوى الإرسال لا بد أن يتمحور حول إطار مرجعي معين، وفي ضوء نظام لغوي مقنن "سَنَن" (CODE).

**4) السَّنَن (CODE):** وهو مجموع ما تتشكل منه الرسالة، من «نظام تأليفها التركيبي، وشرطها أن تكون مشتركة ليفهمها طرفا الرسالة»<sup>(4)</sup> وما من شك في أن نجاح العملية التواصلية يعتمد اعتمادا كلياً على تشاركية هذا النظام بين طرفي الخطاب، ولكل لغة أنساقها المتزامنة المتميزة عن غيرها بوظائف مختلفة<sup>(5)</sup>.

**5) السِّيَاق (CONTEXTE):** ويدعى أيضا "المرجع (Le Référent)"، ويكون لفظيا أو غير ذلك، ويتضمن عناصر عدة منها: "الموقع" (SITE) و"الهدف" (Le but) والمشاركون في العملية التواصلية (Les participants)<sup>(6)</sup>.

**6) القناة (CANAL):** وهي ما يحقق التواصل، عبر الربط بين طرفيه "المرسل" و"المرسل إليه"، وقد يكون هذا الربط فيزيائيا أو نفسيا، يقوم بدوره الحِفاظي علاوة على تحقيق التواصل<sup>(7)</sup>، إذ يقوم هذا الطرفان بتوظيف (القناة) «لتمرير أنماط تعبيرية خاصة للتأكد من

1- الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 12.

2- بومزير (الطاهر): التواصل اللساني والشعرية، ص: 25.

3- بدوح (حسن): المحاور، مقارنة تداولية، ص: 46.

4- الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 12.

5- ينظر: بومزير (الطاهر): التواصل اللساني والشعرية، ص: 28.

6- ينظر: نفسه: ص ص: 30، 31.

7- ينظر: بدوح (حسن): المحاور، مقارنة تداولية، ص: 47.

سلامة الممر ووصول الرسالة سليمة إلى جهاز الاستقبال»<sup>(1)</sup>.

وقد استتبع هذا التحديد الهيكلي لعناصر التواصل لدى (جاكسون)، ربطه الآلي بين كل عنصر وما ييدر منه من وظائف، وبذلك أظهر «الوظائف الستة للعناصر الستة التي يعتبرها مكونة لكل قضية لسانية، ولكل تواصل كلامي»<sup>(2)</sup>، متأثراً بنماذج سابقة، خاصة نموذجي (دو سوسير)، و(كارل بوهلر)<sup>(3)</sup>.

غير أن الحيط الدقيق الذي حافظ عليه (جاكسون) دون سواه من اللسانيين هو تحليله «للعلاقات بين اللسانيات والشاعرية موظفاً للأدوات النظرية لمهندسي التواصل»<sup>(4)</sup>.

وفيما يلي الوظائف اللغوية التي أقرها (جاكسون):

## 6-1- الوظيفة التعبيرية (Expressive) أو الانفعالية (Emotive): وأساسها المرسل

في علاقته بالرسالة، وما يتخذه من بعد ذاتي جوهره التعبير أو الانفعال بما يقول، وتتجلى أهمية هذه الوظيفة فيما يتركه المرسل من أحكام وانطباعات حول ما يتحدث عنه أو يتواصل بشأنه<sup>(5)</sup>.

وتتمظهر - عادة - لغويا في صيغ التعجب ولما تحمله من شحنات تعبيرية، انفعالية، سواء في المستوى الصوتي، أو المعجمي، أو النحوي والتركيب<sup>(6)</sup>.

وإن كان حظ كل خطاب منها غير حظ قسيمه، لأن الخطاب المنطوق المباشر يستعمل آليتين اثنتين: فيزيولوجية وتمثل في ما يصحبه من نبر وتفخيم وترقيق وجهر وهمس، وأخرى دلالية، تدرك من المستنات المتعارف عليها اجتماعيا كالتعجب، والاستغاثة والنُدبة...<sup>(7)</sup>.

1- ينظر: بومزير (الطاهر): التواصل اللساني والشعرية، ص: 33.

2- رايص (نورالدين): نظرية التواصل واللسانيات الحديثة، ص: 95.

3- ينظر: بومزير (الطاهر): التواصل اللساني والشعرية، ص: 11 وما بعدها.

4- رايص (نورالدين): نظرية التواصل واللسانيات الحديثة، ص: 95.

5- ينظر: بدوح (حسن): المحاورة، مقارنة تداولية، ص: 48.

6- نفسه: ص، نفسها.

7- ينظر: بومزير (الطاهر)، التواصل اللساني والشعرية، ص: 36.

## 6-2- الوظيفة التأثيرية (Impressive) أو "الإفهامية" (Conative):

ومحورها المرسل إليه وتتسم لغويا باستعمال صيغ النداء والأمر، ولذلك يطلق عليها أيضا مصطلحا "الندائية، والإيعازية"<sup>(1)</sup>.

وتكمن أهميتها في محاولة المرسل دفع المرسل إليه، إلى التأثير وتقمص وضعيات سلوكية أو فكرية تدل على تلقيه مضمون الرسالة، واقتناعه بفحواها وما تدعو إليه من أوامر أو نواه، أو استفهام أو نداء، ولهذا الوظيفة دور حسام في مقام «الإعلام أو الإخبار الذي انعدم فيه محتوى الرسالة المرجعي إزاء الإثارات الهادفة إلى إثارة المستقبل (المرسل إليه) سواء أكانت تلك الإثارة تتم عبر محاولة تشريطه، متوسلة التكرار أم كانت في توجيه تفاعلات عاطفية لا واعية»<sup>(2)</sup>.

ويمكن التمييز هنا بين نوعين من الجمل الطلبية؛ الصريحة، وغير الصريحة، لما بينها من بون في إظهار طبيعة الملفوظ التأثيرية، بالنظر إلى خضوع كل منهما لمبدأ الصدق والكذب، ولهذا نجد هذه الوظيفة أكثر حضورا في الأدب الملتزم والروايات العاطفية «لأن هذين اللونين الأدبيين يعتمدان على مخاطبة الآخر ومحاولة التأثير عليه وإقناعه أو إثارته»<sup>(3)</sup> وترتكز فكرة التأثير بين طرفين متعاكسين هما: المفاجأة والتشبع على حد تعبير المسدي، عبد السلام<sup>(4)</sup>.

## 6-3- الوظيفة المرجعية (La fonction Référentielle):

وهي عائدة إلى المرجع، وقد أوردها<sup>(5)</sup> (جاكسون) عند حديثه عن جهود (بوهلر) في استخلاص وظائف اللغة، ونسبها إليه، بالإضافة إلى الوظيفتين (الانفعالية) و(الإفهامية)، وتظهر - عادة - في الرسائل ذات المحتوى، فهي الوظيفة التي عليها يعتمد «لتعيين الموضوعات كي تأخذ دلالات معينة ولذلك تسمى أيضا بالوظيفة (التعيينية) (Dénnotative)

1- الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 12، وينظر: رايص (نورالدين): نظرية التواصل، ص: 103.

2- نفسه: الصفحة، نفسها.

3- بومزير (الطاهر): التواصل اللساني والشعرية، ص: 39.

4- ينظر: المسدي (عبد السلام): الأسلوبية والأسلوب، ص: 86.

5- ينظر: رايص (نورالدين): نظرية التواصل واللسانيات الحديثة، ص: 104. وينظر: المسدي: الأسلوبية والأسلوب، ص: 120-123.

وبالتالي فهي التي تجسد العلاقة بين الدال والمدلول»<sup>(1)</sup>، وتتمظهر لغويا في الضمائر الشخصية، وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة وأسماء الأعلام وأزمنة الأفعال.

ومن بين المصطلحات الأخرى المعبرة عن هذه الحال التي تحيلنا فيه اللغة إلى أشياء خارجة عن موضوع حديثنا، مصطلحا، الوظيفة (الإيحائية) (Démotive) والوظيفة (المعرفية) (Cognitive)<sup>(2)</sup>.

#### 6-4- الوظيفة الانتباهية (PHATIQUE) أو (التأكدية):

وتتمركز حول وسيلة الاتصال (القناة)، حيث ينشغل أحيانا كل من المرسل والمرسل إليه، عن موضوع الرسالة، للتأكد من سلامة ممر التواصل، باستعمال عبارات نمطية، تُجَدِّد وتعزز هذا الفعل، مثل: "ألو، مرحبا، هل تسمعي" ولهذا تمتاز هذه الوظيفة بأنها تُصنع من قبل المتواصلين معا، خاصة «إذا كان هدف الرسالة في المقام الأول هو إقامة الاتصال أو تمديده، أو السيطرة عليه، أو تأكيده، أو قطعه»<sup>(3)</sup>.

وقد وجدنا (الشهري) يستعمل مصطلحا آخر، أكثر أداءً لوظيفتها عندما عبر عنها «وظيفة إقامة الاتصال»<sup>(4)</sup> لأن المرجع في رسالة الوظيفة الانتباهية أو التأكدية، ليس إلا الاتصال نفسه، وتبرز بصورة كبيرة في أشكال تواصلية اجتماعية، كالأعياد والحفلات، والطقوس، وقد كان (مالينوفسكي) - كما أسلفنا - أول من تفتن لوظيفة هذا الصنف من التعابير في ممارساتنا اللغوية؛ فكأنَّ المرسل، في الوظيفة الانتباهية، يقول للمرسل إليه، أنا هنا، أنا حاضر، واصل حديثك، أو العكس، ولذلك اعتبرها بعض الدارسين، أول وظيفة يكتسبها الأطفال، والوظيفة الوحيدة المشتركة بين العصافير والإنسان<sup>(5)</sup>.

1- بدوح (حسن): المحاور، مقارنة تداولية، ص: 51.

2- بومزير (الطاهر): التواصل اللساني والشعرية، ص: 44، 45، ويبدو أن الباحث وقع في لبسٍ عندما ترجم الوظيفة الإفهامية (CONATIVE) بالمعرفية (Cognitive). ينظر نفسه: ص: 39-44.

3- بدوح (حسن)، المحاور، مقارنة تداولية، ص: 52.

4- الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 13.

5- رايبص (نورالدين): نظرية التواصل واللسانيات الحديثة، ص: 107.

وتعد هذه الوظيفة من أكثر الوظائف التي أولتها الدراسات التداولية أهمية خاصة، لما تحيل إليه نفسيا واجتماعيا من دلالات غير لسانية، أو ما تنطوي عليه من حيل اجتماعية كتجنب حرج الصمت، أو التعبير عن الحب، أو الملل، أو الرغبة في المغادرة..

## 6-5- وظيفة ما وراء اللغة (Méta linguistique):

وهي إحدى وظيفتين، اعتبرهما (جاكسون)، لسانيتين بامتياز، لأن موضوعها هو (السنن) نفسه، فهي الوظيفة التي تتحدث فيها (اللغة) عن (اللغة) ذاتها، ومثال ذلك، لغة النحاة، والمعجميين، وتشكل لغويا في استعمال المتواصلين لعبارات مخفزة على الشرح، أو الضبط المصطلحي، أو وصف (السنن) مثل: أي، ماذا تعني، بمعنى أن، حدد مرادك، هل هذا ما تريده بالضبط، وغيرها من العبارات والألفاظ التي جعلت بعض الدارسين، يسمي الوظيفة المؤدية لها بالوظيفة اللسانية الواصفة<sup>(1)</sup>، ووسمها غيره بوظيفة ما فوق اللغة<sup>(2)</sup>، أو الوظيفة البيانية<sup>(3)</sup>.

## 6-6- الوظيفة الشعرية (Poétique) أو الجمالية (Istitique):

وهي ثاني الوظيفتين اللسانيتين، اللتين سبق ذكرهما. حددها (جاكسون) على أنها العلاقة القائمة بين الرسالة وذاتها<sup>(4)</sup>، وهي الوظيفة التي تحجب الوظيفة المرجعية، وتحاصر دورها في الرسالة، وتبرر في المقابل، ما تتسم به اللغة من جمال وإثارة، وصورة شعرية، وغيرها من فنون البيان، كالسجع، والمجاز، والرمز والأسطورة، وتدخل ضمن هذه الوظيفة أيضا: التوازنات الصوتية المختلفة، وكل ما ينزاح بالرسالة عن اللغة العادية، المألوفة، عبر المستويات: الدلالية، والتركيبية<sup>(5)</sup>.

1- بدوح (حسن): المحاورة، مقارنة تداولية، ص: 53.

2- الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 13.

3- رايس (نورالدين): نظرية التواصل واللسانيات الحديثة، ص: 107 ثم ذكر تشعب الدارسين في ترجمتها، ينظر: نفسه، ص: 107 وما بعدها.

4- نفسه: ص: 109. وينظر للاستفاضة في أبعاد هذه الوظيفة: بركة (بسام) وآخرين، مبادئ تحليل النصوص الأدبية، ص: 8-11.

5- بدوح (حسن): المحاورة، ص: 54. وينظر: أوكان (عمر)، اللغة والخطاب، ص: 85-86.

ويمكن القول، في ختام هذا المطلب، إنَّ اهتمام (جاكسون) بوظائف اللغة، مهَّد لمن جاء بعده، من اللسانيين طريق تأمل البعد الفلسفي للوظيفة اللغوية، فهذا (روبول) (Reboul) - كما سيأتي - يبيِّن بحثه في هذه المسألة على جهود (جاكسون)؛ عندما راح يختبر إلى أي مدى يمكن أن تصدَّق المصطلحات التي ابتدعها، ثم دعا إلى استبدال بعض التسميات أو تحديدها<sup>(1)</sup>.

### و- "دزموند موريس" (D. MORRIS) والتصور المنطقي:

جعل (موريس) (1967) فكرة أن الإنسان جنس حيواني، منطلقاً له لفهم علاقة اللغة بمتكلّمها وظيفياً<sup>(2)</sup>، ولذلك سرعان ما راح يستنج ما انجر عن هذه العلاقة من وظائف، هي أشبه ما يكون بالتراسل المنطقي، فتحدث عن الكلام الإخباري، والكلام الاستثمائي، والكلام التواصلية الذي أثبت له الوظيفة الحفظية التي نجد لها وجوداً أوضح فيما كتبه كل من (جاكسون) و(بوهلر)، وقبلهما (مالينوفسكي)، حين اعتبر بعض الحديث مجرد ثثرة أو "اتصال مجاملة"<sup>(3)</sup>.

### ز- "جيمسبريتون" (BRITTON) والتصور التربوي:

حدد المربيّ الإنجليزي "بريتون" (J. BRITTON 1970) اعتماداً على خلفية تربوية صرفة، ثلاث وظائف للغة هي: الوظيفة التبادلية، التي تؤدي مهمة تبادل الأدوار والأحداث، والوظيفة التعبيرية، والوظيفة الشعرية، وغاية كل هذه الوظائف هو «تثبيت القدرات الكفائية لدى التلاميذ في الإنشاء الكتابي»<sup>(4)</sup>، وتعزيز وظيفة اللغة في سياقها التعليمي، لأنه كان متمسكاً بالرأي الذي يرى، أن الكتابة تطورت أولاً في سياق تعبيرية، ثم اتجهت ثانياً إلى الكتابة التعاملية، التي تعني - حسب - التأكيد على دور المشارك. ويظهر من خلال هذا

1- الشهري (عبد الهادي): إستراتيجيات الخطاب، ص: 13.

2- حمداوي (جميل): نظريات وظائف اللغة، <http://www.doroob.com/?Feed=Rss2&author=750>، ص: 4، تمت زيارة الموقع يوم 2012/04/27 في الساعة 12:00.

3- هاليداي: وظائف اللغة، تر: أحمد محمود نحلة، ضمن (آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر)، ص: 269.

4- حمداوي (جميل): نظريات وظائف اللغة، <http://www.doroob.com/?Feed=Rss2&author=750>، ص: 3، تمت زيارة الموقع يوم 2012/04/27 في الساعة 12:00.

الطرح، تبنيه لتقسيم (بوهلر) وإن استثمره في سياق مغاير.<sup>(1)</sup>

### ح- (روبول) و(هاليداي) و(ليتش) (HallidayetLeech) (Reboul):

انطلق (روبول) (Reboul) في بحثه عن وظائف اللغة من سؤال جوهري، هو لماذا نتحدث؟ ثم سعى للإجابة عنه باستعراض تحليل (جاكسون) الشهير. وقد لاحظ في أثناء هذا التتبع، أن الإجابة عن هذا السؤال البسيط ظاهرا، المعقد باطنا، تقود إلى ستّ كفاءات مختلفة، هي التي أوردها سلفه (جاكسون)، وبدا له أن يوردها هو الآخر، لكن على غير الترتيب الأول<sup>(2)</sup>.

ويمكن أن نختصر جهده في النقاط الآتية:

1) اقتراحه تسميات جديدة لبعض الوظائف مثل: وظيفة التسمية أو التعريف بدل الوظيفة المرجعية.

2) إقراره لدور التنعيم والنبر أو ما سماه «النبرات والفروق (غير الفونولوجية) بين النطق المطول والنطق المقصر»<sup>(3)</sup> وكان يقصد تحديدا، علاقة الرسالة (منطوقا) بالمرسل (ناطقا) وأثر ما يحمله في ثناياه من معان.

3) ربطه المطلق، أو احتكامه، للمقاصد والغايات في تحديد الوظيفة اللغوية.

وقد أنتج هذه المنطلقات الثلاث، قيما جديدة لم يلتفت إليها (جاكسون)، مثلها (روبول) في الجدول الآتي<sup>(4)</sup>:

1- ينظر: هاليداي ورقية حسن: وظائف اللغة، تر: أحمد محمود نخلة ضمن (آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر)، ص: 268.  
2- روبول، اللغة والإيديولوجيا، ضمن (دفاتر فلسفية)، إعداد وترجمة: محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء-المغرب، ط4، 2005، ص ص: 62-63.  
3- نفسه: ص: 64.  
4- نفسه، ص: 67.

| القيمة         | الوظيفة     | قطب التواصل |
|----------------|-------------|-------------|
| الحقيقة        | مرجعية      | المرجع      |
| الصدق          | تعبيرية     | المرسل      |
| المشروعية      | إيعازية     | المرسل إليه |
| الجمال         | شعرية       | المرسول     |
| المجاملة       | قولية       | الاتصال     |
| موافقة القواعد | فوق - قولية | القواعد     |

إن الجدير -حقا- بالذكر، في ختام الحديث عن جهود (روبول)، هو تجاوزه للتحديد "الصوري" الذي وسم به (جاكسون) الوظائف اللغوية، بحكم أنه -جاكسون- «عاش متنقلا من مدرسة إلى أخرى فمن حلقة موسكو مع الشكلايين الروس إلى حلقة براغ مع اللسانيين البنويين إلى الحلقة اللسانية لنيويورك حيث ساهم بقسط وافر في أبحاثها [...] وأعتقد أنه في تلك الأثناء [...] تأثر بالنظرية الرياضية للتواصل لصاحبيها (شانون) و(ويفر) وكذا بالنظرية الإعلامية المتطورة لـ(فينر) وأخذ عنهم»<sup>(1)</sup>.

ولذا بدا واضحا أن المفهوم المحوري الذي كان مسيطرا على فكر (جاكسون) هو أن اللغة ليست مجرد وسيلة للتواصل، بل هي ما يؤسس للتواصل<sup>(2)</sup>، وهو المفهوم ذاته الذي جعل الوظيفة الشعرية أكثر الوظائف تأثيرا في حقل الدراسات الأدبية والنقدية واللغوية.

وما كانت الحال لتكون كذلك، لو التفت اللسانيون إلى النقد النوعي الذي سّور به (روبول) جهود (جاكسون) خاصة حديثه عن القوانين المنتجة للخطاب والتي أفضت بدورها إلى البحث في الغايات والمقاصد وهي بلا ريب الشرارة التي أشعلت فتيل البحوث اللغوية

1-رايس(نورالدين): نظرية التواصل واللسانيات الحديثة، ص:107 ثم ذكر تشعب الدارسين في ترجمتها ينظر نفسه: ص ص:111-112.

2-نفسه: ص:112.

الوظيفية، والتي عدّت اللغة «شكلا اتصاليا يعمل في أنظمة اجتماعية كبرى»<sup>(1)</sup> يدخل في صميمه كل ما يتعلق بالأهداف، والمقاصد والافتراضات والخطط.

إن ما قام به (روبول) - حسب رأبي - يتجاوز الحكم النمطي المطرد حوله، لأن نتلمس بجلاء، بذور التفكير التداولي في ما كان يرمي إليه من تعقيدات، كحديثه مثلا:

عن الأفعال اللغوية، وتمييزه بين ما يقبل الوصف بالصدق وما لا يقبل (الخبر والإنشاء)<sup>(2)</sup>، وتلميحه إلى الوظيفة الإنجازية، المركوزة في فعل التلفظ، والتي أذكأها - فيما بعد - (أوستين) حين اعتبر الوظيفة الإنجازية، فعلا يمكن الملفوظات الإنشائية، من إنشاء واقع، بموجب التلفظ، ونفى عنها أن تكون مجرد تقديم صورة صادقة، أو كاذبة<sup>(3)</sup>.

كما نتلمس إشارة مبكرة إلى بعض المبادئ التي أضحت من أسس التداولية اللسانية، في حديث (روبول) عن الوظيفة القولية، (الانتباهية) أو (إقامة الاتصال)، حيث تجاوز طرح جاكبسون، ليشير بوضوح إلى ما سماه - آنفا - هاليداي، وبراون، ويول، "الوظيفة التعاملية" والتي تنتج عبر استعمال ألفاظ استعمالا تواصليا هدفه تأسيس العلاقات الاجتماعية، يقول (روبول): «... والوظيفة القولية مقننة في طقوس المجاملة لقولنا: لي شرف أن أستمع إليك، والأمر هنا لا يتعلق بالبحث عن حقيقة في مثل هذه الصيغ ولا عن صدقها، إن دلالة المجاملة هي أن المرء يريد أن يكون مؤدبا وأنه يقبل التواصل وأن يدخل في علاقة كلامية مع نفسه ومع الآخرين»<sup>(4)</sup>.

وهو المبدأ نفسه الذي اعتمد عليه (ليتش Leech)، في تنظيره للتداولية، حين افترض في المرسل «أن يراعي العلاقة الودّية بينه وبين المرسل إليه، أو يؤسسها، إذا لم تكن موجودة»<sup>(5)</sup>.

1- الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 14.

2- ينظر: روبول: اللغة والإيديولوجيا، ضمن (دفتر فلسفية)، ص: 63.

3- ينظر: الشهري، ص: 18 وينظر: الميساوي (خليفة)، الوصائل في تحليل المحادثة - دراسة في إستراتيجيات الخطاب، عالم الكتب الحديث، إربد - الأردن، دط، 2012، ص ص: 190-191.

4- ينظر: روبول: اللغة والإيديولوجيا، ضمن (دفاتر فلسفية)، ص: 66.

5- تغزاوي (يوسف): الوظائف التداولية، ص: 199.

أمّا هاليداي، فقد حاول حصر أهم وظائف اللغة<sup>(1)</sup>، في التصور الثماني الآتي:

- 1) الوظيفة النفعية (الوسيلة)، وقد اختصرها في عبارة "أنا أريد".
  - 2) الوظيفة التنظيمية: وتؤديها جملة "افعل كذا ولا تفعل كذا".
  - 3) الوظيفة التفاعلية: وهي وظيفة (أنا وأنت) وتظهر البعد الاجتماعي الممارس للغة في مقامات مختلفة.
  - 4) الوظيفة الشخصية: وبها يعبر الفرد عن أفكاره ومشاعره حيال ما حوله، وتتسم هذه الوظيفة بأنها تظهر الجدلية الكامنة بين اللغة والفكر.
  - 5) الوظيفة الاستكشافية: وبها يستكمل الفرد النقص الذي يعتوره وهو يشق طريقه في بيئته، فيستخدم اللغة ليسأل، ويستكشف.
  - 6) الوظيفة التخيلية: وتسمح للفرد بتجاوز الواقع، وصهر تجاربه في قوالب لغوية غير اعتيادية، للترويح أو التحفيز أو التعبير عن جوانب خفية في ذاته.
  - 7) الوظيفة الإخبارية (الإعلامية): وتكمن في ما يتبادله الأفراد من معارف ومعلومات، وأخبار، قد تتعدى مجرد النقل والإعلام إلى التأثير والإقناع<sup>(2)</sup>.
  - 8) الوظيفة الرمزية: وتتجلى في البعد الرمزي لألفاظ اللغة، وما تنطوي عليه من إشارات تومئ إلى الموجودات في العالم الخارجي.
- وحري أن نسجل بعد هذا العرض، ارتباط الوظيفة - عند هاليداي - بالنمو العقلي

1- يرى مصلوح (سعد): "أن هاليداي كان محتكماً لثلاث وظائف كبرى هي: الوظيفة التصورية، والوظيفة التفاعلية والوظيفة النصية" ينظر: في النص الأدبي (دراسة أسلوبية إحصائية)، النادي الأدبي الثقافي جدة- المملكة العربية السعودية، ط1، 1991، ص: 50 وقد أشار الشهري إلى ذلك أيضاً، ينظر: إستراتيجيات الخطاب، ص: 14، 15، ثم توسع في ذكر باقي الوظائف في الهامش، ينظر: نفسه، ص: 5-9، وينظر: نخلة (أحمد محمود): آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص: 264 وما بعدها، حيث، اعتبر نظرية هاليداي في وظائف اللغة، نظرية ذات مراحل ثلاث، واكتت نضج صاحبها خلال مسيرته العلمية الحافلة.

2- ينظر: يوسف جمعة سيد: سيكولوجية اللغة والمرض العقلي، عالم المعرفة ع145، الكويت، دط- دت، ص: 20-23. وحمداوي (جميل): وظائف اللغة، ص: 4، وقد قصرها على سبع، مسقطا الوظيفة الرمزية.

والنفسي والجسدي للطفل، أي أن لكل مرحلة من المراحل العمرية، سماتها المركبة (نفسية، عقلية، جسدية) التي تفرض اصطباغها بصبغة معينة، فتنشأ على إثرها وظيفة مهيمنة تعدّ تنويعاً لتراكم وظائف سابقة، ففي المرحلة الثانية - وهي المرحلة الانتقالية في حياة الطفل، وتكون ما بين (18-24) شهراً وتوصف بأنها أكثر المراحل تجريداً وتعقيداً- تندمج الوظائف الست الأولى، لتصبح ثلاث وظائف عامة هي: الوظيفة التداولية (الوسيلة + التنظيمية) ووظيفة النظر (التفسيرية + الوظيفة الشخصية) والوظيفة التفاعلية<sup>(1)</sup>.

بينما يبني (ليتش) تصوره لوظائف اللغة، على منزع وظيفي بحث، يستمد شرعيته من رغبة هاليداي الملحة، ومغالاته في اقتناعه -أي هاليداي- بأن هذه الوظائف الثلاث، «لا تعدو أن تكون مظاهر لنفس الوظيفة، وظيفة تمكين المتخاطبين من التواصل»<sup>(2)</sup> وإلى احتكامه للأطروحة القائمة على فكرة أن البنية اللغوية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بوظيفة التواصل<sup>(3)</sup>، فلا غرو-إذن-أن تخضع هذه الوظائف الثلاث للنحو، وتنصهر فيه اللغات الطبيعية في إطارها من وجهة نظر وظيفية<sup>(4)</sup> أي في ظل ثنائية (قدرة/إنجاز) التي تعني معرفة القواعد التداولية واستثمارها.

### ط- وظائف اللغة في ضوء فلسفة التحليل اللغوي :

إن مما تقتضيه الضرورة المنهجية، تتبع مفهوم الوظيفة اللغوية عند أرباب الفلسفة التحليلية الذين كان لهم دور هام في إنماء الدرس اللساني، وتطويره، فالمقاربة التداولية- مثلاً- باعتبارها موضوع بحثنا نشأت في حوض الفلسفة العادية، مع رواد أمثال: (فريج Frege) و (راسل Russell) و (فتجانشتاين WITTGENSTEIN) و (ستراوسن Strawson) و (كارناب Carnap) وغيرهم<sup>(5)</sup>. وقد كان الدافع المشترك الذي حدا بمؤلاء إلجعل اللغة موضوعاً، هو

1- ينظر: الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص ص: 571-572، هامش: 25 ويقصد بالتفسيرية (الاستكشافية).

2- تغراوي (يوسف): الوظائف التداولية، ص: 95.

3- نفسه: ص: 97.

4- المتوكل (أحمد): الوظائف التداولية في اللغة العربية، دار الثقافة، الدار البيضاء - المغرب، ط1، 1985، ص: 11.

5- ينظر: إسماعيلي علوي (عبد السلام): ما التداوليات؟ ضمن (التداوليات على استعمال اللغة)، ص: 17.

إيمانهم بأن فهم الإنسان لذاته ولما يحيط به لا بد أن يمر أولاً بفهمه للغة<sup>(1)</sup> «وتلك رؤية مشتركة بين جميع تيارات الفلسفة التحليلية واتجاهاتها [...] ذلك أن فلسفة عصرنا، وخلافاً للعصور السابقة\*، يوجد بينها اهتمام مشترك باللغة إلى حد أن جميع مسائل الفلسفة [...] تجري مناقشتها، بصورة واضحة أو غير واضحة عبر مصطلحات وإجراءات لغوية»<sup>(2)</sup>.

وفي ضوء هذا الطرح، ميز فلاسفة اللغة السابقون بين وظيفتين أساسيتين، تؤديهما – اللغة – هما:

(1) الوظيفة المعرفية الإخبارية.

(2) الوظيفة التعبيرية الانفعالية<sup>(3)</sup>.

فتتطلع الوظيفة الأولى بالإشارة إلى ما هو موجود في العالم الخارجي من وقائع وأحداث تعكسها لتحقيق "المعرفة" أو "الإخبار" وقد شكل هذا الفحوى موضوع نقاش حاد بين أعضاء (حلقة فيينا) التي انضم إليها جمع غفير من الفلاسفة أمثال: (هانزمان Hanshan) و(جودل Codal) و(كارناب Carnap) و(يوهوس Wohos) و(نويراث Nourath) و(فايزمان Faisemane)<sup>(4)</sup>.

بينما تختص الوظيفة التعبيرية بنقل الأحاسيس والانفعالات والمشاعر بواسطة الألفاظ والعبارات (اللغة) نقلاً لا يشترط فيه مراعاة التطابق بين اللفظ وما يحيل إليه، أو ما يسمى في تراثنا البلاغي (مبدأ الصدق والكذب) لتحقيق أهداف تواصلية محددة.

- 1- يرجى العودة إلى كتاب: أوكان(عمر): اللغة والخطاب، ص ص: 15، 16، 17، ففيه تتبع كرونولوجي لهذه المسألة.
- \*- يمكن أن نعترض - بشدة - على هذا الطرح، ونعتبره غير متأن، لأن الفلسفة التقليدية، كان لها شرف طرق هذا الباب، وعودة سريعة إلى مؤلفات أفلاطون - مثلاً - كفيلة بتبديد هذا الزعم "فقد سبق لأفلاطون في محاوره "فراطيلوس" أن أوضح أن مشكلة "الصدق" في الكلمات أو الأسماء المعزولة يجب أن تبقى غير محسومة، لأن التسمية لا تستنفد قوة الكلام أو وظيفته...". ينظر: بول ريكور: نظرية التأويل، تر: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء (المغرب) ط2، 2006، ص ص: 23- 24.
- 2- صحراوي (مسعود): في الجهاز المفاهيمي للدرس التداولي المعاصر، ضمن (التداوليات علم استعمال اللغة)، ص: 35.
- 3- بوقرة (نعمان): الخطاب الأدبي ورهانات التأويل "قراءة نصية حجاجية تداولية"، عالم الكتب الحديث، إربد - الأردن، ط1، 2012، ص: 80.
- 4- نفسه: ص، نفسها.

ومن ثم انصبت جهود (ليتش) في تدارك مأخذ من سبقوه، فاصطنع نموذجاً قوامه تكاتف «عناصر النحو والبلاغة في وظيفة اللغة الموجهة لتحقيق هدف المرسل»<sup>(1)</sup> أي أنه أعلى من شأن الوظيفة النصية، لما لها من قدرة على إظهار القوة الإنجازية في الخطاب الموجه إلى المرسل إليه، وجعل الوظيفة التعاملية تابعة للوظيفتين الأخريين، فتكون هذه الثلاثة على خط متتابع رأسياً، بحيث تحتل فيه الوظيفة التعاملية ذروته لأنها تمثل قيود المخرجات، إذ لا يمكن أن يتحدد النص إلا في ضوء ما ترتضيه، من خلال الاحتكام إلى مبدأي التعاون والتأدب، ثم تليها الوظيفتان الأخريان، التصورية والنصية، بيد أنه -ليتش- لم يتردد في إثبات وظيفة النص اللغوية، بدل القول بأن اللغة لها وظيفة نصية<sup>(2)</sup>، فأعطى بهذا قيمة للمتلفظ به.

وبناءً على هاتين الوظيفتين، قسّم هذا المنظور العبارات إلى قسمين هما:

1) عبارات تحليلية، تراعي مبدأ الصدق والكذب، فتكتفي بتحقيق المطابقة بين العالمين الخارجي والداخلي.

2) عبارات تركيبية، وتقوم على إضافة معارف جديدة إلى مخزون التجارب الخاصة بالنظر إلى معيار تصديقها واقعياً<sup>(3)</sup>.

وتحت وطأة هذا الاختزال الفلسفي لوظائف اللغة، في بعدين متعاكسين: عالم خارجي وذات داخلية (ذات المرسل)، سعى (فتجنشتاين) إلى حيلة مبتكرة سماها "الألعاب اللغوية"<sup>(4)</sup> وإن كانت فكرة "الألعاب" هذه قد طرحت في مراحل زمنية أسبق، عند (هايدجر Heidegger) (1889-1976) مرتبطة بنظرته إلى اللغة باعتبارها "مسكن الكينونة"<sup>(5)</sup> فاللغة هي التي تقوم الأشياء وهي التي تعطي معنى للإنسان، وفيها تتجلى الحقيقة المحضة للعالم وهو

1- الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 16.

2- نفسه: ص: نفسها.

3- نفسه: ص: 81.

4- صلاح إسماعيل عبد الحق: التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، دار التنوير، بيروت - لبنان، ط1، 1993، ص: 135-136.

5- إيجيلتون (تيري): نظرية الأدب، تر: نادر ديب، منشورات وزارة الثقافة، دمشق - سورية، 1995، ص: 114.

نوع من اللعب قوامه الألفاظ<sup>(1)</sup>، وما تجسده من معان مرمز لها، في نظام متكامل له قواعده، وأطره المتحركة به، تماما كلعبة التنس، أو لعبة أخرى.

ولعل مصطلح (الترميز) هذا، يستدعي عرض رأي له صلة وثيقة، بما ذهب إليه (فتجنشتاين) من جهة، وما نحن بصدد من جهة أخرى، يذهب فيه صاحبه إلى أن الوظيفة الوحيدة للغة هي ما يقوم به الإنسان من اختزال للعالم في رموز بواسطة اللسان، «فالوظيفة الرمزية هي جوهر اللسان وأساس الإنسان والثقافة [...] إن الملكة الرمزية لدى الإنسان تبلغ تحقّقها الأعلى في اللسان، الذي هو التعبير الرمزي المتميز، وكل الأنساق الأخرى للتواصل [...] مشتقة من اللسان»<sup>(2)</sup>.

وهو ذو مزايا لا وجود لها فيما سواه، فهو ذو وجهين، واقعة فيزيائية وهو في الوقت عينه بنية غير مادية.

كما أنه يقدم نموذج بنية علاقية غاية في التماسك بما يؤسس له من التحويلات المتماثلة من التسميات، وهي التي ندعوها بالمجازات، «ولو يسلسل القضايا في استدلال ويصبح أداة الفكر الاستدلالي»<sup>(3)</sup>، وهو أيضا بخلاف الأنساق التمثيلية الأخرى، اقتصادي إلى حد بعيد، لأنه لا يفرض أي عناء، أو انتقال جسمي، أو مجهود عضلي، وهو ما يرفعه لأن يكون الوسيط المثالي "الجهاز الرمزي" الممكن بين الإنسان والعالم<sup>(4)</sup>.

ذلك هو رأي (بنفنست) (E.Benveniste) الذي جهر به في كتابه (قضايا اللسانيات العامة) (1966) "Problèmes de linguistique Générale"، وإن كان لا نعدم مثل هذا المذهب في كتابات السلوكيين أمثال: (بياجي) (Piaget) خاصة كتابه "تكوّن الرمز" الذي يؤكد فيه خاصيتين أساسيتين للغة هما:

-أنها ليست كما يعتقد أغلب الفلاسفة واللسانيين، المميّزة للتفكير، بل هي مجرد

1- بوقرة (نعمان): الخطاب الأدبي ورهانات التأويل، ص: 83.

2- بنفنست (إميل): وظائف اللغة، ضمن (دفاتر فلسفية)، ص ص: 67-68.

3- نفسه: ص: 68.

4- نفسه: ص: 69.

«شكل من أشكال المعرفة الذهنية»<sup>(1)</sup>.

-والثانية، هي أنها - اللغة - ليست إلا مظهرًا تتجلى من خلاله الوظيفة الرمزية، بعد تفاعلها مع عناصر محيطية بها (الوسطان المادي والاجتماعي) غير أنه من المفيد أن نشير إلى تجاوز مفهوم الرمزية عنده -بياجي- إلى مصطلح (السيمائية)<sup>(2)</sup> وهو ما يدعونا للتساؤل عن حقيقة مراده، خاصة وأن المدرسة السلوكية تخضع كل النشاطات الإنسانية -حتى اللغة- للقانون، مثير -استجابة، وإذا تكرر صار نسقا من العادات، وبالتالي فهي لا تفسر اللغة إلا في إطار آلي، وهو ما نجده عند أب السلوكية (واطسون) وعند رائد السلوكية اللسانية (بلومفيلد)<sup>(3)</sup>.

يجيبنا عن هذا التساؤل (عمر أوكان) فيقول: «... ولا يمكن فهم تصور -بياجي- عن اللغة (قلنا تصوره ولم نقل نظريته، لأن (بياجي) لم ينتج نظرية في اللغة) دون الإلمام بضرورة فكره عن البنيات الذهنية؛ حيث إن حديثه عن اللغة لم يكن لذاتها (وفي ذاتها) وإنما جاء لدى حديثه عن التطور المعرفي ومراحل الذكاء المعروفة»<sup>(4)</sup>.

إذ يرجع اهتمام (بياجي) باللغة إلى محاولة تفسيره لجدلية الفكر/اللغة، عند الطفل، وهو ما دعاه - فيما بعد - إلى تكريس جهده كله، لتتبع ما يقوله الأطفال، ليخلص إلى نتيجة مفادها «أن الوظيفة الرمزية تظهر قبل اللغة إن يقوم الطفل بالتمثيل عن طريق المحاكاة واللعب الرمزي قبل مجيء اللغة، التي ليست إلا شكلا من أشكال الوظيفة الترميزية»<sup>(5)</sup>، ومن ثم تتنامى هذه المنظومات السيميائية، مع مسيرة الطفل الذهنية، حتى تصبح أنضح، وأكمل، وأقدر على التعبير عن الفكر.

نستنتج مما سبق أن (بياجي) مثل (بنفست): بحث في وظيفة اللغة، بعيدا عن الطرح

1- أوكان (عمر): اللغة والخطاب، ص: 36.

2- نفسه: ص: 69.

3- ينظر: رايص (نور الدين): نظرية التواصل واللسانيات الحديثة، ص: 172-179.

4- أوكان (عمر): اللغة والخطاب، ص: 34.

5- نفسه: ص: 39.

التقليدي، المؤطر لها، محاولاً إيجاد آفاق جديدة، بطرح أسئلة غير محدودة عن الإنسان وعلاقته بالعالم والمجتمع وإن أثارت إجاباته معارك معرفية كثيرة مع التوليدية (تشومسكيوفودور) ونظرية الكوارث (روني، طوم وجان بيطيطو)<sup>(1)</sup> ولكنه في النهاية - مثله مثل بنفست - لم ينف عن اللغة وظيفتها التواصلية، وإنما أثبت لها شكلاً مستحدثاً من أشكال التواصل أسماه «الجهاز الرمزي أو السيميائي».

### ي- وظائف اللغة في اللسانيات التداولية " بين الإنجاز والمقصدية":

سبق وأن أشرنا إلى تحول (اللغة) عند فلاسفة العصر الحديث، من مجال مبعد، إلى حقل تأثير، تتجاذب فيه شتى التيارات الفلسفية والنقدية، والأنثروبولوجية.. وكيف اعتبرها هؤلاء جميعاً مدخلاً لا بديل له إلى فهم الذات والوجود، وقد أنشأت هذه الأبحاث المختلفة مشرباً، لدى فلاسفة اللغة تحديداً، نظرتين متعاكستين هما:

1) ما ذهبت إليه الوضعية المنطقية إلى اعتبار اللغة مجرد وسيلة لوصف الوقائع الموجودة في العالم الخارجي بعبارات إعلامية (إخبارية) على عكس الحكم عليها صدقاً أو كذباً بالنظر إلى الواقع الذي تصفه، أما إن استحال الحكم عليها لعدم استنادها إلى واقع تطابقه فهي مجرد عبارات لا معنى لها، فأخرجوا - بذلك - معظم النصوص الأدبية، والخطابات الدينية، لأنها وفق منظورهم المنطقي لا معنى لها.

2) بينما ذهب أنصار الفلسفة العادية، إلى أن وظيفة اللغة لا تقتصر على تقرير الوقائع أو وصفها، لأن بعض أشكالها، قد يؤدي وظائف أخرى كالأمر والنهي والاستفهام والتمني والشكر والتهنئة واللعن، والقسم والتحذير... الخ، فنفوا عن اللغة سمتها المنطقية الدقيقة، ومعناها المؤول الثابت وأعادوها إلى الاستعمال أو (السياق).

ويرجع كثير من الدارسين<sup>(2)</sup> فضل ذلك إلى فلاسفة اللغة العادية في أكسفورد «خلال

1- السابق: ص: 34.

2- ينظر: نخلة (محمود أحمد): آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص: 41-42 وينظر كذلك: صحراوي (مسعود): في الجهاز المفاهيمي للدرس التداولي المعاصر، ص: 34. إلا أنه يرى أن المؤثر الأول في (فتحشتاين) وأتباعه هو الفيلسوف الألماني (فريج) ينظر: ص: 35-36، وإن يكن من أمر فإن الخلاف غير وارد حول أثر تيار الفلسفة العادية في تغيير وجهة نظر اللغويين تجاه اللغة ووظائفها.

العقدين الرابع والخامس من القرن العشرين، وإلى بعض الفلاسفة في كمبريدج» وعلى رأسهم: (فتجنشتاين) و(راسل) اللذين طفقاً يبحثان عن لغة مثالية خالية من عيوب اللغة العادية بحيث تخدم الفكر وتصلح للتعبير عنه ثم اشتغل (فتجنشتاين) بالبحث في اللغة العادية، وكان لمسعاة أثراً مباشراً بـ(أوستين J.Austin) وعصبته.

ونستنتج فيما يلي جهود أوستين و" تيار فلسفة اللغة العادية" وما أضافوه إلى قضية.

### ي-1- أوستين والوظيفة الإنجازية:

إن الحديث عن إسهامات (فلسفة اللغة العادية) في إغناء الدرس اللساني التداولي، يحتم علينا العودة مرة أخرى إلى دور (فتجنشتاين) البالغ في تحفيز (أوستين) ومدرسة (أكسفورد) وقد بدا هذا التأثير تحديداً في كتاب أوستين الشهير (عندما يكون القول هو الفعل)<sup>(1)</sup> وهو مجموع محاضرات ألقاها في هارفارد سنة 1955\*، ثم جمعها (إرمسون Urmson) بعد وفاته المفاجئة سنة 1960 بعنوان "How to do things with words"<sup>(2)</sup> كيف نصنع أو ننجز الأشياء بالكلمات<sup>(3)</sup>.

إن أبرز ما جاء به (أوستين) إنكاره على الوضعية المنطقية، اقتصار اللغة على وصف العالم ووقائعه وصفاً إما أن يكون صدقاً أو كذباً لأن بعض العبارات اللغوية تشبه في تركيبها "العبارات الوظيفية" أي أنها لها أثراً مباشراً، أو غير مباشر يستتبعها، مجرد التلفظ بها، دون أن يلزم ذلك حكم بالتصديق أو التكذيب كقول الرجل لامرأته<sup>(4)</sup>: «أنت طالق أو كأن يقول رجل وقد بشر بمولود: سميت به يحيى» فهذه العبارات وأمثالها، لا تصف شيئاً من وقائع العالم الخارجي، بقدر ما تؤدي فعلاً، أو توجب واقعاً جديداً فهي "أفعال كلام" أو "أفعال كلامية" وهي «كل ملفوظ ينهض على نظام شكلي دلالي إنجازي تأثيري... يعد نشاطاً

1- صحراوي (مسعود): في الجهاز المفاهيمي للدرس التداولي المعاصر، ص: 38.

\*- بتأثير من (فتجنشتاين) ألقى (أوستين) مجموعة من المحاضرات في أكسفورد ما بين (1952-1954)،

ينظر: بوقرة (نعمان)، الخطاب الأدبي ورهانات التأويل، ص: 89.

2- نخلة (محمود أحمد): آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص: 42.

3- بلغت عدتها اثنتي عشرة محاضرة، ينظر نفسه، الصفحة نفسها.

4- نفسه: ص: 62.

ماديا نحويا يتوسل بأفعال قولية (Locutoires Actes) إلى تحقيق أغراض إنجازية (Illocutoire Actes) (كالطلب والأمر والوعد والوعيد... الخ) وغايات تأثيرية (Actes perlocutoires) تخص ردود فعل المتلقي»<sup>(1)</sup> كالقبول والرفض وغيرهما.

وقد تساءل (أوستين)-و«هو يستعرض هذا النمط من العبارات»- عن التسمية التي يجب أن تطلق عليها، ليقتراح عليها، مصطلح (جملة إنجازية) وهو الاسم الذي «يدل على أن إحداث التلفظ هو إنجاز للفعل»<sup>(2)</sup>.

وقد ترتب عن هذا التصنيف الجديد، مفهوم انبثق من (طبيعة الفعل القولية) المؤسسة لسلسلة التتابعات الملفوظية المفردة لوظيفة لغوية جديدة هي (الوظيفة الإنجازية). يقول فان دايك إنه: «غالبا ما يؤخذ مفهوم الفعل الإنجازي في علاقته الوثيقة مع مفهوم الحدث [...] فالفعل هو كل حدث حاصل بواسطة الكائن الإنساني»<sup>(3)</sup>.

إنربط (فان دايك) للفعل بالحدث الناتج عن الكائن الإنساني، إخراج وصرف لكل حدث غير إنساني، أي تعزيز لوظيفة الإنجاز التي لا يمكن تصورها إلا باللغة الإنسانية، والحدث في عرف (دايك) هو «كل تغيير يستلزم اختلافا بين العوالم /الأحوال أو بين المواقف»<sup>(4)</sup> مما يجعل الأفعال الإنجازية لا تؤدي وظيفتها إلا وهي تحدث وتنشئ متواليات من الأفعال، تتنامى شيئا فشيئا لتصبح خطابا.

ويدل مصطلح الخطاب، على أن الإنسان من حيث هو فاعل، محكوم بجملة من الغايات التي يختارها لنفسه، عكس الحيوانات التي تسيروها الغريزة، وإن كانت تنتج مثلنا سلسلة من الأصوات، ولذلك لا بد أن نؤكد أن الفعل الكلامي الإنجازي قائم على (الحدث) (Act) لا "الفعل" (Verb) الذي يعد حسب - دايك- مؤشرا أو سلسلة لغوية لإنجاز الحدث.

1- صحراوي (مسعود): في الجهاز المفاهيمي للدرس التداولي المعاصر، ص: 51.

2- أوستين (جون): نظرية أفعال الكلام العام (كيف تنجز الأشياء بالكلمات؟)، تر: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء (المغرب)، 1996، ص: 17.

3- دايك (فان): النص والسياق، تر: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء- المغرب، دط، 2000، ص: 228.

4- نفسه: ص: نفسها.

ويبقى لزما علينا، أن نسجل في آخر هذا المبحث، أسبقية الدرس النحوي العربي إلى طرح مثل هذه القضايا، طرحا يدعو إلى الإعجاب، والدهشة، فهذا أشهر علماء النحو (سيبويه) يعرف الفعل تعريفا جديرا بالتسجيل، حيث يقول: «...وأما الفعل فأمثلة أخذت من لفظ أحداث الأسماء وبنيت لما مضى، ولما يكون ولم يقع، وما هو كائن لم ينقطع»<sup>(1)</sup>. وهي إشارة-أوضح من أن تشرح- تحيل إلى ارتباط الأفعال بأحداثها، ولذلك تتغير دلالتها كلما تغيرت صورة اشتقاقها.

والأحداث -عند سيبويه- المصادر نحو: "الضرب، والحمد والقتل"<sup>(2)</sup> وهو يقصد أن الأبنية المختلفة» أخذت من المصادر التي تحدثها الأسماء، وأراد بالأسماء أصحاب الأسماء وهم الفاعلون، تحرزا من أن يظن ظان بأنه يقصد أن الأحداث مشتقة من الأسماء»<sup>(3)</sup>.

وقد لفت أنظار الباحثين، أمثال هذه الإشارات التراثية، فانكبوا على دراستها، محاولين إيجاد روابط متينة، بين الدرسين العربي القديم، والغربي المستحدث، كالباحث المصري (محمود أحمد نخلة) الذي أقرّ أمرا بالغ الأهمية « وهو أن منطلق التفكير في هذه النظرية - يقصد أفعال الكلام- عند أوستين وعند علمائنا واحد [...] ووصلوا إلى الفكرة المحورية التي كانت المنطلق إلى وضع هذه النظرية، وهي أن من الكلام ما يكون فعلا أو إيقاعا لفعل بلفظ يقارنه في الوجود، وليس وراء ذلك تماثل بين وجهتي النظر»<sup>(4)</sup>. وهو ما حاول تجسيده من خلال دعوته إلى بلورة نظرية عربية للأفعال الكلامية<sup>(5)</sup>.

نخلص في الأخير إلى أن أبرز ما أضافه (أوستين) للدرس اللساني الحديث، هو تجاوزه التقسيم المنطقي، ونظرته الصورية إلى الأفعال اللغوية، بل إلى اللغة ذاتها، الأمر الذي مكن لظهور اتجاهات جديدة، فلسفية، ولغوية، سرعان ما أفلتت مفهوم الوظيفة اللغوية من رقة

1- سيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر): الكتاب، تح: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت (لبنان)، دط-دت، ج1، ص:12.

2- نفسه: ص: نفسها.

3- الصرّاف (عليّ محمود حجي): الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة، ص:12.

4- نخلة (محمود أحمد): آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص:97.

5- ينظر: نفسه، ص:57-118.

التفكير المتعالي، المتسامي على الاستعمال. أو لنقل بإيجاز ووضوح، إن جهود (أوستين)، وتلميذه (سيرل) ومن حذا حذوهما أعادت اللغة إلى الاستعمال، وإلى أحضان السياق، وفتحت أفقا أرحب لفهم ما نقوله، وما لا نقوله، حتى أضحي فعل اللغة وفقا لهذه الوظيفة، وظيفة الإنجاز، من أخلق الأسباب التي بشرت ثم مكنت للبعد التداولي بوصفه نفسا جديدا أمدّ علماء اللغة بآليات مكنتهم من تناول المعاني بشكل علمي واضح.

وهو ما سنسعى إلى تجليته من خلال استعراض جهود كل من (براون ويول).

### ك- براون ويول "BROWN & YULE" (الوظيفتان التفاعلية والتفاعلية):

في خضم هذا التجاذب المعرفي اللساني، حول ماهية اللغة، وما تؤديه من وظائف، بالفعل، أو بالقوة، ظهر كتاب تحليل الخطاب (لبراون ويول)، وفي طياته نظرة معدلة للغة بوصفها خطابا، تُسلط عليه أدوات التحليل، وتشحذ لأجل الوصول إلى مقاصده، آليات الفهم، والتفسير.

لقد كان منطلق (براون) و(يول) بسيطا، ولكنه في غاية التعقيد كذلك، اختزاليا ولكنه جامع لتفاصيل تشعبت في آراء علماء كثر، طوحت بهم المذاهب، والمشارب، والمصادر؛ إذ قامت فكرة الوظائف عندهما على تحديد عامين، لمسا فيهما أداء وتجاوزا للغموض والتعدد المصاحب للمصطلح، فعمدا إلى تقسيم وظائف اللغة إلى قسمين هما:

#### 1) الوظيفة التفاعلية:

وهي اللغة في وضعها الاعتيادي، حين نوظفها للتعبير عن المضامين أو نقل معلومات تفصيلية، صحيحة؛ كأن يعطي الشرطي المسافر نصائح توجيهية، أو يعطي الطبيب للممرضة طريقة إعطاء الدواء للمريض، فالقصد في كل هذا هو أن يوضح المتكلم ما يقوله أو يخطه<sup>(1)</sup>.

1- ينظر: براون ويول: تحليل الخطاب، تر: الزليطي والتريكي، ص ص: 2-3.

وهنا تضطلع اللغة بدورها الأساس، وتبرز وظيفتها الأولى، التي لم ينفها عنها ممن سبق ذكرهم - وإن اختلفوا في الاصطلاح عليها، فأسماء بعضهم الآخر، بالإبلاغ، أو التبليغ<sup>(1)</sup> - إلا بعض أعلام الفلسفة، الذين ادعوا أن اللغة لا تهدف إلى التواصل دائماً، لأنها قد تمارس التعمية، والإضرار لأسباب دينية أو سياسية... ومنهم تحديدًا، (أوزوالدديكرو) (Oswald Ducrot) و(رولان بارث) (Roland Barthes)، هذا الأخير بنى طرحه على أن اللغة مصدرها السلطة، وهو ما يعني أن الإنسان لا يتواصلها، بقدر ما يخضع لها، فهو عبد لها، ومتحرر منها في آن واحد معاً<sup>(2)</sup>.

## (2) الوظيفة التفاعلية:

وفضاءها "العلاقات الاجتماعية" و"المقابلات اليومية" وما يواكبها من تفاعل بين المتخاطبين، «في العالم الاجتماعي (وهي وظيفة أنا وأنت) وتبرز أهمية هذه الوظيفة باعتبار أن الإنسان كائن اجتماعي لا يستطيع الفكك من أسر جماعته، فنحن نستخدم اللغة وتبادلها في المناسبات الاجتماعية المختلفة، ونستخدمها في إظهار الاحترام والتأدب مع الآخرين»<sup>(3)</sup>.

واللغة في هذا المضمار شأن يسترعي الاهتمام، ويستوجب الوقوف عنده، لأنها تصبح إجراء خطايا بين المتكلم والمخاطبين أي فاعلية «تواصلية يتحدد شكل الخطاب فيها بواسطة

1- هناك مقابلات جمة للمصطلح الأجنبي «COMMUNICATION» أشهرها أربعة هي ما ذكرناه آنفاً، وهناك مصطلحات أخرى مثل: (الإعلام والإخبار). ينظر: بلحاج (عبد الكريم): المفاهيم وأشكال التواصل (مائدة مستديرة)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط - المغرب، مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء - المغرب، ط1، 2001، ص: 43. وينظر: للاستفاضة رايص (نور الدين): نظرية التواصل واللسانيات الحديثة، ص: 5-35.

2- ينظر: حمداوي (جميل): نظريات وظائف اللغة، <http://www.doroob.com/?Feed=Rss2&author=750>، ص: 3، تمت زيارة الموقع يوم 2012/04/27 في الساعة 12:00.

3- يوسف جمعة سيد: سيكولوجية اللغة والمرض العقلي، عالم المعرفة، ع145، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت - دولة الكويت، ط1، يناير 1990، ص: 21.

احتكامه إلى الغايات الاجتماعية، وعادة ما تبرز هذه الميزات في اللغة العادية اليومية التي لا يكون هدفها الأول نقل المعلومات، وإنما ترمي من وراء ذلك إلا إقامة العلاقات الاجتماعية، كرسائل الشكر، والرسائل الغرامية وألعاب الاستنتاج وغيرها<sup>(1)</sup>.

ولعلنا نسوق أمثلة، نستوضح بها كيفية تمظهر هذه الوظيفة، في الوضعيات الحوارية العادية، فيما هو آتٍ من المباحث التطبيقية.

---

1- براون ويول: تحليل الخطاب، تر: مصطفى لطفي الزليطي ومنير التريكي، ص:3.

# المبحث الثالث:

## الخطاب والإستراتيجية

### تمهيد:

سبق وأن قدمنا في المبحث الثاني، أن الوظائف التداولية لا تتحدد إلا وفق معيار تواصل (وظيفي)، قد يستغني استغناء كاملاً عن مفهوم البنية – كما لا يضيره إن اتكأ عليها – إذ يمكن أن تتم إستراتيجيات التواصل اللغوي في جملة أو في ما هو أقل أو أكثر، ولا عبرة إذذاك إلا بتأدية الخطاب لوظيفة ما، تأدية تحقق التواصل، أو على حد تعبير (طه عبد الرحمن) «فلا كلام يضير تخاطب ولا متكلم من غير أن تكون له وظيفة المخاطب (بالكسر) ولا مستمع من غير أن تكون له وظيفة المخاطب (بالفتح)»<sup>(1)</sup>.

ومؤدّي هذا القول، أن العلاقة اللفظية التي يبنى عليها التخاطب، تابعة لهذا الفعل الأخير، لأنه لا يتصور، حشد جمل منعزلة، مفيدة في ذاتها، ولكن غير مفيدة مجتمعة، متعاطلة، فيشترط في عملية التواصل كما ينقل – يوسف تغزاوي عن داك – أن «لا تتم بواسطة جمل منعزلة بل بواسطة قطع تطول وقد تقصر، وتتفاوت من حرث درجة صراحتها تبعاً لمخزون المتكلم والمستمع المعلوماتي»<sup>(2)</sup>.

وهنا يبرز دور السياق التخاطبي، وما له من أهمية في تيسير فهم القصد، قصد المرسل، والوظيفة التي هيمنت على ملفوظه، أيا كان حجم هذا المتلفظ به.

وهو ما سنحاول ترصده في هذا المبحث، من خلال ما وطأنا به، واضعين نصب أعيننا هذه العصاراة المركبة من الخطاب، والسياق والوظيفة والإستراتيجية، وهي عناصر إذا غُيّبت، أفقدت المزيج إحدى خصائصه، الذوقية أو الشمية، ولم لا على رأي أبي نواس السمعية، والبصرية؟!

فما المقصود إذن بالإستراتيجية؟ وما علاقتها بالخطاب والوظيفة والسياق؟

1- عبد الرحمن (طه): اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- المغرب، ط1، 1998، ص: 125.

2- تغزاوي (يوسف): الوظائف التداولية، ص: 182.

## 1- مفهوم الإستراتيجية الخطابية:

لا بد أن نذكر أولاً - قبل توصيف الإستراتيجية الخطابية - بما لهذا المصطلح من خطر كبير في مجال الدرس التداولي عموماً؛ فهو البوتقة التي تتفاعل فيها مختلف مكونات الخطاب بوصفه ثمرة اجتماع عناصر متعددة، ومجال تظهر أدوات لغوية وآليات خطابية منتقاة، ويوصل تتبع هذه الآليات إلى معرفة الكيفية التي تعامل بها المرسل مع المرسل إليه (احترام / إهانة)، (إقناع / تسلط، تنازل عن الموقع الاجتماع / تعال... الخ).

ويرمي الخطاب من خلال وظيفتيه الكليتين (التعاملية والتفاعلية) إلى مقاصد محددة، قد يشي بها شكل - الخطاب - كما قد يغييها.

يسمح فعل التغييب للغة، بأن تصبح شكلاً، ودالاً يقود - بدوره - إلى مدلولات ضمنية، مضمرة، لا تدرك إلا بتفعيل المعطيات السياقية، والعلاقات التخاطبية، والافتراضات المسبقة، وهنا يبرز دور المرسل في ما يضعه من خطط محكمة (إستراتيجيات)، يتوسل بها إلى مقاصده، وأهدافه، فيسُم - أطراًها - الإستراتيجيات-الخطاب بسمه تتنامى شيئاً، فشيئاً، حتى تغدو ظاهرة، لافتة لها أنساقها اللغوية، وأدواتها الخاصة بها.

وفيما يلي محاولة لتتبع حياة هذا المصطلح، في منابته المعرفية المختلفة:

- ارتبط مصطلح (Stratégie) بالمجال العسكري الحربي عموماً وبفن قيادة عمليات جيش مسلح على مسرح الفعل خصوصاً، ثم درج في استعمالات مختلفة، سياسية، واقتصادية (تجارية)، وأدبية، ... بحيث اكتسب معنى عاماً يدل على كل عمل منسق لأجل تحقيق هدف ما، فيقال: إستراتيجية انتخابية، إستراتيجية تجارية، إستراتيجية سياسية<sup>(1)</sup>.

ثم انتهى به المطاف إلى المجال الأدبي، فظهر في استعمالات بعض اللسانيين، والنقاد جنباً إلى جنب مع نظرية الألعاب اللغوية لـ (فيتجنشتاين) ثم السيميائية...

1 - Charaudeau(Patrick) et Maingueneau( Dominique), Dictionnaire d'Analyse du Discours, Seuil, Paris, France, 1<sup>er</sup> éd, 2002, p :548. et voir aussi :Dictionnaire Encyclopédique 2000 , Larousse, Bordas/her, 1999, pp :1499-1500. et v :Youssef M.Redha :AL-Kamel AL-Kabir plus :Dictionnaire du Français Classique Contemporain ,Français-Arabe,

مكتبة لبنان ناشرون، بيروت - لبنان، ص:1271

- أدرجه (سعيد علوش) في معجم (المصطلحات الأدبية المعاصرة) مفهوما قائما على ثلاثة أبعاد هي أنه:

(1) مصطلح مقتبس من نظرية اللعب، ودخل إلى السيميائية ليغطي حقلا إشكاليا يعتبر محيطه مبهما.

(2) مقرون بالسرديات، فميز بين (الستراتيجية الخطابية)<sup>(1)</sup> المتعلقة بفاعل العبارة، كطريقة لإقامة خطاب البنيات السردية، وبين (الستراتيجية السردية) التي تستهدف إقامة مسوّدات سردية، تُمكن من توليد الخطابات.

قصد بذلك الإشارة إلى إنشاء هذا المصطلح، وتبنيه من قبل حقول معرفية أخرى، منها (التداولية) التي تبدو في تلميحه إلى بداياتها المضطربة، و«(حقلا) منحقول السيميائية يعتبر محيطا مبهما.

(3) اقتصاره على السرديات، وتوظيفه ضمن أطرها المصطلحية من خلال مفهوم البرمجة بمعناها الواسع للسردية المعقدة في تكوينها للموضوعات القيمية، وإقامة فاعلين ممثلين يتكفلون بإنجاز برامج سردية ملحقه»<sup>(2)</sup>.

ثم فسر المسودة السردية\*، بأنها خطأطة يتم بموجبها تصور السرد، وتسجيل كتابة عمل ما، دون اعتمادها<sup>(3)</sup>.

ولنحتفظ بمصطلح (خطاطة) الذي سنعود إليه بعد أن نوجد تعريفا، نظمنا إليه المصطلح (إستراتيجية).

1- هذه صورة تعريبه للمصطلح الفرنسي "STRATEGIE"

2- علوش (سعيد): معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت (لبنان)، وسوشيريس، الدار البيضاء (المغرب)، ط1، 1985، ص: 109-110.

\*المقابل العربي الذي اختاره للمصطلح الفرنسي "Schémanarratif" وهو أقرب ما يكون - في رأيي - لمعاني مادة [خط ط] في اللغة العربية، ينظر: الجوهري (أبو نصر إسماعيل بن حماد): تاج اللغة وصحاح العربية، تح: عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، ط4، 1987، مجلد3، ص: 368. ويؤيده بصورة أدق مصطلح (خطاطة) أو (مخطط).

3- علوش (سعيد): معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة: ص: 112.

- يرى (ميشال فوكو) أن (الإستراتيجية) مصطلح له معانٍ تتعدد بتعدد السياقات التي ترد فيها، وهي عنده على ثلاثة تصورات:

أولاً، للتدليل على اختيار الوسائل المستخدمة للوصول إلى غاية معينة والمقصود بذلك هو العقلانية المستخدمة لبلوغ هدف ما.

ثانياً، للتدليل على الطريقة التي يتصرف بها أحد الشركاء، في لعبة معينة تبعاً لما يعتقد أنه سيكون تصرف الآخرين ولما يخال أن الآخرين سيتصورون أنه تصرفه هو؛ باختصار، الطريقة التي نحاول بها التأثير على الغير.

أخيراً، للتدليل على مجموع الأساليب المستخدمة في مجابهة ما لحرمان الخصم من وسائله القتالية وإرغامه على الاستسلام... وعليه تتحدد الإستراتيجية باختيار الحلول الراجعة<sup>(1)</sup>.

نستشف من تعريف (فوكو) السابق، ارتكاز مفهوم (الإستراتيجية) على خطوات منتظمة لبلوغ هدف محدد، بعضها ذهني، وبعضها لغوي، وبعضها الآخر سلوكي. وهي خاضعة لاعتبارات السياق، وما يتيح من وسائل وظروف، ولذلك عرفت الموسوعة العسكرية بأنها: «علم وفن ينصرفان إلى الخطط والوسائل التي تعالج الوضع الكلي للصراع»<sup>(2)</sup>.

فهو علم بالنظر إلى ما يجب معرفته من قواعد ضمن مفهوم "اللعبة"<sup>(3)</sup> الفتجنشتانية المتفرعة إلى: قواعد اجتماعية، وقواعد استبدالية وقواعد نحوية، وكذلك الحال مع كل "لعبة" أخرى، إذ لا بد أن تنطلق الإستراتيجية من قواعد علمية، ثابتة تبنى عليها مهارات فردية، تجعلها ناجحة عند فرد من الناس، وغير ذلك عند سواه وهي بهذا المعنى ومن هذا الوجه (فن) بكل ما تعنيه الفنية من براعة في الأداء، والتقمص والإيهام والتحايل.

يمكن أن نسجل -إذن- أن مفهوم الإستراتيجية، مفهوم دخيل على مجال الدراسة اللسانية والأدبية، إلا أنه سرعان ما وجد له مقعداً في منظومتها الاصطلاحية، وهو مصطلح

1- ديرفوس (أوبير) وراينوف (بول): ميشال فوكو (مسيرة فلسفية)، تر: جورج أبي صالح، مع مراجعة وشرح: مطاع الصفدي، مركز الإنماء القومي، بيروت - لبنان، دط، دت، ص: 200.

2- الأيوبي (هيثم وآخرون): الموسوعة العسكرية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت (لبنان)، دط، 1981، ج1، ص: 66.

3- ينظر: بلخير (عمر): تحليل الخطاب المسرحي.. ص ص: 10 - 11.

حفلت به المعاجم الغربية في مجالاتها المختلفة، ذو بعدين متجانسين هما: البعد الذهني، والبعد المادي، وكلاهما متعلق بمجال حيوي، مؤطر له هو السياق، فالإستراتيجية -عموما- هي تطويع للقواعد - قواعد أية لعبة كانت - مع عناصر السياق المسوّر لها، ومنه صارت فعلا كثر استعماله في ميادين معرفية وحضارية مختلفة منها ميدان الدراسات اللسانية التداولية، وحقل تحليل الخطاب عموما، فهي بهذا المعنى مصطلح عابر للتخصصات<sup>(1)</sup>.

و هو ما يقتضي منّا الإجابة عن سؤال مفترض، حول مؤدى هذا المصطلح في ارتباطه بالخطاب؟

ينحو "مفهوم الإستراتيجية" في الخطاب، منحى غير بعيد عن المسارات التي سبق ذكرها، لولا اشتغاله أكثر على صور مخصوصة، وعلاقات محددة، مرتبطة باللغة، وقواعدها، وما يدخل ضمن حيزها.

ففي مجال التداولية المعرفية- التي تَمْتَحُّ\* من علم النفس المعرفي رؤاها وقواعدها- «تعرف الإستراتيجية بأنها سلسلة العمليات التي تعكس الاختيارات المتخذة لأجل الوصول إلى هدف معين»<sup>(2)</sup> بأقل جهد وأيسر تكلفة، وأوجز مدة.

وفي الدراسات المنتمية<sup>(3)</sup> إلى مجال تحليل الخطاب نجد تعاريف متعددة، تشترك جميعها في التمرکز حول ثلاثة عناصر هي:

(1) المرسل (الفاعل)، المتلفظ بالخطاب.

(2) الهدف، الممكن أو في حكم الممكن.

1 - ينظر: طلحة (محمود): تداولية الخطاب السردى، دراسة تحليلية في وحي القلم للرافعي، عالم الكتب الحديث، إربد -الأردن، ط1، 2012، ص:139.

\* - كثيرا ما يُجرى بهذا المصطلح مجرى اشتقاقه من مادة [مت ح] إلا أنه في عرف محلي الخطاب مشتق من اسم المِخِّ، وهو خالص كل شيء، ومنه المِخَّة، صُفْرَة البيض. ينظر: المسدي: الأسلوبية والأسلوب، ص:148.

2 - السرتي (زكريا): الحجاج في الخطاب السياسي المعاصر، ص:252.

3- ينظر مثلا: الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص ص:55-56، والسرتي: الحجاج في الخطاب السياسي، ص ص:252-253: فقد أوردنا جلّ التعاريف المتبناة من قبل محلي الخطاب.

3) المحيط، (السياق)، مجموع الإكراهات، أو المساعدات الممكن استثمارها.

فلا يكون الخطاب استراتيجيا إلا إذا كان المتلفظ به، مخططا له، واعيا بالشروط الموضوعية والذاتية المحيطة به، محققا لميزة التنظيم في استعماله للغة. فالإستراتيجية الخطابية وفق هذا التصور «عبارة عن المسلك المناسب الذي يتخذه المرسل للتلفظ بخطابه من تنفيذ إرادته، والتعبير عن مقاصده، التي تؤدي لتحقيق أهدافه من خلال استعمال العلامات اللغوية وغير اللغوية، وفقا لما يقتضيه سياق التلفظ لعناصره المتنوعة، ويستحسنه المرسل»<sup>(1)</sup>.

فإستراتيجية الخطاب - إذن - شكل من أشكال (التحبير) الذي لا يصدر إلا عن روية، وتبني للأفكار والمشاعر، وتجهيز للصور والانفعالات، وتخطيط محكم يستشعر كل هذه الأطراف المؤثرة، وغير المؤثرة في عملية التخاطب ليجعل لكل منها، حظا، ودروا، ومقدارا، تحدده القوة العاقلة، حتى لا يحيد عن الهدف المخطط له.

وهنا يطفو إلى السطح مجددا، مصطلح (الخطاطة) الذي يشرحه (غريز) (Grize) في الفقرة الآتية بقوله: «بإمكاننا أن نقول إن التخطيط يعرض موضوعات الفكر التي يشترك المتحاورون في بنائها، لا تبني هذه الموضوعات من فراغ، وهي في الواقع تستند إلى مجموعة من المعارف المشتركة، التي تتميز بمظهرين أساسيين؛ أولهما هو كونها، ليس فقط مشتركة، ولكن كل طرف يعرف بأن الآخر يعرف كذلك، وثانيهما هو كونها موجودة بشكل دائم، وذات طبيعة اجتماعية»<sup>(2)</sup>.

فمفهوم التخطيط عند (غريز) قائم على التشارك، والتبادل، والتفاعل، والوعي، وهو رسم بياني، ذهني، أولي قابل للتنفيذ من قبل (فاعل) كفء واع بما هو موجود حوله، هدفه دفع المرسل إليه، إلى تبني فكرة أو التخليع عنها، أو القيام برد فعل أو سلوك، في إطار المصلحة المشتركة، ولا يخفى ما لهذا المفهوم من ارتباط بالكفاءة التي يجب أن يتمتع بها هذا الفاعل،

1- الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 62.

2- JEAN-BLAISE GRIZE : logique naturelle, et représentations sociales, Invited Lecture Presented at the 1st International Conférence on Social Représentation, Ravello, Italy, 1992, p: 3.

المنفذ «للخطاطة الخطابية»<sup>(1)</sup>.

وقبل أن نجاري المنهجية العلمية، ونبحث في مفهوم (الكفاءة) أو (الكفاية) أو (القدرة التواصلية) - على اختلاف معهود في الاصطلاح عليها - لا بد أن نحيل متلقي هذه الصفحات إلى عباب زاخر من التعاريف في فلك البلاغة والنقد، خصوصاً، وعلوم اللغة والأدب عموماً، والتي تحمل في طياتها، إشارات قيّمة إلى انتهاج الخطيب العربي (أي متكلم اللغة العربية)، خططاً خطابية قبل تصدره المجالس، أو اعتلائه أعواد المنابر، وقد سأل معاوية بن أبي سفيان، صحرار بن عياش العبدى (40 هـ) عن سر بلاغته وقومه، فأجابته بما يوحي إلى التحبير، والتدبير، والتخطيط، والإعداد المسبق، قبل التلفظ قائلاً: «شيء تجيش به صدورنا، تقذفه على ألسنتنا»<sup>(2)</sup>، ولا شك أنه يقصد بالتجيش استيفاء المعاني حقها من التمحيص، والتدبر، والترتيب في النفس قبل "قذفها" على الألسنة، ولا يخفى ما لهذا التوصيف المبكر من دلالة على وعي الخطيب العربي بقيمة التخطيط قبل ممارسة الفعل الخطابي، ولذلك كانوا يؤثرون الصمت قبل الخطبة، وكأني بهم يقتصدون في الكلام، ويقرؤنه، ويستجمعون جهدهم قبل التلفظ به، زيادة في فرص إصابة المعاني والغايات، ولو أردنا تتبع ذلك في مؤلفاتنا التراثية، لجمعنا سفراً عظيماً، ينوء بالعصبة أولى القوة، ولكن سأكتفي بالإشارة دون العبارة، تماشياً مع مقام البحث، من خلال طرق بابي علمين من أعلام البلاغة والنقد، هما: (الجاحظ) و(عبد القاهر الجرجاني).

أما (الجاحظ) فقد جمع في كتابه (البيان والتبيين) فأوعى، وكاد يأتي على كل ما له صلة "بالكلمة" من مبدئها إلى منتهاها، وإن كان الشاهد - في هذا المقام - استعماله مصطلح (البُغية) في رسالة (المعاش والمعاد) حين يقول: «... واجب على كل حكيم أن يحسن الارتداد لموضع البغية، وأن يبين أسباب الأمور ويمهد لعواقبها، فإنما حمدت العلماء بحسن التثبت في

1 - نقتح استعمال هذا المصطلح بدل (الإستراتيجية الخطابية)، لما له من نسب عريق في معاجنا العربية، ولكفاءته في أداء ما يصبو إليه المخاطب / المرسل من مرام وأهداف وما يحيل إليه من حيثيات، وظروف محيطة بالخطاب منذ وهلته الأولى، مذ يكون خاطراً إلى أن يصير شكلاً، له خصائصه المميزة له.

2 - الجاحظ : البيان والتبيين: ج1، ص: 96.

أوائل الأمور واستشفافهم بعقولهم ما تجيء به العواقب...»<sup>(1)</sup>.

وهو هنا يقصد "بالبُغية" الهدف أو الغاية من كل عملية فكرية، فوسم في هذه العبارة «منتجا عقليا كاملا [...] وانظر بدقة إلى العبارة الأخيرة (واستشفافهم بعقولهم ما تجيء به العواقب) تجدها تعبيراً عن عملية "التخطيط" وما التخطيط؟ هو رسم لخطة السير ربما يمكنك منذ البدء معه معرفة النتائج»<sup>(2)</sup> قبل وقوعها ثم إن التخطيط السديد -حسب الجاحظ- ما راعى فيه صاحبه الواقع، لا الأوهام تماماً كما دعا إلى ذلك، (غريز) عندما أقصى الموضوعات التي تبنى على "فراغ" والتي لا تستند إلى ما أطلق عليه "المعرفة المشتركة".

وأما (الجرجاني) عبد القاهر، فإذا قرأنا كتابيه (أسرار البلاغة) و(إعجاز القرآن) «أدركنا كم هي قوية تلك الصلة التي تنظم، الجرجاني في أوائل القرن الحادي عشر (توفي 1078) وبرتراند رسل في القرن العشرين (توفي 1970) فالفكرة عندهما واحدة، من حيث الأساس، وهو أن المعنى كائن في طريقة الترتيب...»<sup>(3)</sup>.

ولولا هذا الترتيب، لخرج الكلام من «كمال البيان إلى مجال الهذيان [...] وفي ثبوت هذا الأصل، ما تعلم به أن المعنى الذي كانت له هذه الكلم بيت أو شعر أ فصل خطاب، هو ترتيبها على طريقة معلومة، وحصولها على صورة من التأليف مخصوصة. وهذا الحكم - أعني الاختصاص في الترتيب- يقع في الألفاظ مرتباً على المعاني المترتبة في النفس، المنتظمة فيها على قضية العقل»<sup>(4)</sup>.

فحصول الكلام لا يكون إلا عبر مسلكين؛ مسلك ذهني، محكوم بقوانين عقلية، منطقية، تقدم وتؤخر المعاني بحسب ما تقتضيه في ذاتها، وبحسب ما تفرضه علاقتها بما حولها من عالم الأشياء، أي بحسب (السياق)، ومسلك ثانٍ مادي، وهو صورة المعنى اللفظية، التي

1-الجاحظ: مجموع رسائل الجاحظ، تح: محمد طه الحاجري، دار النهضة العربية، بيروت- لبنان، دط، 1983، ص: 122.

2- زكي نجيب محمود: المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري، دار الشرق - بيروت- لبنان، ط3، 1981، ص ص: 152، 153، 154.

3- نفسه، ص: 248.

4-الجرجاني (عبد القاهر): أسرار البلاغة، راجعه وعلق عليه، عرفان مطرجي، مؤسسة الكتاب الثقافية، بيروت- لبنان، ط1، 2006، ص: 16.

تقع عليها الحواس، وتطالها الأحكام والقواعد، قواعد النحو وغيره، وهذا - لعمري - هو «الإستراتيجية الخطابية» وكون هذه الإستراتيجية، "تعتمد على كفاءة الإنسان التداولية، وصناعتها لخطابه فإنه يلتمس الناس في مستواها، والتفاوت في مكان المزية في خطاباتهم»<sup>(1)</sup> على حد تعبير الجرجاني.

إن سعي المرسل إلى توظيف إستراتيجية معينة، لا يتم إلا إذا امتلك قدرة أو قوة تواصلية تتجاوز قوته اللغوية، إذ لا يتم له بلوغ "بغيته" بتعبير الجاحظ، بسوى حشد ملكات هي جوهر جهاز التواصل وهو ما اصطلح عليه بالقوة (الكفاءة) التواصلية (التداولية).

## 2) الكفاءة التداولية (التواصلية): (COMMUNICATIVE COMPETENCE)\*

أدركنا فيما سبق أن الإستراتيجية الخطابية، ليست شكلا بسيطا من أشكال التواصل، فهي تضافر مكونات شتى، تتفاعل فيما بينها مجتمعة، كي تخرج الخطاب إخراجا معينا، يتيح له تحقيق مراميه، فبدءا بالتخطيط الذهني ووصولا إلى التلفظ مروراً بما تعرضه عناصر السياق من سلطة، إما بحضورها أو بغياب بعضها... يجد المرسل (الفاعل) نفسه إزاء وضعيات تخاطبية معقدة، مستفزة، تعيق مساره إلى هدفه؛ ولا سبيل له إلى تلافيها، أو تجاوزها، أو استثمارها لصالحه، إلا أن يعتمد على كفاءته الذاتية، بوصفها منبع القوة التي «تولد لديه الخيارات الممكنة في ذهنه لاختيار أنسبها»<sup>(2)</sup> والتي نسميها، "إستراتيجيات خطابية" ولا شك في أنها لا تنفك وجوبا وعدما وثناء وقلة - تلازم هذه الكفاءة - التداولية لا تبرحها.

وقد فطن اللغويون قديما وحديثا لما تؤديه هذه القدرة وتصنعه من فوارق بين المتكلمين، على الرغم من تساويها في ما سوى ذلك من ملابسات السياق؛ فجعلها (تشومسكي) مفهوما أساسا في النظرية التوليدية التحويلية، وهي عنده ذات بعدين هما:

1- الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 61.

\* هناك مصطلحات كثيرة تقابل هذا المصطلح الأجنبي أشهرها: "القدرة / الكفاءة / الكفاية / الملكة -الإبلاغية/التبليغية/ التداولية/ التواصلية / الأدائية". للاستزادة، ينظر: البوشيخي (عز الدين): التواصل اللغوي، مقارنة لسانية وظيفية (نحو نموذج لمستعملي اللغات الطبيعية)، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت - لبنان، ط1، 2012، ص ص: 29- 30.

2- الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 61.

القدرة / الأداء (Performance/Compétence)<sup>(1)</sup>.

وقد محض هذا المصطلح اهتماما خاصا، وإن قصره على ما أسماه بـ "الملكة أو الكفاءة النحوية / اللغوية / اللسانية / النصية، وهي عنده: «القدرة التي يتمتع بها الناطقون بلغة ما والتي تمكنهم من إنتاج وفهم عدد لا متناهٍ من الجمل...»<sup>(2)</sup>.

ويقف هذا المفهوم في مقابل ما جاءت به الدراسات الإثنية للاتصال، حيث ترى أن مفهوم الكفاءة النحوية التشومسكية، قاصر على أداء لغوي شامل يتماشى والمقامات والأحوال المتنوعة، واستبدلته بمفهوم الكفاءة الاتصالية، أو التواصلية... فـ «لكي يقيض للفرد الكلام، لا بد أن يحسن استعمال اللغة بكيفية مناسبة، تتماشى والمقامات والأحوال المتنوعة»<sup>(3)</sup>.

لأن الكفاءة اللغوية لا يمكنها منفردة أن تحقق المنوط بها فهيب على الرغم من أهميتها «تظل مع ذلك ذات طابع تجريدي (Obstrait)، ومؤمل (Idéal)، بمعنى أنها لا تشكل داخل المجموعة اللسانية الواحدة موضوعا منسجما (Homogène) وموحدا حتى تختلف وتتفاوت داخل نفس المجموعة اللسانية»<sup>(4)</sup> بسبب تفاوت الناس في ثقافتهم، وطبقاتهم الاجتماعية، وحظهم من العلم، والفهم، والذكاء... وغيرها، فما تجد صورته في قصور البعض في التعبير عن القصد، أو الوقوف دون الغاية، أو العيُّ وعدم القدرة على الإبانة مع توافر الأسباب، وتحقق الشروط وتماثل الظروف<sup>(5)</sup>.

وقد استوجب قصور الكفاءة اللغوية عن تحقيق التواصل، تعضيدها، بكفاءات أخرى،

1- ينظر: بارتشت (بريجيته): مناهج علم اللغة من هرمان باول حتى نعوم تشومسكي، تر: سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ط 1، 2004، القاهرة- مصر، ص: 284 وما بعدها.

2- مانغونو (دومينيكا): المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، تر: محمد يحياتن، ص ص: 22-23.

3- نفسه: الصفحة نفسها.

4- سرحان (إدريس): التأويل الدلالي- التداولي للملفوظات، وأنواع الكفايات المطلوبة في المؤول، ضمن كتاب: (التداوليات علم استعمال اللغة)، ص: 161.

5- وقد أشار الجرجاني إلى ذلك، في غير ما موضع من دلائل الإعجاز. ينظر: الجرجاني (عبد القاهر): دلائل الإعجاز، قرأه وعلق عليه، محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة- مصر، دط، دت، ص ص: 34-42.

تنبني عليها، يشملها مسمى "الكفاءة التداولية (التواصلية)" وهي:

- الكفاءة البلاغية والكفاءة الموسوعية والكفاءة المنطقية، والحوار التالي يوضح كيفية تفاعل الكفاءات التداولية، والكفاءة اللغوية في تأويل الملفوظ من لدن المخاطب تأويلا يؤيده السياق، وعناصره:

أ: أريد فنجانا من القهوة؟

ب: شكرا، إنها تمنعني النوم.

فلا يمكن تحديد موقف (ب) إلا بالعودة إلى مقام التلفظ، مع ما يشترط من كفايات، تداولية، إذ لا بد أن يكون (أ) مُلمًا ببعض الكفايات التي توصله إلى تحليل عبارة "القهوة تمنعني النوم".

-القهوة تحتوي←الكافيين←يمنع النوم.

- المقام التواصلية:

1-إذا كان ليلا: أريد أن أنام باكرا ← لا أريد أن أشرب، شكرا على الدعوة.

2-إذا كان(ب) منكبا على عمل يريد أن ينجزه قبل أن ينام ← نعم أريد أن أشرب، شكرا لك على المساعدة.

ففي هذا التحليل نجد توظيفا معقدا لمعارف غير لسانية، (القرائن المنطقية الموازية) ومعارف تداولية، بعضها بلاغي "الاستفهام، التوكيد" وبعضها موسوعي «الكافيين يمنع النوم وهو من مكونات القهوة»، وبعضها الآخر منطقي «شرب القهوة التي تحتوي على الكافيين يؤدي منطقيا إلى عدم النوم»بالإضافة -طبعاً- للكفاءة النحوية التي تضم القواعد الصرفية، والصوتية، والتركيبية، والمعجمية، وكل ما يخص قدرة الفرد على الحكم بالصحة النحوية، والدلالية، أو بعدمها على ما يسمعه من جمل في لسانه القومي، وكذا قدرته على إعادة تنظيم نحو يكون قد استوعبه من قبل، أو إحداث تعديل في قواعد تخص إنتاج الجمل...وقبوله

عناصر جديدة في معجم لغته»<sup>(1)</sup>.

ومن هنا نستنتج نوعين من الكفاءات\* هما:

1) الكفاءة النحوية (اللسانية) وتضم "الكفايات اللسانية" و"شبه اللسانية الموازية" (القواعد الصوتية، الصرفية، التركيبية المعجمية.. + طريقة النطق والتنغيم، النبر...).

2) الكفاءة التداولية (التواصلية): وتشمل:

أ- الكفاءة البلاغية - التداولية.

ب- الكفاءة الموسوعية.

ج- الكفاءة المنطقية.

- واقترح (دايك DIK) نمطين من معايير الكفاءة:

- معيار الكفاءة الوصفية [ النحوية ] (بالمفهوم التشومسكاوي)، ومعيار الكفاءة التفسيرية [ التداولية، التواصلية ].

وتتفرع عن هذا الأخير أصناف الكفايات التالية:»

- الكفاءة النفسية.

- الكفاءة التداولية [ البلاغية ].

- والكفاءة النمطية»<sup>(2)</sup>.

وهو تقسيم يخالف ما جاء به (المتوكل) نقلا عن (دايك) نفسه، فقد جعل الكفاءة التداولية (التواصلية) متألفة لدى مستعمل اللغة الطبيعية من خمس ملكات على الأقل، وهي:

1 - سرحان (إدريس): التأويل الدلالي - التداولي، ص: 162.

\* هناك تضارب كبير في تقسيم الكفاءات لعل مرده إلى عاملين أساسيين هما: " الترجمة ومجال الاشتغال"، إذ نجد في المنحى الوظيفي تقسيم الكفاءات إلى (الكفاءة الوصفية التشومسكية) والكفاءة التفسيرية والتي تضم بدورها: " الكفاءة النفسية، والكفاءة التداولية والكفاءة النمطية"، للتعلم أكثر في هذا المفهوم، ينظر: البوشيخي (عز الدين): التواصل اللغوي، مقارنة لسانية وظيفية (نحو نموذج لمستعملي اللغات الطبيعية)، ص: 13-47. وينظر: تغزاوي (يوسف): الوظائف التداولية، ص: 98.

2- تغزاوي (يوسف): الوظائف التداولية، ص: 98. وينظر مفصلا: البوشيخي: التواصل اللغوي: ص: 42-45.

1) الملكة اللغوية: وبها يستطيع مستعمل اللغة الطبيعية أن ينتج ويؤول، إنتاجا وتأويلا صحيحين، عبارات ذات بنيات متنوعة جدا ومعقدة جدا في عدد كبير من المواقف التواصلية المختلفة.

2) الملكة المنطقية: وتحتزل ما يحتزله مستعمل اللغة من معارف (أصول)، تمكنه من اشتقاق معارف أخرى (نوعية) بواسطة قواعد استدلال تخضع للمنطق الاستنباطي والمنطق الاحتمالي.

3) الملكة المعرفية: وهي الرصيد (الخزان المنظم للمعارف، يستحضر منه ما شاء ومت شاء لاستعمالها في تأويل العبارات اللغوية.

4) الملكة الإدراكية: وتختص بإدراك مستعمل اللغة الطبيعية، لما يحيط به، فيعدل أويستنبط منه معارف يوظفها في أثناء تواصله.

5) الملكة الاجتماعية: وتتعلق بكيفية (القول) لأن مستعمل اللغة الطبيعية، لا يعرف فحسب ما يقول، وإنما عليه أن يعرف كيف يقول.

ثم كفل لكل ملكة، قالبا ينتمي إليها، وهي: القالب اللغوي، والقالب المنطقي، والقالب المعرفي، والقالب الإدراكي والقالب الاجتماعي، ويشملها نموذجان عامان، هما:

1) قوالب الآلات، وتضم النحوي والمنطقي.

2) وقوالب مخازن، وتضم المعرفي، والإدراكي، والاجتماعي<sup>(1)</sup>.

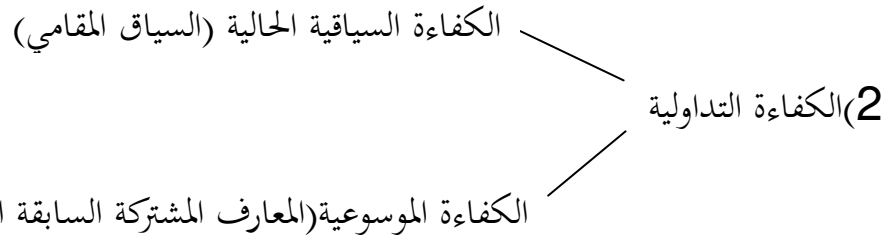
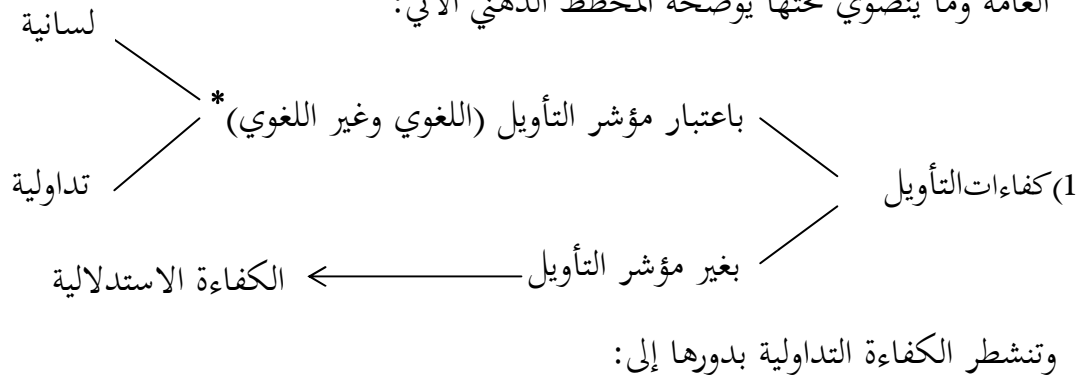
وقد وجدنا تقسيما آخر ينسب إلى المتوكل، ملكة سادسة، هي الملكة (البينانية)\* أو الشعرية وهي «تلك الملكة التي تمكن فئة المبدعين بصفة خاصة، من إنتاج الأثر الفني، وقد اقترح أفراد قالب خاص بها، أي القالب البلاغي، يحوي القواعد والمبادئ التي يتفاعل بها مع

1- ينظر: المتوكل (أحمد): قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية (البنية التحتية أو التمثيل الدلالي التداولي)، دار الأمان، الرباط-المغرب، دط، 1995، ص ص: 17-30.

\* مصطلح اقترحه - أستاذنا-(يحيى بعبطيش) بدل (الملكة الشعرية) لأنه في نظره أشمل وأدق، ينظر: بعبطيش (يحيى): نحو نظرية وظيفية للنحو العربي، أطروحة دكتوراه دولة، إشراف: أ.د عبد الله بوحلحال، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة منتوري- قسنطينة، الجزائر، 2005-2006، ص: 128.

القوالب الأخرى، ليصف الآثار الفنية ويفسرها»<sup>(1)</sup>.

وذهب (عبد السلام إسماعيلي) مذهبا متفردا، وهو يتحدث عن الكفاءات التي يجب أن يحوزها المؤول، في قوله: «يمكن أن نصنف الكفاءات المطلوبة في التأويل انسجاما وتصنيف مؤشرات التأويل، إلى صنفين: لسانية وتداولية، وبغير هذا الاعتبار يضاف إليهما صنف ثالث وهو الكفاءة الاستدلالية [ التي ] تتدخل [...] للربط بين ما يعرضه المرسل، وبين ما توفر لدينا بموجب كفاءاتنا اللسانية والتداولية من أحل الوصول أخيرا إلى المعنى المقصود [...] وهكذا كان التأويل يقوم على ثلاث أنواع من الكفاءات؛ كفاءة لسانية معيارية، وكفاءة تداولية معرفية، وكفاءة استدلالية عملية»<sup>(2)</sup> وينتج عن هذا الطرح تقسيم جديد للكفاءات العامة وما ينضوي تحتها يوضحه المخطط الذهني الآتي:



إن هذا التشعب المصطلحي الذي نجدنا أمامه، في كل مرة، ليُوجي حقا بمقدار ما يعانيه الباحث العربي، من مشقة نفسية، ومعرفية، في سبيل تكوين رؤيا واضحة المعالم، إلى ما يبحث فيه، ولعل أول ما يتبادر إلى أذهاننا بعيدا عن كنهه أسباب هذا الاضطراب، هو ما

1- السابق: ص: 129.

2- إسماعيلي علوي (عبد السلام): تداوليات التأويل، ضمن (التداوليات على استعمال اللغة)، ص ص: 219-220.

المقصود بالكفاءة التداولية؟ وهل هي ذات تصور واحد أم أن لها صورا شتى؟

قبل أن نجيب عن هذه الأسئلة المتراخمة على عقل متلقي هذه المصطلحات، والتصورات، لا بد أننوه إلى مجهود الباحث الجزائري، (يحيى بعبطيش)، بتتبعه مسار تطور نظرية النحو الوظيفي، العربية، عند المتوكل خصوصا.

ولعل هذا التنويه أن يسهل علينا البحث عن مبررات مقنعة، تشفي هذا الجرح الذي لا يبرأ ففته، لكثرة "المشارط" المصطلحية فيه، حتى صار هذا الحقل "كرنفالية اصطلاحية"<sup>(1)</sup>، أفقدت الترجمة ضرورتها الحضارية والتاريخية والمعرفية، وحولت المصطلح من أداة تواصلية، حوارية دينامية، إلى وسيلة تعمية مقننة، تحول دون المعنى، كما يحول العمى دون إبصار الحقائق الواضحة، فقد أطمأ اللثام عن النماذج التي أفرزها "التأثر المتوكلي" بالنظرية النحوية الغربية، خاصة، نظرية النحو الوظيفي عند "سيمون دايك"، وما نتج عن هذا التأثير المتعاقب\* من تطور وتطوير لمكونات النحو الوظيفي، ومنها، مفهومه للكفاءة الذي أخذت منحى تصاعديا، من خلال نماذجه الثلاثة "المعيار" و"ما قبل المعيار" و"ما بعد المعيار" وإن كنا نرد ما يقع فيه الباحثون لبس إلى عدم اتضاح ملمح النموذج الثالث "ما بعد المعيار" و«هو النموذج الذي لا يزال في طور النشأة والتعديل والتحسين، وهو بحاجة إلى بحوث مستفيضة وعديدة، تمحص الفرضية التي طرحها [...] ومفادها أن هناك بنية نموذجية تبليغية واحدة، يصطلح على تسميتها بـ نموذج مستعمل اللغة الطبيعية»<sup>(2)</sup> وهو نموذج يعمم نظرية "التماثل الوظيفي البنيوي لبنية الخطاب" الطبيعي العامة، على جميع أقسام الخطاب، بجميع مستوياته (اللغوية/ غير اللغوية) في إشارات الصم والبكم، والموسيقى والرسم والسنما...

ولذلك - نرتضي - ما دام النموذج لا يزال خداجا - تقسيما موسعا، توافقيا، يتوسل بالكفاءات على اختلاف تسمياتها، ما أضافت لتحليل المدونة جديدا، وما أسهمت في

1- على حد تعبير، أوكان(عمر)، وهو يعرض مشكلة "الترجمة والمصطلح البلاغي قديما وحديثا"، ضمن (اللغة والخطاب)، ص:163.

\* لا نعمط المتوكل - كذلك تأثيره - في مسيرة النحو الوظيفي عربيا، وغربيا، فإليه يرجع فضل إضافة "وظيفة المنادى" (Vocative)، ينظر: المتوكل: الوظائف التداولية في اللغة العربية، ص:7.

2- بعبطيش(يحيى): نحو نظرية وظيفية للنحو العربي، ص:130.

إضاءة زواياها المظلمة.

إن مفهوم (الكفاءة التداولية) <sup>\*</sup>(التواصلية) - في ضوء ما سلف - يتشكل من تصورات مشتركة، بعضها "لساني" (لغوي) وبعضها غير "لساني"، وتعد كفاءة لسانية كل «معرفة ضمنية بقواعد اللغة، وهي معرفة قائمة في ذهن كل من يتكلم اللغة»<sup>(1)</sup> تصحبها قرائن لفظية، تعرف بأنها «عنصر من عناصر الكلام يستدل به على الوظائف النحوية، بأن تقول هذا اللفظ فاعل، وذلك مفعول به أو غير ذلك [...] والقرائن اللفظية هي:

- 1) العلامة الإعرابية.
- 2) الصيغة (الأسماء، الأفعال، الصفات...).
- 3) الرتبة (موقع الكلمة).
- 4) المطابقة (الصيغ، الصرفية، والضمائر).
- 5) الربط الذي يعدل عنه بالالتفات والتغليب وحرف الربط.
- 6) التضام وله وجهان هما: التوارد والتنافي.
- 7) الأداة، مبنى صرفي يؤدي وظائف خاصة في التركيب النحوي.
- 8) النغمة أو الإطار الصوتي الذي تقال به الجملة في السياق»<sup>(2)</sup>.

وينتمي بعض هذه القرائن إلى خارج الخطاب، وبعضها الآخر إلى داخله، حيث، تضم المجموعة الأولى: القرائن الموضوعية والذاتية الخارجة عن النص، وتشمل القرائن اللسانية؛ أي كل ما يرافق الكلام من إيماءات وحركات، وتغيرات في تقاسيم الوجه... والقرائن شبه اللسانية؛ وتجمع القرائن الراجعة إلى مقام التخاطب (بكل عناصره)، والقرائن الراجعة إلى ذاتية المتخاطبين ومقاصدهم وما يعرفه كل منهما عن الآخر من طبائع، وعادات وتقاليد، ومعتقدات...

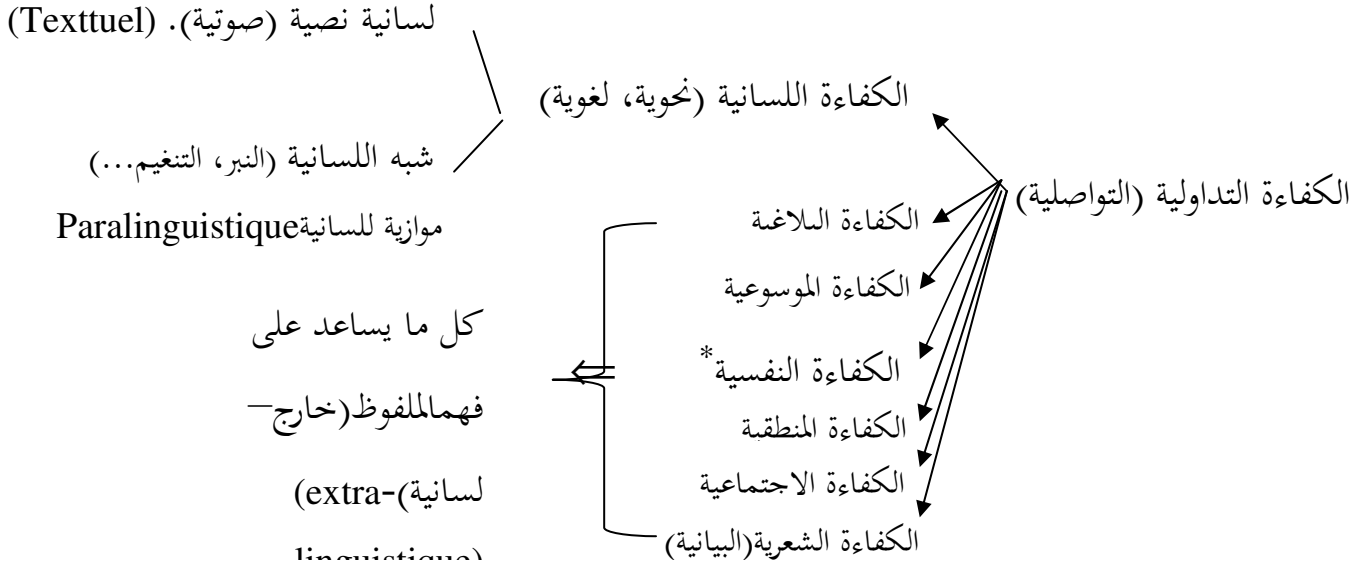
أما المجموعة الثانية، فتشتمل القرائن اللسانية (صوتية، صرفية، وتركيبية، ومعجمية)

<sup>\*</sup> نستعمل مصطلح (الكفاءة التداولية) متساوقاً مع معنى التواصلية لدفع لبس التفرعات السابقة.

1- ينظر: بوقرة (نعمان): المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب، دراسة معجمية، ص: 128.

2- ينظر: نفسه، ص ص: 127، 128.

وشبه اللسانية (كالنبر، والتنغيم، والضحك)<sup>(1)</sup>، ويمكن توضيح ذلك بالرسم الآتي:



إن تداخل كل هذه التصورات في تشكيل، مفهوم "الكفاءة التداولية (التواصلية)"، هو الذي يسمح لنا يطرح أسئلة التداولية، الساعية إلى استنطاق كل ما يحيط بالخطاب، فحتى نحصل على صورة كاملة للغة في السياق «لا بد من دراسة العلاقات بين المخاطبين، وما يتبادلونه من خطابات، ونصوص، ومعرفة أن الوظيفة الاجتماعية للخطاب تتغير بمكان الإرسال، وما يحيط بها من ملابسات غير لسانية»<sup>(2)</sup>.

ومنه نجب عن أسئلة مضمرة بالقوة، على شاكلة:

- 1- من أنا حتى أكلم المخاطب بهذه الطريقة؟
- 2- من هو لأكلمه بهذه الطريقة؟
- 3- من أنا ليكلمني بهذه الطريقة؟

1- ينظر: سرحان (إدريس): "التأويل الدلالي-التداولي للملفوظات وأنواع الكفايات المطلوبة في المؤول" (ضمن التداوليات علم استعمال اللغة)، ص ص: 142-143.

\* هذه الكفاءة، ذكرها المتوكل، لما كان بصدد الحديث عن الوصف اللغوي الطامح إلى الكفاية، ينظر: المتوكل، الوظائف التداولية، ص: 10.

2- إبرير (بشير): رحلة البحث عن النص في الدراسات اللسانية الغربية، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين، الجزائر، ط1، 2009، ص ص: 208-209.

- 4- من هو ليكلمي بهذه الطريقة؟
- 5- كيف يجب أن أكلمه؟ (الطريقة).
- 6- أين أكلمه الآن؟ (ظروف المكان)؟
- 7- متى أكلمه؟ (ظروف الزمان)؟
- 8- متى يجب أن أقول له؟ (المحتوى) / (أن لا أقول له).

وبهذا ندرك الصلة الوثيقة بين الكفاءة التداولية والإستراتيجية الخطابية، باعتبارهما جماع التواصل، فاستعمال اللغة هو الذي يخرجها من حال الحياد، لأن «ما يتم التبادل به ليس اللغة (وفق سوسور) بل الخطاب الذي يستلهم المعنى من الخارج، أي من السوق اللغوي، وبالتالي يكتسب هذا الخطاب قيمة رمزية تنبع من التجارب الفردية، ومن التضمين والإيحاء، حينئذ يبنى التواصل بين المتحدثين، كونهم الممثلين الاجتماعيين، على مبدأ الحوارية وتعدد الأصوات»<sup>(1)</sup>.

وهو ما سنسعى إلى استجلاء كوامنه، من خلال عرض مدونة البحث على مستويات الكفاءة التداولية، في صورتها "اللغوية (اللسانية) النصية" و"اللسانية الموازية" بعد أن نحدد مجال البحث، ومادته.

### 3- محددات الإستراتيجية الخطابية في المدونة:

ترتبط إستراتيجيات الخطاب بمجالات الحياة المختلفة؛ الاجتماعية والتعليمية، والاقتصادية والسياسية، فللمجتمع سياقات كثيرة تتطلب تنوع الخطاب طلباً لأهداف المرسلين المتباينة، ومن هنا نشأت الحاجة إلى الكشف عن إستراتيجيات المتخاطبين، المتنوعة، وتتبعها وفق ذوات أصحابها التخاطبية، في ارتباطها بالسياق وما يفضي إليه كل ذلك من تنوع وثرء، لأن تعدد السياقات مظنة تعدد الخطابات اللغوية، وهو مؤشر يدعو إلى تنويع الإستراتيجيات على فرض أن اقتصار المرسل على إستراتيجية واحدة في كل سياقاته دليل على جموده وخموله، ومحدودية تعامله مع اللغة، أو ربما على جهله بما تتميز به هذه اللغة من تنوع في

1 - أشار (بيار): سوسولوجيا اللغة، تعريب، عبد الوهاب ترو، ص: 10 (مقدمة المعرب).

الوظائف، التي تصنف عادة وفق اهتمام الدارس، حتى وإن قصرها المنظور التداولي علىوظيفيتين رئيسيتين مرتبطتين بمقاصد المستعمل، وبوضعه الاجتماعي وأهدافه وميولاته وهما:

(1) **الوظيفة التعاملية:** وتركز على ما تقوم به اللغة من نقل فعال للمعلومات، و«اللغة المستعملة في هذه الحالة لغة موجهة نحو الرسالة بالدرجة الأولى، ذلك أنه من المهم عنج مستعملها أن يأخذ عنه المتلقي معلومات تفصيلية، صحيحة، وهكذا، فإذا أعطى الشرطي المسافر نصائح توجيهية وإذا حدد الطبيب للممرضة كيفية إعطاء الدواء للمريض... فإن من المهم في كل من هذه الحالات أن يوضح المتكلم ما يقوله (أو يكتبه)»<sup>(1)</sup>.

(2) **الوظيفة التفاعلية:** وتتجلى في العلاقات الاجتماعية وما يصحبها من غايات، ومسرحتها عادة المعاملات اليومية، و«من أوضح ما يمثل هذا الجانب من الاستعمال اللغوي أن قدرا كبيرا من المعاملات اليومية بين الناس إنما يقوم على اللغة بوصفها بالدرجة الأولى أداة اتصال بين الأفراد أكثر من قيامه على اللغة بوصفها أداة تعامل»<sup>(2)</sup>.

فالملفوظ الآتي: يا إلهي الجو بارد، إذا أدّي في سياق تواصل بين غربيين في محطة القطار مثلا، يرجح استعداد المرسل لأن يكون لطيفا، وأنه لا يمانع الدخول في حديث مع المخاطب، وعادة ما تظهر هذه الخاصية في اللغة العادية، اليومية، «التي لا يكون القصد منها بالدرجة الأولى نقل المعلومات وإنما إقامة العلاقات الاجتماعية من ذلك رسائل الشكر والرسائل الغرامية وألعاب الاستنتاج وغيرها»<sup>(3)</sup>.

وتندرج تحت هاتين الوظيفتين مجمل الوظائف اللغوية التي أنتجتها الاتجاهات اللسانية المختلفة، غير أنه لا يمكن تحديد أي من هذه الوظائف، من وجهة نظر تداولية، إلا إذا استعنا بالإستراتيجيات التي يوظفها المرسل.

يسعى الخطاب من خلال وظيفتيه التعاملية والتفاعلية إلى أداء مقاصد محددة قد تظهر مباشرة في شكل الخطاب وقد لا تظهر، وقد يؤدي عدم تظهيرها شكليا إلى أن تصبح شكلا

1-ج.ب. براون وج. يول: تحليل الخطاب، تر: محمد لطفي الزليطي ومنير التريكي، ص ص: 2-3.

2-نفسه: ص: 3.

3-نفسه: ص: 4.



تقف خلف أي تواصل إنساني، ويبدو أثره واضحاً في إنتاج الملفوظات وتأويلها، كما لا يخفى دوره في التأثير على المرسل، وتوجيهه، ودفعه إلى اختيار إستراتيجيات خطابية معينة.

ويمكن تجلية هذا الدور البالغ للمقصد، من خلال مبدأ الوضوح، وعدمه؛ إذ يعني وضوح الهدف عند طرفي الخطاب، لجوءها إلى سلوك لغوي، مباشر، لا التواء فيه، يظهر في التسلسل التخطابي، وقلة، حالات سوء الفهم، التي يعبر عنها عادة بطرح أسئلة استيضاحية، من لدن المرسل إليه، مثل: ماذا تقصد؟ أو وضع كلامك؟ حدد مرادك...

ومن هنا كان الدور الحاسم للمقاصد في إجلاء المعاني، وانتقاء الإستراتيجية المناسبة، الموافقة لظروف إنتاج الخطاب، ومن أهم الإستراتيجيات التي يلجأ إليها ما نص عليه الباحثون، أمثال (غرايس) صاحب مبدأ التعاون، و(ليتش) رائد نظرية التأدب الأقصى وغيرها...

ولعلنا نسوق مثلاً نستوضح به وضوح المقصد، وأثره على الإستراتيجية الخطابية مع عدم انفكاكه عن افتراضات المرسل، ومعرفته الأكيدة لما يتقاسمه والمرسل إليه من كفاءات، إذ يروى أن الخليل بأن أحمد لما أراد أن يصرف الأصمعي عن تعلم العروض ليأسه من فلاحه فيه، قال له يوماً متلطفاً، قطّع هذا البيت:

إذا لم تستطع شيئاً فدعه \*\*\* وجاوزه إلى ما تستطيع

فإلى جانب ما يظهر من تأدب أقصى مع المرسل إليه، يمكن أن نقول، إن الذي دفع الخليل إلى اختيار الإستراتيجية التلميحية، هو "قصده" صرف الأصمعي إلى ما هو أجدى لهوأنفع، وأكثر موافقة لطباعه، فما كان له إلا أن تنازل عن سلطته (المعلم) كي يبلغ المرسل إليه، مقصده بطريقة ملتوية، دون أن يقطع الصلة الحميمة بينهما بالاعتماد على كفاءة (الأصمعي) اللغوية، والموسوعية، ونفاذ بصيرته وعلمه بمعاني الشعر...

إن نظرة سريعة إلى أثر (المقاصد) في توجيه إستراتيجيات (خطاب المدونة) يتركز في أذهاننا، حقيقة تحكم المرسل إليه - رغم تعدد أمثاله في المدونة - بآليات وأدوات لم تصدر إلا عن تأثير واضح لمبدأ المقصد في الخطاب؛ فسواء أعلق الأمر بالرسول ﷺ أم بصحابته -

من انتخبوا ضمن إطار المدونة - لم تكن غايتهم إلا المرسل إليه، موظفين امتلاكهم اللغة في مستوياتها المعروفة، ومعرفتهم بقواعد تركيبها وسياقات استعمالها<sup>(1)</sup>.

إن الباعث على إنشاء تلك الخطب كان قويا، فقد اتخذها الرسول ﷺ مطية "لتبليغ دعوته حتى غدت ظاهرة أدبية أخذت أبعادها» الأكثر أهمية في الصدر الأول من الإسلام، لما لها من تأثير في النفوس، وفردة في أداء غرض سام من أغراض الدعوة الإسلامية [...] ولذلك كان النبي ﷺ واضحا في أدائه الخطابي يمتاز أسلوبه بالجلال والكشف والنورانية والسهولة والسلاسة التي تبغي الإيصال وليس الإشكال، والإفهام وليس العي والتعقيد»<sup>(2)</sup> وكذلك كان الخطيب الإسلامي عموما «قصير الجمل ومألوف الألفاظ وقريب المعاني ومنطقيا في ترتيبه أفكاره وواضحا في تناوله مرامه [...] متوخيا الوصول إلى النتائج التي من أجلها أقام خطبته»<sup>(3)</sup>.

كما كانت (الخطب) سلاحا مشهرا في وجه المرتدين أيام أبي بكر، وفي وجه بعض المخالفين في مسألة (الخلافة) زمن أبي بكر، وعمر وعثمان وعلي ومعاوية، مما يجعل (القصدية) أكبر باعث على التلغظ بالخطاب، و"تزويره" على حد تعبير عمر بن الخطاب، فالناس «يعملون بالطرق التي تيسر لهم تحقيق أهدافهم، إذ يعمل أطراف الخطاب من خلال التفاعل لجعل ملفوظاتهم ذات علاقة بأهدافهم التخاطبية، وبالتالي أهدافهم الشخصية»،<sup>(4)</sup> وهو ما نلمحه في بعض الخطب المنتقاة، كخطب يوم (السقيفة) وخطب (علي) و(معاوية)، ولا يشترط -هنا- اتحاد الهدف لدى المتخاطبين، بقدر ما يطلب منها التفاعل، والتشارك و(التعاون الخطابي).

ومن بين القواعد الخطابية المتحركة في مثل هذا النوع من "التفاعل" مبدأ التصديق،

1- ينظر: الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 183.

2- المعوش (سالم): القواعد المعرفية الإسلامية في أدب صدر الإسلام، دار النهضة العربية، بيروت- لبنان، ط1، 2001، ص: 287-289.

3- نفسه: ص، نفسها.

4- تغزاوي (يوسف): الوظائف التداولية، ص: 192-193.

وهو مبدأ استخلصه (طه عبد الرحمن) من التراث الإسلامي، يقوم على ثلاث قواعد هي<sup>(1)</sup>:  
 (1) القصد: وهو أن تبين قصد (المتكلم) من قوله، إذ القصد هو الذي يصون القول من اللغو مع إفادة المخاطب معناه المقصود.

(2) قاعدة الصدق: وهي من مقتضيات الحوار التداولي، وتقوم على شروط ثلاثة هي: الصدق في القول والصدق في العمل، ومطابقة القول العمل، ويتجلى بها التزام المتكلم بحفظ لسانه عن إخبار المخاطب بقضايا تخالف المرجع الخارجي (الواقع) وأما الصدق في العمل فهو أن يصون المتكلم سلوكه عن أوصاف تشي بخلاف ما يتصف به.

3- قاعدة الإخلاص، وهو أن يتجرد المتكلم في مخاطبته غيره من الأغراض الذاتية. وتبرز هذه (القواعد الخطابية) حرص المرسل على إيصال معانيه، والتأثير في مخاطبيه، ولذلك تتعاضد لغويا، بالإكثار من المؤكدات، والحجج، خاصة إذا كان فحوى الخطاب، يبدو على خلاف جوهري مع الواقع (المرجع الخارجي) ونلمس صورة ذلك في خطب الرسول ﷺ، الأولى، التي جهر فيها بدعوته، ودعا بها قومه إلى تصديقه، وإتباع نهجه، فعلى الرغم من وجازتها إلا أنه وظف فيها عددا معتبرا من المؤكدات، منها القسم، تواترات على الشكل الآتي:

\* إنَّـ<sup>\*</sup> واللّٰهـ<sup>\*</sup> واللّٰهـ<sup>\*</sup> - إني لرسول الله - واللّٰهـ<sup>\*</sup> لتموئن - ولتبعثن - ولتحاسبنَّ - ولتجزؤن - وإنّها لجنة أبدا، أو لنار أبدا.

ففي حوالي (50) خمسين كلمة، وظف النبي ﷺ (سبعة عشر) مؤكدا، وكانت هذه أول خطبة له بمكة<sup>(2)</sup>.

ولذلك أولاهما اهتماما خاصا، لما للانطباع الأول من وقع في النفوس، ويتجلى ذلك في أمرين أساسيين هما:

1- عبد الرحمن (طه): اللسان والميزان، ص: 250 وما بعدها.

2- أحمد زكي صفوت: جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط1، (1352هـ-1933م)، ج1، ص: 51.

1- اختياره لمعانٍ بذاتها، تتم عن "صدق" و "إخلاص" فنفي عن نفسه - وهم أعرف الناس به - الكذب والغرر، وقصد أغراض ذاتية، معتمدا على المعرفة السابقة (المشتركة)؛ فمن مقتضيات التخاطب التداولية، تحري مبدأ (التصديق) الذي من شروطه، الصدق في القول، والصدق في العمل ومطابقة أحدهما الآخر، وأن يظهر كل ذلك سلوكا لدى المتكلم.

2- اقتصاره في الكلام على قدر حاجته، «لأن الكلام إن لم ينحصر بالحاجة ولم يقدر بالكفاية، لم يكن لحده غاية ولا لقدره نهاية»<sup>(1)</sup>.

بالإضافة إلى تخيُّر اللفظ<sup>(2)</sup>، فسمى نفسه رائدا ← وجعلهم أهله، ونفى عن الرائد (المرسل في طلب الكلام)، الكذب، والغرر، لأنه إن فعل، أهله نفسه وإياهم، ثم تدرج من التشبيه إلى الحقيقة، فصرح لهم بأنه رسول الله إليهم خاصة، وإلى الناس كافة، ثم تدرج بهم إلى خبر ما يكون بعد الموت، ففاس لهم الموت على النوم، والبعث على الاستيقاظ، وبَيَّن لهم الغاية من كل ذلك، وقصرها على المجازاة، فما هي إلا جنة أبدا أو نار أبدا.

كما نلمس اعتماد النبي ﷺ قاعدتي التواضع والاتفاق، وهي إحدى قواعد (مبدأ التأدب الأقصى) الذي جاء به (ليتش)، وصورهما:

1+2- التقليل من مدح الذات / الإكثار من ذم الذات

3+4- التقليل من الاختلاف مع الغير / الإكثار من الاتفاق مع الغير.

يمكن أن نمثل لذلك من الخطبة بـ:

\* عدم استعماله للضمير (نحن)، أي تغييب المرجع وتحميش السلطة<sup>(3)</sup>، سلطته المعنوية، فهو رسول الله، وكان يمكن أن يُدِلَّ بها عليهم.

\* إكثاره من أسلوب القسم، وله دالتان:

1- الماوردي (أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب): أدب الدنيا والدين، تح: مصطفى السقا، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط4، 1973، ص: 268.

2- يعد هذا العامل من شروط التبليغ المتفرعة عن مبدأ التصديق، كما أوردها طه عبد الرحمن عن الماوردي، ينظر: الماوردي، أدب الدنيا والدين، ص: 267.

3- ينظر: الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 249.

أ- أولاهما، إظهار حرصه، وصدقه فيما يقول، وهو يجتهد بكل ما أوتي من آليات لغوية، وغيرها، لترسيخ ذلك في نفوسهم، ولهذا شواهد كثيرة في كلامه ﷺ.

ب- ثانيتهما، مخالفة اعتقاد كان سائدا عند العرب، مفاده، أن الإيمان الكاذبة تدع الديار بلاقع، وقد جرى النبي ﷺ على سننهم\*، فحلف بكل شريف فلم يزد ذلك إلا سؤدا ورفعة وثباتا، «وكانوا يعلمون أنه لا يحلف إلا صادقا وإلا أصابه شؤم الإيمان، وناله المكروه في بعض الإيمان». فكانت العرب تحتز عن الحلف لذلك، فأكثر القرآن من إيراد هذا الأسلوب، كما أكثر نبيّه، إمعانا في إظهار صدق ما يحدث به<sup>(1)</sup>.

ومن هنا يمكننا القول، إن اعتبار القصد في التواصل، وضوحا أو غموضا من لدن المرسل، هو الركيزة الأساسية في تقسيم إستراتيجيات الخطاب، بالإضافة - طبعاً - إلى عامل آخر سبقت الإشارة إليه، وهو السلطة.

## (2) السلطة:

مفهوم السلطة، في الخطاب، مفهوم مجازي، يشير إلى ما يتعارض، من قوى أثناء التواصل بين ذوات المتخاطبين، أو ما يعتد به، أثناء التخاطب، من اعتبارات معنوية، قد تؤثر في مجرى الكلام، وتدفع المرسل / المرسل إليه، إلى تحديد إستراتيجية، بناء عليها.

إن السلطة في الخطاب، وإن استعصت عن التحديد، تلعب دورا هاما في إنتاج الخطاب، وتأويله « كما أنها تمنحه قوته الإنجازية... ويتجلى دورها بوصفها محمدا رئيسا في ترجيح إستراتيجيات معينة دون إستراتيجيات أخرى»<sup>(2)</sup>.

وقد مر بنا اعتبارها-أي السلطة - عند (بارث) إحدى مستلزمات استعمال الإنسان

\* ففي الحديث عن أبي هريرة: "إن أعجل الطاعة ثوابا صلة الرحم... وإن أعجل المعصية عقوبة البغي واليمين الغموس، تذهب المال وتنفل في الرحم وتذر الديار بلاقع". الهيثمي (نور الدين علي بن أبي بكر)، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، دار الفكر، بيروت- لبنان، دط، 1412هـ، ج4، ص: 322.

1- المراغي (أحمد مصطفى): تفسير المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، دط، دت، ج1، ص: 4826.

2- الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 220.

للغة، وهو ما يبعدها - حسبه - عن الوظيفة التواصلية<sup>(1)</sup>.

ويمكن أن نستشف من هذا التصور، أن السلطة، تكون بالخطاب، حين تمارس اللغة دورها، عبر المرسل، في المستويات اللغوية المعروفة، مما يجسد كفاءته التواصلية وقدرته على التأثير في سلوك الآخرين، إما بالأمر، أو النهي، أو ما يصاحبها من أفعال ذات قوة إنجازية. وقد تكون بغير الخطاب، كالسلطة بالوظيفة أو الرتبة الاجتماعية، أو المؤهلات (البدنية، العقلية) أو المكان (صاحب البيت، الشركة...) أو باللباس (البذلة الرسمية، العسكرية...)، كما لا يخفى ما للسلطة من قدرة على توجيه الخطاب، وتغيير إستراتيجيات المتخاطبين؛ ومن أكثر الوضعيات الحوارية التي تصادفنا في حياتنا اليومية، لجوء ركاب سيارات الأجرة إلى الإستراتيجية التضامنية، في تعاملهم مع السائق، نزولا لسلطته المعنوية، حتى وإن كان ذلك على سبيل التأدب، أو المجازاة، ويدرك هو أيضا ما أكسبه إياه مكانه من حق في الأمر والنهي، أو إدارة الحديث، أو تحوله إلى مرجع يُحتكم إليه، فيمارس هذا الدور المؤقت، في حدود "المكان".

وقد نهى النبي ﷺ، أن يؤم الرجل في سلطانه، لما في ذلك من تجرؤ على سلطة صاحبه، إلا أن يأذن<sup>(2)</sup>.

وقد تسهم بعض المواقف، والسياقات، في التسوية بين المتخاطبين، من حيث حظهم من السلطة، من ذلك مقام المناظرة، أو التنازع (الحرب) أو التشاور؛ كما حدث بعد مقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، في مجلس (الشورى)، فبعد «دفن عمر اجتمع أهل الشورى، وهم: عبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، - وكان طلحة غائبا - فبدأ عبد الرحمن بن عوف بالكلام...»<sup>(3)</sup>.

1-يراجع : المبحث الثاني، الفصل الأول من هذا العمل.

2- الترمذي السلمي (أبو عيسى محمد بن عيسى): سنن الترمذي، تح: أحمد محمود شاکر وآخرين، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ج1، ص:458.

3- الجمعة، ص:97.

ومن مظاهر تجاذب السلطة في (خطب يوم الشورى) تخلي الخطاب عن الألقاب، والإشارات الاجتماعية، وأساليب التلميح، والتضامن؛ إذ يبدو جليا اختيار الإستراتيجية المباشرة من لدن عبد الرحمن بن عوف، وهو مؤشر يسند ابتداره الكلام، ولعل مرد ذلك إلى بواعث منها:

أ- أنه من خلف عمرا بعد مقتله على الصلاة، فقد روى ابن سعد في الطبقات أنه لما «حُمل عمر إلى أهله وكادت الشمس تطلع، فصلى عبد الرحمن بن عوف بالناس بأقصر سورتين»<sup>(1)</sup>، فكأنه قاس ذلك على مآل الأمر بعد النبي ﷺ إلى أبي بكر، لأن حجة عمر، وأبي عبيدة، ومن كان معهما من المهاجرين، في سقيفة بني ساعدة، على غيرهم من الأنصار في تقديم أبي بكر على من سواه، كانت استخلاف النبي إياه على الصلاة، "والصلاة أفضل دين المسلمين" فلا ينبغي أن يتقدمه أحد، وهي الإمامة الصغرى، التي يُستدل بها على الإمامة الكبرى (الخلافة).

فهو وإن لم يصرح بذلك، إلا أن خطابه، كان فيه من "التوجيه" المباشر ما يدل على أسبقيته، وفضله، دون من حضر من أصحابه؛ فقد استعمل أسلوب الأمر والنهي، «اسمعوا، أجيئوا، لا تغفلوا المدى، لا تغمدوا السيوف، قلدوا أمركم، احذروا نصيحة الهوى، علقوا أمركم وحب الذراع، لا تطيعوا مفسدا يتنصح»<sup>(2)</sup>.

ويتضح من هذا الاستعمال، أن المرسل لا يتميز، بسمات فردية فحسب، وإنما له موقع اجتماعي، في سُلّم الجماعة التي ينتمي إليها، وهو باستعماله للإستراتيجية المباشرة، أو التوجيهية، يحاول «تصحيح العلاقة بين طرفي الخطاب، غير المتكافئين في المرتبة، وإعادة تأكيدها إلى سيرتها الأولى [...] فالتلفظ بهذه الإستراتيجية، هو إعادة لهيبة العلاقة وتجسيد لها، بل وتأكيد لحضورها في الذهن وعدم إغفالها، حتى لو استعمل المرسل إستراتيجية التضامن في بعض

1- السيوطي (عبد الرحمن بن أبي بكر): تاريخ الخلفاء، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، دط، 1952 م،

ج1، ص: 134.

2- الجمهرة: ص: 98.

السياقات»<sup>(1)</sup>.

من ذلك، تخفيف - المرسل - (عبد الرحمن بن عوف)، لحدّة أفعاله الإنجازية المباشرة، بإظهار التضامن مع المتخاطبين، والتسوية بينهم، وبينه، في الصفات والأحكام كقوله: «علّقوا أمركم رحب الذراع فيما حلّ، مأمون الغيب فيما نزل، رضا منكم، وكلكم رضا، ومقترعا منكم، وكلكم منتهى»<sup>(2)</sup>.

فلا شك في أنه كان يقصد بـ"رحب الذراع" واحدا بعينه، منهم، قد يكون هو نفسه، ولذلك حذرهم من الفتنة العمياء، والضلالة الخيراء، "والحيلة في المنطق" التي هي "أبلغ من السيوف في الكَلَم"<sup>(3)</sup> ولكنه، سرعان ما خفف من حدة خطابه، بإظهار الاحترام، والتبجيل لهم جميعا، عندما ذكّرهم بأنهم، سواسية في هذا الأمر "وكلكم رضا وكلكم منتهى"، وجعلهم أئمة يُهتدى بهم، وعلماء يُصدر إليهم.

ب- أن عُمرَ، وضعه في الشورى، وميّزه عن بقية أصحابه، فقال: «إن كان ثلاثة وثلاثة فاختاروا صف عبد الرحمن بن عوف»<sup>(4)</sup> فهو بهذه الصفة، رئيس الجماعة، ومديرهم، «ما دام قد جعل - عمر - رأيه مرجحا عند تساوي الأصوات» ولكنه على ذلك لم يرشح نفسه للخلافة، ولم يسمع لمن ألحّ عليه في هذا الترشيح، وإنما أسرع فأخرج نفسه من الأمر إخراجا، وأراد أن يكون حَكَمًا بين المتنافسين، وقد قبل المتنافسون حكمه... وكان يقول: «لإن توضع حربة على حلقي حتى تنفذ من الجانب الآخر، أحب إليّ من أن ألي هذا الأمر»<sup>(5)</sup>.

فهو بهذه الصفة "صفة الحكم"، كان آمرا، ناهيا، يشاور من شاء، ويؤيّل من رضي، حرصا على أن يبلغ بالأمر إلى منتهاه، فكأنه كان الوصي على الخلافة، من قبل عمر بن

1- الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 328.

2- الجمهرة، ص: 98.

3- نفسه، الصفحة نفسها.

4- طه حسين: الفتنة الكبرى ضمن (إسلاميات طه حسين) دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، ط3، نيسان (أبريل) 1981، ص: 766.

5- نفسه، ص ص: 766-767.

الخطاب، وقد باشروا، مع اجتماع مرشحيها، فكان كما عرضنا صارما، واضحا حريصا على أن يتولى هذا الأمر أهله، وهو ما يبرر نهجه في خطابه نهجا مغايرا لأصحابه، سوى علي بن أبي طالب عليه السلام، الذي طفق خطابه بنوع آخر من السلطة، مستندها، ديني بحت، ذكر فيها الحاضرين بمكانه من الرسول صلى الله عليه وسلم، وصفاته من حكمة، وعلم، وشجاعة.

يتمظهر "خطاب السلطة" عند (علي) في هذا "المقام التخاطبي" بمظاهر عدة، أهمها:

- توظيفه للضمير (نحن) تعظيم المفرد "نحن بيت النبوة".
- ← أنا + أنتم + هم "وبعثه إلينا رسولا".

وهي عند (لاكوف) ذات دالتين هما:

- 1) نحن الشاملة.
- 2) ونحن القاصرة أو الحاصرة.

حيث يدخل المرسل إليه في إطار الصنف الأول، وهي بهذا تعادل (أنا وأنت) أو (أنتم) أما نحن في الصنف الثاني فهي تستبعد المرسل إليه<sup>(1)</sup>. أي أنها تقصي المرسل إليه، ليحل محله آخرون غيره، ففي مثل قوله صلى الله عليه وسلم:

- 1) نحن بيت النبوة ← أنا وآخرون (هم) غيركم بيت النبوة.
- ← أنا وبنو هاشم بيت النبوة.
- ← أنا وآل البيت، بيت النبوة.

2) كما قد يتضمن معنى أنا + أنتم (القرشيين المرشحين للخلافة).

إن خطاب (علي) يوم الشورى، متضمن المعنيين معا، باستخدامه الضمير (نحن) الذي يستعمله - عادة - ذوو المقامات الرفيعة، وإن دل كذلك، على التضامن إذا كان بمعنى (أنا + وأنتم) وذلك لجمعه بين المرسل والمرسل إليه، وإشراكهما في الغرض، أو القصد، أو الصفة والحال.

1- الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 293.

في حين يبدو «المرسل وكأنه يمارس شيئاً من السلطة والصلاحيّة عندما يستعمل القسم الآخر - نحن القاصرة - وذلك بإشراكه عدداً من الآخرين معه في إرسال الخطاب مما يوحي بسلطته على آرائهم»<sup>(1)</sup>.

أنا + بنو هاشم ← = نحن ← نحن بيت النبوة/معدنا للحكمة/أمان  
أهل الأرض/لنا حق...  
عليّ  
أنا + قريش = نحن ← بعث محمداً منا نبياً.  
أنا + المسلمون = نحن ← وبعثه إلينا رسولا.

ففي بنية الخطاب العميقة، تسكن سلطة "نحن" الحاصرة، القاصرة "التي تتجاوز التضامن مع المخاطبين، إلى تذكيرهم بفضل قد تناسوه، ومرتبة غمطوها، وغالباً ما يظهر مثل هذا الخطاب، في مقام "التنافس" و"التسابق" حين تغلب على النفوس طبائعها، ورغباتها في تحصيل المنافع، ودرء المفسد، إذ الأصل الذي يقوم عليه مبدأ "التصديق" التداولي، «أن يكون الكلام لداع يدعو إليه، إما في اجتلاب نفع، أو دفع ضرر»<sup>(2)</sup>.

وقد رأى علي من أصحابه في المجلس، ما ألهب أحزانه، وهو الذي كان يظن أن القوم أزهد ما يكون في الخلافة، وشواغلها، فإذا به، يجد منهم من التدافع عليها، والتنافس فيها، ما فجأه، وفجأ المسلمين «الذين كلفوا حراسة هؤلاء المشيرين مفاجأة أليمة، حين رأوا هؤلاء المشيرين يختلفون في غير ائتلاف، ويتنافسون في غير وفاق حتى قال أبو طلحة رئيس الحرس: لقد كنت من أن تدافعوها أخوف من أن تنافسوها»<sup>(3)</sup>.

إن حضور مكون السلطة في خطابات المدونة، أفرز ضمور الإستراتيجية التضامنية، في بعض المقامات التخاطبية، وأدى إلى وسم بعضها الآخر بسمات متباينة، أعطت التحليل التداولي مجالاً فسيحاً لتسليط قوانينه، وآلياته مستعينا، بالمعارف المشتركة، وحيثيات السياق،

1- السابق: الصفحة نفسها.

2- اجعيط (نور الدين): تداوليات الخطاب السياسي، عالم الكتب الحديث، إرد - الأردن، ط1، 2012، ص: 91.

3- طه حسين: الفتنة الكبرى ضمن (إسلاميات طه حسين)، ص: 705.

غير مكثف باستنطاق الخطاب في مستوياته الأصلية (اللغوية)، وهو ما يمنح العملية التأويلية انفتاحا وتشويقا، يدفعان بها قدما لتحقيق أحد أهم مقاصد هذا البحث ألا وهو إعادة إنتاج أحكام تخص هذه الفترة الزمنية من فترات، تكوّن الحضارة الإسلامية اعتمادا على منظور حديث، هو المنظور التداولي.

فمن الطبيعي -إذن- أن يلتئم شمل الخطابة الإسلامية في صدر عصر الإسلام والتداولية، لما بينهما من وشائج؛ من أبرزها اضطلاع الخطابة حينذاك، بأداء دور عظيم «في المجتمع الجديد المتوثب للبناء والمتطلع للتغيير في كل شيء... حتى كادت تغطي على بقية الفنون كالشعر مثلا... أضف إلى كل ذلك أن السليقة العربية كانت معتادة على ذرابة اللسان وتدفق الكلام البليغ واستعماله في مناسبات شتى... وهو أمر آل إلى صبغ الإنسان العربي (الإسلامي) بالخطابية انطلاقا من القدرة الكامنة فيه... ولقد ظهر هذا الأمر أكثر ما ظهر في الحقب التي اشتدت فيها النزعات الشعوبية»<sup>(1)</sup> وظهر قبل ذلك مع توفر الداعي، ووجود المقصد الخطابي والمقام، فكأنني بالعربي قبل الإسلام (ملكة) لم تصقلها التجارب، ولم تمتحنها الخطوب والنوائب؛ فهو على كثرة ما صادفه في جاهليته من أحداث وملاحم، لم يلاق ما من شأنه أن يثير فيه العواطف المتباينة، والنزعات الكامنة، والمقاصد المتشاحنة، ثم هاهو - بعد موت الرسول ﷺ - وبني جلدته، أيادي سبأ، متفرقون محتاجون مع ذلك إلى ما يجلي ظلام الخيرة عن أنظارهم، وقد ادلهمت حولهم الشبهات، وأعضلهم تأويل الطوارئ من القضايا، على نحو غير مسبوق وقد انقطع الوحي وقُضِيَ الرسول.

ومن بين ما يشرّع العلاقة بين التداولية والخطابة الإسلامية - صدر الإسلام - أيضا، كون «أعظم التصورات الحديثة في اللسانيات، وما قاربها من علوم، هو الاهتمام المتزايد بما يتصل بالأصناف المختلفة لمقولة السياق [...] لغاية تعريف العلاقات المطردة بين السياقات المجتمعية والثقافية، وبين بنيات اللغات وأشكال وظائفها»<sup>(2)</sup>.

وما من حاجة في هذا المقام إلى إعادة التذكير بالعلاقة الوطيدة بين الخطابة والسياق،

1- المعوش (سالم): القواعد المعرفية الإسلامية في أدب صدر الإسلام، ص ص: 282-284.

2- دايك(فان): النص والسياق، تر عبد القادر فني، ص: 13.

ويكفي أن نشير إلى أنها- الخطابة - مشتقة من «الحُطْب، وهو الأمر الجليل، لأنه يقام بالحُطْب في الأمور التي تجلُّ وتعظم»<sup>(1)</sup>. فلا يمكن تصور خطبة دون مقام داعٍ لها. وهو ما سنعرض له في الفصل الموالي.

1-ابن جعفر (قدامة): نقد النثر، دار الكتب المصرية، دط، دت، ص:82.



# الفصل الثاني:

## خطابه صدر الإسلام بين التضامنية والتلميحية



# المبحث الأول:

## الإستراتيجية التضامنية

## \* تمهيد:

يتكئ فعل التضامن في خطاب المدونة، على حقيقة أنه إحدى الآليات الخطابية المعززة لمعنى التوافق، والحميمية والتعاون، مع المرسل إليه (الآخر)، المفضي إلى تحقيق مصالح، أو إلى درء مفسد، يشترك الطرفان في عدّها مصلحة أو "مفسدة مشتركة".

وهو بهذا يقوم أو يتحقق بتحقيق علاقة كائنة أو يمكن أن تكون بين طرفي الخطاب تتجسد عبر اللغة، باعتبارها ذات وظيفة تفاعلية، تسهم إسهاما وافرا في إقامة علاقات اجتماعية بين مستعمليها، وتثبيتها، فهي «بالدرجة الأولى أداة اتصال بين الأفراد»<sup>(1)</sup> أكثر من كونها أداة تعامل.

كما أن خطاب المدونة، من هذا المبدأ يجسد الكفاءة التواصلية (التداولية)، التي يلجأ إليه المرسل (الخطيب)، وهو يسعى شيئا فشيئا نحو هدفه، المعد سلفا، من خلال ما يحشده من آليات وأدوات لغوية، وغير لغوية، وما يمتح منه من قواعد خطابية مضمرة، تصب جميعها في بوتقة "التقرب والتقريب" وبينه وبين المخاطب، والتي تتمظهر لغويا في "الموادعة اللغوية" أو استعمال اللغة استعمالا هادئا، مسالما، بعيدا عن استثارة مكامن الاختلاف، والتشظّي المجتمعي أو الطبقي أو الديني...

وهنا يبرز سؤال آخر، حول كيفية اشتغال هذه الإستراتيجية، إن في صورتها الشكلية أو العلاماتية، وهو ما سنحاول أن نميط عنه اللثام في هذا المبحث من خلال الكشف عن العلاقة الوطيدة بين الموقف الخطابي والتضامن، والوقوف عند أهم القواعد التي تحقق التفاعل بينهما، مع إسقاط الوسائل اللغوية للإستراتيجية التضامنية على ما يوافقها من نماذج خطابية في المدونة.

1- براون ويول: تحليل الخطاب، ص: 3.

## 1) الموقف الخطابي والاستراتيجية التضامنية:

ونقصد به مجموع العناصر «التي تسمح للمشاركين في التفاعل بالتعرف أو استكشاف سياق هذا التفاعل وتحديد مع من يتكلمون»<sup>(1)</sup>، بالإضافة إلى ملابسات الزمان والمكان، والقرائن المؤثرة، كالرتب الاجتماعية (رئيس، خليفة، رجل دين...) أو (صحابي، تابعي، عالم، نصراني، يهودي).

إن ملاحظة هذه السياقات التخاطبية، هو الذي من شأنه أن يحدد مسارات التأويل الخطابي من لدن المتفاعلين، وكيفية بنائها، أو تعديلها.

ومن ثم يعطينا فكرة أوضح عن الإستراتيجيات المتخذة، والآليات الموظفة، بتأثير من علاقات المتخاطبين فيما بينهم، وتوقعاتهم في الإطار الخطابي.

ونظرا لتعدد المواقف الخطابية في المدونة، آثرنا أن نتخير نماذج، نتوسل بها إلى حكم علمي، قادر على طبع فترة صدر الإسلام، ممثلة في مواقف خطابية مميزة وغير متكررة كأوائل خطب الرسول ﷺ بمكة، والمدينة، وأوائل خطب الخلفاء بعده؛ أبي بكر وعمر، وعثمان وعلي.

إن أول ما يسجل لهذه الخطب - عموما - هو احتكامها، لأهم مميزات الإستراتيجية التضامنية، بإبراز مشاعر التعاون والتقارب، والتكافل، وسعي الخطباء إلى تجسيد البعد التضامني بالخطاب، في صور شتى منها:

أ- إظهار الاحترام للمتخاطبين: والتودد إليهم باستعمال عبارات تشير إلى الروابط النسبية، أو الدينية، أو الفكرية...

فقد سمى الرسول ﷺ قريشا أهله<sup>(2)</sup>، وإن كانوا على غير دينه، ونزل عن مرتبته وهو يخاطب المسلمين في أول جمعة جمعها بالمدينة، فعَدَّ نفسه مسلما ينصح مسلمين حين

1- مانغونو (دومينيكي): المصطلحات المفاتيح، تر: محمد يحياتن، ص: 72.

2- الجمعة: ص: 51.

قال: «وأوصيكم بتقوى الله، فإنه خير ما أوصى به المسلم المسلم، أن يحضه على الآخرة»<sup>(1)</sup>.

وكان أبو بكر أشفق الناس على الأنصار يوم السقيفة، على الرغم من استبداد بعضهم بالرأي، إلا أنه جسد - خطابا - تضامنيا جعلهم يرفعون عما أزمعوا، فذكرهم بأنهم "الأنصار"، وأنهم إخوان في الدين، وشركاء في الفبيء، وأنصار على العدو، آووا، ونصروا، فهم الوزراء، والمهاجرون الأمراء<sup>(2)</sup>.

واستقبل عثمان بن عفان الناس بعد أن بايعوه، حزينا كئيبا، زاهدا مزهدا، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إنكم في دار قلعة وفي بقية أعمار، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه...»<sup>(3)</sup>.

ومعلوم أن أساليب الوجه تسهم إسهاما مؤثرا في استمالة المخاطب، ودفعه إلى التضامن، ف«الجزء الأعلى من الوجه الذي يشمل الجبين والعينين [ يقوم ] بدور مهم في التعبير عن حالة المتكلم النفسية»<sup>(4)</sup> ونقلها محايدة للخطاب إلى المتلقي.

#### ب- المودعة الفكرية، واستثمار العلاقات السابقة، والمعارف المشتركة:

ويوضح هذا الخيار الخطابي، استعمال النبي "لوجهه الشائع" بين أهله وعشيرته فهو لا يكذب، وما جربوا عليه كذبا قط، و«الله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم، ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم...»<sup>(5)</sup>.

ومن شأن هذا الخيار أن يولد التساؤل لدى المخاطب، عن "القصد" أو "الهدف" أو "الدافع" الذي يثوي خلف الخطاب، وقد يهديه ذلك إلى إبطال النوايا الخبيثة أو المبيتة في نفس المرسل، ومن ثم يدرك حقيقة مرامي الخطاب، وهو ما حدث فعلا مع الرسول ﷺ، بعد

1- السابق: ص: 56.

2- نفسه، ص: 63.

3- نفسه، ص: 100.

4- كرم زكي حسام الدين: الإشارات الجسمية، دراسة لغوية لظاهرة استعمال أعضاء الجسم في التواصل، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة - مصر، ط2، 2001، ص: 173.

5- الجمهرة: ص: 51.

أن عرضوا عليه، الملك، والمال والدنيا...

وسألهم يوم فتح مكة عن مصيرهم وقد ظفر بهم، فقال: «... ما ترون أي فاعل بكم؟ قالوا خيرا، أخ كريم وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء»<sup>(1)</sup>.

إن متأمل هذا "البناء التخاطبي"، وثيق الصلة بالسياق المولد له، ليدرك أن هذه الجملة، لا يحسن بها أن تقرأ إلا من حيث انتهت، فكأن النبي قال لهم وقد اجتمعوا حوله، وهو أقدر ما يكون عليهم، واقف على باب الكعبة:

(1) «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

(2) فقالوا خيرا - فعلت يا محمد - فأنت ابن كريم كما عهدناك، وابن أخ كريم يشهد بذلك نسبك، وسيرتك صيبا ويافعا...

(3) فقال: وما تظنون أي فاعل بكم، غير ما عهدتم من العفو، والصفح عند المقدرة. وهنا يبرز مفهوم "الاستنباط" التخاطبي، المبني على سلسلة من "الضمنيات التداولية"، "تلك التي تتوقف على سياق تلفظ بعينه" "présupposé, sous-entendu"<sup>(2)</sup>.

فالمرسل ← محمد رسول الله ﷺ.

← المرسل إليه ← قومه (قريش).

← المقام ← فتح مكة ← وهو واقف على الكعبة.

والخطاب السابق مؤسس على استلزامات جزئية كثيرة يمكن أداؤها في:

1 ← أنا محمد رسول الله، أسألكم يا معشر قريش عن ظنكم بي، بعد أن ظفرت بكم، لقاء ما فعلتموه بي وبأصحابي؟

2 ← أنت يا محمد ابننا، وابن أخينا، لا نظن بك غير الخير، لأننا عهدناك كذلك.

3 ← أنا كما عهدتموني، لا أنتصر لنفسي، فاذهبوا فأنتم الطلقاء.

1- السابق، ص: 52.

2- مانغونو: المصطلحات المفاتيح، ص: 73.

\*محمد ← الأخلاق الفاضلة، منها العفو عند المقدرة.

وقد تكررت، صورة هذه المواعدة، عند خلفاء النبي، كأبي بكر، الذي سبق وأن أوردنا مقالته للأنصار، ومحاولته ردم هوة الخلاف حول مسألة الخلافة، بالتركيز على العلاقات السابقة، أو ما يسميه، (جيوفريليتش) (Geoffrey leech) بمبدأ التأدب الأقصى، وتتفرع عنه ست قواعد أولها، ما يسميه (قاعدة اللباقة) التي تتجه نحو حفظ "مبدأ التعاون" ورقع ما من شأنه أن يوسع الهوة بين المتخاطبين، فجعلهم - أي الأنصار - شركاء، وإخوة، ووزراء، لا ينكر فضلهم إلا جاحد، ومن هذا المعنى، عدّت خطبته ﷺ، ذات خطر كبير، وأهمية بالغة، «فكان كلام أبي بكر حاسما يحصر الخلافة في قريش... دقيقا وواضحا، لا يثير خلافات، ولا يطعن على أحد»<sup>(1)</sup>.

ونجد موقفا شبيها بذلك، لدى عثمان ﷺ، وقد أدرك ببصيرته الثاقبة احتدام الخلاف حوله، ورغبة بعض من تولى الشورى في تولية سواه، فقال: «أما بعد، فإني قد حُمِلْتُ وقد قبلْتُ، ألا إني مُتَّبِعٌ ولست بمبتدع، ألا وإن لكم عليّ بعد كتاب الله عز وجل، وسنة نبيه ﷺ ثلاثا: إتباع من كان قبلي فيما اجتمعتم عليه وسننتم، وسن سنة أهل الخير فيما لم تسنوا عن ملأ، والكف عنكم إلا فيما استوجبتم»<sup>(2)</sup>.

فقد أحالهم ﷺ إلى ما كان عليه أصحابه، بعد رسول الله ﷺ، من السياسة، والتدبير، طلبا للمواعدة، وتطمينا للنفوس النائرة، التي تخشى التجديد.

وللتضامن الخطابي، آليات لغوية كثيرة، نعرض لها في حينها، منها، استعماله ﷺ، للأفعال المبنية للمجهول: "حُمِلْتُ، شُهِيت". ولا يخفى أثر هذه المواعدة في نفوس المخاطبين، والتي تستحيل فعلا وسلوكا، تُتَوَجَّه (المبايعة)، "...وأقبل الناس يبايعونه"<sup>(3)</sup>.

لقد بات أكيدا - إذن - أثر (الموقف الخطابي) في توجيه الإستراتيجية التضامنية بوصفها، «مظهرا من مظاهر (التفاعل Interaction) الذي تتجابه في صلبه

1- المعوش (سالم): القواعد المعرفية الإسلامية في أدب صدر الإسلام، ص: 302.

2- الجمهرة: ص: 101.

3- نفسه، ص: نفسها.

إستراتيجيات المتخاطبين، الذين يجب عليهم دوماً التفاوض والسعي إلى وضع المعايير إلى جانبهم»<sup>(1)</sup>.

وتأتي في واجهة هذا التفاوض الاستراتيجي، سعي أطراف الخطاب إلى بلورة مسارات تخاطبية، محورها - كما ذكرنا في نهاية الفصل السابق - السلطة، والمقاصد، تفضي بدورها إلى هيمنة نمط خطابي معين، يتجلى في شكل "قواعد تخاطبية" كما قد يتجلى لغوياً، بتفعيل آليات وأدوات لسانية، وتداولية كثيرة.

## (2) قواعد التفاعل الخطابي والإستراتيجية التضامنية:

ونقصد من إدراج هذا العنصر، توصيف أدوار المتخاطبين ضمن العملية التواصلية، وتداولهم على الخطاب، بإيعاز من المقاصد، أو القواعد المتحركة فيهم، إجمالاً.

إن السؤال الذي نروم إجابة له، في هذا المطلب هو ما الخلفية القواعدية، القابعة وراء فعل التخاطب في المدونة؟ وهل يمكن أن تنظم في سياق مفهومي ما؟ أو أن تنضوي تحت نظرية تخاطبية معينة؟

لقد صار من المسلّم به القول: إن الإستراتيجية التضامنية، هي المقياس الذي يجسد مدى ما بين المتخاطبين من تقارب، أو تعاون، ورغبة في إيجادهما إن لم يكونا سلفاً، وأن فعل التضامن في الخطاب، تدعو إليه دواعٍ كثيرة، منها الحفاظ على العلاقات الاجتماعية وتعزيزها أو بعثها وتجديدها، فهو شكل من أشكال التصالح مع الآخرين، ولا يبدأ هذا التصالح في الواقع إلا بعد تصالح المتكلم مع ذاته أولاً، وهو ما يبدو لدى انطلاقه في التواصل من قواعد أو مسلمات خطابية، تنامي في الخطاب، إلى أن تغدو شبكة من الأقوال المضمرة في نفس المرسل، توجهه ضمناً وهو ينتج خطابه، ويتفاعل مع مخاطبيه ضمن سياق معين.

ومن بين الدراسات الجادة في هذا المجال، دراسة ( ليتش ) التي «حاول أن يؤسس بها نظرية لمبادئ التأدب»<sup>(2)</sup> تتجاوز ما جاء به (جرايس) في (مبدأ التعاون)، وذلك بمنح هذه

1- مانغونو: المصطلحات المفاتيح، ص: 74.

2- الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 266.

المبادئ أولوية في إنتاج الخطاب، وسمى هذه النظرية بنظرية (التأدب الأقصى) وقد صاغه في صورتين هما<sup>(1)</sup>:

(1) سلبية وملخصها: قلة من الكلام غير المؤدب.

(2) إيجابية ومفادها: أكثر من الكلام المؤدب.

ثم فرّع هذا المبدأ إلى ست قواعد هي<sup>(2)</sup>:

(1) قاعدة الباقة<sup>(3)</sup> وصورتها:

أ- التقليل من خسارة الغير.

ب- الإكثار من ربح الغير.

(2) قاعدة السخاء، ولها بدورها صورتان هما:

أ- التقليل من ربح الذات.

ب- الإكثار من خسارة الذات.

(3) قاعدة الاستحسان وتتجلى فيه:

أ- التقليل من ذم الغير.

ب- الإكثار من مدح الغير.

(4) قاعدة التواضع، وصورتها:

أ- التقليل من مدح الذات.

ب- الإكثار من ذم الذات

(5) قاعدة التوافق، وتكمن في:<sup>(4)</sup>

1- عبد الرحمن (طه): اللسان والميزان، ص:246.

2- أفدنا في هذا العنصر كثيرا من (طه عبد الرحمن)، وإن لم نعدم كتاب (ليتش) (مبادئ التداوليات)، إيماننا منا بأن البحث اللغوي- وغير اللغوي - العربي، إنما أوتي من قبل الترجمة.

3- هي عند (ليتش) القاعدة الأم التي تتولد منها باقي القواعد، ينظر:

- Leech (Geoffrey) principles of pragmatics, Longman London/new york 1983, PP:104-127.

أ- تقليل الاختلاف بين الذات والغير.

ب- تقليل الاختلاف بين الذات والغير.

(6) قاعدة التعاطف (التجانس) وصورتها:

أ- قلل كراهية الذات للغير (التنافر مع الغير)<sup>(2)</sup>.

ب- أكثر من التعاطف مع الغير (أكثر انسجام الذات مع الغير)<sup>(3)</sup>.

إن أهمية هذه القواعد التخاطبية، لا تنعكس في تثير العلاقات الاجتماعية فقط، بل تتعداها إلى جعل الخطاب قائما على علاقة مسبقة، مضمرة بين المتكلم والمخاطب "فما تكلم أحد إلا وأشرك معه المخاطب في إنشاء كلامه، كما لو كان يسمع كلامه بأذن غيره، وكأن الغير ينطق بلسانه"<sup>(4)</sup>.

وهنا يتأكد، استثمار هذه القواعد، وإسقاطها على المدونة، طمعا في الكشف عن الأصوات الخافتة، التي كانت تسبق عملية التلفظ من لدن المرسل، وإن كان المقام لا يسمح إلا بإيراد نماذج، تؤكد هذا الالتزام القبلي للمرسل بتحقيق "التضامن" سلوكا استراتيجيا، خطايا، تؤديه الملفوظات الصادرة عن كليهما (المرسل/المرسل إليه).

ويؤدي نقض هذا العقد المعنوي بين المرسل/المرسل إليه، إلى تقطع التواصل أو إبطال التفاعل، وفيما يلي نموذجان يبين أولهما "التفاعل الخطابي" في ظل وجود "مبادئ التأدب الأقصى"، ويكشف ثانيهما، دوافع غياب هذا التفاعل حين لا يلتزم المتخاطبون بفعل التضامن، مؤشرا له بقواعد التأدب التي جاء بها (ليتش) .

إن خير من جسد هذه القواعد، وحرص على الالتزام بها في خطب الفترة - وفي سواها - الرسول ﷺ فقد وصفه القرآن الكريم بأنه متمكن من الأخلاق الكريمة والآداب العالية،

1- ينظر: الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص ص: 266-267، مع اختلاف في المصطلحات.

2- ينظر: عبد الرحمن (طه)، اللسان والميزان، ص: 247.

3- ينظر: الشهري، ص: 267.

4- عبد الرحمن (طه): اللسان والميزان، ص: 50.

والفضائل الرفيعة فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾<sup>(1)</sup> ودلّه على مفتاح القلوب، وجماع المحبة كلها حين قال له: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْمُرْ بِهِ لَأَبْرَأَنَّكَ مِنْهُ﴾<sup>(2)</sup>، ولو حاولنا أن نستعرض أدبه في الكلام وفي المعاملة لضاق بنا المقام عن ذلك، ولكن حسبنا أن نتبع "قواعد التأدب الأفضى" ثم نسقطها على نماذج من كلامه ﷺ.

1) قاعدة الكياسة: وهي أصل ما بعدها من القواعد، عند (ليتش) - كما مر بنا - وفيها يخاطب المرسل نفسه (الرسول ﷺ) وهو يتوجه إلى أصحابه وقومه:

أ- لا بد أن أقلل من خسارتهم، لأن هذه الصورة من الخطاب هي الأقدر على حفظ مبدأ التعاون ورفع ما من شأنه أن يوسع الهوة بيني وبينهم<sup>(3)</sup>. إذ لا يحصل التفاعل إلا إذا وجدت مسلمة خطابية لدى المتخاطبين، تدفعهما إلى التعاون في الفهم والإفهام، ومن الملفوظات المؤدية لهذا المبدأ، في خطب النبي ﷺ، تركيزه على ما يجمعه بهم، من النسب، والموطن، والمصير، كقوله يوم فتح مكة: «... الناس من آدم، وآدم خلق من تراب ثم تلا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾<sup>(4)</sup>»<sup>(5)</sup>، وكذلك دأبه في التذكير بما يجمع الناس، ولا يفرقهم.

ب- أكثر من ربح الغير: وهو مسلك شبيه بالأول، غير أن قوته الإنجازية أقوى، يتجلى خطايا في ابتعاد النبي ﷺ عن الأمر المباشر، أو كل ملفوظ يوحي بتسلطه عليهم، ولذلك لم يدع الملك، ولا السلطان، وكان يردد أنه بعث رسولا، عبدا، لا ملكا، فقد روي عنه أنه قال لرجل هابه، واستقبلته رعدة بين يديه: «هون عليك، فإني لست بملك، إنما أنا، فما أنا

1- سورة القلم، آية: 4.

2- سورة آل عمران، آية: 159.

3- ينظر: اجعيط (نور الدين)، تداوليات الخطاب السياسي، ص: 87.

4- سورة الحجرات، آية: 13.

5- الجمعة: ص: 52.

ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد»<sup>(1)</sup> ومما يعين على أداء هذا الفحوى الخطابي، توظيفه لقرينة السياق (Indice de contextualisation)، أو ما يسميه (مانغونو) "ديكور التفاعل"<sup>(2)</sup>، أثاث المجلس، الألوان والأواني المستعملة... وقد أفاض علماء السيرة في وصف ملابس الرسول وأثاثه، ومركبه...<sup>(3)</sup>.

(2) قاعدة السخاء: وفيها يخاطب (المرسل) نفسه:

أ- أقلل من ربح ذاتي: باستعمال «عبارات تشي بنكران الذات»<sup>(4)</sup> وتمكن من التقرب إلى التخاطب، خاصة في مقام طرق القضايا الخلافية.

وقد لجأ الرسول ﷺ، إلى هذه الصورة الخطابية، في مواطن كثيرة، كإثبات نبوته، وبعض حقائق الغيب، والأخبار كقوله في خطبة (حجة الوداع): «... وإن ربا الجاهلية موضوع، وإن أول ربا أبدأ به ربا عمي العباس بن عبد المطلب»<sup>(5)</sup> فلم يكتف ﷺ بتحريم الربا وإيقاعه على المخاطبين، وإنما ذكر أقرب الناس عليه، إيدانا منه لا أثره في الدين أو التشريع.

ب- أكثر من خسارة ذاتي: لأنها مطية ربح ذات الغير، كقوله، في خطبة مرض موته: «... فمن كنت جلدت له ظهرا، فهذا ظهري فليستقد منه، ومن كنت شتمت له عرضا فهذا عرضي فليستقد منه، ومن أخذت له مالا فهذا مالي فليأخذ منه، ولا يخشى الشحناء من قبلي، فإنها ليست من شأني، ألا وإنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ، من أخذ مني حقا، وإن كان له»<sup>(6)</sup>.

فقد يعرض على ملأ من الناس ظهره، وعرضه وماله، إمعانا في نكران ذاته، ولا يعد هذا خطأ من الذات، أو انتقاصا للمنزلة، «ولكنه أسلوب ينتهج لربح الآخر والتقرب منه»<sup>(7)</sup>.

1- الهيثمي (نور الدين علي بن أبي بكر): مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ج8، ص: 585.

2- مانغونو: المصطلحات المفاتيح، ص ص: 72-73.

3- ينظر: ابن قيم الجوزية (شمس الدين محمد بن أبي بكر): زاد المعاد في هدي خير العباد، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية-

مصر، دط- د ت، م1/ج1، ص ص: 53-61.

4- اجعيط (نور الدين): تداوليات الخطاب السياسي، ص: 88.

5- الجمهرة: ص: 57.

6- نفسه، ص: 60.

7- اجعيط (نور الدين): تداوليات الخطاب السياسي، ص: 88.

وإقناعه، واستمالته.

(3) قاعدة الاستحسان: وفيها يتجنب المرسل أمرا ويتحلى بآخر:

أ- فلا أكثر ذم غيري: فلا أذكر أحدا من الناس باسمه أو صفته، كقوله مثلا: «أيها الناس إن لكم معالم فانتبهوا إلى معالمكم»<sup>(1)</sup>، وكان كثيرا ما يقول وهو على المنبر: «ما بال أقوام...» دون أن يسميهم، أو يصفهم.

ب- وأكثر من مدح غيري: في مواطن الحث على الخير، والابتعاد عن الشر، كقوله في خطبته من الخيف من منى: «نصّر الله عبدا سمع مقالتي فوعاها، ثم أداها إلى من لم يسمعها، فرب حامل فقه لا فقه له، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه»<sup>(2)</sup> وفي هذا مدعاة للإقبال عليه، والحفظ عنه، واستحضار الحواس واستجماعها.

(4) قاعدة التواضع: ويستحضر فيها المتكلم مبدأين هما:

أ- أقلل من مدح ذاتي: لأن إطرء الذات، يضعف رغبة المخاطب في التعاون، والمشاركة في التفاعل، وتظهر هذه الميزة في استعمال المتكلم ضمائر الأفراد، أو الغائب وتجنب الإشارات الاجتماعية، والألقاب التي تحيل إلى واقع تراتبي، كالأمير، أو السلطان، أو الملك، أو السيد، أو الدكتور... كما تعزز كذلك باستعمال: "الأسماء المجردة" من لدن المرسل، كقوله ﷺ: «.. فوالذي نفس محمد بيده، ما بعد الموت من مستعتب»<sup>(3)</sup> وكقوله في مرض موته: «إن عبدا خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عنده»<sup>(4)</sup>.

يقصد بالعبد نفسه، ﷺ، فعلى الرغم من الخيارات المتاحة له في هذا السياق ليعبر عن ذاته في الخطاب، إلا أنه اختار ما يوحي بالتواضع والقرب من المخاطب، والتضامن معه، «وقد يستلزم اختيار اللقب عمليات ذهنية كثيرة، فيتم في هذه العمليات تصنيف الحقول الدلالية، ثم تصنيف محتواها واختيار ما يناسب السياق منها، وما يساعد المرسل هو امتلاكه للكفاءة

1- الجمهرة: ص: 55.

2- نفسه، ص: 54.

3- نفسه، ص: 55.

4- نفسه، ص: 60.

اللغوية والكفاءة التداولية»<sup>(1)</sup>.

حيث تساعده الأولى بما تتيحه من مخزون لغوي ثرّ، وتعيّنه الثانية، بإنزال هذا المخزون منزله من السياق، فعلى الرغم من امتلاك النبي ﷺ، لأسماء، وألقاب كثيرة، إلا أنه وظف - مراعاة للسياق - ما يعبر عن دنو منزله من مقام المخاطب، ولذلك كان ينهى عن أن يطرى أو يمدح، كما تمدح الملوك، والحديث في هذا ذو شجون<sup>(2)</sup>.

ب- أكثر من ذم ذاتي: حتى لا يتوهم المخاطب، بأي أروم حظا شخصيا أو منفعة خاصة، ونظير هذا قوله ﷺ في مرض موته: «ألا وإن أحبكم إليّ من أخذ مني حقا إن كان له، أو حلّني فلقيتُ ربي وأنا طيب النفس، وقد أرى أن عذا غير مغني عني حتى أقوم فيكم مرارا» ثم نزل فصلى الظهر، ثم رجع فجلس على المنبر فقال مقالته الأولى، فادعى عليه رجل ثلاثة دراهم فأعطاه عوضها، ثم قال: «أيها الناس من كان عنده شيء فليؤده ولا يقل فضوح الدنيا، إلا وإن فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة»<sup>(3)</sup> فالإكثار من ذم الذات «إبعاد كلي للمدح وهو أكبر درجة من التقليل من مدح الذات»<sup>(4)</sup>، وهذا من شأنه أن يدفع بالتخاطب إلى المضي قدما لتحقيق مقاصده، بعيدا عن المرامي الجانبية والأهواء الشخصية التي تعيق التواصل وتحد منه، كما سنرى في الأمثلة الآتية.

5) قاعدة التوافق (الموافقة)، وتظهر في التزام المرسل بأمرين:

أ- أن يقلل الاختلاف بينه وبين الآخرين: فيحاول أن يتجاوز كل العوائق الاجتماعية، والنفسية التي تحول بينه وبين التواصل الإيجابي مع الآخر، متمثلا بالضرر الذي يمكن أن يلحق

1- الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 276.

2- يمكن العودة إلى كتب السيرة، فهي حافلة بما يشهد لتواضع الرسول ﷺ. ومن ذلك ما رواه البخاري عن ابن عباس أنه "سمع عمر ؓ يقول على المنبر: سمعت النبي ﷺ يقول: لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبده، فقولوا عبد الله ورسوله". ينظر: البخاري (أبو عبد الله، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة): الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، تح: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط1، 1422هـ، ج4، 167/8، 168.

3- الجمهرة: ص: 60.

4- اجعيط (نور الدين): تداوليات الخطاب السياسي، ص: 88.

به أو بالآخر في حال عدم الاتفاق أو التوافق، وقد حرص النبي ﷺ على ذلك، إذ لم يَحُلْ إشراك قومه بالله، ولا معاداتهم إياه، بينه وبين دعوته، فعلى الرغم من قسوتهم عليه، وعلى أصحابه إلا أنه ظل داعياً، حليماً، حريصاً على زحزحتهم عن النار، إلى آخر عهده بهم.

ب- أن يكثر من التوافق بينه وبين الآخرين؛ فلم يكن الرسول ﷺ يعبأ كثيراً بما يبدر من قومه من أذى، لفظي أو جسدي، بل تراه يسعى جاهداً إلى تأسيس أرضية مشتركة بينه وبين مخاطبيه، وسيرته حافلة بذلك، لا يجد متصفحها كبير عناء في الوقوف على هذا المعنى.

(6) قاعدة التعاطف (التجانس): وفيها يتأسس الخطاب المتكامل، الذي يراعى فيه طرفاه؛ المرسل والمرسل إليه، وما يجمعهما (السياق).

أ- فلا يُكْرِهُ المرسل غيره: بل يسعى إلى تنمية المشاعر المشتركة التي تعينه على التفاعل معهم.

ب- ويكثر من التجانس مع غيره، والتعاطف معهم، في شتى حالاتهم، وقد ذكرنا سابقاً في أثناء حديثنا عن قواعد التخاطب، وصف القرآن للرسول، ومنه قوله تعالى في بيان صفته: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾<sup>(1)</sup>.

وقوله: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾<sup>(2)</sup>، وقوله في بيان وظيفته: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾<sup>(١١)</sup> لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ<sup>(٢٢)</sup> إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ<sup>(٢٣)</sup> فَعَذَابُ اللَّهِ أَلْعَذَابُ الْأَكْبَرِ<sup>(٢٤)</sup> إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ<sup>(٢٥)</sup> ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ<sup>(٢٦)</sup>﴾<sup>(3)</sup>.

إن تطبيق هذه القواعد الخطابية التداولية، وممارستها، وجعلها سلوكاً لغوياً، هو ما يجعل الخطاب مصطبغاً بصبغة تواصلية، تفاعلية، ذات أبعاد ومرام، تتدافعها أطراف تخاطبية، ضمن إطار محدد، قائم على التعاون والتضامن والمشاركة، وإن كانت هذه المشاركة في شقها

1- سورة التوبة، آية: 128.

2- سورة البقرة، آية: 256.

3- سورة الغاشية، آية: 21-26.

اللساني، لا تتأسس إلا على ترسانة لغوية، تعبر عن حاجة الفرد إلى تحديد رؤيته لطبيعة العلاقات بين الناس<sup>(1)</sup>.

وهنا تعترض سبيلنا أسئلة جوهرية، من قبيل، ماذا لو عدم الخطاب هذه المشاركة، وتنكرت الأطراف المتخاطبة لهذه القواعد؛ فإلام يصير هذا التفاعل؟ وهل يمكن أن تتحقق الطبيعة التواصلية لخطاب ما، في ظل اللاتعاون أو اللاتضامن؟

إن النموذج الثاني، الذي أردنا أن لا نتجاوزه في هذا المقام، والذي أشرنا إلى أنه مثال لتخلي المتخاطبين عن مبادئ (ليتش) خصوصاً، و(مبدأ التعاون) "الجرايسي" عموماً، ليكتسي طابعاً خاصاً في الاستدلال كفيل بأن يعفينا عن كثير من الكلام؛ وذلك انه يجسد موقفاً أو مقاما تخاطبياً، انطلق فيه فاعلوه من مسلمات تناقض مبادئ "التأدب الأقصى" وقواعده، فكان كل منهم حريصاً أيما حرص على أن يولي ظهره "لقاعدة الكياسة" إن سلباً (قلل من الكلام غير المؤدب) أو إيجاباً (أكثر من الكلام المؤدب).

كان ذلك «بعد أن نزل عليّ كرم الله وجهه بصقّين [و] دعا بشير بن عمرو بن محصن الأنصاري، وسعيد بن قيس الهمداني، وشبّث بن ربعي التميمي، فقال: ائتوا هذا الرجل [معاوية بن أبي سفيان] فادعوه إلى الله وإلى الطاعة وإلى الجماعة...»<sup>(2)</sup>، فدخلوا عليه واحتجوا ثلاثتهم، فما كان من معاوية بعد أن سمع مقالتهم إلا أن قال: «...انصرفوا من عندي، فإنه ليس بيني وبينكم إلا السيف وغضب»<sup>(3)</sup>.

إن رصدنا خاطفاً لخطب أنصار علي الثلاثة: ينبئ بانعدام كُليّ لآليات التخاطب وفق مبدأ "التعاون"، إذ لم تكن لدى هؤلاء المتخاطبين أرضية مشتركة من شأنها أن تقرب ما بينهم من بون، وفيما يلي بعض ملامح (اللاتعاون) و(اللاتشارك) التي أفضت إلى انقطاع التواصل والتفاعل، وغضب معاوية عليهم وصرفهم من مجلسه، صرفاً فظاً:

1- ينظر: الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 267.

2- الجمهرة: ص: 154.

3- نفسه، ص: 155.

(1) لم يَلِ كلُّ منهما<sup>(1)</sup> إلى التأدب في خطاب معاوية، فنادياه ابتداءً باسمه، نافين عنه لقب الخلافة، "يا معاوية إن الدنيا عنك زائلة"، «يا معاوية، إني قد فهمت ما رددت على ابن محصن» .. «فاتق الله يا معاوية»<sup>(2)</sup>. فكسرا قاعدة التعاطف بالإكثار من التنافر مع الآخر.

(2) أكثر من ذم المرسل إليه (معاوية)، ومن مدح صاحبهما (علي)، وفي هذا تجاوز لقاعدة الاستحسان؛ كقول بشير بن عمرو: «إن صاحبي ليس مثلك، إن صاحبي أحق البرية كلها بهذا الأمر في الفضل والدين والسابقة في الإسلام والقربة من الرسول ﷺ»<sup>(3)</sup>.

وكقول شبت بن ربيعي: «إنّا والله لا يخفى علينا ما تغزو وما تطلب، إنك لم تجد شيئاً تستغوي به الناس وتستميل به أهواءهم، وتستخلص به طاعتهم إلا قولك "قتل إمامكم مظلوما فنحن نطلب بدمه..."»<sup>(4)</sup>.

(3) لم يقللا من مدح الذات، كما تقتضيه قاعدة التواضع، «إذ يقتضي التعاون الابتعاد عن إطراء الذات لدفع المعارض للنهوض إلى إنجاز الأمر»<sup>(5)</sup> كقول بشير بن عمرو: "إن صاحبي ليس مثلك" أي هو أفضل منك.

كما لم يكثر من مدح الغير، بل بالغا في الانتقاص منه، والتعريض به كقول شبت بن ربيعي: «... لئن أخطأت ما ترجو، إنك لشر العرب حالا في ذلك، ولئن أصبت ما تمّ لا تصيبه حتى تستحق من ربك صليّ النار...»<sup>(6)</sup>.

إن تلافي الأطراف المتحاور، مبدأ التأدب الأقصى، أدى إلى نزاع بينهما (غضب معاوية) و«لذلك شدد بعض الباحثين الآخرين [غير جراسوليتش] على توظيف مبدأ

1- هما - في الحقيقة - خطبتان، اقتصر عليهما مجلس معاوية في أول ذي الحجة سنة 36 هـ، كانتا لبشير عمرو وشبت بن ربيعي التميمي، ينظر: نفسه: ص ص: 154-155.

2- نفسه: ص ص: نفسها.

3- نفسه: ص: 154.

4- نفسه: ص: 155.

5- نور الدين اجمعت: تداوليات الخطاب السياسي، ص: 88.

6- الجمهرة: ص: 155.

التأدب إذ يرى ( باخ وهارنيش Bach & Harnish ) ضرورة إضافته إلى قاعدة العلاقة في قواعد مبدأ التعاون عند (جرايس)، كما يريان ضرورة اعتبار قانون الأخلاق في الخطاب»<sup>(1)</sup> كل ذلك في سبيل تحقيق التواصل، وإعطاء الخطاب وظيفته التفاعلية، التي لا غنى عنها وهو يصبو إلى غايات مسرحها عادة المعاملات اليومية، والعلاقات الاجتماعية التي تختزل روح التضامن، والتشارك، حين لا يكون القصد من اللغة مجرد نقل المعلومات، وإنما إقامة العلاقات الاجتماعية كذلك.

### (3) أدوات التضامن وآلياته اللغوية:

إن الإستراتيجية التضامنية في الخطاب، لا تتأسس على ما ذكرنا من المبادئ فحسب، وإنما نجد لها جانبا آخر منطلقه اللغة بمختلف نظمها ومستوياتها، حيث تتجلى الكفاءة التداولية للمرسل / المرسل إليه، بما يصوغه من أبنية لغوية، تيسر له سلوك منهجه لبلوغ غاياته ومراميه ومقاصده؛ وتنقسم هذه الأبنية - تداوليا - إلى أدوات (أو إشارات) وآليات.

#### 3-1-1 أدوات التضامن اللغوية:

يلجأ المرسل إلى استعمال الإستراتيجية التضامنية مع المرسل إليه، تحقيقا للتقارب وتوطيدا للتواصل، معتمدا على أدوات لغوية، تحوّل له تمتين العلاقات الاجتماعية بينهما، أو إيجادها إن لم تكن قد وجدت قبلا، ومن هذه الأدوات اللغوية ذات الطبيعة التضامنية تلك التي تعطي الخطاب شكلا خاصا، بما تطفح به من تأدب وتبجيل ودلالة على القرب أو التأييد والصدقة وشدة التأزر... والتي تندرج تحت مسمى العَلَمِيَّة.

#### 3-1-1-1 العَلَمِيَّة:

وهو أداة لغوية شبيهة بالإشارات، من خلال ارتباطها بالسياق الحسي، إذ يمكن الاختلاف بينهما في الأدوات الإحالية والكفائيات التي يتوفر عليها المتكلم وهو يحيل بهذه الأداة أو تلك ويمكن أن نوجز الفرق الجوهرى بينهما في «أن التعيين بواسطة الإشارات

1- الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 113.

يكون إدراكيا أما التعيين بواسطة اسم العلم فهو عمومي»<sup>(1)</sup>.

يضم مصطلح (العلمية) أدوات لغوية عدة منها: الاسم، والكُنية، واللقب، وتتفاوت من حيث تجسيدها للإستراتيجية التضامنية، حسب الترتيب الآتي؛ «فأبرزها هو الاسم فالكنية فاللقب، فهذا هو الترتيب في قوة دلالتها على التضامن»<sup>(2)</sup>.

ويتحدد البعد التداولي للعلمية، من خلال ارتباطه بالخطاب، لأن المتكلم لا يقف عند استعماله لدى حدود دلالاته التعيينية، بل « ليحقق بذكره أهدافا تخاطبية أخرى، تنسجم مع علاقة المتكلم بمرجع اسم العلم، من جهة أخرى »<sup>(3)</sup>.

وسنحاول فيما يلي استجلاء الدور التضامني، لمكونات العلمية، الثلاثة، في التفاعل الخطابي، لدى خطباء صدر الإسلام، مقتصرين على وضعيات حوارية ثلاث، نرى أنها اتسمت بطابع خاص وهي: "خطب يوم سقيفة" و"خطب يوم الشورى" و"خطب صفين".

**أ- الاسم:** وبه يفرق المرسل بين الذوات المتخاطبة، فيستخدمه على أنه معادل لشخص المرسل إليه، وتكمن دلالاته على التضامن في الخطاب حين يلجأ إليه طرفاه مجردا من اللقب، وإذا كانا متساويين في السن أو الدرجة أو الوظيفة، لثبنا نوعا من القرب المادي أو المعنوي، أو ليؤسسا قريبا لم يكن موجودا عبر التخاطب المتماثل بالأسماء دون متعلقاتها. ومن صور هذه الدلالات في المدونة، قول علي - كرم الله وجهه - في خطبة يوم الشورى: «الحمد لله الذي بعث محمدا مّنا نبيا وبعثه إلينا رسولا»<sup>(4)</sup>، فقد استعمل اسم (محمد) مجردا، وهو استعمال «ذو دلالات منها قربه منه إما قريبا ماديا أو قريبا عاطفيا»<sup>(5)</sup> ومنها الدلالة على قربه من المسمى إلى درجة تخول له إسقاط الألقاب الاجتماعية أو الشخصية، إيدانا للمرسل إليه بأنه أولى بالحديث أو الإخبار عنه، ولا ريب أن عليا أوماً إلى ذلك بعد أن رأى تنافس أقرانه

1- السيساوي (يوسف): الإشارات، مقارنة تداولية، ضمن (التداوليات، علم استعمال اللغة)، ص: 445.

2- الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 270.

3- الحباشة (صابر): الأبعاد التداولية في شروح التلخيص، الدار المتوسطة للنشر، تونس، تونس، ط1، 2010، ص: 125.

4- الجمهرة: ص: 99.

5- الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 270.

على الخلافة، واشتدادهم في طلبها، ولعل ما يعزز هذا المذهب، استعمال من قبله من الخطباء هذا الاسم؛ فقد قال عثمان رضي الله عنه: «الحمد لله الذي اتخذ محمدا نبيا»<sup>(1)</sup>، وقال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: «...وبمحمد بن الله ﷺ أنارت الطرق...»<sup>(2)</sup>، فما كان من علي إلا أن استخدمه استخداما خاصا، نفث فيه من عاطفته، "منا"، فهو بعض منه، حتى كان أصحابه -علي- يوم "صفين" يقولون متفاخرين: «معنا ابن عم نبينا، وسيف من سيوف الله علي بن أبي طالب صلى مع رسول الله ﷺ، لم يسبقه إلى الصلاة ذكر حتى كان شيخا لم يكن له صبوة، ولا نبوة ولا هفوة، ولا سقطة، فقيه في دين الله...»<sup>(3)</sup>.

#### ب- الكنية:

وهي - في اللغة - من الخفاء، والستر، تستعمل بديلا خطايا للاسم، «لاعتبار التضامن مع قدر قليل من الرسمية [...] وقد يستعملها المرسل حفظا لماء وجه المرسل إليه مما يظهر شيئا من التضامن معه والوقوف إلى جانبه»<sup>(4)</sup>، كما فعل عثمان بن عفان يوم الشورى حين قال: «وأخر يا بن عوف أن تترك، وأجدر بها أن تكون، إن حولف أمرك، وترك دعاؤك، فأنا أول مجيب لك وداع إليك»<sup>(5)</sup>.

فقد عدل عثمان عن ذكر الاسم الأول "للحكّم" (عبد الرحمن بن عوف) إظهارا لتعظيم ما أناط به عنقه، وإبداء لتضامنه وإياه فيما دعا إليه من التعقل، والحكمة، ولزوم جماعة المسلمين، مع ما أبقى عليه من رسمية تجاه علاقتهما، واحترام في أعين الآخرين.

وقد انتهج (شيث بن رعي) النهج نفسه، لما خطب، بين يدي معاوية رضي الله عنه بعد أبي عمرة، بشير بن عمرو قائلا: «يا معاوية، إني قد فهمت ما رددت على ابن محسن، إنه والله لا يخفى علينا ما تغزو وما تطلب»<sup>(6)</sup>.

1- الجمعة: ص: 98.

2- نفسه، ص: 99.

3- خطبة الأشر النخعي، ينظر: نفسه: ص: 182.

4- الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 273-274.

5- الجمعة: ص: 98.

6- نفسه: ص: 155.

إن عدول (شبت) عن استعمال اسم صاحبه، يوحي بتوقير واحترام كبيرين لمكانه وسابقته، ومنزلته من عليّ، كما يدل على تضامنه معه فيما ذهب إليه، ولذلك لجأ إلى التكنية عنه تعظيماً له، وتشريفاً.

ويبدو أن (معاوية)، فطن لما تخلعه الكنية على الخطاب، من احترام، وما تبعث في نفس المرسل إليه من شعور بالعظمة<sup>(1)</sup>، والسؤدد، فأراد أن يستميل بها، قلوب بعض رسل عليّ إليه، إذ يُروى أنه لما تفرق القوم عنه - أي معاوية - بعث إلى زياد ابن خصفة التميمي فحلاً به، وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «أما بعد يا أخا ربيعة فإن علياً قطع أرحامنا، وآوى قتلة صاحبنا وإني أسألك النصر بأسرتك وعشيرتك، ثم لك عهد الله جل وعز ميثاقه أن أوليك إذا ظهرت أي المصريين أصبت»<sup>(2)</sup>.

فقد استفتح خطابه إياه، باستعمال "الكنية" ليعبر عن التضامن «الذي يحو كل أثر لأي ترابية»<sup>(3)</sup> على الرغم من أن الشكل المألوف للتواصل، لا يكاد يخرج في مثل هذا المقام، عن استعمال الأسماء، حفظاً للمقامات، وترابية كل من المرسل والمرسل إليه، القائمة على السلطة، وقد سبقت الإشارة إلى دور هذا العامل في تحديد الإستراتيجية الخطابية، التي ينبنى عليها الخطاب سواء أعلق الأمر بالمرسل أم بالمخاطب.

ومن المواضع التي تجسد تخلي المرسل عن سلطته، وإظهاره -عمداً- تواضعه، واحترامه للمرسل إليه، ما روى عن أحد ولاة معاوية على الكوفة، وقد طلب إليه أن يُوجّه «أم الخير بنت الحريش بن سراقه البارقى» برحلتها إلى الشام، وهدده بأنه مجازيه بقولها فيه، خيراً بخير وشرّاً بشر، «فلما شيعها وأراد مفارقتها قال لها: يا أم الخير، إن أمير المؤمنين كتب إليّ أنه

1- قال الرضي: "والكنية عند العرب قد يقصد بها التعظيم، والفرق بينها وبين اللقب معنى، فإن اللقب يمدح الملقب به أو يذم بخلاف الكنية فإنه قد لا يعظم بمعناها، بل بعدم التصريح بالاسم، فإن بعض النفوس تأنف من أن يخاطب باسمه"، ينظر: الكفوي (أبو البقاء، أيوب بن موسى)، الكليات، قابله على نسخة خطية وأعدده للطبع ووضع فهرسه، عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ط2، 1998، ص ص: 603-604.

2- الجمهرة: ص: 159.

3- الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 275.

مجازيني... فمالي عندك؟ قالت: يا هذا لا يطمعك برك بي...»<sup>(1)</sup>.

فمن الواضح أن المرسل لجأ إلى "الكنية" لما فيها من إظهار للتضامن، رغبة في استمالة المرسل إليه، ورجاء ترك الأثر الطيب لديها، وهي آخر عهدا به مقبلة على أميره، وقد فطنت (أم الخير) لذلك، ونبهته إلى ما يوجب مقام الوقوف بين يدي الخليفة من الصدق في القول، والنصيحة للمسلمين.

يعد استعمال "الكنية" - إذن - أحد الأدوات اللغوية الناجعة، في تقريب الهوة بين المتخاطبين لما تنطوي عليه من تضامن، ولما يستتبعها من تواد، وتقارب، في أجواء الخطاب.

### ج- اللقب:

يحمل اللقب مؤشرا تضامنيا واضحا، إذا ما روعي مقام التلفظ به؛ وأداه المرسل وفق ما يقتضيه هذا المقام من تنعيم، وتدرج\*، و«يدرك الناس أهمية استعمال الألقاب في إبداع الإحساس بالتضامن مع المرسل إليه في مختلف السياقات»<sup>(2)</sup> فهم يلجأون إليها، لما لها من وقع محبب في نفوس المخاطبين خاصة، إذا وافقت السياق، مثل: خطاب معاوية لأم الخير بنت الحريش بعد أن أدخلت عليه (وقد كانت ممن حرض عليًا عليه يوم صفين، فاستقدمها معاتبًا)، «في اليوم الرابع وعنده جلساؤه، فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فقال لها: وعليك السلام يا أم الخير! بحق ما دعوتني بهذا الاسم؟ قالت: مه يا أمير المؤمنين، فإن بديهة السلطان مدحضة... قال صدقت، فكيف حالك يا خالة، وكيف كنت في مسيرك؟ قالت لم أزل يا أمير المؤمنين في خير وعافية...»<sup>(3)</sup>.

1- الجمهرة: ص:193.

\* يقدم اللقب على الكنية، وهي على العلم ثم النسبة للبلد ثم إلى الأصل ثم إلى المذهب في الفروع ثم إلى المذهب في الاعتقاد ثم إلى العلم، الكفوي (أبو البقاء)، الكليات، ص:604.

وقد اختلفوا في الفرق بين اللقب والكنية، فقال قوم إن قصد به التعظيم أو التحقير فهو لقب وإلا فهو اسم، وقال آخرون- أصحاب الحديث خاصة- كل مُصَدَّر بـأب أو أم، مضافا إليه اسم حيوان، أو صفة، كنية، كأبي الحسن، وإلى غير ذلك، لقب كأبي تراب. ينظر نفسه، ص:603.

2- الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص:277.

3- الجمهرة: ص:193.

إن إظهار معاوية وهو أمير المؤمنين، لهذا القدر من التفاهم والتضامن، مع أم الخير على ما كان منها أيام صفين، واستعماله ألفاظ القرابة فيما ليست له حق، « وهو الاستعمال الأغلب الذي يدل على التضامن في أثره الأقوى »<sup>(1)</sup>؛ ومناداته إياها: " يا خالة"، كيدل على قيمة تضامنية، مركبة من عدة أفعال، هي:

- تنازله عن مرتبته بوصفه أميراً للمؤمنين.
- جعل نفسه في مرتبة المرسل إليه، فصار ابن أختها.
- حلمه على ما كان منها من تحريض، وانتقاص، أيام صفين، وتناسيه ولاءها لعلي.

كما أنه يظهر - أيضاً - موازنة معاوية «بين عناصر السياق المؤثرة، فجعل أحدها هذا العنصر المؤثر في الخطاب، وهو عنصر سن المرسل إليه»<sup>(2)</sup>. بالإضافة إلى إظهار تجاوبه مع تأدب المرسل إليه، الذي تواترت في هذا المقطع من خطابه، عبارة "يا أمير المؤمنين" ثلاث مرات، ونجد لمثل هذا التجاوب، حضوراً، واضحاً، وطغياناً مميّزاً على باقي عناصر السياق في موضع آخر من الخطبة، لما قال لها معاوية - بعد أن استعرضها خطبتها يوم صفين وما فيما من تحريض عليه - :«يا أم الخير ما أردت بهذا الكلام إلا قتلي ولو قتلتك ما حرجت في ذلك. قالت: والله ما يسوءني يا بن هند أن يجري قتلي على يدي من يسعدني الله بشقائه، قال: هيهات يا كثيرة الفضول!»<sup>(3)</sup>.

إن استعمال معاوية لهذا اللقب\* "يا كثيرة الفضول" وما فيه من حسن تعامل، وتفاعل مع ما أبدته (أم الخير) من شجاعة وجلد إثر تهديده إياها بالموت لينم عن حس دعاية، خلعت عن المجلس رسميته، وعن الخليفة حنقه، قبل أن يجاريها، فلا جرم أن تحدثت قريش بأنه

1- الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 278.

2- نفسه، ص: 279.

3- الجمهرة: ص: 195.

\*اللقب في العربية، ما أشعر بمدح أو ذم، وهو أحد أقسام العَلَم الثلاثة؛ الاسم والكنية، وهما على التوالي: ما ليس بكنية ولا لقب، أما الكنية فما كان في أوله أب أو أم أو ابن أو بنت. ينظر: شرح ابن عقيل على ألفية مالك، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، م 1، ج 1، ص: 234.

أحلمها<sup>(1)</sup> وبهذا، يمكن أن نقول بأن الإستراتيجية التضامنية، تمثل، وجها من وجوه تجلي كفاءة المرسل التداولية، التي تظهر مقدرة المتكلم اللغوية، في مستويات مختلفة خصوصا في سياقات تخاطبية حرجة كالتى أسلفت.

### 3-1-2- أَلْفَاظُ الْمَعْجَم:

وهي أَلْفَاظُ منشأة، تنوب عن أَلْفَاظِ القرابة وما في معناها من الألقاب الأخرى، يصوغها المرسل/ المرسل إليه، «للدلالة على التضامن والتقرب... فيجعلها مؤشرا لغويا في خطابه، من خلال إنجاز بعض الأفعال اللغوية»<sup>(2)</sup>. كألفاظ التهئة، والترحيب، وألفاظ التأييد والصدقة، وكل ما ينتجه المرسل في قوالب صرفية معينة، ليعبر عن رغبته في التودد، والتضامن، مثل الخطاب الآتي:

«وأنا أسالك بحق الله يا معاوية (فإن قريشا تحدثت أنك أحلمها) أن تعفيني من هذه المسائل، وتسألني عما شئت من غيرها، قال: نعم، ونعمة عين\*، قد أعفيتك منها»<sup>(3)</sup>، وهي عبارة «نعم، ونعمة عين» التي إذا افترضنا تأديتها بتنغيم معين، تحقيقها لتقارب عاطفي كبير جراء ما تحمله من تواضع وتقدير لشخص المرسل إليه، ونجد مثل هذه الألفاظ كذلك، في خطب "يوم الشورى" حين أبدى بعض الصحابة، تأييدا واضحا لعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، ومذهبه في الترشيح، فأجابه عثمان رضي الله عنه قائلا: «وأخر بها يا بن عوف أن تُترك، وأجدر بها أن تكون إن خولف أمرك وتُرك دعاؤك، فأنا أول مجيب لك وداع إليك»<sup>(4)</sup>.

ففي استعمال (عثمان) لصيغتي التعجب (أخر بها، وأجدر بها) تعبير عن تأييده لما أبداه عبد الرحمن بن عوف، وإن ضمنه أسلوب التعجب، الذي هو انفعال نفسي يظهر دهشة المتكلم من روعة تعتريه إثر وقع حدث معين.

1- السابق: ص: 196.

2- الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 284.

\*- أي أفعل ذلك إنعاما لعينيك وإكراما.

3- الجمهرة: ص: 196.

4- نفسه، ص: 98.

وتكرر مثل هذا الخطاب في قول (سعد بن أبي وقاص)، في المقام نفسه: «والأمر إليك يا بن عوف بجهد النفس، وقصد النصح»<sup>(1)</sup>.

فلا يخفى ما في عبارة "والأمر إليك" من متابعة، وتجرد لرأي المرسل، وتضامن مطلق في ما يرومه، وهذا النوع من ألفاظ التأييد، يدل في صراحة، لا يحتاج معها إلى تأويل، أو تفسير، على رضا المرسل إليه، وقبوله لمضمون خطاب المرسل، مما يجعلها مؤشرا لغويا، منجزا، تترتب عليه تغييرات سلوكية، في المقام التخاطبي المتلفظ فيه؛ وهو ما وقع في مثل حال (عبد الرحمن بن عوف).

### 3-1-3- الإشارات:

يقصد بها الألفاظ الدالة على عناصر غائبة حاضرة، تصنف ضمن وسائل تكوين الأرضيات المشتركة بين المتخاطبين، لما تحيل إليه من مراجع في سياقات تخاطبية معينة، كالإشارات الشخصية الدالة على المتكلم أو من معه، مثل: أنا/نحن والإشارات الاجتماعية التي تشير إلى علاقات اجتماعية بين المتكلمين من حيث هي علاقة ألفة أو علاقة رسمية<sup>(2)</sup>

ويلفت (لفنسون) إلى أن التعبيرات الإشارية، «تذكير دائم للباحثين النظريين في علم اللغة بأن اللغات الطبيعية، وضعت أساسا للتواصل المباشر بين الناس، وجهها لوجه»<sup>(3)</sup> ولذلك تظهر قيمتها عند فقدانها في الخطاب، حيث يسود الغموض، ويستفحل الإبهام.

وتظهر قيمتها أيضا، في تأسيسها للعلاقة الاجتماعية بين المتكلمين، كونها مؤشرا على الانتماء إلى جماعة معينة، أو دليلا على الاتفاق في الرأي، فتتحول من وظيفتها «الدلالية للدلالة على المرجع، إلى وظيفتها التداولية بانعكاسها مؤشرا على قصده»<sup>(4)</sup>، فيحصل التفاعل الخطابي بين هذه المكونات، ويغدو بعضها عنصرا لا غنى عنه في السياقات الاجتماعية، ويعيننا منها في هذا السياق نوعان هما:

1- السابق: ص: 99.

2- ينظر: بوقرة (نعمان)، المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب، ص: 78.

3- نخلة (محمود أحمد): آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص: 16.

4- الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 287.

#### أ) الإشارات الشخصية: (Personaldeictics)

و المقصود بها - كما سبق - «الضمائر الدالة على المخاطب مفرداً أو مثنى أو جمعا، مذكراً أو مؤنثاً»<sup>(1)</sup>، ولا يمكن تحديد مراجع هذه الضمائر إلا بالعودة إلى السياق، إذ «السياق لازم لمعرفة من المتكلم أو المخاطب الذي يميل إليه الضمير أنا وأنت... ويدخل في الإشارة إلى الشخص النداء (Vocative)، وهو ضميمة اسمية تشير إلى مخاطب لتنبهه أو توجيهه أو استدعائه»<sup>(2)</sup>.

وتخرج تبعا للسياق إلى أداء مقاصد خطابية، كالتضامن والتعاون، والتقارب وأشهرها: 1- أنا: ضمير منفصل، يكون «للمُضمَر المرفوع، إذا حدّث عن نفسه»<sup>(3)</sup> يعبر به المرسل عن مؤازرته للمخاطب، إذا رشح السياق دلالاته التضامنية، كقول عثمان لعبد الرحمن بن عوف: «فأنا أول مجيب لك»<sup>(4)</sup>.

فقد أظهر باستخدامه الضمير (أنا) مساندته لصاحبه، وتأييده له، لما في هذا الضمير من تعبير مفعم بالفردية، والذاتية، إذ تثوي تحت هذا الضمير بنية عميقة يستلزمها الحوار هي:

أنا: عثمان بن عفان: الذي له سابقة في الإسلام + ذو النورين + كان يستحي مني الرسول وتستحي مني الملائكة + صاحب الأعمال الجليلة في الإسلام + أحد المبشرين بالجنة ... أول مجيب لك ← كعادي زمن الرسول، فأنا أ دعمك وأتضامن معك...

إن الضمير (أنا) في هذا الاستعمال، يشكل بؤرة الدلالات التداولية، ليس بما يحيل إليه من مرجع فقط، بل بما يوحي هذا المرجع من دلالات استلزامية، ناهيك عن الطريقة النغمية التي تؤدي بها، مع ما يصحبها من إشارات، كضرب الصدر أو ضم الكف ورفعها إلى الأعلى،... أو تقاسيم الوجه وغيرها من المصاحبات المساندة للمعنى.

1- نخلة (محمود أحمد): آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص ص: 17- 18.

2- نفسه: ص ص: 18- 19.

3- سيبويه: الكتاب، ج2، ص: 350.

4- الجمهرة : ص: 98.

2- نحن: يستعمل للدلالة على المتكلم ومعه غيره<sup>(1)</sup>، ويخضع توظيفه في الخطاب تداوليا لاعتبارات سياقية كثيرة، لا تكاد تخرج دلالاته عن وجهين هما: عندما يستعمله المرسل ليجمع بين ذاته وذات المرسل إليه، بدلالة على التضامن من بينهم، وهذا الوجه من أكثر الوجوه حضورا في خطب المدونة، كقول عثمان يوم الشورى: «... ونحن بأمره نقوم عند تفرق الأهواء»<sup>(2)</sup> يقصد، أنا + أنتم.

البنية السطحية = نحن  
البنية العميقة = أنا + أنتم

فيه معنى التضامن والوحدة، وهو متجانس مع المعنى العام للخطبة موافق للسياق.

كما تستعمل بوجه ثانٍ<sup>(3)</sup>، حين تنوب عن (أنت) أو (هو) فلا يقصد بها إلا المرسل إليه كقول الأم لصغيرها، نحن سوف نشرب الدواء، وهي لا تقصد في البنية العميقة إلا ولدها (أنت)، أو (هو) وهذا الوجه يندر استخدامه في خطاب المدونة، لما انطوت عليه من مواقف خاصة.

وفيما يلي، أمثلة توضح البعد التداولي لهذا الضمير، في دلالاته على التضامن بوجهه الأول، نسوقها، على سبيل التمثيل لا الحصر.

منها قول قيس بن عباد مخاطبا عليا: «... يا أمير المؤمنين، انكمش بنا إلى عدونا ولا تعرج... ونحن لهم فيما يزعمون قطين»<sup>(4)</sup>.

فقد استعمل الضمير المتصل (نا) وهو أحد البدائل للضمير (نحن)، الذي وظفه بعد ذلك في قوله: (ونحن لهم)، والأساس المشترك بينهما هو المعنى المرسل في خطابه التداولي<sup>(5)</sup>،

فهو يقصد في الموضوعين أنا + أنتم

- 1- ينظر: نخلة (محمود أحمد)، آفاق جديدة، ص: 17.
- 2- الجمهرة: ص: 98.
- 3- ينظر: الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 292.
- 4- الجمهرة: ص: 141.
- 5- ينظر الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 300.

وعلى شاكلة هذا الاستبدال، توظيف أحرف تسبق الفعل، لها « الضمائر المنفصلة، مثل حرف النون، إذ يتصل بالأفعال المضارعة... وتتجاوز وظيفته مجرد وظيفة الدلالة النحوية على زمن الفعل إلى الاستعمال التداولي للدلالة على التضامن نيابة عن الضمير المنفصل (نحن)<sup>(1)</sup>» كما في خطاب النبي ﷺ للمسلمين «...وكان الذي نشيخ من الأموات سفراً... نبوئهم أجداثهم، ونأكل من تراثهم.. ونسينا كل واعظة<sup>(2)</sup>».

فقد لا يكون النبي ﷺ معناها بهذه الأفعال، ولكنه وظف الضمير المتصل السابق لفعل المضارع (النون) ليشعر المخاطبين بأنه منهم، ومثلهم، متضامن معهم في ما يقارفونه من صفات بشرية، تحتاج إلى مجاهدة وتصبر، وتضامن للتخلص منها.

وكما في خطاب الأنصار جواباً لسعد بن عباد، حين دعاهم إلى الاستبداد بالخلافة: «فأجابوه بأجمعهم أن قد وفقت في الرأي وأصبت في القول ولن نعدو ما رأيت، نوليكَ هذا الأمر<sup>(3)</sup>».

أي: نحن + أنت = نتولى هذا الأمر دون المسلمين

وجدير بمثل هذا الخطاب، أن يظهر العلاقة التضامنية بين الأنصار من جهة، والولاء والإخلاص المطلقين لسيدهم سعيد بن عباد، بعيداً عن التفرق والاختلاف من جهة أخرى.

هذا ويتقارب مرجع (نحن)، وبدلها (الضمير المتصل) حسب السياق المؤطر لها، فيحدد مرجع (نحن) "الشاملة"<sup>\*</sup> ما قد يكون مرجعها عاماً يدرج فيه المرسل البشر كلهم<sup>(4)</sup> وتسمى (نحن) الشاملة أو نحن العامة، وتسمى في غير ذلك (نحن البسيطة) أو (نحن المتوسطة) إذا لم يتعد مرجعها المرسل أو بعض من معه.

1- السابق: ص: 298.

2- الجمهرة : ص: 52.

3- نفسه، ص: 62.

\* قسمت (لاكوف) دلالة نحن إلى قسمين هما: نحن الشاملة ( أنا وأنت/أنا وأنتم ) ونحن القاصرة أو الحاصرة (أنا وآخرون)، ينظر: الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 293.

4- ينظر: نفسه، ص: 294.

ويمثل هذا التفاوت في مرجع (نحن) قول أبي بكر يوم السقيفة<sup>(1)</sup>: «...أسلمنا قبلكم وقُدّمتنا في القرآن عليكم... فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار، إخواننا في الدين وشركاؤنا في الفيء وأنصارنا على العدو».

إن السياق التخاطبي وعناصره المختلفة، ترشح استعمال أبي بكر (نحن) وبدلها (نا) اللاحق للاسم، استعمالاً متوسطاً، لا يعمهم، إذ لا شك في أنه يقصد بـ(نحن) "المهاجرين" من أصحاب رسول الله، الذين أهّلهم الزمان والمكان والحال لذلك، فلا يدخل في مسماهم غيرهم، أي:

"نحن" و"نا" = أنا (المرسل) + هما (عمر وأبو عبيدة) + هم (المهاجرون الذين لم يحضروا السقيفة) = نحن المتوسطة.

ومن ثمّ لا تصح الخلافة إلا فيهم، ولذلك قال معقبا: «هذا عمر وهذا أبو عبيدة فأيهما شئتم فبايعوا»<sup>(2)</sup>.

وكذلك استعملها (بشير بن سعد) حين خاطب الأنصار في المقام ذاته قائلاً: «إننا والله لئن كنا أولي فضيلة في جهاد المشركين... ما أردنا به إلا رضا ربنا، وطاعة نبينا... ولا نبتغي به من الدنيا عرضاً»<sup>(3)</sup>.

فهو لا يرب يقصد : أنا + آخرون (الأنصار) = نحن ومن أمثلة استعمال (نحن) بشتي مراجعنا، البسيطة والمتوسطة والشاملة قول علي يوم الشورى:

«الحمد لله الذي بعث محمداً نبياً، وبعثه إلينا رسولا، فنحن بيت النبوة... لنا حق إن نعطه نأخذه، وإن لم نمنعه نركب أعجاز الإبل ولو طال السرى، لو عهد إلينا رسول الله ﷺ عهداً لأنفذنا عهده ولو قال لنا قولاً لجادلنا عليه حتى نموت»<sup>(4)</sup>.

1- الجمهرة: ص: 63.

2- نفسه: ص: نفسها.

3- نفسه: ص: نفسها.

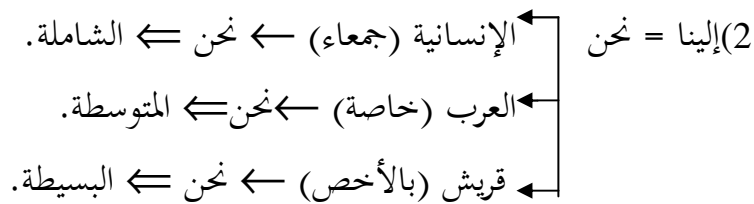
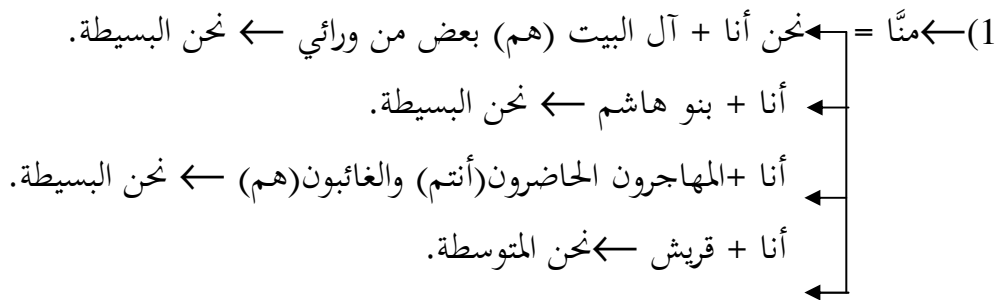
4- نفسه: ص: 99-100.

إذ يبدو اضطراب مراجع (نحن) و(بدلها) في هذا الخطاب، وتنوعه، في الدلالة على ذات المرسل ومن وراءه مرة كقوله: «ولو قال لنا قولنا، لو عهد إلينا، لأنفذنا عهده، لجادلنا عليه حتى نموت». أي:

- (أنا) التي تحيل إلى ذات المرسل + (هم) الدالة على من وراءه.

- ف(نحن) = أنا (المرسل، علي بن أبي طالب) + هم (أهل البيت).

وللدلالة على الحاضرين في مجلس الشورى، ومن ورائهم قريش كما في قوله: «بعث محمداً منّا» إذ لا شك في أنه يقصد (قريشا) أو المهاجرين» منهم خاصة، كما قد يقصد (بني هاشم) كما وظفها بمعناها الشامل، العام في قوله: «وبعثه إلينا رسولا»، لأنه لا يختلف اثنان في أن النبي ﷺ إنما بعث للعالمين، جنهم وإنسهم، عربهم وعجمهم، وبهذا لا تتفق مع الباحث السعودي عبد الهادي بن ظافر الشهري، فيما ذهب إليه، من أن علياً استعمل هذا الضمير، للدلالة على المرجع الواحد، إلا إذا كان يقصد (نحن) دون (بدلها)، ولعل مرد هذا الاضطراب في تحديد المراجع، إلى حالة علي كرم الله وجهه النفسية، بُعِدَ مقتل عمر رضي الله عنه، وما رآه من تنافس المترشحين على الخلافة، دون اعتداد بسابقتها في الإسلام، ولا بقرابته من النبي ﷺ، ولا بعلمه، وفقهه وشجاعته... فكان كالذي يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، بين إظهار لتضامنه لعبد الرحمن بن عوف، وبين إظهار لأحققيته، في الخلافة وأهليته لها، فاضطربت مراجع(نحن) التي هي صورة لترتيب المعاني في النفس على حد تعبير الجرجاني كما يوضحه، التمثيل الآتي:



(3) قال لنا، عهد إلينا = نحن أنا فقط - نحن ← القاصرة.  
نموت... أنا وهما (الحسن والحسين) ← نحن البسيطة.

### 3- أنت / أنتم:

يحيل الضمير (أنت) في أصل استعماله إلى المخاطب المفرد المذكور، (بفتح التاء) أو المؤنث (بكسرها)، وتضاف الميم للدلالة على الجمع (ذكورا وإناثا)، ولكنه في تداوله الاجتماعي، بصيغها السابقة، قد يخرج عن أصل وصفهن ليفيد المشاركة أو التعاون، فيغدو مؤشرا خطايا له وزنه في التعبير عن العلاقات الحميمية التي تربط بين الأفراد، وتولف بين الذوات في سياقات تفاعلية معينة، سواء في ذلك الضمير المنفصل، أم المتصل النائب عنه (وظيفيا)، كما في الخطاب الآتي لسعد بن عباد يوم السقيفة: «يا معشر الأنصار، لكم سابقة في الدين... فكنتم أشد الناس على عدوه من غيركم... حتى أثخن الله عز وجل لرسوله بكم الأرض، ودانت بأسيافكم له العرب، وتوفاه الله وهو عنكم راض وبكم قدير العين، استبدوا بهذا الأمر دون الناس، فإنه لكم دون الناس»<sup>(1)</sup>.

وما كان لهذا الضمير أن يحمل معاني التضامن، والتكاتف، إلا لأن المرسل لم يوظفه، كما يقتضي مرجعه في الواقع، فسعد بن عباد، لم يكن يقصد الأنصار إلا وهو واحد منهم، ولذلك أثر أن يخاطبهم مستعملا ضمير المخاطب (أنتم) بدل ضمير المتكلم (نحن)، ليتلاحما في الخطاب، ويؤكد شدة، رغبته في حصول الفضل بتولي الخلافة، لقومه أولا لذاته المغيبة مرجعا ثانيا،

لكم = أنتم ← أنا + أنتم ← أنا واحد منكم، وذاتي مغيبة في  
ذواتكم، وحاضرة في انتمائها إليكم.

وقريبا من هذا التوظيف قول عبد الرحمن بن عوف لأصحاب مجلس الشورى: «أنتم

\*لأن هناك من يقصر مفهوم آل البيت على علي وفاطمة والحسن والحسين، مستدلا بحادثة "المباهلة"، ينظر: تفسير قوله تعالى: "قل تعالوا ندع أبناءنا وأبنائكم..." آل عمران 62، الصابوني، صفوة التفاسير، ج1، ص: 154.  
1- الجمهرة: ص: 61.

أئمة يهتدى بكم، وعلماء يصدر إليكم... قلدوا أمركم واحدا منكم...»<sup>(1)</sup>، فقد أراد أن يفشي روح التضامن بين المتنافسين على الخلافة، بتوحيد الضمير العائد إليهم، وإخفاء ذاته في خطاب ذواتهم.

إن الطبيعة التداولية "للضمير" أنت/أنتم أفرادا وتثنية وجمعا، لتشبه حد التماثل المعاني والدلالات التي سبق وأشرنا إليها عند استعراضنا للضمير (نحن)، من حيث شمولها، واقتصرها في التعيين على الفرد أو الجماعة.

#### ب-الإشارات الاجتماعية:

وهي الألفاظ التي يستعملها المرسل، للتأشير إلى العلاقات الاجتماعية بين المتكلمين من حيث ألفتها، أو رسميتها<sup>(2)</sup>، فيمكن من خلالها استشفاف طبيعة العلاقة المتحكمة في المتخاطبين، وهي كما أشرنا في بداية البحث، مختلفة عن العلم.

وتشتمل العلاقات الرسمية، صيغا، مثل: صيغ التبجيل (Honorofics) في مخاطبة من هم أكبر سنا ومقاما من المتكلم، كاستخدام (Vous) في الفرنسية للمفرد المخاطب تبجيلا له، أو مراعاة للمسافة الاجتماعية بينهما أو حفظا للحوار في إطار رسمي.

وتستعمل أيضا الألقاب مثل: "فخامة الرئيس..." وكل ما سوى ذلك من الاستعمالات التي من شأنها أن تخرج العلاقة إلى إطار غير رسمي، وكالنداء بالاسم المجرد، أو التدليل، أو استعمال تحيات غير رسمية مثل: صباح الورد، أو يا هلا...<sup>(3)</sup> وما شابهها...

إن جوهر الاختلاف بين الألقاب والأسماء والكنى من جهة والإشارات الاجتماعية من جهة أخرى، كامن في طبيعة العلاقة المقتضاة في كليهما؛ إذ للإشارات الاجتماعية قوة إنجازية على جعل الخطاب المنضوية تحته، ذات صبغة رسمية، مما يدفع بالعلاقة التخاطبية نحو مسار محدد، لا يجد المرسل بدا من الالتزام به، ومن هنا تتحكم العلاقة الأفقية (السلطة) في اختيار

1- السابق: ص ص: 97 - 98.

2- ينظر: بوقرة (نعمان): المصطلحات الأساسية، ص: 87.

3- ينظر: نخلة (محمود أحمد) آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص ص: 25 - 26.

المعجم التخاطبي... في حين تكفل الألقاب للمرسل حرية اختيار الأرضية المشتركة بينه وبين مخاطبه ما يراه متساوقا مع السياق العام المحيط به.

فاختيار افتتاح خطاب ما، ومناداة المرسل إليه، بـ "يا سيادة المدير" أو "يا سمو الملك" التزام من قبل المرسل بمجموع الآداب والمراسيم المؤطرة لمثل هذه الخطابات، عكس استعمال الألقاب، تحمل مضامين مسحية، تفسح مجالا أرحب، لسيرورة العلاقة بين طرفي الخطاب.

وغالبا ما تحمل هذه الإشارات، دلالة خاصة، إذا صدرت عن أشخاص بعينهم لم يكن يتوقع ولاؤهم، أو لم تثبت محبتهم، كما في خطاب أم الخير لمعاوية... قالت: السلام عليك، يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فقال لها وعليك السلام يا أم الخير ! بحق ما دعوتني بهذا الاسم؟».

فهذا القدر من التودد والتحب، والتقرب، الصادر عن (أم الخير) لم يكن متوقعا من (معاوية) بعدما أخبر عن شدة عداوتها له، وإخلاصها لعلي، ولذلك رد عليها متعجبا، مستفهما و "عليك السلام...؟".

ونجد في بعض المواضع، إغراضا من قبل المرسل عن توظيف مثل هذه الإشارات، كما في قول شُبَّان بن ربعي: "يا معاوية... أو كقول عدي بن حاتم: "أما بعد: فإننا أتيناك" فلم يتعرض لطبيعة العلاقة المتحكمة في التخاطب، حتى لا يلزم نفسه بمسلك معين، أو حتى يتنصل من تبعات ما يقتضيه تلفظه بلقب ما.

وفي المقابل يحرص المرسل، على إظهار هذا الانتماء، ويعتز به، ويأبدئه، في أول خطاب إذا كان متشعبا بحب المرسل إليه، لاهجا بذكره كما في خطاب كل من (هاشم بن عتبة)، و(عمار بن ياسر)، و(قيس بن سعد بن عبادة)، و(سهل بن حنيف)، و(الأشتر النخعي)، الذين ما فتئوا يفتتحون خطبهم بلفظ "يا أمير المؤمنين" إعلانا لولائهم، وإيمانهم بشرعية خلافته، وأحقية في تولي أمور المسلمين<sup>(1)</sup>.

ومن الإشارات الاجتماعية، التي تحيل إلى منزلة المخاطب، لفظ "الإمام" الذي اقترن

1- ينظر: السابق، ص ص: 140-154.

- في الغالب - في تاريخ المسلمين، بأعلام كان لهم خطر كبير في عقول وقلوب الناس عامتهم وخاصتهم؛ منهم علي كرم الله وجهه<sup>(1)</sup>. ولفظ "السيدة" الذي عادة ما يستعمل في حق نساء النبي، أمهات المؤمنين كعائشة<sup>(2)</sup>.

وربما «وجدنا ظلالاً للإشارات الاجتماعية في دلالة استخدام بعض الألفاظ على طبقة اجتماعية بعينها»<sup>(3)</sup> مثل الطلقاء<sup>(4)</sup>، وهم الذين عفا عنهم النبي يوم فتح مكة.

ومهما يكن من أمر، فلا بد أن نسجل في ختام هذا المبحث ما للإشارات الاجتماعية من قدرة على بعث روح التضامن من خلال تحديد طبيعة العلاقة المتحركة في الخطاب، وانتخاب ما يوافقها والسياق إما بالحفاظ عليها، أو بتعديلها، وإخراجها من طابعها الرسمي إلى طابعها غير الرسمي، باختيار الإستراتيجية المناسبة لذلك.

### 2-3 آليات التضامن اللغوية:

ويقصد بها تلك الأشكال الخطابية، المنتقاة من قبل المرسل لتحقيق بعض السمات في الخطاب، كالمكاشفة<sup>(5)</sup>، ونكران الذات وإظهار الإعجاب، والتصغير لفظاً ومعنى، والطرفة والمصانعة (في اللهجة، ومصطلح المهنة...) واللغة الخاصة، وتأنيب الذات... وهي أشكال يلجأ إليها المتكلم، باعتبارها آليات تيسر له إظهار ميله إلى المخاطب، وتضامنه وإياه في ظروف معينة، وسنحاول فيما يلي أن نبين قدرة هذه الآليات على ربط جبل الود بين المتخاطبين، في عصر صدر الإسلام، على الرغم مما عرفته الفترة من اختلاف عاصف كاد يأتي على صرح الدولة الإسلامية الفتية، التي لم يتعد عمرها آنذاك العقدين من الزمن.

1- ينظر: السابق، ص: 142.

2- ينظر: نفسه، ص: 136.

3- نحلة (محمود أحمد): آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص: 26.

4- ينظر: الجمهرة، ص: 52.

5- ينظر: الشهري، إستراتيجيات الخطاب، ص: 267.

## 3-2-1- المكاشفة:

تستمد المكاشفة بين المتخاطبين طابعها التضامني، من ميل كل منهما إلى عدم التحفظ والتستر فيما يخبر به، سواء عن نفسه أم عن عائلته، وخاصته، إذ يفترض أن تكتم أحدهما على الآخر مرده إلى تباعد أو عدم تعارف، بين ذواتيهما، فكلما زادت العلاقة قربا وحميمية، كلما تنصل المتواصلان من قيود التحفظ والكلفة، وتخبر ألفاظ التأدب والمجاملة، وغالبا ما نجد ذلك في إخفاء الأسباب الحقيقية لسلوكات معينة، كرفض ذكر سبب عدم شراء الأب دراجة لابنه، والتعلل بأنها قد تؤذيه، وعدم الإفصاح عن قصوره في الجانب المادي مثلا، تأدبا أو تجنبيا لمكاشفة المرسل إليه، على اعتبار طي هذه الآلية في الخطاب، على اعتبار لا حميمية العلاقة بينهما، أو أنها علاقة ناشئة، قيد التشكل، ومن أبرز سياقات طي هذه الآلية في الخطاب، سياق التعارف بين الزوجين في مراحله الأولى...

كما ترصد هذه الآلية في المواقف التي يحتاج فيها المتحاوران إلى نوع من الصراحة كمواقف التشاور، أو الامتحان أو التقويم أو خلايا إدارة الأزمات.

ومن ذلك، مكاشفة المرسل (عبد الرحمن بن عوف)، لأصحابه يوم الشورى؛ فقد وسم خطابه، بالصراحة والبعد عن المداينة، إخطارا للمترشحين بما يستوجبهم المقام ويتطلبه الظرف من اعتبار المصلحة العامة، وتفاديا لما قد ينجم عن اختلافهم حول مسألة الخلافة من تصارع بين المسلمين وهم بعد حديثو عهد بالإسلام، فخطبهم في غير موارد قائلًا: «يا هؤلاء، إن عندي رأيا، وإن لكم نظرا، فاسمعوا تعلموا، وأجيبوا تفقهوا...» ومضى يعرض عليهم الموقف وأبعاده وما يتهددهم «فلا تغلوا المدى بالاختلاف بينكم...لولا فتنة عمياء، وضلالة حياء يقول أهلها ما يرون، وتُحْلُهُمُ الحَبْوَكْرَى ما عَدَتْ نياتكم معرفتكم، ولا أعمالكم نياتكم، احذروا نصيحة الهوى، ولسان الفرقة...»<sup>(1)</sup>.

وما من ريب أن الدافع من هذه الصراحة، حرصه على حفظ مودتهم، وما يجمعهم، مما يذهب بها، لأن استعداد الإنسان لإطلاع إنسان آخر على ما يتوجسه، ويخفيه من عالمه

1- الجمهرة: ص ص: 97-98.

الداخلي مبني على الثقة الشخصية وعلى المشاعر الصادقة<sup>(1)</sup>.

ومن أشكال المكاشفة، توحي مبدأ الصدق في التواصل مع المرسل إليه، وإظهار ما يكنّ له دون تقييد بمسافة اجتماعية، أو درجة، أو سلطة، كما في خطاب سعيد بن عبيد الطائي لعلي بن أبي طالب بعد أن نزل الرّيدّة\*: «يا أمير المؤمنين، إن من الناس من يعبر لسانه عما في قلبه، وإني والله ما كل ما أجد في قلبي يعبر عنه لساني، وسأجهد (وبالله التوفيق) أما أنا فسأنصح لك في السر والعلانية، وأقاتل عدوك في كل موطن وأرى لك من الحق ما لا أراه لأحد من أهل زمانك، لفضلك وقربتك» فقال له علي: «رحمك الله! قد أدّى لسألك عما يجنّ ضميرك»<sup>(2)</sup>.

فهذا الخطاب دفقة عاطفية، لم يجد قيس بُداً من الإفصاح عنها، دون التفات لمقام مخاطبه، أو منزلته، أو غيرها من اعتبارات السياق، وملابسات الموقف.

ومن أخص أنواع المكاشفة، ما سنه النبي ﷺ، من اطلاع الراعي رعيته ما يخص صحته وسلامته العامة<sup>(3)</sup>، فعن الفضل بن عباس قال: جاءني رسول الله ﷺ، فخرجت إليه فوجدته موعوكا قد عصب رأسه، فقال خذ بيدي يا فضل فأخذت بيده حتى جلس على المنبر، ثم قال نادِ في الناس، فاجتمعوا إليه، فقال: «أما بعد: أيها الناس فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، وإنه قد دنا مني خُفُوقٌ من بين أظهركم...»<sup>(4)</sup>.

إن صنيع النبي ﷺ، على ملأ من الناس، تعبير صادق عن رأفته بهم، وخوفه عليهم، وعلى ما ربّه فيهم من أخلاق ومثل، جسد كل ذلك خطابه في حجة الوداع.

ومن ألوان المكاشفة، التي تكون بين المتخاطبين، لئتم عن تجذر العلاقة الودية بينهما،

1- ينظر: الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 304.

\*موطن قرب المدينة، نزله عليّ حين بلغه أن أصحاب الجمل قد أمعنوا إلى العراق، وأقام به أياما، ينظر: الجماهرة، ص: 130.

2- نفسه، ص: ن.

3- صار هذا السلوك فرضا واجبا في الدول المتقدمة، إذ يطلع الرئيس شعبه بنفسه أو بواسطة، على ما يعتريه من أمراض أو علل، ولا يجد في ذلك حرجا، أو غضاظة، بل يعتبر من أشكال التضامن، وآداب التعامل؛ تعامل الراعي مع الرعية.

4- نفسه، ص: 60.

ما سماه (براون ولفنسون) باستعمال التعابير البديئة<sup>(1)</sup>، خصوصا في المجموعات المتقاربة جنسا، أو سنا، أو مهنة، وقد ألفينا شاهدا لذلك في قول الأشر النخعي، للمنهزمين من قومه في ميمنة جيش علي يوم صقّين: «...فقال أنا الأشر، إليّ أيها الناس، فأقبلت إليه طائفة، فنادى: أيّها الناس، عضضتم بَحْنِ\* آبائكم، ما أقبح ما قاتلتم منذ اليوم»<sup>(2)</sup> ولا يخفى ما في هذا التعبير من طرح لآداب التخاطب، إيذانا بقوة العلاقة التي تربط المرسل ببني قومه، وقد يكون مؤشرا يساعد على تخيل المكانة التي يحتلها المرسل في قلوب مخاطبيه.

### 3-2-2- نكران الذات:

وهو أن يعدل المرسل عن إبراز ذاته في الخطاب، إلى ذكر ما يحيل إليه، من اسم، أو صفة، أو ضمير، وكأنه يتحدث عن غيره، وتدخل تحت هذا المعنى، تخلي المتكلم عن ألقابه العلمية، والإشارة إلى ذاته بصفات عامة، كـ"المتحدّث" أو "كاتب هذه السطور" وغيرها، ومن الأمثلة التي تحقق هذه الآلية في مدونة البحث، قول الرسول ﷺ في خطبه: «أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله»<sup>(3)</sup> بدل "وأني رسول الله"، ففي هذا العدول عن استعمال الضمير العائد إليه، إنكار لذاته ﷺ، وإضعاف لحضور (أناه)، وتنبيه إلى أن المنوط بالرسالة رسول اسمه (محمد) تحيّره الله في الأصلاب، واصطفاه في الأرحام، وأن مشيئة كبرى هي التي تسيّر هذا الاصطفاء، ويشي هذا الاستعمال كذلك، باستشعار المتكلم لعبء المهمة الموكلة إليه، وأنها تكليف لا تشريف، مما يعزز إحساس الآخر به، وبقربه منه، «وغدت هذه الآلية من علامات الإستراتيجية التضامنية، خصوصا عند من يمتلك السلطة»<sup>(4)</sup> ويبيدي استعداداه للتخلي عنها في سبيل تفويض ما بينه وبين المرسل إليه من حوائل، كما في خطاب النبي ﷺ الآتي، حين وقف على باب الكعبة في فتح مكة، ثم قال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك

1- الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 267.

\*الهن: اسم يكنى به عن الفرج.

2- الجمهرة، ص: 183.

3- ينظر: نفسه، ص: 56-57.

4- الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 304.

له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده»<sup>(1)</sup> حيث لم يتلفظ باسمه، كما لم يُجَل إلى ذاته بضمير، فلم يقل مثلاً: "نصرني"، أو "نصر محمداً" نكرانا لذاته، وتخلياً عن تعظيم سلطته أمام قومه، حتى يُقبلوا عليه، وقد أيقنوا أنه لا يدعوهم إلى الخضوع لملك هاشمي، أو سلطان محمدي، وإنما هي دعوة راسخة قوامها، إخلاص العبودية والألوهية لله، ومحضها له دون سواه، وقد خاطبهم في المقام نفسه قائلاً: «ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين إلا سداة البيت أو سقاية الحاج... يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء»<sup>(2)</sup>.

ونرى مثل هذا النكران لذاته ﷺ في خطاب له آخر وقد استشعر دنو أجله وقرب خفوق نجمه، فقال: «إِنَّ عَبْدًا خَيْرُهُ اللهُ بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ، فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ، وَقَالَ: فَدَيْنَاكَ بِأَنْفُسِنَا وَآبَائِنَا»<sup>(3)</sup>.

ففهم أبو بكر رضي الله عنه، أنه لا يقصد بالعبد إلا ذاته، ولما يفتن لذلك سواه بعد.

إن المتدبر لاستعماله ﷺ لفظ (عبداً) منكراً، ليدرك ما قصده من إبعاد لخطوة النفس عند صاحبها، ولخطوتها عند ربها، إذ في التعريف، أو ذكر المعادل، أو استعمال الضمير العائد، تزكية للنفس عند ربها، وإظهار لامتلاك منزلة لم يمتلكها عبد سواه، كما لو قال مثلاً: "إني خيرت" أو "إني خيرني الله"، ولكنه أمعن - خطايا - في تغييب ذاته، طلباً للتسوية في الدرجة بينه وبين عباد آخرين قد يكونون خيراً هم كذلك كما خير.

### ج/ الإعجاب:

ويشمل كل ما يبيده المرسل من آيات الإعجاب، والإشادة، والمدح بصيغها اللغوية المعروفة، كِنِعْمَ، وَحَبَّذَا، أو إظهار التعجب بالصيغ القياسية (ما أفعل، وأفعل به) أو السماعية، كسبحان الله، وعَجَبَ ومشتقاته، والفعل شد وغيرها من الصيغ التي تظهر حالة من الدهشة والحيرة تعتري المرسل لما يخفى عنه سببه.

1- الحمرة، ص: 52.

2- نفسه: ص: نفسها.

3- نفسه: ص: 60.

ويُعَدُّ أسلوب التعجب خصوصاً، وإبداء الإعجاب عموماً آلية من آليات التضامن، لأنه يمتلك طاقة كبيرة من التعابير الذاتية التي تتجه رأساً إلى قلب المخاطب، فتقنعه بمدى قرب المرسل منه، أو بحرصه على طي المسافات الشاسعة بينهما، وعلى هذا غدا أسلوب المدح عامة من أكثر الأساليب استعمالاً، في العصر الحديث، إذا أصبح من المقدمات الخطابية التي يلجأ إليها للتعريف بين المتخاطبين، لما له من تأثير السحر في النفوس، ولما له من سعة لاستيعاب المضامين العاطفية، كخطاب عثمان رضي الله عنه، المؤيد لمذهب عبد الرحمن في الخلافة، والذي وظف فيه أسلوب التعجب فقال: «وأخِرِ بها يا بن عوف أن تترك، وأجدر بها أن تكون إن خولف أمرك، وترك دعاؤك، فأنا أول مجيب لك وداع لك»<sup>(1)</sup>.

ففي هاتين اللفظتين "وأخِرِ بها، وأجدرُ بها" تعبير واضح عن تضامنه وتأييده لما أبداه بن عوف، أداه عثمان رضي الله عنه بانفعال نفسي، يظهر دهشته لمن يتصور أن التنافس على الخلافة قد ينسيهم واجبه تجاه أمته ودينهم وهم من هم مكانة من محمد صلى الله عليه وسلم.

### 3-2-3- المصانعة:

بذكر خصائص المرسل إليه، وادعاء معرفته، كما فعل الأشتر بالمنهزمين من ميمنة جيش عليّ يوم صفين: «وكيف ذلك وأنتم أبناء الحروب، وأصحاب الغارات، وفتيان الصباح، وفرسان الطراد، وحتوف الأقران، ومذحج الطعان، الذين لم يكونوا يسبقون بثأرهم ولا تطل دماؤهم ولا يُعرفون في موطن بخسف، وأنتم حد أهل مصركم وأعزحي في قومكم...»<sup>(2)</sup>.

فيمكن لهذه المعرفة، التي ساقها الأشتر بين يدي خطابه، أن تعزز من روح التضامن بين المتخاطبين، وتدفعهم إلى التوحد، فتغدو - بذلك - هذه التعابير مقدمات لإنجاز أفعال لغوية معينة.

ونلمس - كذلك - في مصانعة المرسل إليه، بذكر خصائصه، نوعاً من بناء الثقة، وتمتين العلاقة، تمهيداً لاستثمارها في إنجاز أفعال أخرى قد لا يوصل إليها، دون مصانعة

1- السابق: ص: 98.

2- نفسه: ص ص: 183- 184.

واستدراج، وغالبا ما نجد هذا في تعامل الآباء مع الأبناء أو المعلمين مع تلامذتهم، كما من أكثر خصائص الخطاب السياسي تأثيرا في قلوب العامة.

### 3-2-4- الخطاب غير المباشر:

يظهر آلية تضامنية من خلال تجنب المرسل إكراه المرسل إليه على أمر غير راغب فيه، فيبتعد - ما استطاع - عن توجيه الأوامر والنواهي المباشرة، وممارسة سلطته، مستبدلا إياها، بما تقتضيه قاعدة التعفف، من عدم الإلحاح أو دفع المرسل إليه إلى فعل مباشر، « ويتحقق ذلك من خلال استعمال الخطاب الذي يحفظ البعد بين طرفيه »<sup>(1)</sup>، كما فعل معاوية مع الزرقاء بنت عديّ الهمدانية، لما أدخلت عليه قال: « مرحبا بك وأهلا قدمت خير مقدم قدمه وافد، كيف حالك؟ قالت: بخير يا أمير المؤمنين، أدام الله لك النعمة، قال كيف كنت في مسيرك؟ قالت: ربيبة بيت أو طفلا ممهدا، قال بذلك أمرناهم، أتدريين فيم بعثت إليك؟ قالت وأنى لي بعلم ما لم أعلم؟ قال: ألسنت الراكبة الحمل الأحمر والواقفة بين الصفيين بصفيين، تحضين على القتال وتوقدين الحرب؟ »<sup>(2)</sup>.

ففي هذا الخطاب، يظهر البعد التضامني للمرسل مع المرسل إليه، وإن كان على غير وفاق معه، قبل التلفظ بالخطاب، من خلال تجنب معاوية إكراه الزرقاء على ترديد ما كانت تحرض به أنصار عليّ يوم صفين، مكثفيا بالتلميح إلى شدة ما وجدته في نفسه عليها، وهي على هيئتها التي وصف تؤلب عليه قائلا: « لله أبوك حين تقولين... ! »<sup>(3)</sup>.

كما يُجَلِّي هذا الخطاب الكفاءة التداولية للمرسل، وبراعته في تصريف الخطاب حيث تدور مقاصده، إلى أن يصل به إلى الغرض الذي يريد، وينقل إلينا جانبا أولع به المؤرخون من حياة معاوية، ألا وهو حلمه، ودهاؤه، وقدرته على كسب الأعداء، واحتواء المعارضين، فقد: « ضحك... [ وقال لها ] أذكري حاجتك »<sup>(4)</sup>.

1- الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 318.

2- الحمهرة: ص: 197.

3- نفسه: نفسها.

4- نفسه: نفسها.

وبهذا يتأكد بلوغ المرسل غايته من الخطاب، وتحقيق وظيفته التفاعلية، التي تتجه إلى إقامة العلاقات الاجتماعية أكثر من اهتمامها بالنقل الفعال للمعلومات بين طرفي الخطاب.

### 3-2-5-التنغيم:

يسهم التنغيم بوصفه آلية "غير لغوية"، مصاحبة للخطاب، في إعطاء دلالة\* معينة، يرشحها المرسل إليه، على أنها المعنى المقصود دون سواه، ومن الملفوظات التي تجسد هذه الطبيعة الصوتية التي تقوم على التجانس الصوتي مع سياق الخطاب، كما لا تحمل التأثير في المتلقي، «السلام عليكم ورحمة الله...».

وألفاظ الجواب (نعم) و(لا) و(أجل)، وألفاظ النداء "أيها الناس، يا معشر..." وغيرها من الألفاظ التي يراعى في التلفظ بها، ما تحمله من المعاني المضمرة، وما تحتزنه من الدلالات التي لا يحررها إلا النطق بها وفق وزن صوتي معين.

كقول عليٍّ عليه السلام لمالك الأشتر النخعي: «يا مَالِكُ، قال لبيك، قال إئت هؤلاء القوم فقل لهم: أين فراركم من الموت الذي لن تعجزوه، إلى الحياة التي لن تبقى لكم؟!»<sup>(1)</sup> ومن ثم استحبوا في الخطيب خصائص تتمحور حول مظهره، وشخصه وطريقة إلقاءه، وصوته ونبراته، وملاحظه وإشاراته، وحركاته<sup>(2)</sup> ويمكن أن نقدر الهيئة الصوتية التي نطق بها الأشتر - نقلا عن الإمام عليٍّ - قوله: "أين فراركم؟" مستفهما، متعجبا، مستحشا، وقد انكشفت ميمنة جيشه، وفَرَ من مَذْجَجٍ\* مَنْ فَرَ.

ونتمثل كذلك قول (خنثر بن عبيدة بن خالد)، وهو يدعو قيسا إلى الثبات والصبر، ونصرة إمامهم: «يا معشر قيس، أطاعة الشيطان آثر عندكم من طاعة الرحمان؟».

\*للتوسع ينظر: صائل رشدي: عناصر تحقق الدلالة في العربية - دراسة لسانية - الأهلية للنشر والتوزيع، ط1، 2004، عمان - الأردن، ص: 50 وما بعدها. والبكوشي (الطيب): التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث، المطبعة العربية، ط3، 1992، تونس - تونس، ص: 80 وما بعدها.

1-الجمهرة: ص: 183.

2- ينظر: ترجيني (فايز): الخطابة والنهج، النجيل للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، دط، 1992، ص: 15.

\*كان الأشتر من النخع (بالتحريك) وهي قبيلة كبيرة من مَذْجَجٍ باليمن.

ذلك أن البنية التركيبية التقريرية «وتنغم النبر يطابقان ما يشبه الإثبات المؤسس على إنجاز قوى أفعال الكلام كما يطابقان الاستفهام وصيغ الأفعال الطلبية والأمر الدال على الوجوب والوعيد وغير ذلك»<sup>(1)</sup>.

ومن المواقف التي تساعد متلقي الخطبة - على صورتها الأصلية - في تمثيل الطريقة التي ألقيت بها، أو تُلفظ ببعض مقاطعها، وما يصاحبها من أنظمة دلالية غير لفظية، كالإشارات الجسمية، والتواصل اللمسي والشمي والذوقي والبصري، ووصف الأشياء التي يستعملها الخطيب،... وغيرها من الأوصاف المساعدة على تخيل هيئة المتكلم حال التلفظ<sup>(2)</sup>.

كما في الخطاب الآتي بين عمر بن الخطاب والحباب بن المنذر يوم السقيفة... فقال عمر: «إِذَنْ يَقْتُلُكَ اللَّهُ، قال - الحباب - بل إِيَّاكَ يَقْتُلُ».

فتلفظ عمر بـ(إذن) في معناها الأصلي، يختلف عن تلفظه بها في معناها التداولي، لأنها في الثاني (التداولي) لا تكون إلا «بضغط النبر والوقف (السكوت) وتنغم الصوت»<sup>(3)</sup> وهي ها هنا تعبر عن حنق عمر وغضبه الشديد على الحباب بن المنذر الذي أبي إلا أن يعيدها - الحرب - جَدْعَةً<sup>(4)</sup>.

ونجد عوامل أخرى تسهم في بلورة قصد المرسل باستعمال التنغم، كقول معاوية لأُم الخير: «هيهات يا كثيرة الفضول!»<sup>(5)</sup> إذ يتضح جليا دور التنغم المناسب في ترشيح مقصد العبارة، إن كانت على سبيل الدعابة، أو على سبيل النهر، والزجر، أو الدم والقروح. ومن يمكن أن نقول، إن التنغم قد ينوب عن كلام كثير، باعتبار أساس التواصل الخطابي، فالعبارة الواحدة، قد تتغير معانيها في حال تكرار التلفظ بها، إذا استحضرننا (جنس المتكلم، وعمره، ولهجته وحالته الاجتماعية والنفسية، والجسدية..

1- دايك (فان): النص والسياق، تر: عبد القادر قنيني، ص: 271.

2- للاستزادة، ينظر: كرمزكي حسام الدين: الإشارات الجسمية... ص: 23 وما بعدها.

3- دايك (فان): النص والسياق، تر: عبد القادر قنيني، ص: 281.

4- ينظر: الجمهرة، ص: 65.

5- ينظر: نفسه، ص: 195.

إن تأثير خطاب سعد بن عبادَة - مثلاً - للأنصار يوم السقيفة، لا يقرأ إلا في ضوء ما حفه من ملابسات سياقية، كالتى ساقها صاحب الجمهرة، بقوله: «...وأَخْرَجُوا سَعْدًا إِلَيْهِمْ وهو مريض، فلما اجتمعوا قال لابنه، أو بعض بني عمه، إني لا أقدر لشكواي أن أسمع القوم كلهم كلامي، ولكن تَلَقَّ مني قولي فَأَسْمِعْهُمْوهُ، فكان يتكلم ويحفظ الرجل قوله فيرفع صوته فيسمع أصحابه»<sup>(1)</sup>.

وكفيل بهذا النقل، أو إعادة إنتاج الخطاب، من لدن متلقيه (ابنه، أو أحد بني عمه في حال سعد) أن يفقده خصائصه الصوتية في درجتها الأصلية، ومن ثم يؤثر في تفاعليتها، وتأثيرها.

---

1- السابق، ص: 61.

# المبحث الثاني:

## الإستراتيجية التلميحية

### \*تمهيد:

إنَّ الإشكال العام الذي يمكن أن تنطلق منه رحلة البحث في "الإستراتيجية التلميحية" على خلاف قسيمتها (التوجيهية)، يتمثل في جملة الأسئلة المنهجية الآتية:

- كيف يمكن التلفظ بخطاب ما مع إرادة غير معناه الظاهر؟
- وكيف يفترض تحقق التواصل بين طرفيه في ظل هذه التعمية المقصودة؟
- ثم ما الدواعي التي تجعل المتكلم (المخاطب) يلجأ إلى هذه الطرق الملتوية، غير المباشرة، مع أنه بإمكانه انتهاز طرق أخرى أوضح، وأدل على المقصد؟

إن الإجابة على هذه الأسئلة، يمكن أن تستدعي نظريات لغوية، ومعرفية، وعلمية كثيرة، تختلف مظاهرها، وزوايا نظرها إلى الأشياء، وإن كان القاسم المشترك بينهما جميعاً هو "الخطاب" فهما وتأويلاً، وعليه سننطلق في تبديد حجب هذا الإشكال من النظر في طبيعة هذا المشترك (الخطاب) وعلاقته بالمعنى، ثم علاقة كل منهما بالمقصد (مقصد المرسل، والمرسل إليه على حد السواء).

إنه لمن البدهي القول، بتعدد معاني ومضامين التراكيب اللغوية، فما «من مضمون إلا ويجوز أن يأتي من فوقه مضمون غيره، وأن يأتي من فوق هذا المضمون الثاني مضمون ثالث، وهكذا من غير انقطاع»<sup>(1)</sup>.

ذلك أن معاني كثير من جمل اللغات الطبيعية - في ارتباطها بالسياق - لا تنحصر في دلالات صيغها الصورية، المعتمدة في تصنيف الجمل، كالأمر والنهي، والاستفهام وغيرها... ولنأخذ مثالا لذلك، الجملة التي أعتيد الاستشهاد بها في هذا الباب وهي: «هل تستطيع أن تناولني الملح؟»

فاستعمال هذه الجملة يخرجها من دلالة السؤال، إلى دلالة الالتماس<sup>(2)</sup>، أي أن الذي

1- عبد الرحمن (طه): اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص: 23.

2- ينظر: المتوكل (أحمد): "الاستلزام التخاطبي" بين البلاغة العربية والتداوليات الحديثة، ضمن (التداوليات علم استعمال اللغة)، ص: 293.

يكسبها قصداً جديداً ثانياً أو ثالثاً إنما هو ارتباطها بالسياق أي استعمالها في طبقة معينة من المقامات.

وهذا الاستعمال هو الذي ينشئ تعدد المعاني وتراكبها في الملفوظ الواحد، بحيث تصبح مشاركة فيه، متكافئة في حظوظها منه، متساوية في إمكانات ردودها عليه<sup>(1)</sup>، فيحتاج معها إلى تأويل، وترشيح.

وهو ما أجمله الجرجاني بقوله: «الكلام على ضربين: ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده [...] وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها الغرض»<sup>(2)</sup> وجعل الكناية والاستعارة والتمثيل وما إليها، من أخص أبواب هذا الضرب الثاني بما يستلزمه من روابط معنوية بين الظاهر والخفي.

يتضح مما سبق أن عملية إنتاج الخطاب من لدن المرسل، عملية مفتوحة على خيارات خطابية لا محدودة، تغذيها عوامل كثيرة منها ما هو مرتبط بالمرسل ومنها ما مرتبط بالمرسل إليه، ومنها ما هو داخل في العلاقة المتحركة فيهما، ومنها قسم آخر متعلق بالطبقة المقامية التي يحيا فيها الخطاب عموماً، وقسم خامس، تتدخل في خصائص اللغة وكفاءتها في أداء الموقف واختزاله. هذه الافتراضات، مجتمعة تفضي بنا إلى نتيجة مهمة، هي «مركزية السياق في منح الخطاب دلالاته للتعبير عن القصد»<sup>(3)</sup>، بما يستلزمه من تشكيل معين للخطاب.

ومنتهى هذا الكلام، «أن إستراتيجيات المرسل في إنتاج خطابه لا تتجاوز نوعين من حيث شكل الدلالة فيه:

— إما إستراتيجية مباشرة، يتضح فيها، القصد مباشرة دون عمليات ذهنية للاستدلال عليه.

1- ينظر: إسماعيلي علوي (عبد السلام): تداوليات التأويل، ضمن (التداوليات علم استعمال اللغة)، ص: 203.

2- الجرجاني (عبد القاهر): دلائل الإعجاز، ص: 202.

3- الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 367.

- وإما إستراتيجية غير مباشرة»<sup>(1)</sup> تحتاج إلى عمل ذهني، للمرسل إليه، حتى يتجاوز الشكل اللغوي (الظاهر) إلى القصد.

وهنا لا بد أن نفرّق بين ثلاثة معانٍ متقاربة في الدلالة على المستويين سالف الذكر وهي: الجملة، والملفوظ والتلفظ، إذ لا يثبت منها للدلالة على المستويين السابقين سوى، الملفوظ والمتلفظ، «حيث يتعلق المعنى بالملفوظ ويتعلق بالتالي بالاستعمال المباشر، على خلاف تعلق المعنى بالاستعمال غير المباشر حيث يتعلق بالتلفظ وهو المستوى الثالث، أما المستوى الأول حيث يتعلق المعنى بالجملة، فإنه لا تعلق له بأي استعمال»<sup>(2)</sup> ولكن السؤال الذي يعترض سبيلنا الآن، هو كيف يتحقق التواصل بالفهم والإفهام بين المتخاطبين؟ أقصد في مستوى التلفظ؟ أي في صورة الخطاب التلميحية\*.

ليس بدعا من القول، الإشارة إلى الترابط القوي الذي يفترض وجوده، بين المرسل والمرسل إليه في الوضعيات التواصلية الطبيعية (العادية) للحصول على صورة عامة من التوافق والتفاعل، وقد ظهرت «منذ مقالة غرايس "المنطق والخطاب" اقتراحات متعددة تعنى بظاهرة "الاستلزام التخاطبي" في إطار كل من فلسفة اللغة العادية و"الفلسفة الصورية" و(النظرية التوليدية التحويلية)»<sup>(3)</sup> وفيما يلي عرض موجز لهذه الجهود التي عنيت بتفسير ظاهرة التواصل وترشيح الدلالات التلفظية، أو ما اصطلح على تسميتها تبعا لـ(غرايس) بـ"الاستلزام التخاطبي".

### 1) قصد المرسل/الظاهر والخفي:

يجد مستعملو اللغة العادية أنفسهم مرغمين على مجازاة سياقات تخاطبية متنوعة، باستعمال أساليب غير مباشرة، تتيح لهم التعبير عن مضامين معرفية، لا تتسع لها الأساليب

1- تغزاوي (يوسف): الوظائف التداوليات...، ص: 202.

2- إسماعيلي علوي (عبد السلام): تداوليات التأويل، ص: 207، وينظر كذلك: آن روبول وجاك موشلار: "التداولية اليوم علم جديد في التواصل"، ص: 55.

\* نتيجة لتعدد أسمائها عند العرب وغيره، فإن مصطلح التلميحية كان هو المصطلح الشامل الذي يجمع تلك المصطلحات ويؤطر تلك الآليات والأدوات بالرغم من تفاوتها وتماييزها في دلالتها على قصد المرسل. تغزاوي (يوسف): الوظائف التداولية، ص: 204-205.

3- المتوكل (أحمد): الاستلزام التخاطبي...، ص: 295.

المباشرة، خاصة بالاعتماد «على اعتبارية الأنساق التمثيلية»<sup>(1)</sup> التي تساعدهم على الفصل بين الأنظمة اللغوية والأنظمة المرجعية، وما يولد عددا لا حصر له من المعاني غير المباشرة.

والمقصود بالمعاني غير المباشرة، المعاني التي تستفاد من التعابير اللغوية، دون أن يكون مصرحا بها في ظاهر تلك التعابير<sup>(2)</sup> كمعنى الالتماس الذي استنتجناه في المثال السابق من صورة تركيبية استفهامية (هل تستطيع أن تناولني الملح؟).

فمعنى "الالتماس" المختزن في الصورة الاستفهامية، معنى (قصد)، غير مباشر (مستلزم) ولد عندما انتقلت الجملة من الدلالة على الاستفهام إلى الدلالة على شيء آخر، ولكن ما مسوغ هذا الانتقال؟ وكيف تم الاستلزام؟ ولماذا كان المعنى المستفاد التماسا ولم يكن تعجبا أو استهزاء أو معنى آخر غيرها؟<sup>(3)</sup>

يرى (غرايس) أن الذي يحكم الحوار بين طرفي الخطاب، ليدرك كل منهما قصد الآخر، هو "مبدأ التعاون" وقواعد التخاطب: «وتقتضي فرضية (غرايس) أن المخاطب يستند على هذا التعاون للقيام باستدلالات غير برهانية»<sup>(4)</sup>.

ولذلك، اقترح أن توصف ظاهرة الاستلزام التخاطبي انطلاقا من هذا المبدأ أو القواعد المتفرعة عنه، وذلك برصد مصدره، الذي هو «الخرق المقصود لإحدى القواعد الأربع\* مع احترام المبدأ العام مبدأ التعاون»<sup>(5)</sup>. بينما تركز عمل (سيرير) و(ولسن) في قاعدة العلاقة، وقد صاغوا نظرية أسمياها نظرية العلاقة تحتفي بالاتصال والإدراك<sup>(6)</sup>.

1- إسماعيلي علوي (عبد السلام): تداوليات التأويل، ص: 210.

2- نفسه: ص ن.

3- استفدنا في صياغة بعض هذه الإشكالات التجريبية والمنهجية من كتابات المتوكل (أحمد)، ينظر: المتوكل: الاستلزام التخاطبي...، ص: 294.

4- اجعيط (نور الدين): تداوليات الخطاب السياسي، ص: 76.

\* هي (قاعدة الكم، وقاعدة الكيف، وقاعدة الورد (الصيغة)، وقاعدة الكيفية)، ينظر: عبد الرحمن (طه): اللسان والميزان بتصرف، ص: 238-239.

5- المتوكل (أحمد): الاستلزام التخاطبي...، ص: 295.

6- ينظر: يوسف (تغزوي): الوظائف التداولية، ص: 204، وصحراوي (مسعود): التداولية عند العلماء العرب، ص: 36.

وهناك نظريات لسانية أخرى، تختلف في منشئها عن نظرية "غرايس" سبق أن أشرنا إليها في الفصول الماضية، حاولت تبرير التعبير الدلالي للملفوظ، وما يتبعه من معانٍ مستلزمة، في التفاعل الخطابي، منها: "مبدأ التأدب" لـ(براون) و(ليفنسون) و"مبدأ التأدب الأقصى" لـ(ليتش) وتشترك كلها في إعادة الاعتبار للظروف السياقية والشروط الاجتماعية عند إنتاج الخطاب، وتأويله.

واقترح (جوردن) و(لايكوف) قواعد شكلية أسمياها "مسلمات الحوار" حاولا فيها ضبط ظاهرة استلزام قضية ما، قضية أخرى، في طبقة مقامية معينة، وأرجعها إلى "شروط صدق" المرسل والمرسل إليه<sup>(1)</sup>، ويعتبران مثلاً أن استلزام الجملة (المثال السابق) هل تستطيع أن تناولني الملح؟ معنى الالتماس، مرده استفهام حول أحد شروط هدف المخاطب، أي هل أنت قادر على تلبية رغبتي؟

وهكذا يتضح قصد المرسل لدى المخاطب، إثر توفر مجموعة من المسلمات التخاطبية. غير أن الإسهام الأبرز كانلد(سيرل) بتمييزه للشروط القادرة على أداء الفعل اللغوي أداءً موفقاً عن غيرها، وقد ذكرها (طه عبد الرحمن) كالآتي:

- أ- شروط مضمون القضية، وهي التي تحدد ميزات المضمون بقول مخصوص.
- ب- الشروط الجوهرية، وتميز هذه الشروط الغرض التواصلية من الفعل التكملي، أي الغرض الذي يلزم المتكلم بواجبات معينة.
- ج- شروط الصدق، وهي الشروط المحددة للحال الاعتقادي الذي ينبغي أن يقارفه المتكلم المؤدي للفعل التكملي.
- د- الشروط التمهيدية: وهي ذات صلة وثيقة بمقام التواصل، وبكل المعارف المشتركة بين المرسل والمرسل إليه...<sup>(2)</sup>

1- ينظر: المتوكل (أحمد): الاستلزام التخاطبي...، ص: 296.

2- ينظر: عبد الرحمن (طه): اللسان والميزان، ص: 261.

تتمثل الإضافة\* التي قدمها (سيرل) لظاهرة الاستلزام التخاطبي في سعيه إلى ضبط خطوات انتقال المعنى من الظاهر (الملفوظ) إلى الخفي (القصد) الذي يصاحب (التلفظ)، وذلك بمحاولته تفسير هذا الانتقال من خلال البحث في أوجه العلاقة الممكنة أو الخاصة بين "القول" و"الإنجاز" (الفعل)، وقد قاده هذا البحث إلى حصر العلاقة بين المعنى المباشر (الظاهر) والمعنى المستلزم (الباطن - غير المباشر) في بعدين كبيرين هما:

- (1) «أن يبدع دلالاته على القصد بتوليدها لغوياً، فيستعمل آليات معينة مثل الجاز بأنواعه.
- (2) أن يستعمل القوالب اللغوية الماثورة... وبهذا هو يستعيز عن التصريح بالتلميح إلى ذلك المعنى»<sup>(1)</sup>.

وقد استتبع هذا التصنيف تنميط المتلفظ بالنسبة إلى الملفوظ في أربع صور هي<sup>(2)</sup>:

- 1) إما أن يقول شيئاً ويقصد شيئاً آخر مختلفاً عن المعنى المستفاد من الملفوظ (الاستعارة).
- 2) وإما أن يقول شيئاً ويقصد عكس المستفاد من الملفوظ (السخرية).
- 3) وإما أن يقول شيئاً وهو يريد شيئاً آخر (الاستدلال، والأعمال اللغوية غير المباشرة).
- 4) وإما أن يقول شيئاً يطابق بالضبط ما يستفاد من الملفوظ ظاهرياً.

وبهذا يكون (سيرل) قد أوضح مواقف الخطاب المصاحبة للدلالة على قصد المرسل عبر مستويين اثنين هما: المعنى الحرفي والمعنى المجازي، بالإضافة إلى مستوى ثالث يعدل فيه عن الإستراتيجية المباشرة إلى الإستراتيجية غير المباشرة (التلميحية) باستعمال آليات لغوية، تحمل بدورها مؤشرات دوافع هذا العدول من لدن المرسل.

وصفوة القول، أن المرسل، بما يمتلكه من كفاءات تداولية، وسلطة، وقصد، قادر على توظيف اللغة والتصرف فيها، بتضمينها معانٍ خاصة، وله حينها أن يطابق بين شكل الخطاب ومعناه، فتنشأ الإستراتيجية المباشرة، أو أن يخالف بينهما، بما يناسب السياق فتنشأ

\* للباحث عبد الرحمن (طه) هو الآخر إضافة لا تجحد، تتمثل في اقتراح قواعد تداولية بعضها عام وبعضها خاص، ينظر: السابق، ص: 166 - 169.

1- الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 380-381.

2- ينظر: روبرول (آن) وموشلار(جاك): التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ص: 262-263.

الإستراتيجية غير المباشرة (التلميحية)، ف «المعنى المباشر [مختلف] عن المعنى التلمحي، لأن ما يؤكد ليس هو ما يتطلب الاقتضاء»<sup>(1)</sup>.

وهو ما يستدعي ترادف مفهومين مهمين هما: المفهوم والمنطوق، كمعادل لمفهوم "الاستلزام التخاطبي" عند (غرايس).

ولتفصيل العلاقة بين المنطوق والمفهوم، نورد تعريف (أبي البقاء الكفوي) لهما حيث يقول: «والمفهوم هو الصورة الذهنية سواء وضع بإزائها الألفاظ أو لا... وقيل هو ما دل عليه اللفظ لا في محل النطق... والمفهوم... قسمان: مفهوم المخالفة ويسمى بدليل الخطاب، وفحوى الخطاب، ولحن الخطاب وهو أن يثبت الحكم في المسكوت عنه على خلاف ما ثبت في المنطوق، ومفهوم الموافقة هو أن يكون المسكوت موافقا للمنطوق في الحكم»<sup>(2)</sup>.

ومعنى هذا، أن المنطوق قد يحمل معنى موافقا لظاهره، فيكون المفهوم منه موافقا له، كما قد يحمل معنى مخالفا لظاهره، فيكون المفهوم منه مخالفا له.

والفرق بين المفهوم والمعنى، أن الأول ما يستفاد من اللفظ باعتبار أنه فهم منه، أما المعنى فما يستفاد من اللفظ باعتبار أنه قصد منه، فإذا كان دالا عليه سمي مدلولاً<sup>(3)</sup>، وأما معنى المعنى فهو «أن يعقل من اللفظ معنى ثم يفضي ذلك المعنى إلى معنى آخر... والمنطوق هو الملفوظ، وقد يراد به مدلول اللفظ، وبالمفهوم ما يلزم من المدلول»<sup>(4)</sup>.

يمكن أن نقول إذن، إن الخطاب، من حيث شكل الدلالة على قصد المرسل، إما أن يكون منطوقه موافقا لمفهومه، فتؤديه "الإستراتيجية المباشرة"، وإما أن يكون مفهومه مخالفا لمنطوقه، إن بالجواز أو الاستلزام فلا يؤدي حينها إلا بالإستراتيجية غير المباشرة التي يلزم فيها «القصد عبر مفهوم الخطاب المناسب للسياق، لينتج عنها دلالة يستلزمها الخطاب، ويفهمها

1-أرمينكو (فرنسواز): المقاربة التداولية، ص:52.

2-الكفوي (أبو البقاء): الكليات، ص:860.

3- ينظر: العسكري (أبو هلال): الفروق اللغوية، تحقيق وتعليق: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة، القاهرة - مصر، دط، دت، ص ص:33-36.

4-الكفوي (أبو البقاء): الكليات، ص:842.

المرسل إليه»<sup>(1)</sup>.

ويحتاج المرسل إليه في الحالة الثانية، إلى المرور عبر مراحل ذهنية معقدة، لتحصيل المعنى وإدراك القصد، هي المراحل نفسها التي كان المرسل قد سلكها، ولكن باتجاه عكسي؛ من اشتقاق للمعنى الحرفي، ثم فحصه في السياق والبحث في المقصود، إذا أخفق المعنى الحرفي في إيصاله إلى القصد<sup>(2)</sup>.

ومن خلال هذا التناوب على "التشفير وفكه"<sup>(3)</sup> في الخطاب، تتحقق إستراتيجية التلميح لغويا بفضل ظهور بعض الآليات والأدوات اللغوية وغير اللغوية.

## (2) قصد المرسل ودواعي التلميح:

نطلق في الحديث عن هذا المعنى، من مسلمتين - في نظرنا - تحكمان فعل التخاطب، سبق وأن أوردناها في ثنايا المباحث الماضية:

\* لا ينشأ الكلام بين متخاطبين إلا لوظيفة ما.

\* لا يبني المتكلم كلامه وهو في عزلة تامة عن العالم عامة وعن مخاطبه بخاصة.

وفي هذا الصدد يقول طه عبد الرحمن: «... فما تكلم أحد إلا وأشرك معه المخاطب في إنشاء كلامه كما لو كان يسمع كلامه بأذن غيره، وكان الغير ينطلق بلسانه [...] بل ما إن يشرع المتكلم في النطق حتى يقاسمه المخاطب دلالاته لأن هذه الدلالات الخطابية لا تنزل على ألفاظها نزول المعاني على المفردات في المعجم، وإنما تنشأ وتتكاثر وتتقلب وتتعرف من خلال العلاقة التخاطبية»<sup>(4)</sup>.

فلا نتصور - إذن - متكلماً إلا وفي ذهنه صورة لمخاطب، إن ماثلاً عياناً، وإن مفترضاً شاخصاً في خياله، وقد يكون هو، هو، كما في الخطابين الآتين:

1- الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 367.

2- نفسه: ص: 384.

3- ينظر: سرحان (إدريس)، التأويل الدلالي للتداولي للملفوظات وأنواع الكفايات المطلوبة في المؤول، ضمن (التداوليات علم استعمال اللغة) ص: 124-129 ففيه إفادة.

4- عبد الرحمن (طه): في أصول الحوار، ص: 45.

أ- أنا مريض، ولا أستطيع الذهاب إلى العمل. } المرسل قد يكون هو المرسل إليه نفسه.  
ب- أحتاج إلى النوم باكراً، هذه الليلة.

وهذا أمر لا يحتاج إلى كثير كلام، ويترتب عن هذا التصور، نشوء عقد تواصلية -على حد تعبير ريكانتي<sup>(1)</sup> بين المرسل والمرسل إليه، يرمه كل منهما بحسب ما بينهما من تفاهم، «إلا أن هذا الاتفاق لا يتم بشكل علني أو ملموس [...] وإنما يتم بطريقة ضمنية وعفوية، لدرجة أننا لا ننتبه إليه في مواقفنا التواصلية... [إنه] يتم لمجرد الشروع في التواصل [...] وكما هي التعاقدات تساعد على تحقيق التواصل المباشر، فهي كذلك تساعد على تحقيق التواصل غير المباشر».

وما دام الحديث حول التعاقد بين طرفي الخطاب، فنحن بمنأى - إذن - عن الحديث عن إسهام كل منهما في بناء معنى الملفوظ وتأويله، وهو ما يحيلنا مجدداً إلى العلاقة الجدلية، المؤطرة لعملية الفهم والإفهام، بل ويجعلنا نجاري الرأي القائل «بأن المعنى موضوع يتفاوض بشأنه كل أطراف الحوار»<sup>(2)</sup> فهو يبنى بناء مشتركاً، تستحضر فيه المسلمات الحوارية، ومبادئ التعاون، والصدق، وكل القواعد التي تستدعي في مقام التخاطب لتذليل الاختلافات.

وإن كان السؤال الذي لا يزال تتردد أصداؤه في أذهاننا، هو إن كان كل من طرفي الخطاب، محتكماً لهذا العقد، ملتزماً بينوده، فما الداعي إلى جنوح المرسل إلى التلميح بدل التصريح؟ وفي ذلك ما فيه من مغبة نقض الوظيفة التواصلية للخطاب، وإذكاء الاختلافات بين الأطراف المتواصلة؟!

للإجابة عن هذا الإشكال، لا بد من الإشارة إلى عناصر ثلاثة لها اليد الطولى في توجيه الخطاب، شكلاً ومضموناً هي:

أ- المرسل: فمثلاً «لا مراء فيه أن من حق المتكلم باللسان الطبيعي، أن يسلك سبيل التصنيف (L'implication) أو (التعبير غير المباشر) لكل أصنافه وطرقه، وصياغة معانيه،

1- نقلا عن: إسماعيلي علوي (عبد السلام): تداوليات التأويل، ص: 232.

2- سرحان (إدريس): التأويل الدلالي...، ص: 129.

متى تبينت له فائدة هذا السبيل ولم يكن ليتعارض بشكل ظاهر أو خفي مع أحد المبادئ الأساسية المنظمة للتواصل اللغوي»<sup>(1)</sup> فيلجأ إلى التلميح - مثلاً - لما يجد في نفسه من رغبة قي أداء معانيه وفقه، أو إبرازاً لمؤهلاته وقدراته اللغوية والتداولية، وقد تتأثر عباراته بما وعاه - المتكلم - من حال المخاطب، «المنعكسة في نفسه، فيتحول المخاطب إلى مثير من المثيرات التي تعمل في نفس مبدع الكلام»<sup>(2)</sup> وتتناسب صياغاته وشكل خطابه عموماً مع ما استقر في ذهنه حيال حال المخاطب، وما نود التأكيد عليه هنا هو أن المرسل ليس وحده مناط شروط التواصل، وإن كان له الدور الأول في توجيه شكل الخطاب، بحسب ما تفرضه بعض العوامل الذاتية والموضوعية، فالمرسل يبقى مرجعاً أساسياً في الاستدلال على القصد، ومن المسوغات المتصلة بالمرسل، التي تخول له الالتجاء إلى الإستراتيجية التلميحية ما ذكره (عبد الهادي بن ظافر الشهري)، ونورده - مع شيء من التصرف -<sup>(3)</sup> قبل الحديث عن العنصر الثاني من عناصر توجيه شكل الخطاب ومضمونه:

- 1- التأدب في الخطاب لدواعٍ شرعية، أو اجتماعية، أو ذاتية.
  - 2- اعتداد المرسل بذاته وإضفاء سمات التفوق عليها، باستعمال التلميح، ونبذ الآخرين وادعاء التميز الفردي عليهم.
  - 3- التهرب من مسؤولية الخطاب، وذلك بدفع المفهوم نحو التعدد، وفتحه أمام التأويلات.
  - 4- تجنب إكراه المرسل إليه أو إحراجه لما قد يكون شاقاً عليه أو دون قدرته.
  - 5- الاستغناء عن إنتاج عدد من الخطابات، والاكتفاء بخطاب واحد، ذي معاني متعددة.
- فهذه المسوغات جميعاً، وثيقة الصلة بالمرسل من حيث مراده في اختيار الشكل الذي يناسبه لإنتاج الخطاب وفقه، ومنها مسوغات أخرى تتصل بالمرسل إليه.

---

1- السابق: ص: 138.

2- نفسه: ص: 134.

3- ينظر: الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص ص: 370-374.

## أ- المرسل إليه:

يدفع المرسل إليه أحيانا بالخطاب إلى أن ينتج في شكل غير مباشر، إما بقصد أو بغير قصد، ومن أهم الأسباب المفضية إلى توحي المرسل للإستراتيجية التلميحية، بإيعاز من المرسل إليه استغلال هذا الأخير لموقعه السلطوي، أو الاجتماعي، وعدم تنازله عنه، ولو على سبيل رفع التواصل بينه وبين مخاطبيه، وكثيرا ما نلاحظ مثل هذه الوضعيات الحوارية، ضمن مقامات تعمل فيها السلطة عملها، فتحول دون تجسيد خطاب مباشر، واضح القصد بينما تعزز من فرص التلميحات، والمعاني المدرجة والتضمينات، لا شيء إلا «استجابة للخوف، لذلك يستعمل المرسل هذه الإستراتيجية لئلا يتخذ المرسل إليه خطابه دليلا عليه»<sup>(1)</sup> كالخطابات القضائية، والاستجابات ومثيلاها.

دون أن ننسى القيمة الفكرية والعلمية والمعرفية للمرسل إليه، والتي من شأنها أن تفرض نوعا من الضغط على المرسل، ومن ثم على شكل خطابه، يقول (لاينز)(J.Layons): «إن التمييز بين المتلقي والمخاطب المقصود ذو فائدة كبرى في التواصل، لأن المرسل يبني كلامه ويعدل فيه غالبا تبعا لما يعتقد أنه واقع معارف مخاطبه المقصود وعن وضعيته الاجتماعية»<sup>(2)</sup>.

فمعرفة شخصية المتلقي المقصود بالخطاب، كفيلة بالكشف عن الدواعي التي جعلت المرسل ينتج خطابه في هذا الشكل، ولذلك فلا غرو أن منحت المدارس الحديثة هذا الفضاء الواسع في تحليلاتها الأدبية، والنفسية والاجتماعية للمتلقى، ووضعت نصب عيني الفعل التأويلي، وبوأتها منزلة محورية في الاستدلال على المعنى المقصود.

**ج- مقام التخاطب:** وحيثيات إنتاج الملفوظ، ولسنا هنا بصدد إعادة ما قلناه في الفصل الأول حول "السياق والخطاب" وإنما يعيننا مما سبق شق الحديث المتعلق بالأبعاد التي رصدتها (سيرل)، والتي يختلف بها كل فعل إنجازي عن الآخر<sup>(3)</sup> خاصة تلك المتفرعة عن

1- السابق: ص: 373.

2- نقلا عن إدريس سرحان: التأويل الدلالي - التداولي، ص: 134.

3- ينظر: نخلة (محمود أحمد): آفاق جديدة... ص: 75 - 78، وينظر: أرمينكو (فرانسواز): المقاربة التداولية، المقاييس الاثنا عشر لسورل، ص: 63 - 66.

الشرط التمهيدي، والمتعلقة، بقدرة المخاطب على الإنجاز بعد الفهم، وقابلية المقام لوقوع هذا الفعل في مجرى الأحداث<sup>(1)</sup>.

دون أن نتجاوز "كفاءة اللغة" وما تزخر به من صيغ ودلالات، تشمل مقاصد كل من المرسل والمرسل إليه، على حد سواء وما توطأ عليه من أشكال تعبيرية، صارت عرفاً يحتكم إليه، يقول محمود أحمد نخلة: «يرى علماؤنا أن استعمال اللغة منوط بما تعارف عليه أبنائها في ألفاظها وصيغها وتراكيبها ودلالاتها وما تقتضيه مقامات الكلام وأعراف الناس وأحكام الشرع»<sup>(2)</sup>.

على أن دور "مقام التخاطب" لا يقتصر على إنتاج الخطاب فحسب، بل يتجاوز إلى اختيار الإستراتيجية العامة التي ينمو فيها هذا الخطاب، ففي المثال الآتي لا يمكن أن نصنف إستراتيجية المرسل إلى باعتبار المقام المتلفظ فيه:

● إنه ليوم جميل، مناسب للتنزه.

فبافتراض أن مقام التلفظ مخالف لفحوى العبارة (إذا كان اليوم مطراً، عاصفا مثلاً) يفهم قصد المرسل على أنه "سخرية".

أما إذا كان المقام موافقاً لفحوى العبارة، يفهم منها أن المرسل يعرض رحلة ترويحية على المرسل إليه.

ومن ثم كان المقام هو الحاسم في تحديد قصد المرسل من العبارتين، وبه تحددت الطبيعة المباشرة أو غير المباشرة لهما، وهو ما يدفعنا إلى القول إن عدم توافر بعض الشروط في الخطاب وفيما يؤثر الخطاب، تجعل العملية التواصلية ضرباً من التعمية، وتجعل التواصل بالخطاب شكلاً من أشكال التصويت المشفر، المفرغ من محتواه، خاصة إذا تعلق الأمر بالإستراتيجية التلميحية القائمة على العدول «عن التعبير وفق شكل اللغة الدلالي مباشرة [إلى التلميح] بالقصد عبر مفهوم الخطاب المناسب للسياق، لينتج عنه دلالة يستلزمها الخطاب

1- ينظر: نخلة (محمود أحمد): آفاق جديدة... ص: 75.

2- نفسه: ص: 85.

ويفهمها المرسل إليه»<sup>(1)</sup>.

وهو ما سنحاول استثماره في استنباط الدلالات الكامنة عبر خطابات فترة صدر الإسلام، من خلال التوصل إليها بما تتيحها الإستراتيجية التلميحية من آليات وأدوات لغوية وبلاغية وشبه منطقية.

### (3) وسائل التلميح اللغوية:

صار من نافلة القول إن المرسل وهو يتوخى الإستراتيجية التلميحية، محكوم بشروط وقواعد تتجاوز ما يتطلبه فهم الخطاب المباشر، حتى وإن سلمنا بأن أكثر هذه الشروط المتعلقة بالتخاطب، هي في الأصل مشتركة بين جميع أنواع الخطاب، صريحة وضمنية، إلا أن التواصل بإستراتيجية التلميح، يفرض منطقاً مختلفاً، وعلاقة خاصة تكمن خطورتها في ما قد يؤول إليه الخطاب، إذا عدم إحدى هذه الأصول، والاشتراطات، من فشل وانعزال عن السياق برمته.

ولعل أوجب هذه القواعد وأوكدها، ما أشرنا إليه في أوليات هذا الفصل، وما أدرجناه في مسمى "الكفاءة اللغوية" باعتبارها أولى درجات سلم الكفاءات المترتبة عليها، ومنها، الكفاءة التداولية، التي لا تقف بالمتواصلين عند حدود المهارات الذهنية، وإنما يبحر بهم بعيداً في ثنايا السياق حتى يلتئم فيه شمل اللفظ بقصد المرسل، ليتشكل كل ذلك في صورة الخطاب، بكل ما يعنيه من معارف باللغة وأصولها، والسياق وعناصره، والمعلومات المشتركة التي هي خزان العملية التواصلية، يمدّها بكل ما يعدل أو يجبر أو ينشئ تشكيلاً جديداً في صرح الخطاب بمفهومه الأوسع.

إن المرسل في الإستراتيجية التلميحية، هو حجر الزاوية، الذي تتراكم على كاهله، في نظام معين مختلف الملفوظات، بقوالبها، وأثقالها، وأبعادها، وخصائصها الجمالية والفنية، ومن ثم كان أجدر عناصر التواصل بالاهتمام وأولاهها بالعناية دون أن ينقص من قيم ما سواه شيء ولذلك سنولي في استقصائنا لوسائل التلميح اللغوية وغير اللغوية، اهتماماً خاصاً لكل أنواع التلميحات التي تعبر عن إرادة المرسل أو معانيه في التواصل، من خلال رصد آليات

1- الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 367.

الإستراتيجية التلميحية وأدواتها اللغوية بما في ذلك الآليات البلاغية، وشبه المنطقية<sup>(1)</sup>، متسلحين بما يتيح التحليل التداولي من أدوات إجرائية، لتحديد أشكال العدول عن الخطاب المباشر، وتبرير ظاهرة الاستلزام التخاطبي، وترشيح المفهوم من المنطوق بما يحفظ خصوصية المرسل والمرسل إليه، وما قصدا إليه من معاني.

## 2-1- الأدوات والآليات اللغوية:

ويكمن أدائها التلمحي في سترها للمعنى، وإحجامها عن تحديد القصد الذي يرومه المرسل، ومن أكثرها توافقا مع طبيعة الإستراتيجية التلميحية في المدونة ما يلي:

### أ- الكنايات والروابط والظروف الإنجازية:

منها (لو)، وهي «حرف شرط غير جازم، تفيد امتناع لامتناع، أو حرف يدل على ما كان سيقع لوقوع غيره - حسب عبارة سيويه - وهي أداة لا تجزم تقتضي جملتين بعدها»<sup>(2)</sup> وتحمل "لو" طابعا تلميحيا إذا استعملت في الخطاب، بما تفترضه من وقوع فعل مرتبطا بحدوث آخر، فيؤدي امتناع الجملة الجوابية لامتناع الجملة الشرطية، كما في قول علي بن أبي طالب لأصحاب الشورى: «...لو عهد إلينا رسول الله ﷺ عهدا لأنفذنا عهده، ولو قال لنا قولا لجادلنا عليه حتى نموت»<sup>(3)</sup>.

فامتناع إنفاذ علي عهد رسول الله، لامتناع العهد به إليه، وكذلك امتناع الجدال عليه حتى الموت، لامتناع القول له، فتحقق الثاني وجودا مرتبط بتحقق الأول، وهو تلميح منه ﷺ، إلى أن النبي ﷺ، لم يخصه دون غيره بوصية، أو ولاية عهد، وأنه لو كان أوصى إليه، لكان على غير الحال التي عليها، ففي الخطاب إشارة خفية إلى أحقيته بالخلافة، وأنه لها أهل، إذا ما عهد بها إليه، لا على حجة دينية، لأن النبي لم يوص له بشيء منها.

كما تظهر سمة تلميحية أكثر تأدبا مع المرسل إليه، يمكن أن تدرج تحت ما يسمى

1- ينظر: السابق، ص: 384، وتغراوي (يوسف): الوظائف التداولية، ص: 206.

2- قلائي (إبراهيم): قصة الإعراب، جامع دروس النحو والصرف، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة - الجزائر، دط، ص: 318.

3- الجمهرة: ص: 100.

"بالاختبار التشخيصي" الذي يعد "جس نبض" حوارى، بين متخاطبين، يحاولان التأسيس لعلاقة ما، كعلاقة شراكة أو زوج، أو ما شابه، فيوظف كل منها "لو" الافتراضية - حسب سيبويه - ليوهم المخاطب بأفعال متوقع حصولها، ويدفعه إلى إنجاز أفعال عكسية، يختبر بها مدى قابليته أو استعدادده لتقاسم وجهات النظر، أو تحكمه بالمادة العلمية، وأكثر الاختبارات من هذا القبيل، كاختبارات المحامين، والسائقين...

ومن الأمثلة التي وجدناها في خطاب المدونة، قول معاوية لأم الخير بنت الحريش مفترضا: «...يا أم الخير، ما أردت بهذا الكلام إلا قتلي، ولو قتلتك ما حرجت\* في ذلك»<sup>(1)</sup> فلقد ألمح معاوية إلى إمكان حدوث فعل منه، تجاه مخاطبه، على سبيل التوقع والافتراض تاركا المرسل إليه، يتوقع هو الآخر حدوث الفعل، وكيف يكون رده عليه، فقالت له أم الخير: «والله ما يسوءني يا بن هند أن يجري قتلي على يدي من يسعدني الله بشقائه...»<sup>(2)</sup>.

فما كان لهذا الخطاب - إذن - أن يتسم بهذا الملمح لولا توظيفه لـ "لو" الافتراضية أو التوقعية، والخطاب الآتي يظهر بلا لبس عمل "لو" في النفوس، وأثرها في العقول، وكيف جعلت الخطاب يأخذ منحى تصاعديا، بمجرد دخولها في الاستعمال بين المتفاوضين ولعل وظيفتها تلك هي التي جعلت النبي ينهى عن الاستعانة بها في الكلام، واعتبرها من جند الشيطان، لما تيسره له من إيقاع بين المتخاطبين، ولما فيها من إظهار الأسف على ما فات<sup>(3)</sup>:

وتكلم يزيد بن قيس فقال: «...فاتق الله يا معاوية، ولا تخالف عليا...» فحمد الله معاوية وأثنى عليه، ثم قال: «وما يمنعني من ذلك؟ والله لو أمكنت من ابن سمية ما قتلته بعثمان رضي الله عنه، ولكن كنت قاتله بناتل مولى عثمان، فقال شبت: «والله الأرض والله السماء، ما عدلت معتدلا، لا والذي لا إله إلا هو لا تصل إلى عمار حتى تندر الهام عن كواهل الأقوام

\* حرجت: لحقني حرج، أي أثمت.

1- السابق: ص: 195.

2- نفسه: ص. ن.

3- ففي الحديث الصحيح: "استعن بالله ولا تعجز فإن أصابك أمر فقل قدر الله وما شاء فعل، ولا تقل لو أني فعلت لكان كذا فإن لو تفتح عمل الشيطان". ابن كثير (إسماعيل بن عمر): تفسير القرآن العظيم، تح: سامي محمد بن سلامة، دار طبية للنشر والتوزيع، ط2، 1999، ج7، ص: 484.

وتضيّق الأرض الفضاء عليك برحبها» فقال له معاوية: «إنه لو قد كان ذلك كانت الأرض عليك أضيق» وتفرق القوم عن معاوية<sup>(1)</sup>.

إن الذي غيّر مجرى الحوار، وأعطاه منحى تصاعديا، وجعل المتخاطبين، يتفرقون، والمجلس ينفض، هو استعمال معاوية للحرف "لو" بمعناه التوقعي، ما جعل الحضور يغرقون في بحور من الدماء، والهام المتطائرة، التي ملأت عليهم الأرض بما رحبت، وضاق عليهم فضاءها الواسع، وما استعانة معاوية بقوة "لو" التعليقية، التوقعية، إلا لتيقنه من كفاءة المخاطب اللغوية والتداولية، ولذلك أراد أن يخرج الخطاب من طابعه الثنائي على علي بن أبي طالب، الوعظي له، إلى مجال أرحب، يظهر الصراع، في مظهر لا ديني، مستند إلى وقائع، وإحن، وتاريخ غير بعيد، كان فيه (عمار بن ياسر) عبدا مملوكا، لا يساوي عند القرشيين، وبني أمية شيئا، لولا تغير المقاييس، وتبدل الموازين، واحتكام المسلمين إلى «إن أكرمكم عند الله أتقاكم» بدل «التعظم بالآباء، والأنساب، وما أذهب الله عنهم من نخوة الجاهلية».

وقد أدرك ذلك، بعد أن نفث في روعهم ما كان مختزنا في "لو"، وخبرها، سعيًا منه إلى إغراء بعضهم بالإمرة، إن هو نصره وعشيرته<sup>(2)</sup>.

ومن أشكال الخطاب، التي يؤدّي فيها دور تلميح، ذو أثر توبيخي، تلك التي تستعين بـ(لولا)، كقول علي بن أبي طالب للمنهزمين في ميمنة جيشه يوم صفين<sup>(3)</sup>: «...فلولا إقبالكم بعد إدباركم وكرمكم بعد انخيازكم، وجب عليكم ما وجب على المولى يوم الزحف دُبره، وكنتم من الهالكين...».

يحمل هذا الخطاب، وصفين متناقضين أحدهما كائن، والآخر يمكن أن يكون، والفضل في التركيب والتوليف بينهما في الخطاب، راجع إلى وظيفة "لولا" وهي مثل "لو" إلا أنها

1- الجمهرة: ص ص: 159-185.

2- فبعد أن خرجوا من عنده، بعث معاوية إلى زياد ابن خصيفة التميمي، فخلا به، وعرض عليه أن يختار أي المصريين أراد، إن هو نصره وعشيرته، ينظر: نفسه، ص.ن.

3- نفسه، ص: 185.

تدخل على «جملتين اسمية وفعلية لربط امتناع الثانية بوجود الأولى»<sup>(1)</sup>.

وقد وظفها علي بن أبي طالب، ليلقي في نفوس هؤلاء المنكشفين، حقيقة ما طوعت لهم، وهو ما اقترفته أيديهم، حتى تساوا مع الهالكين، ولحقهم عار المولّين لولا ثوبهم، وكرهم بعد فرهم.

ومن أدوات الاستفهام التي أدت معنى "التكنية" في الخطاب، وتضمنت معنى "التلميح" قول الزرقاء بنت عدي تحض جند عليّ يوم صفين: «... فلا يجهلن أحد فيقول: كيف وأنى؟ ليقضي الله أمرا كان مفعولا»<sup>(2)</sup>.

ففي استعمالها اسمي الاستفهام "كيف" و"أنى" إيهام يعادل ما في أسماء الكناية من معنى مبهم عن حديث أو فعل، وإن كانا خارجين عن أحدهما<sup>(3)</sup> إذ استعملتها (الزرقاء) «كناية عن بعض المبهمات التي يقصد المرسل عدم تحديدها»<sup>(4)</sup>، تقصد ما يجول في خواطر هؤلاء، المتدافعين حيال ما هم فيه من تناحر وتقاتل، على الرغم من أنهم مسلمون، لا يرفع أحدهم السيف إلا وهو ينادي بأعلى صوته "الله أكبر" بينما يدعي كل واحد منهم أنه على حق، وأن غيره ضال، يستحق القتل، ولذلك أرادت أن تلمح إلى كل هذه المبهمات المختلجة في الصدور باستعمال هذين الاسمين "كيف وأنى".

1- قلاقي (إبراهيم): قصة الإعراب، ص: 318.

2- الجمهرة، ص: 197.

3- ألفاظ الكناية: أسماء مبهمة يكتفى بها عن عدد مبهم أو حديث أو فعل وهي: كم الاستفهامية وكم الخبرية، وكأين وكذا وكيف، وذيت وفلان وفلانة، ينظر: قلاقي (إبراهيم)، قصة الإعراب، ص: 146.

4- الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 386.

\* إلحاق هذين الاسمين وما في معناهما، بألفاظ الكناية، اجتهد شخصي، مستمد من وظيفة هذين العنصرين تداوليا، من حيث هما "مركب" أفاد التلميح إلى معنى في الخطاب هو "التردد والتساؤل والتحير" ولهذا الاستعمال ما يقوّيه، وهو قول المتنبي: أمط عنك تشبيهي بما وكأنه \*\*\* فما أحد فوقي وما أحد مثلي، الديوان، شرح الواحدي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ص: 32-33، وفيه "حكى ابن جني عن أبي الطيب أنه كان يقول في تفسير بما وكأنه أن ما سبب للتشبيه، لأن القائل إذا قال لآخر بم تشبه هذا قال له الجيب كأنه الأسد... فذكر السبب والمسبب"، نفسه، ص: 32، فكأنه كنى عن كثرة ما يشبه به بهذين الحرفين، تلميحاً، ومنه جوزنا إلحاق كل ما كان في هذا المعنى، من الألفاظ التي لا يقصد بها، ظاهر معناها، وإنما يقصد بها ما تلمح إليه، وهي أشبه ما يكون بمفهوم "التعبير الاصطلاحي" الذي سيأتي بيانه أو ما يسميه المتوكل بالتحجر، ويكون - حسب - في المفرد==كما يكون في المركب، مثل ما حصل للأفعال أصبح وأمسى وأضحى التي كانت تدل حين كانت محمولات تامة على

كما يمكن للمرسل التعبير عن القصد باستعمال بعض «العبارات الإنجازية»<sup>(1)</sup> ذات السمة التأشيرية والتي يمكن أن تدرج ضمن ما سماه (أحمد المتوكل) "بالمكونات الضواحي"، وهي مجموعة إجراءات تمكن المتكلم من بناء خطابه وضمان تلقيه، وهي ثلاثة أصناف: الفواتح، والنواقل، والخواتم<sup>(2)</sup> فمما يلحظ على خطابات فترة صدر الإسلام، «أنها اتخذت نهجا خاصا في البدء والختام، فأغلب بداياتها كانت بحمد الله والصلاة والسلام على النبي محمد... وأغلب نهاياتها كانت بالاستغفار، كأن يقول الخطيب: «وأستغفر الله لي ولكم» أما الخطب التي لم تكن تبدأ بهذه البدايات فكانت تسمى البتراء»<sup>(3)</sup>.

وقد صار هذا النهج سننا دأب عليه الخطباء فيما بعد، على اختلاف مواضيع خطبهم. إن المستقرئ لحضور هذه المؤشرات الخطابية، في المدونة، يحصل دون عناء، قيمة هذه المكونات في تحقيق الفعل التواصل من جهة، باعتباره قائما على التعاون والتفاعل، فليجأ المتكلم إلى هذه العبارات ذات الحمولة الإنجازية، ليدفع المخاطب إلى التهيؤ، والتنبه واستجماع آليات التخاطب، بالإضافة إلى ما تقوم به من إيصال لمقاصد المرسل من طريق خفي، بالاعتماد على التلميح، والتكنية.

ومن العبارات الإنجازية ذات الوظيفة الاستفتاحية، قول المرسل "الحمد لله"<sup>(4)</sup> وهي عبارة استهلاكية، تؤذن بافتتاح خطاب جديد، أو مقطع منه، وتحمل بعدا تلميحيا للمخاطبين بشروع المتكلم في إيقاع أسباب التواصل، ورغبته في حصول فائدته، بتحقيق شروط نجاحه، من حسن استماع، وإقبال، أو اجتماع، وهيئ، كما في الافتتاح بألفاظ الحمد، بتحضير نفسي

الدخول في الصباح والدخول في المساء والدخول في الضحى على التوالي، بفقدانها السمتين الأساسيتين للمحمولية، الدلالة على فحوى معجمي والدلالة على واقعة، تصبح هذه الأفعال مجرد أفعال ناقصة"، المتوكل (أحمد): قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية... دار الأمان، الرباط - المغرب، 1995، ص: 27.

1- هذه الصياغة، شخصية، تحيل إلى ما هو دون الأفعال، وفوق الظروف، وتشمل كل العبارات والصيغ التي تستعمل مقاميا، أو تداوليا، بنية الإلماح إلى ابتداء أو انتهاء الزمن الخطابي أو الفعل التواصل.

2- ينظر: المتوكل (أحمد): التركيبات الوظيفية قضايا أو مقاربات، دار الأمان للنشر والتوزيع، ط1، 2005، الرباط - المغرب، ص: 79-80.

3- المعوش (سالم): القواعد المعرفية الإسلامية في أدب صدر الإسلام، ص: 287.

4- ينظر: الجمهرة: ص ص: 55، 56، 57، 61، 62، 63، 98، ...

للمخاطب، بما يقع في نفسه من التفاؤل، والانسراح، وتوقع الخيرية في المتلفظ به، على اعتبار ما استقر في استعمال المخاطبين من الأعراف اللغوية والتداولية والاجتماعية والشرعية<sup>(1)</sup>، وما ترسب وتراكم في ترمساتهم، وكفاءاتهم.

وتكاد تغطي هذه "المركبة" على خطابات العصر، وتطبعه بطابعها الافتتاحي الخاص، ونجد في المقابل، عبارات إنجازية، يوظفها الخطيب غالباً ليعلن انتهاء خطابه، وانقطاع دوره في الإرسال منها:

- الاستغفار والدعاء، كقول عبد الرحمن بن عوف: «أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم»<sup>(2)</sup>، والزيير بن العوام: «... ولا حول ولا قوة إلا بالله وأستغفر الله لي ولكم»<sup>(3)</sup>، وخطاب سعد بن أبي وقاص: «وعلى الله قصد السبيل وإليه الرجوع، وأستغفر الله لي ولكم وأعوذ بالله من مخالفتكم»<sup>(4)</sup>.

كما لجأ بعض خطباء الفترة، إلى قطع التواصل، بعد الاستشهاد أو التضمين، من القرآن أو الشعر، كما فعل علي بن أبي طالب - مثلاً - والسيدة عائشة، وعثمان والحسن بن علي حتى أضحي التضمين علامة سيميائية ترتبط بالفراغ من الكلام، وقطعه<sup>(5)</sup>، ويحمل تعبيراً تلميحياً إلى نية المتكلم في إنهاء خطابه، ويشكل مؤشراً واضحاً على البعد الإستراتيجي لتوظيفه من لدن المخاطبين، مما يشي بحصول اتفاق عرقي مضمّر بين أفراد الجماعة اللغوية في صدر الإسلام، آثرنا أن لا نتجاوزه في هذا السياق.

## ب- الأفعال اللغوية غير المباشرة:

هي التي ينجزها المرسل معتمداً على أفعال لغوية أخرى، إذا ما قرر تبطين مقاصده، أو

1- فسورة "التوبة" مثلاً، لم تستفتح بسم الله الرحمن الرحيم، إذانا بما فيها غضب، وقسوة، وعذاب للمخاطبين المقصودين بها، ينظر: ابن عاشور(الطاهر): التحرير والتنوير، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت - لبنان، ط1، 2000، ج10، ص:11.

2- الجمهرة، ص:98.

3- نفسه، ص:99.

4- نفسه، ص.ن.

5- ينظر: نفسه: ص ص:100-101 خطبة (102 - 103)، 128-153.

الإشارة إلى غرض ضمني يفرضه السياق التخاطبي، فقد يتلفظ بعبارته اللغوية ليؤدي بها بالضبط ما يريد أن يقول، أو أن يريد قول شيء آخر تتضمنه، أو تلمح إليه، وهكذا «ينزلق تحت العشب الأخضر ثعبان السخرية والإيماء، والتلميح ومضمرة الالتباس والمعاني المزدوجة... [و] يجتمع التأدب الرهيف والتهكم الماكر وتكون طبقة لهذه الحالات عند أولئك الذين يتلفظ أحدهم بجملة، يريد أن يقول بها بالضبط ما يقول، ويريد أن يقول كذلك شيئاً آخر»<sup>(1)</sup>.

يعتمد المرسل في انتهاجه هذا النهج التلمحي، غير المباشر، على الأفعال، وعلى خلفية المقام المشتركة اللسانية، وغير اللسانية، كما يستدعي -حسب غرايس- «المبادئ العامة للتعاون العرفي» وعلى خلفية إخبار... متقاسمة بين المرسل والمرسل إليه<sup>(2)</sup>.

يقترح (غرايس) في هذا الصدد تنميطة للعبارات اللغوية على أساس ما تقوم عليه من حمولات دلالية، صريحة وغير صريحة؛ أما الصريحة من المعاني، فهي «المدلول عليها بصيغة الجملة ذاتها وتشمل:

- المحتوى القضوي: وهو مجموع معاني مفردات الجملة مضموم بعضها إلى بعض في علاقة إسناد.

- القوة الإنجازية الحرفية: وهي القوة الدلالية المؤشر لها بأدوات تصنع الجملة بصيغة أسلوبية ما: كالاستفهام، والأمر والنهي والتوكيد والنداء إلخ.

والمعاني الضمنية: هي المعاني التي لا تدل عليها صيغة الجملة بالضرورة ولكن للسياق دخلا في تحديدها والتوجيه إليها وتشمل ما يلي:

- معاني عرفية: وهي الدلالات التي ترتبط بالجملة ارتباطاً أصلاً، وتلازم الجملة ملازمة في مقام معين مثل معنى الاقتضاء.

- معاني حوارية: وهي التي تتولد طبقاً للمقامات التي تنجز فيها الجملة مثل الدلالة

1-أرمينكو (فرانسواز): المقاربة التداولية، ترجمة: سعيد علوش، ص: 71.

2-ينظر: نفسه، ص: 72.

الاستلزامية»<sup>(1)</sup>.

إن هذا المسلك - وإن بدا مجدياً- ينطوي على مخاطر جارفة، إذا لم يحسن استثمار المعطيات السياقية المرجحة للمقاصد\* والتي ما تنفك تخضع لقواعد استلزامية واضحة، تضبط العلاقة الحرجة، بين المعنى الصريح، والمعنى المستلزم<sup>(2)</sup>.

ويجري اكتشاف مضمون هذا المعنى المستلزم، عبر خطاطة عامة تمر بالآتي:

أ- تكلم المتكلم كلاماً.

ب- ليست لدى المخاطب أسباب تجعله يفترض أن المتكلم لا يستحضر القواعد التخاطبية.

ج- افتراض احترام المتكلم مبدأ التعاون والقواعد المتفرعة عنه، يستلزم أنه يعتقد المعنى الذي توصل إليه المخاطب.

د- يعرف المتكلم أن المخاطب يدرك أنه من الضروري الافتراض بأن - المتكلم - يعتقد المعنى الذي توصل إليه المخاطب.

هـ- لم يقيم المتكلم بما يوحي للمخاطب بأنه على خطأ في ما توصل إليه .

و- يريد المتكلم إذن من المخاطب اعتقاد هذا المعنى.

ز- قام المتكلم بإظهار هذا المعنى<sup>(3)</sup>.

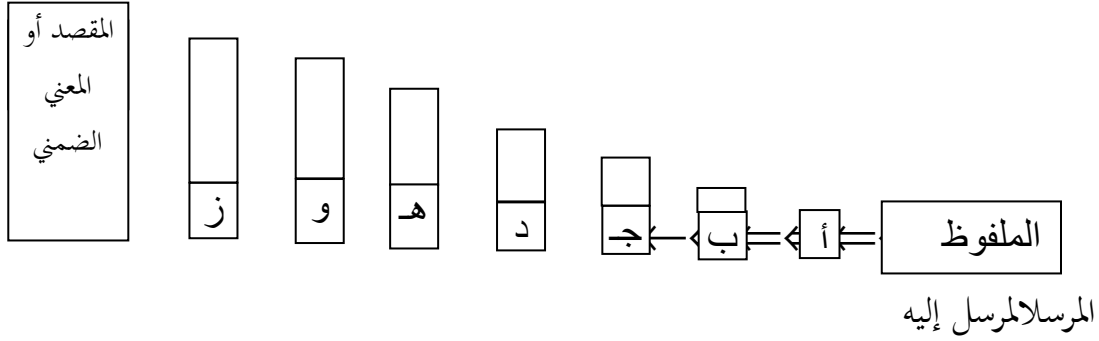
1- صحراوي (مسعود): التداولية عند العلماء العرب، ص ص:34-35، وينظر: مع بعض الاختلاف في التقسيم والاصطلاح، محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص ص:26-40، وفرانسواز أرمينكو: المقاربة التداولية، ص ص:60-71، وعبد بليغ: التداولية البعد الثالث في سيميوطيقا مورييس، ص ص:154-172.

\* وهو ما أشار إليه المتوكل، في كتابه: دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفية، منشورات دار الثقافة، الدار البيضاء - المغرب، دط، 1986، ص ص:93-103، حين ربط بين جهود الغرب وجهود السكاكي.

2- ينظر: اجعيط (نور الدين): تداوليات الخطاب السياسي، ص ص:77-80، وينظر أيضاً: أرمينكو (فرانسواز): المقاربة التداولية، ص:55.

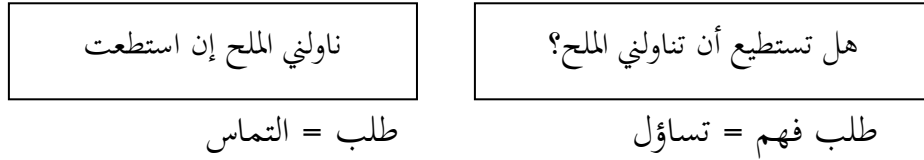
3- ينظر: اجعيط (نور الدين): تداوليات الخطاب السياسي، ص:78.

ويمكن تمثيله في المخطط الآتي:



### مخطط يبين مراحل تشكل المعنى بين المرسل والمرسل إليه

إن تحديد المعاني الضمنية، لعبارة ما والكشف عن مضمراتها، لا بد أن يمر بسلسلة من الاستدلالات والاستنتاجات المتولدة عن السياق وعناصره المتداخلة، فلا يحصل الفهم أو الإبانة عن القصد إلا بمساعدة المحيط الفيزيقي المباشر<sup>(1)</sup> والأقوال السابقة، والعقائد والفرضيات، والذكريات، وافتراضات حول الحالة الذهنية للمتكلم... وغيرها، مما نسميه سياقاً عاماً أو معرفة موسوعية، وهنا نعاود التذكير بما قلناه عن الشروط التمهيدية السيرلية (نسبة لسيرل) حيث يتم الانتقال من الفعل المباشر إلى الفعل غير المباشر (كما في مثال: هل تستطيع أن تناولني الملح؟).



فقد تم الانتقال من الاستفهام إلى الالتماس، أي من الأفعال المباشرة إلى الأفعال غير المباشرة اعتماداً على مبادئ غرايس والتي شكلت امتداداً لما ذهب إليه سيرل قبله<sup>(2)</sup>.

لقد قاد هذا التمييز بين صنفَي الأفعال السابقين، (سيرل) إلى وضع تعريف دقيق للأفعال اللغوية غير المباشرة، أورده (يول) و(براون) اعتبرها فيه: «تلك الحالات التي يتم فيها

1- عشير (عبد السلام): عندما نتواصل نغير، ص: 59.

2- ينظر: صحراوي (مسعود): التداولية عند العلماء العرب، ص: 114، وآن رويول وحاك موثلار: التداولية اليوم علم جديد... ص: 268.

إنجاز عمل، دال، معين، بشكل مباشر، عن طريق إنجاز عمل آخر»<sup>(1)</sup>.

وتصحب هذه الأفعال قوتان:

- قوة إنجازية حرفية: مدلولها عليها بصيغة العبارة نفسها.
- وقوة إنجازية ضمنية: وفيها يحمل القول - في سياق معين - قوة إنجازية مخالفة للقوة الإنجازية المؤشر لها حرفيا.

إن بسط الحديث في جهود المدرسة الغربية إزاء الأفعال اللغوية، يفرض علينا من باب أولى ذكر بعض الجهود العربية التي لا تختلف عما سقناه، إلا من حيث التسميات، إذ تُعتبر ما تخرج إليه الصيغ الحرفية من معانٍ متضمنة، أغراضا بلاغية عند بلاغيينا القدامى، ووظائف تواصلية عند الوظيفيين المعاصرين، وأفعالا متضمنة في القول بتعبير التداولين<sup>(2)</sup>، ومن ثم ظهرت في الساحة العربية الحديثة والمعاصرة، بحوث تأصيلية\* بعثت جوانب هامة من التراث البلاغي واللغوي والنقدي، مسترشدة بمعالم النظريات الغربية، ومنظومتها المنهجية والمصطلحية، متبعة مسلك (القرض والاقتراض) - على حد تعبير أحمد المتوكل - أو التحوار «بين الفكر اللغوي العربي القديم والنحو الوظيفي»<sup>(3)</sup>.

ومما ينبغي ذكره في هذه العجالة، أن العرب تنبهوا إلى قانون الطلب، فهذا السكاكي - أحد قامات البلاغة العربية تنظيرا - يحصر الطلب في خمسة أبواب هي: التمني والاستفهام والأمر والنهي والنداء، ثم يذكر ما يتولد منها من معانٍ أصلية، وغير أصلية، بحسب ما يقتضيه المقام<sup>(4)</sup>، وقد تابعه صاحب التلخيص، وشرّحه فيما ذهب إليه حتى صار من الجمع عليه في

1- براون ويول: تحليل الخطاب، ترجمة: الزليطي والتركلي، ص: 116.

2- ينظر: صحراوي (مسعود): التداولية عند العلماء العرب، ص: 116.

\* من هذه البحوث الجادة: إنتاجات المتوكل الرائدة خاصة كتابه "دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي" الذي ربط فيه بين جهود الغرب ومقترحات السكاكي في ما يخص أفعال الكلام. بالإضافة إلى صحراوي (مسعود)، (التداولية عند العلماء العرب)، ونحلة (محمود أحمد) الذي أفرد جزءا في كتابه (آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر) أسماء: نحو نظرية عربية لأفعال الكلام.

3- المتوكل (أحمد): الوظائف التداولية في اللغة العربية، ص: 10.

4- ينظر: السكاكي (أبو يعقوب يوسف بن محمد بن علي): مفتاح العلوم، تح: عبد الحميد هنداي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 2000، ص: 414-417. والخطيب القزويني: الإيضاح، ص: 81-89، وللاستزادة في الباب ينظر: حسام أحمد قاسم: تحويلات الطلب ومحددات الدلالة.

الدراسات البلاغية القديمة والحديثة<sup>(1)</sup>.

وذكر (عبد الهادي بن ظافر الشهري) جهودا خاصة للرازي وابن جني في رصد «التحويلات التي يقصد إليها المرسل في الأفعال اللغوية ببعض الأدوات والأساليب»<sup>(2)</sup> ودور التنعيم بوصفه مؤشرا دقيقا للتفريق بين دلالات الأفعال اللغوية في الخطاب الشفهي<sup>(3)</sup>.

وللسيوطي في كتابه "الإتقان في علوم القرآن" تفصيل لا ينكر في تعدد معاني الكلمات وخروجها عن أصل وضعها أثناء الاستنتاج أو التأويل أو التفهم، وذكر في باب الاستفهام، مؤلفا لابن الصائغ عنوانه "روض الأفهام في أقسام الاستفهام" لعله اعتمد عليه فيما أورده من أغراض ومعاني متضمنة<sup>(4)</sup>.

وسنحاول فيما يلي تتبع أثر الأفعال اللغوية في خطابات صدر الإسلام، بحثا عن المعاني الثاوية، والمقاصد غير المباشرة، التي تضمنتها، مستعينين بكل الآليات التي تكفلها الإستراتيجية التلميحية في هذا المقام مكثفين بنماذج تحيل إلى طبيعة استعمال الخطباء لهذه الوسائل ودورها في الإبانة عن مقاصد المتخاطبين.

إن بإمكان المرسل أن ينجز بعض الأفعال اللغوية بالاعتماد على «الثنائيات المتضادة التي تنتمي على صنف واحد» كالجمع بين إنجاز الأمر والنهي معا بالتلفظ بهما، لأنهما في الأصل متلازمان فالأمر بالشيء نهي عن ضده<sup>(5)</sup>، كقوله ﷺ: «أحبوا من أحب الله...»<sup>(6)</sup> يستلزم لا تحبوا من أبغض الله...

1- ينظر الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 389 - 391. وحسام أحمد قاسم: تحويلات الطلب... ص: 18-33، وفيها ذكر أشهر من تناول الطلب من القدماء مع تفصيل اختلافاتهم ومذاهبهم... فليراجع.

2- ينظر الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 391.

3- ينظر: حسان (تمام): اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء - المغرب، دط، 1994، ص: 304-310، فيه تفصيل مفيد حول النبر والتنعيم وارتباطهما بالأداء في السياق.

4- ينظر: السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن): الإتقان في علوم القرآن، وبالهامش إعجاز القرآن للباقلاني (أبي بكر)، عالم الكتب، بيروت - لبنان، دط، دت، ج2، ص: 79.

5- الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 390.

6- الجمهرة، ص: 53.

وهكذا ينطوي كل فعل، أو طلب ترك، على ما يضاده، ما يتيح للمرسل إنجاز أفعال لغوية متعددة في آنٍ معاً، دون أن يخشى وقوع المرسل إليه في لبس.

وتظهر هذه المقدرة الأدائية في خطاب النبي الآتي:

«ألا ولا يؤمّ أعرابي مهاجراً، ألا ولا يؤمّ فاجر مؤمناً...»<sup>(1)</sup>. ففي هذا الخطاب، معنى آخر مستلزم، يقابله مؤداه: «فليؤم المهاجر الأعرابي، والمؤمن الفاجر»، وتبدو فاعلية هذا التبادل بصورة أوضح في الخطابات الوعظية التي تعتمد على إثارة معانٍ متباينة، تقف بالمرسل إليه على طرفي النقيض، وتدفعه إلى التفكير والتأمل كخطاب عثمان الواعظ، بعد أن عقدت له البيعة حيث يقول: «... فلا تركنوا إلى الدنيا ولا تثقوا بها فإنها ليست بثقة...»<sup>(2)</sup> فمع، هذا الكلام، كلام محايث له، يسايره في الاتجاه ولكن ينافيه في المعنى، فكأنه يقول لهم في آن معاً.

- لا تركنوا إلى الدنيا، واركنوا إلى الآخرة.

- ولا تثقوا بها فإنها ليست بثقة، وثقوا بالآخرة فإنها ثقة.

والمعنيان معاً، كفيلاّن بإيضاح قصد المرسل، وتثبيته لدى المرسل إليه، لما فيهما من قوة إنجازية مضاعفة، وآليات متنوعة.

ولهذا التبادل وجه آخر، عند أبي موسى الأشعري في قوله: «أطيعوني تكونوا جراثومة العرب...»<sup>(3)</sup> سعى به إلى إنشاء حزب محايد - بادئ الأمر - غير منحاز إلى إحدى الفئتين المتصارعتين، واستغل ما في هذا الأسلوب من المعاني المتضمنة، التي يقود بعضها إلى بعض ليثبت به ولايته على الكوفة، ويمهد لفكرة الإرجاء، إلى أن تنكشف حجب الفتنة، ويتبين المسلمون الخيط الأبيض، من الخيط الأسود من الحق.

وقد سبقت الإشارة، إلى قول يزيد بن قيس مخاطباً معاوية: «... فاتق الله يا معاوية، وتخالف علياً»<sup>(4)</sup>.

1- السابق: ص. ن.

2- نفسه: ص: 101.

3- نفسه: ص: 132.

4- نفسه: ص: 157.

وما ينطوي تحته من معاني الإقرار بحقه - أي علي - في الخلافة، وهو تلميح فيه ما فيه من البلاغة، وحسن التوصل إلى الغاية، وإيصال القصد مع التأدب؛ لما تجنب فيه من الأمر المباشر، وعدل عنه إلى النهي، وهو أهون على المخاطب من الأمر، ثم تصريحه باسميهما، معا، "معاوية، علي" دلالة على وقوفه موقف الحكم، والناصح المبتغي الحق.

اتق الله فلا تتجرأ على الله

لا تخالف علياً موافق عليا

ففي الخطاب تلميح إلى أن مخالفة علي من الجرأة على الله، بناءً على أن عليا خليفة الله، ومعاوية منازعه فيها، وجعل بعد ذلك، موافقة علي وإطاعته، من تقوى الله وإطاعته، وإن كان محل هذا الكلام غير هذا الفصل، وسيأتي بيانه فيما يلي من مباحث إن شاء الله.

ومن الدلالات المستلزمة التي يؤديها "الاستفهام" بالهمزة خصوصاً، التقرير، فيظهر حينئذ الأداء اللغوي في جانبين هما: التعامل والإفصاح\* (التفاعل) «أما التعامل فهو استخدام اللغة بقصد التأثير في البيئة الطبيعية أو الاجتماعية المحيطة بالفرد»<sup>(1)</sup> كالبيع وال شراء، والتعليم، والخطابة والسياسة والتعليق الإذاعي وغيرها.

وأما الدلالات التفاعلية، فهي التي تبرز أن قصد المتكلم بها، هم التعبير عن انفعالاته ومن ثم فاللغة هنا وفق مخطط جاكبسون التواصل، تتجه إلى المرسل، ووظيفتها انفعالية، بينما تركز في الغاية الأولى على المخاطب ووظيفتها طلبية<sup>(2)</sup>.

وقسم البلاغيون التقرير إلى قسمين: التقرير بمعنى التحقيق والتثبيت، والتقرير بمعنى إلقاء المخاطب إلى الاعتراف وحمله على الإقرار وإلزامه إتياء لغرض من الأغراض، منها

\* هذا مصطلح استعمله تمام حسان، في مقابل (التفاعل). ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها، ص: 308-309.

1- براون ويول: تحليل الخطاب، ص: 9.

2- ينظر: سلدن (رامان): النظرية الأدبية المعاصرة، تر: جابر عصفور، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة-مصر، ط1، 1991، ص: 5.

التهكم، والتوبيخ، والتعجب، والوعيد...<sup>(1)</sup>

وذهب بعض الباحثين المتأخرين إلى جعله ثلاثة أقسام -أي التقرير- هي: ما يوجه لمنكر أو سالك مسلكه، وما يوجه لغير منكر على سبيل التذكير والتنبيه، والاستفهام التمهيدي وهو أن يقصد بتقرير الحكم، التمهيد للطلب بعده<sup>(2)</sup>.

ومن الخطابات التي لجأت إلى اتخاذ هذا الأسلوب وسيلة للوصول إلى المرسل إليه، خطاب النبي الذي يقول فيه على لسان ربه، وهو يخاطب العبد يوم القيامة: «...ثم يقولون له ربه وليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه: ألم يأتك رسولي فبلغك، وآتيتك مالا وأفضلت عليك، فما قدمت لنفسك؟»<sup>(3)</sup>.

فهذا الأسلوب أحد «الأساليب الذكية، غير المباشرة [التي تجعل] المخاطب هو الذي يعبر بنفسه عن المعنى، أو يدركه بنفسه، ولو لم يعبر عنه بكلامه»<sup>(4)</sup>.

لأن المعاني التي تقع تحت الإشارة الخفية كثيرة جداً، لا حصر لها، لكن يمكن استحضارها إلى مقام التواصل بالاستفهام عنها، «بغية استدراج المخاطب لإدراكها»<sup>(5)</sup>.

وقد ورد في الحديث اختيار الله لهذا الأسلوب في محاسبة عبده المؤمن، إذ «يدنو المؤمن حتى يضع عليه كنفه، فيقرره بذنوبه؛ تعرف ذنب كذا. يقول أعرف. يقول رب أعرف، مرتين فيقول سترتها في الدنيا وأغفرها لك اليوم...»<sup>(6)</sup>.

كما أن للتقرير قوة إنجازية تضمن الطابع الوظيفي، التفاعلي للخطاب، من ذلك، استدعاء الحقائق الماثلة أمام المخاطب، على أنها مسلمات لا بد أن ينطلق منها في إعادة فهم

1- ينظر: الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، ص: 84-87، وعبد السلام هارون: الأساليب الإنشائية، ص: 21، وينظر أيضاً: الميداني (عبد الرحمن حسن حبنكة)، البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، ص: 208-212.

2- ينظر: حسام أحمد قاسم: تحويلات الطلب ومحددات الدلالة، ص: 128-129.

3- الجمهرة، ص: 55.

4- الميداني (عبد الرحمن حسن حبنكة): البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، ص: 208.

5- نفسه: ص. ن.

6- البخاري (محمد بن إسماعيل بن إبراهيم): الجامع المسند الصحيح (صحيح البخاري)، تح: محمد زهير بن ناصر الناصر، ج 6، ص: 74، رقم الحديث 4685.

ما حوله من الأشياء، وهو يعزز الجانب الإدراكي للمرسل إليه، ويمده بقواعد لا تتزعزع حول العالم وما يحيط به، ولعل الكلام أن يحرفنا لإثبات الخاصية الحجاجية للاستفهام، إن نحن تجاوزنا هذه النقطة.

وقد تدخل الهمزة على الواو في كلام مثبت، أو منفي كقول عمرو بن العاص في خطبة له قبل الوقعة العظمى بصفين، يحرض أهل الشام - وقد كان منحيا على قوس- «...أولا تعلمون أن صلاتنا وصلاتهم، وصيامنا وصيامهم وحجنا وحجهم وقبلتهم وديننا ودينهم واحد؟ ولكن لأهواء مختلفة»<sup>(1)</sup>.

أي: قد تقرر عندكم العلم بهذه الأشياء، والعلم غير المعرفة، وذكر (سيبويه) «أن هذه الواو لا تدخل على ألف الاستفهام وتدخل عليها الألف...وقوله أولا تحدثنا إذا أردت التقرير»<sup>(2)</sup>.

إن الذي دفع (عمرا بن العاص) إلى هذا الأسلوب، علمه المسبق بما كان في أنفس المسلمين من الشك والريبة، وتعاضم أمر تقاطلهم، وهم جميعا على دين واحد، يصلون، ويصومون، ويحجون، ويستقبلون قبلة واحدة، فأراد أن يستثمر هذه المعرفة المشتركة ويمهد بها، ليبيّن عليها، حكما آخر، يهون به عليهم ما وقع في نفوسهم، وهو زعمه بأن جيش العراق استباح حرمة ديارهم، وبغى عليهم وانتهك حرمتهم<sup>(3)</sup>.

وقد يوالي المتكلم بين جمل استفهامية، فيأتي بها متتابعة، لإرادة التوكيد، وتثبيت الحكم المستخبر عنه؛ كقول (عقبة بن حديد النمري) لأهله وأصحابه يوم صفين، (وكان أشياخ علي): «...ألا وإني متعرض لها من ساعتى هذه، وقد طمعت ألاّ أحرما [يقصد الشهادة] فماذا تنتظرون عباد الله، بجهد من عادى الله؟ أخوفا من الموت القادم عليكم، الذاهب بأنفسكم لا محالة؟ أو من ضربة كف بالسيف؟ أتستبدلون الدنيا بالنظر في وجه الله عز وجل، ومرافقة النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين، في دار القرار؟ ما هذا بالرأي

1- الجمهرة، ص: 163.

2- سيبويه: الكتاب: ج3، ص: 187.

3- ينظر: الجمهرة، ص: 163.

السديد!«<sup>(1)</sup>.

فقد صاغ (عقبة بن حديد) خطابه من استفهامات مكررة، تباينت معانيها المضمنة، وإشاراتها، الملمح إليها، ما بين إظهار للتعجب، والإنكار، وربما يرجع سبب ذلك إلى تزاخم هذه المعاني في نفسه، وتواردها على قلبه، حتى لم يجد لها صورة لفظية غير صورة الاستفهام، الذي جسد به حيرته في ما يرى ويسمع، حيث صار الحق باطلاً والباطل حقاً، وطوحت بالمسلمين الأهواء، فغدا الحليم فيها حيراناً\*، وقد يتوخى المرسل هذا المسلك حين تدعو الحاجة البيانية الرفيعة لذلك<sup>(2)</sup>.

وقد تلتبس دلالة التعجب بدلالات أخرى، أشار إليها السبكي، وأكد عليها غير واحد من الباحثين، مما يجعل اكتشاف التعجب خاصة في أساليب الإنكار، يخفى ويدق لدرجة أن يستحيل لونا من ألوان الإنكار<sup>(3)</sup>، كما في الخطاب السابق، في قوله: «فما تنتظرون؟ عباد الله بجهد من عادى الله...».

فإن هذه الجملة "حبلى" بحمولات دلالية شتى، فما إن نتبين منها معنى، حتى يطالعنا منها معنى آخر قريب منه، أو مؤيد له، إذ فيها معنى التعجب، والإنكار، والحض، والتوبيخ، وإن كان التعجب بادياً من حيث هو المقصد الأول، والتعجب والتعجب من الأغراض اللصيقة بالإستفهام "بما"، لما فيها من إفادة الاستفهام عن مبهم، أو خفي وجد أثره<sup>(4)</sup> فكأنه يقول لهم: «إني لأعجب من تماطلكم وعجزكم في قتال هؤلاء، وقد تبين لكم ما يوجب ذلك، وقد يلحق الاستفهام التعجبي معنى التوبيخ، والتلويح، والتأنيب، والتفريع»<sup>(5)</sup>، لأن التعجب نفث في روع المخاطب، بعض معاني الدهشة، النابعة من الغرابة وعدم التوقع ومخالفة

1- السابق: ص: 187.

\* ما أحسن ما وصف به أبو موسى الأشعري حال المسلمين آنذاك حيث قال: "...إن الفتنة إذا أقبلت شبهت وإذا أدبرت بُينت، وإن هذه الفتنة باقرة، كداء البطن، تجري بها الشمال والجنوب، والصبا والدبور فتسكن أحياناً فلا يدري من أين تأتي تذر الحليم كابن أمس"، نفسه، ص: 131.

2- ينظر: الميداني (عبد الرحمن حسن حبنكة): البلاغة العربية...، ص: 215.

3- ينظر: حسام أحمد قاسم: تحويلات الطلب ومحددات الدلالة، ص: 143.

4- نفسه، ص: 146.

5- ينظر: الميداني (عبد الرحمن حسن حبنكة): البلاغة العربية...، ص: 215.

أمر معهود، تواطأ عليه العقلاء، وقد يكون كما ذكرنا لخباء السبب.

وهكذا تتمازج الإشارات التلميحية في أسلوب الاستفهام، «وتتداخل في أحيان كثيرة على نحو يجعله... أكثر أبواب الطلب تفلتا واستعصاء على محاولات التعيد لكيفية تولد دلالة الاستعمالية»<sup>(1)</sup>.

ويدور في فلك ما ذكرنا، قول خنث بن عبيدة بن خالد يوم صفين، حيث جعل ينادي أصحابه المنهزمين: «يا معشر قيس، أطاعة الشيطان آثر عندكم من طاعة الرحمن؟ ألا إن الفرار فيه معصية الله سبحانه وسخطه، وإن الصبر فيه طاعة الله عز وجل ورضوانه، أفتختارون سخط الله على رضوانه، ومعصيته على طاعته؟»<sup>(2)</sup>.

وعلى أية حال، فإن هذه النماذج، تؤكد الخاصية التلميحية للاستفهام خصوصا، وللأفعال غير المباشرة عموما، انطلاقا من الإفادة من علاقة المرسل بالمرسل إليه، بالإضافة إلى السياق العام المؤطر لها، وهنا يبدو خيار التلميح بدل التصريح، دليلا على كفاءة المرسل التداولية.

ويرى (سيرل) - كما مر بنا- في هذا الصدد أن المرسل يتواصل «بالأفعال اللغوية غير المباشرة مع المرسل إليه، بأكثر مما يتكلم به في الواقع، وذلك من خلال الاتكاء على خلفيتهم المعرفية المشتركة؛ اللغوية وغير اللغوية، بالإضافة إلى توظيف المرسل إليه لقدراته العامة العقلية والاستنتاجية»<sup>(3)</sup>، ولذلك عمد إلى تصنيف الجمل استنادا إلى عرقية استعمالها، مثل الطلب غير المباشر والتوجيه، بالأمر وجعلها في مجموعات منها:

1- ما يتعلق برغبة المرسل وأمنيته في أن ينجز المرسل إليه فعلا ما، كقول طلحة رضي الله عنه، وذكر عثمان رضي الله عنه وفضله والبلد وما استحل منه وعظم ما أتى إليه ودعا إلى الطلب بدمه، وقال: «...وأما الطلب بدم الخليفة المظلوم، فإنه حد من حدود الله، وإنكم إذا فعلتم أصبتم

1- حسام أحمد قاسم: تحويلات الطلب...، ص: 111.

2- الجمهرة، ص: 188.

3- الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 392.

وعاد أمركم إليكم، وإن تركتم لم يقم لكم سلطان، ولم يكن لكم نظام»<sup>(1)</sup>، فرغبته في أن يطلبوا بدم عثمان، وأن لا يخذلوه، جعلته يؤدي إليهم هذا المعنى من طريق التلميح، معتمدا على أفعال غير مباشرة، تومئ إلى المقصود دون أن تصرح به، ولعل سبب ذلك هو عدم امتلاكه لسلطة ما، تحول له حق الأمر والنهي والطلب عموما، على خلاف السيدة عائشة، التي تولدت لديها سلطة معينة، جراء أمومتها العامة للمسلمين، إذ نجدها في خطابها الآتي، أكثر إظهارا لقوة رغبتها، وشدة تعلقها بالقصد: «... ألا إن مما ينبغي، لا ينبغي لكم غيره، أخذ قتلة عثمان ﷺ، وإقامة كتاب الله عز وجل...»<sup>(2)</sup>.

فالمعنى المتضمن في هذا الخطاب، والذي إليه رمت عائشة رضي الله عنها، كان في الدلالة المسكوت عنها، للفعليين "ينبغي، ولا ينبغي" والتي تؤدي فعلا مستلزما هو اقتصوا لعثمان من قتلته إحقاقا لكتاب الله عز وجل.

ومن الأفعال غير المباشرة المتعلقة برغبة المرسل، أو شعوره قول القعقاع بن عمرو: «...أحب أن ترشدوا، ولأقولن لكم...»<sup>(3)</sup>.

فمن الجلي أنه أراد أن يتوصل إلى إنجاز أفعال توجيهية غير مباشرة، بتوظيف الفعل "أحب" وهو يضمّر "أطيعوني" أو "اسمعوا" مقالي وطبقوا ما فيها.

فهو «بهذا يطمح إلى صياغة قواعد منطقية لإنجاز فعل لغوي معين، بالتلفظ بفعل لغوي آخر»<sup>(4)</sup>، من خلال الربط بين الرغبة في حصول الطلب، وإخفاء صورته الحقيقية أو الأصلية وهي التي تتمثل في "الفعل" أو الصيغة الصريحة له، ما يعزز العلاقة الوطيدة بين التضمين والنشاط الخطابي كنشاط عقلي، يطبع سلوكنا بطابع حساس وأكثر تعقدا خاصة في حدود ما جاء به "غرايس" لتقعيد مبدئه الشهير «مبدأ التعاون الخطابي»<sup>(5)</sup>.

1- الجمهرة، ص: 127.

2- نفسه: ص: 128.

3- نفسه: ص: 132.

4- الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 393.

5- ينظر: أرمينكو (فرانسواز): المقاربة التداولية، ص: 53، 54، 55.

2- ما يتعلق برغبات المرسل إليه في القيام بفعل ما مثل هذا الخطاب غير المباشر لأُم الخير بنت الحريش لمعاوية: «...وأنا أسألك بحق الله يا معاوية أن تعفيني من هذه المسائل، وتسألني عما شئت من غيرها...»<sup>(1)</sup>.

فرغبة المرسل إليه، معاوية، هي محور هذا الالتماس المضمن، وإن أظهرت أم الخير أنها تريد تحقيق رغبتها، بصرفه عن موضوع بعينه، وكأنها توجهه إلى موضوع نقاش مشترك، يسهم في تمتين التواصل، بدل خوضه في مسائل تثير الكوامن، وتذكي الدفائن من الأحقاد والجراح.

فمن الطبيعي - إذن - في مثل هذه الطلبات المؤدبة أن نشهد بعض التضمينات التي تبرز الإستراتيجية التلميحية، في جانبها المتعلق بالإنجاز غير المباشر للأهداف والمقاصد، ولذلك يمكن القوم في ختام هذا العنصر، أن الترابط بين الأفعال الإنجازية والقوى الإنجازية المعبر عنها في البنية التحتية، يبلغ من القوة درجة تنصهر فيها المقاصد والأهداف، بين طرفي العملية التواصلية، وتتوحد، حتى يصعب التفريق بين حدود الطلب المباشر، وغير المباشر.

### ج- التعبير الاصطلاحي: (Idiomatic expression)

وهو مصطلح «يستخدم في علم النحو، وعلم المفردات، للدلالة على سلسلة الكلمات التي تتربط دلالياً، ونظمية أيضاً، في الغالب، ولهذا فإنها تؤدي وظيفتها على أساس أنها وحدة دلالية مفردة، ومن وجهة النظر الدلالية فإن المعاني المفردة لهذه الكلمات لا تستطيع أن تقدم لنا المعنى الإجمالي للتعبير الاصطلاحي»<sup>(2)</sup>.

ويقصد به أيضاً: «كل التعبيرات المكونة من تجمع من الكلمات يملك معاني حرفية، ومعنى غير حرفي، مثل التعبير العربي: ضرب كفا بكف الذي يحمل معنى تحيّر»<sup>(3)</sup> فهذه العبارات لا يفهم معناها الكلي بمجرد فهم معاني مفرداتها الجزئية، لأنها لا يحصل معنى من ورائها بضم بعضها إلى بعض، وتتصف بأنها ذات طبيعة تداولية بحتة لما توليه من اهتمام بالغ

1- الجمهرة، ص: 196.

2- جبل (عبد الكريم محمد حسن): في علم الدلالة، دراسة تطبيقية في شرح الأنباري للمفضليات، دار المعرفة الجامعية، القاهرة- مصر، دط، 1997، ص: 85.

3- أحمد مختار عمر: علم الدلالة، 1993، ص: 33.

لتمثيل المقام الذي تؤدّي فيه، بغض النظر عما يحدثه تجاوز وحداتها الصغرى من معانٍ جزئية، كما أنها تحيل إلى عدد لا متناهٍ من الاستعمالات المتشابهة في المجتمع اللغوي الواحد. وتستحضر في كل مرة يريد فيها المرسل أن يتواصل مع مخاطبيه تواصلًا فعالًا وسريعًا، وموجزًا بحيث ينوب اللجوء إليها عن كثير من الكلمات، لما لها من خلفية مركوزة في التراث الثقافي، والاجتماعي للمتخاطبين، وقد مر بنا آنفاء، وصف "أحمد المتوكل" لما هو مثلها من الصيغ القارّة "بالتحجر" في معرض حديثنا عن الألفاظ التي لا يقصد بها ظاهر معناها، وإنما يلمح بها إلى معانٍ أخرى تتضمنها أو تستلزمها.

يقول المتوكل شارحًا المراحل التي تمر بها الألفاظ والعبارات نحو التحجر: «...وتتسم هذه الظاهرة بسمات ثلاثة أساسية:

- 1- يتم التحجر في شكل مسلسل ذي مراحل متعددة [...].
- 2- يتم عبر مسلسل التحجر فقدان المفردة محتواها المعجمي جزئيًا أو كليًا [...].
- 3- تنتقل المفردة من وضع عنصر معجمي إلى وضع عنصر نحوي (صرفي - تركيبى)<sup>(1)</sup>.  
وتتميز في ضوء ما سبق بخصائص عامة أهمها:
- 1- «أن[التعبير الاصطلاحي] يحمل معنى أو معاني تختلف عن المعاني المعجمية للمفردات المؤلفة لها.
- 2- أنها تتميز بالثبات في التركيب والدلالة.
- 3- أنه يمكن الاستعاضة عنها بوحداث دلالية مفردة.
- 4- أنها صعبة الترجمة الحرفية من لغة إلى.... وذلك لارتباطها ببيئة الناطقين باللغة وثقافتهم<sup>(2)</sup>.

و مما يدخل تحت هذا الوصف، ويخضع لهذه الخصائص "الأمثال" لما لها من قيمة معنوية ماثورة، فهي حمالة لمعانٍ كثيرة غير مصرح بها، ذات دلالات إيحائية اكتسبتها بفعل

1- المتوكل (أحمد): قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية...، ص: 27.

2- كريم حسام الدين: التعبير الاصطلاحي، نقلا عن: جيل (عبد الكريم محمد حسن): في علم الدلالة دراسة تطبيقية في شرح الأنباري للمفصليات، ص: 58-86.

التراكم المعنوي الذي تأتي لها عبر ما أسماه المتوكل بمسلسل التحجر.

وقد ذكر ابن منظور أن العرب «تجري الأمثال على ما جاءت به»<sup>(1)</sup> حتى وإن كانت ملحونة، إجراءً لها على أصلها، وإبقاءً على دلالتها الأولى التي لأجلها ضربت (المورد).

ومن أمثلة هذا النوع من الأساليب، الخطاب الآتي:

«... فقال عمر- رادا على الحباب لما قال منا أمير ومنهم أمير-: «هيهات لا يجتمع اثنان في قرن...»»<sup>(2)</sup>.

فأصل هذا التعبير استحالة الجمع بين بعيرين، أو ما في حكمهما في جبل واحد، لما في ذلك من التنافر والاختلاف الشديد، مأخوذ من قولهم: «...أعطاه بعيرين في قرن، وفي قرن وهو جبل يُقرنان به»<sup>(3)</sup>، ثم أخذ معناه، فصار يلح به للجمع بين الشيئين اللذين لا توافق بينهما، وبهذا المعنى استعمله عمر رضي الله عنه، نافيا استقامة الرأي الداعي إلى استخلاف أميرين؛ أحدهما أنصاري والآخر مهاجري، وقد توخى بها هذا المعنى دون سواه، غير ملتفت لمعناها الحرفي، وإن ظلت محتفظة به، على سبيل دلالتها البعيدة الأولى (الحرفية)، وإن صار ينظر إليها على أنها تراكيب متحجرة، استقرت دلالاتها في المجتمع اللغوي، عبر مسلسل التحجر، مما أكسبها بعدا تداوليا، مرتبطا بالسياق الذي يُتلفظ بها فيه.

ومن شاكلة هذه التعابير الاصطلاحية، تلك التي تستعمل المثل لأداء القصد، تلميحاً، تماشياً مع ظروف المقام المتلفظ فيه، دون اعتبار مفهومها، أو حملتها المعنوية الحرفية، كقول معاوية لوفد علي وقد خوفوه بالحرب والطعان: «يا عدي، كلا والله، إني لابن حرب ما يقعقع لي بالشَّنَانِ»<sup>(4)</sup>، أخذه من قولهم: «الشَّنُّ والشُّنَّة، الخلق من كل آنية صنعت من جلد وجمعها شُنًا [...] وفي المثل لا يقعقع لي بالشنان، قال النابغة: كأنك من جمال بني أقيش يقعقع خلف

1- ابن منظور: لسان العرب، ج5، ص:3522، وينظر نفسه، ج5، ص:3379.

2- الجمهرة، ص:64.

3- الزمخشري (أبو القاسم، محمود بن عمر): أساس البلاغة، دار الفكر، دط، 1979، ص:505.

4- الجمهرة، ص:157.

رجليه بشن [...] وشنّت القرية تشنُّ إذا يبست»<sup>(1)</sup>، ثم لمح به إلى معنى آخر يحمله، وهو أنه بصير بالحقائق لا يروعه ما لا وجود له، أي أنه ذو تجارب، خبير، لا يخدع بمظاهر الأمور.

وقوله "لابن حرب" حمال وجهين، قد يكون قصده أنه مارس الحرب وهو بما عليم، ولها أهل، كما قد يُحمل قوله على ذكر نسبه الشريف، وأنه ماجد بن ماجد، جدُّه "حَرْبٌ"، ذو الخطر المعتبر في العرب عامة، وقريش خاصة.

قال ابن منظور: «فلان لا يقعق له بالشنان، أي لا يخدع ولا يروّع، أصله من تحريك الجلد اليابس للبعير ليفزع»<sup>(2)</sup>.

إن استعمال معاوية لآلية التعبير الاصطلاحي، من حيث هي إحدى ميزات الإستراتيجية التلميحية، نابع من معرفته الوافية، بالآثر الذي تحدثه في المتلقي، من خلال «معاشرته اللغوية لأبناء لغته، وهنا يتمحور الخطاب حول الكفاءة التداولية عند طرفي الخطاب، إذ يستطيع المرسل أن يعبر عن قصده، وهو يدرك أن المرسل إليه يدرك هذا القصد إدراكاً جيداً»<sup>(3)</sup> فيأخذ الخطاب حينها منحى جديداً، بما يفرضه من قواعد ذاتية نابعة من تأصل المعنى المتواضع عليه، وهيمته - في السياق - على المعنى الحرفي الأول، وهو ما يظهره خطاب عليٍّ لأصحابه: «فلا أعرفن أحدا منكم تقاعس عني وقال في غيري كفاية، فإن الذود إلى الذود إبل»<sup>(4)</sup>.

يظهر في هذا الخطاب، أن علياً عليه السلام، لم يوظف المثل إلا لأنه تتويج لسعيه إلى إصابة مقصده منه، وتبيان العلة من أمره ونهيّه، ولهذا تظهر العلاقة وطيدة بين المعنى المتواتر وبين المثل، أكثر منها في التعابير غير الاصطلاحية، ويمكن أن ندلل على ذلك باقتفاء أثر المعنى المضمن في المثل، لنبين مبلغ تحذره في سياق التخاطب، وفي أذهان المخاطبين، لأن بعض التراكيب آلف على الأسماع، والأفهام من بعض، فتكون في الاستعمال بمثابة الرسول الذي

1- ابن منظور: لسان العرب، ج4، ص: 2344.

2- نفسه: ج5، ص: 3695.

3- الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 403.

4- الجمهرة: ص: 152.

يصطفى من القوم ليبعث إليهم، لما لمعرفتهم به من تخفيف للمؤنة، وتيسير للمهمة.

إن قوله: «لا أعرفن أحدا منكم تقاعس عني، وقال في غيري كفاية...» خطاب مفصح عن المعنى، مؤد للمقصد، مفهم للغرض، ولكنه مع ذلك قاصر عن إيصال جريرة هذا التفكير السلبي، والمنطق التواكلي، الذي قد تبلى به الجماعات، في زمن الشدة، حينما يكون الفرد ذا قيمة معنوية لا تعدلها قيمة من سواه، وعندما تُفتقد وجوهه، لم يكن يؤبه لها وقت الدعة، فأراد عليٌّ أن يبلغ منهم مبلغا، يجعل به المعنى ماثلا بينهم، شاخصا ملء ثوبيه أمامهم، فما كان منه إلا أن استنجد بما في المثل من قوى إنجازية، تتكل على الكفاءة التداولية لكل من المرسل والمرسل إليه، بمعونة السياق فيتجلى المعنى بينها، شفافا<sup>(1)</sup>، سهلا، لا يثنيه عن بلوغ مكانه من المرسل إليه شيء، فالذود لفظ استقر معناه في عرف الجماعة اللغوية العربية، ليدل على ثلاث أئنيق (أبصرة) وكثيرا ما يقول أحدهم متمثلا "الذود إلى الذود إبل" أي: «القليل يُضم إلى القليل فيصير كثيرا»<sup>(2)</sup>.

وقد يجاوز توظيف التعبير الاصطلاحي، ما ورد عن العرب من أمثال، وحكم، ومسكوكات، إلى توظيف آية كريمة، أو حديث شريف، كقول علي في السياق نفسه: «...معاوية، وجنده، الفئة الطاغية، الباغية، يقودهم إبليس، ويبرق لهم ببارق تسويغه، ويدلّهم بغوره»<sup>(3)</sup>، إذ يومئ عليٌّ إلى أن معاوية مستدرج، من قبل إبليس، بما يبرق له من الأمائي، كما استدرج آدم عليه السلام وزوجه ﴿فَدَلَّهُمَا بِغُرُورٍ﴾<sup>(4)</sup>.

إن القيمة المستجدة التي يكتسبها الخطاب، عند تضمينه هذا الملفوظ، ذا الطبيعة

1- ينظر: أحمد مختار عمر: علم الدلالة، ص: 36 - 39.

2- ابن سيدة (أبو الحسن علي بن إسماعيل): المحكم والمحيط الأعظم، تح: عبد الحميد هندراوي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، دط، 2000، ج9، ص: 416. وينظر: الرازي (محمد بن أبي بكر): مختار الصحاح، تح: محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت - لبنان، دط، 1995، ص: 94. وينظر: مصطفى (إبراهيم وآخرون): المعجم الوسيط، تح: مجمع اللغة العربية، دار الدعوة، دط، دت، ص: 317.

3- الجمهرة، ص: 152.

4- قال تعالى في ذلك: ﴿فَدَلَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ الآية 22، من سورة الأعراف.

القدسية، تكمن في "ضغط المعاني" أو ما يسميه القدماء بالإيجاز بالقصر أو التلويح\* «وقالوا جميعاً هو أن يشار في فحوى الكلام إلى مثل سائر، أو شعر نادر، أو قصة مشهورة، من غير أن يذكرها جميعها»<sup>(1)</sup> كما فعل الإمام علي، حين ألمح إلى قصة آدم مع إبليس، دون أن يذكرها جميعها، ليوجه المتلقي إلى استرداد أحداثها وقص أثرها، ومقارنتها بموضوع الخطاب.

ومن التعابير الاصطلاحية التي تظهر قدرة مستعملي اللغة على طيّ مسافات شاسعة من المعاني المشتركة، والظفر بالمدلول، وخلق تقارب ثقافي، واجتماعي (سياقي بمفهومه العام) بينه وبين مخاطبيه، قول الحباب بن المنذر يوم السقيفة: «أنا جُذِلُهَا المِحْكُكُ، وعُذِيْقُهَا المَرْجَبُ...»<sup>(2)</sup> أي «عمادها وملجأها»<sup>(3)</sup>، وعنى بالجذيل «الأصل من الشجرة تحتك به الإبل فتشتفي به...» وقيل الجذل، هو العود الذي ينصب للإبل الجربي [...] وصغره من جهة المدح»<sup>(4)</sup> أراد أنه قد جربته الأمور، وله رأي، وعلم يستشفى بهما كما تستشفى الإبل الجريبيا بالجذيل، و«الرجبة شيء تسند به النخلة إذا مالت وكرمت على أهلها، والنخلة مرجبة»<sup>(5)</sup> وزاد ابن فارس «يريد [أي الحُبَاب] أنه يعوّل على رأيه كما تعوّل النخلة على الرجبة التي عمدت بها»<sup>(6)</sup> لأن الرءء والجيم والباء - عند صاحب المقاييس - «أصل يدل على دعم شيء بشيء وتقويته»<sup>(7)</sup>.

\* ويسمى كذلك الكناية التلويحية، ينظر: الكفوي: الكليات، ص: 762، وهو كذلك عند مخترعه الأول ابن المعتز "حسن التضمين" ووافقه قدامة بن جعفر وغيره، وسماه المطرزي وصاحب التلخيص "التمليح" بتقديم الميم وسماه الفخر الرازي في نهاية الإيجاز التلويح"، ينظر السابق، ص: 302.

1- نفسه: ص: نفسها.

2- الجمهرة، ص: 65.

3- الفراهيدي (الخليل بن أحمد): كتاب العين، تح: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، دط، دت، ج3، ص: 9.

4- ينظر: ابن منظور: لسان العرب، ج1، ص: 577، وج2/950، و3/1584، و4/2418، و2453، و2863، و3373/5.

5- ابن دريد الأزدي (أبو بكر محمد بن الحسن): جمهرة اللغة: تح: رمزي منير بعلبكي، دار الملايين، بيروت - لبنان، دط، 1987، ج1، ص: 666.

6- ابن فارس (أبو الحسين أحمد بن زكريا): اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الجليل، بيروت - لبنان، دط، 1999، ج2، ص: 495.

7- نفسه، صفحة نفسها.

إن ارتكاز خطاب الحباب بن المنذر على هذه الآلية التلميحية، يقرر في أذهاننا نظرة المرسل إلى التعبير الاصطلاحي، لا على أنه مأثور، ذا دلالة عتيقة، ترجع بأصولها إلى محيط سوسيو- ثقافي معين، أو إلى بيئة خاصة، لها عاداتها وتقاليدها وملاحمها وإنما يستعين به، ويستعمله قاصدا به معنى آخر يستلزمه، أو ينجر عنه، وهو فعل يظهر حقيقة أن اللغة «تشكل مجموعة من الخبرات اللغوية للمجتمع، والتي تراكمت عبر مراحل التاريخ»<sup>(1)</sup> غير أن هناك تفاوتاً اعتبارياً بين استعمال بعض هذه المعايير إذا ما عدنا إلى سبب تكوينها الأول، فالآلية -لا شك- أو الحديث له قوة إنجازية في السياق المقدس له، أكثر من المثل أو ما في حكمه، لكنها تبقى مع ذلك إحدى آليات الإستراتيجية التلميحية الأثيرية، لما تكتنزه من قدرات تواصلية لا يستغني عنها في المقامات العادية للغة.

#### د- التشبيه والاستعارة:

هما عند عبد القاهر الجرجاني كالأصل والفرع، أو العام والخاص، ف«(التشبيه) كالأصل في (الاستعارة)، وهي شبيه بالفرع له، أو صورة مقتضبة من صورته»<sup>(2)</sup> ولذلك آثرنا أن نجمل الحديث فيهما على الرغم من أنهما آليتان بلاغيتان تلميحيتان، لكل منهما أثرها في الخطاب. أمّا التشبيه فهو «أن تثبت لهذا معنى من معاني ذاك، أو حكما من أحكامه كإثباتك للرجل شجاعة الأسد وللحجة حكم النور...»<sup>(3)</sup>.

وأما الاستعارة فهي «في الجملة أن يكون للفظ أصل في الوضع اللغوي معروف، تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل، وينقله إليه نقلا غير لازم فيكون هناك كالعارية»<sup>(4)</sup>.

وهي لذلك «ضرب من التشبيه ونمط من التمثيل... والتشبيه قياس والقياس يجري فيما

1- منقول (عبد الجليل): علم الدلالة، أصوله ومباحثه في التراث العربي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق- سورية، دط، 2001، ص: 68.

2- الجرجاني (عبد القاهر): أسرار البلاغة، تقديم وتعليق عرفان مطرحي، ص: 37.

3- نفسه: ص: 77.

4- نفسه: ص: 38.

تعيه القلوب، وتدركه العقول وتستفتى فيه الأفهام والأذهان، لا الأسماع والآذان»<sup>(1)</sup>.

فالمعنى في الاستعارة لا يتصور بمجرد طرق اللفظ الأذن، وإنما يتبلور ويتشكل بعد أن يعرض على القلوب، والعقول، والأفهام. أي؛ بعد أن ينظر في دلالاته «ولا يمكن أن يتحقق ذلك حيث يكون الكلام على ظاهره، وحيث لا يكون هناك كناية وتمثيل به، ولا استعارة ولا استعانة في الجملة بمعنى على معنى، فلا تكون الدلالة على الغرض من مجرد اللفظ، وإنما ذلك إذا كان هناك اتساع ومجاز وحتى لا يراد من الألفاظ ظواهر ما وضعت له في اللغة ولكن يشار بمعانيها إلى معانٍ أخرى»<sup>(2)</sup>، وقد مرّ بنا ذكر مفهوم "معنى المعنى" عند عبد القاهر في بداية المبحث.

والتشبيه والتمثيل والاستعارة أصول كبيرة «كأن جل محاسن الكلام - إن لم نقل كلها - متفرعة عنها... وكأنها أقطاب تدور عليها المعاني في متصرفاتها»<sup>(3)</sup>. لما فيها من «لطف الوحي والتنبية»<sup>(4)</sup> على مراد المتكلم ومقصده.

ومن الدواعي التي تدفع بالمتكلم إلى توظيف التشبيه، والاستعارة، مراعاته لطبيعة المقام، وما يستلزمه من عدول عن الطريق المباشر في إيصال المعنى، ففي التشبيه من الطرق المتعددة، والصور الكثيرة، ما يعطي «المعبر البليغ، مجالا واسعا لانتقاء ما يراه أكثر تأثيرا فيمن يوجه له الكلام»<sup>(5)</sup> ولا يخفى كذلك، ما فيه - التشبيه - من سلوك طريق فذ في التواصل، لا يتأتى إلا للبلغاء، والموهوبين، خاصة في مجالات الأدب «وفي الموعظة، وفي كثير من صور الإقناع وفي نحو ذلك»<sup>(6)</sup>.

ومن صور الاستعانة بهما، في خطاب الوعظ، والإقناع، قول الرسول ﷺ: «أيها

1- السابق: ص: 29.

2- محمد عبد المطلب: البلاغة والأسلوبية، مكتبة لبنان ناشرون والشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان بيروت - لبنان والقاهرة - مصر، ط1، 1994، ص: 59.

3- الجرجاني: أسرار البلاغة، ص: 35.

4- نفسه، ص: 31.

5- الميداني (عبد الرحمن حسن حبنكة): البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، ص: 591.

6- نفسه: ص ن.

الناس كأن الموت فيها على غيرنا قد كتب، وكأن الحق فيها على غيرنا قد وجب وكأن الذي نشيع من الأموات سَفَر عما قليل إلينا راجعون نبؤهم أجداتهم ونأكل من تراثهم، كأنّا مخلدون بعدهم»<sup>(1)</sup>. ففي توالي هذه الصور التشبيهية، وتواردها على قلب المتلقي، ما يقرر فيه، حقائق كثيرة قد لا يؤديها اللفظ المطنب، خاصة قوله: «وكانّ الذي نشيع من الأموات سَفَر عما قليل إلينا راجعون...» وفي استعمال "كانّ" مزيد تأكيد على تجذر هذه الحقيقة في نفوس المخاطبين، لأن التشبيه بكانّ «أبلغ من التشبيه بالكاف، لأنها مركبة من الكاف وأنّ»<sup>(2)</sup>.

وأوضح من هذا الخطاب في الدلالة على المقصود بأوجز عبارة، وأقصر طريق قوله ﷺ، مجملا إحدى أعقد القضايا، وأشدّها إبهاما في عقول البشر: «والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون...»<sup>(3)</sup>.

ففي إلحاق الموت بالنوم من المعاني الدقيقة ما يحتاج إلى بسط، وتتبّع؛ منها، أن النوم حقيقة لا مرأى فيها، يدركها الناس على اختلاف أعمارهم، ومراتبهم، وعقولهم، ولا يشك أحد منهم في وقوعها جزما، ومنها أن النوم حال تغلب على الطباع، لا إرادة لهم عليها وكذلك الموت، ومنها تقريب صورة الأبعد (الموت) بصورة الأقرب (النوم)، وفيها إجابات كثيرة لأسئلة متشعبة، حول الروح، وكيف تفارق الجسد.. وعلى العموم يؤدي التشبيه أفكارا كثيرة «ودقيقة، هي مما يحتاج بيانه من غير طريق التشبيه كلاما كثيرا... فيدل عليها التشبيه بأخصر عبارة»<sup>(4)</sup>.

كما قد يعبر المتكلم عن قصده كذلك بآلية الاستعارة، لما تقدر على تجسيده من المعاني

1- الجمهرة: ص: 52.

2- الميداني (عبد الرحمن حسن حبنكة): البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، ص: 588، وينظر: القرطاجني (حازم): منهاج البغاء وسراج الأدباء، تح: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، ط3، 1986، ص: 390. وينظر كذلك لمزيد من التفصيل بين الكاف وكان: النجار (منال)، المقولات البلاغية دراسة مقامية، براغماتية، ضمن (التداوليات علم استعمال اللغة)، ص ص: 573-575.

3- الجمهرة، ص: 51.

4- الميداني (عبد الرحمن حسن حبنكة): البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، ص: 594.

الخفية، ولما فيه من الادعاء والمبالغة في التشبيه<sup>(1)</sup>..

ومن النماذج المؤكدة لطبيعة الاستعارة التلميحية، وقيمتها التداولية في إعانة المتكلم على بلوغ الإبانة عن قصده، باستعارة شيء لشيء، تمكينا له في النفس، قول سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: «...وبمحمد ابن عبد الله صلى الله عليه وسلم أنارت الطرق، واستقامت السبل، وظهر كل حق، ومات كل باطل...»<sup>(2)</sup>.

ففي تشبيهه للنبي "بالمنير" المضيء للطرق، ما يغني عن تفصيل أسباب مبعثه، وأثره في قومه، وفي من أرسل إليهم كافة، وفي ما أورد من استعارات، معانٍ كثيرة، يلخصها معرفة حال العرب قبل مجيء النبي وبعده، فمنها ما هو ظاهر جلي ومنها ما هو مضمّر خفي، مما يسم الخطاب بسمة خاصة، تجعله ميدانا رحبا للتأويل، والتأمل وتقصي المقصود من اللفظ «ي إن التلميح ينصب على أكثر من سمة من سمات المستعار منه الدلالية، وهنا فالمرسل يعبر عن المرجع في هذه الخصائص المحددة دون غيرها»<sup>(3)</sup> كما يتجلى ذلك في الخطاب الآتي للزرقاء بنت عدي وهي تصف ما حاق بالمسلمين يوم صفين: «...إنكم قد أصبحتم في فتنة غشتكم جلايب الظلم، وجارت بكم عن قصد المحجة، فيا لها فتنة عمياء، صماء بكماء لا تسمع لناعقها، ولا تنساق لقائدها»<sup>(4)</sup> فعلى الرغم من تعدد الدلالات الملمح إليها، من وراء استعارة بعض الصفات «كالخيرة، والتهيه، واستعصائها على الانقياد...» إلا أن الزرقاء عبرت عن المرجع في كل هذه السمات والخصائص، وهو تجسديها لما ألمّ بالمسلمين من فتن مدلهمة.

وهنا تكمن القيمة التلميحية للاستعارة، من حيث هي تعبير بليغ عن كفاءة تداولية للمرسل، في سياق معين، تنم عن إدراك قوي لدقائق كثيرة، بعضها يخص اللغة المستعملة،

1- الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، ص: 63، وينظر أيضا: الجرجاني (عبد القاهر): دلائل الإعجاز، قرأه وعلق عليه، محمود محمد شاكر، ص: 432-440.

2- الجمهرة، ص: 99.

3- الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 410.

4- الجمهرة: ص: 197.

وبعضها الآخر يخص المقصود من وراء المتلفظ به، من المعاني الثواني الثاوية في الخطاب\*.

### هـ- الكناية والتعريض:

وهما من آليات الأسلوب غير المباشر، وتعرف الكناية بأنها «لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذ»<sup>(1)</sup>... والفرق بينها وبين المجاز كما عند السكاكي «هو أن مبنى الكناية على الانتقال من اللازم إلى الملزوم ومبنى المجاز على الانتقال من الملزوم إلى اللازم»<sup>(2)</sup>.  
وفرق القزويني بينهما من وجه آخر، وهو «من جهة إرادة المعنى مع إرادة لازمه»<sup>(3)</sup> فالفرق- إذن- بين الكناية والمجاز، هو أن المجاز لا يصح معه إرادة المعنى الحقيقي للفظ، عكس الكناية، التي «تدخل في عموم التعبير عن المراد بأسلوب غير مباشر، فهي مما يتوارى، أو يختفي بساير، ويدل على المقصود بلازم له، أو مقارن له، أو بطرف من أطرافه، أو نحو ذلك»<sup>(4)</sup>.

أما التعريض فهو في الكلام أخفى من الكناية، لاستغنائه عن اللزوم الذهني والروابط المصاحبة، واكتفائه بقرائن الحال «وما يفهم ذهننا من توجيه الكلام، وبهذا يظهر الفرق بين الكناية والتعريض»<sup>(5)</sup>.

\* يقول الجرجاني في باب الاستعارة والكناية والتمثيل: "فقد زال عنك الشك وارتفع في أن طريق العلم بما يراد إثباته والخبر به في هذه الأجناس الثلاثة [...] المعقول دون اللفظ من حيث يكون القصد بالإثبات فيها إلى معنى ليس هو معنى اللفظ، ولكنه يستدل بمعنى اللفظ عليه، ويستنبط منه" الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص: 441، 442.

1- الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، ص: 182.

2- نفسه: ص. ن.

3- نفسه: ص. ن.

4- الميداني (عبد الرحمن حسن حبنكة): البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها ص: 567، وينظر كذلك: محمد عبد المطلب: البلاغة والأسلوبية، ص: 80.

\*\* التعريض، والتلويح، والرمز، والإيحاء، والإشارة، عند السكاكي من أقسام الكناية ينظر: الجرجاني: أسرار البلاغة، هامش صفحة: 31. ويمكن إلحاق "الحن" بها؛ بمفهومه البلاغي لا النحوي. ينظر مفصلاً: مطلوب (أحمد)، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، أحمد مطلوب: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت- لبنان، ط2، 2000، ص: 574-575.

5- الميداني (عبد الرحمن حسن حبنكة): البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، ص: 582. وينظر: الخولي (إبراهيم محمد عبد الله): التعريض في القرآن الكريم، دار البصائر، القاهرة- مصر، ط1، 2004، ص: 15-38.

ومن أجمل صور الكناية، قول الزرقاء بنت عدي الهمدانية تخاطب معاوية وقد صارت إليه الخلافة، بعد أن قررها لمعاداتها إياه: «...قالت: يا أمير المؤمنين، مات الرأس وبُتر الذنب ولن يعود ما ذهب والدهر ذو غير ومن تفكر أبصر والأمر يحدث بعده الأمر»<sup>(1)</sup>.

فقد كُنَّت عن ذهاب أمر عليٍّ وشيعته، بموت الرأس، وبتر الذنب، وعرضت لمعنى استقر في نفس معاوية، وهو أن ما صار إليه، سرعان ما يسير عنه، ودعته إلى أن لا يشمت بها، وإلى أن يتفكر في عاقبة الأمور، وما تؤول إليه.

فأدَّت بالكناية مرة، وبالتعريض مرة أخرى، من المعاني ما لا يؤديه اللفظ الموضوع له في اللغة، حيث عمدت إلى معنى مستلزم، أو تالٍ، أو رديف له في الوجود، فجعلته دليلاً عليه<sup>(2)</sup> كما أن في هاتين الآيتين التلميحيتين، خرقاً لقواعد مبدأ التعاون التي جاء بها "غرايس". ففي إجابة (الزرقاء) خرق لقواعد الكم، والملاءمة، والجهة لأنها لم تحب بحسب قدر الحاجة وتعدت القدر المطلوب، ولم تناسب بين المقال والمقام، ولم توجز<sup>(3)</sup>.

ومن الخطابات الحافلة بالكنايات، المنظوية على مقاصد لا ترام إلا بثقافة واسعة، وإطلاع وافر قول "أم الخير بنت الحريش" بُحِّشَ لعلِّي: «...فإلى أين تريدون رحمكم الله عن ابن عم رسول الله ﷺ، وصهره، وأبي سبطيه، خلق من طينته، وتفرع من نبعته، وجعله باب دينه، وأبان بغيضه المنافقين، وها هو ذا مفلّق العام، ومكسّر الأصنام، صلى والناس مشركون...»<sup>(4)</sup>.

فقد سلكت "أم الخير" في إيرادها هذه الكنايات عن الموصوف "علي" سبيل التدرج من الأوضح إلى الأغمض، تسهيلاً لإدراك قصدها، وأخذاً بيد المرسل إليه، نحو المعارف المشتركة، والإحالات السوسيو-ثقافية التي يتوالى دورها الإيضاحي تباعاً لإضاءة شخص الموصوف "المستور" بحجاب الكناية، وإظهار فضائله، «لأن الكناية مثل الاستعارة تخضع

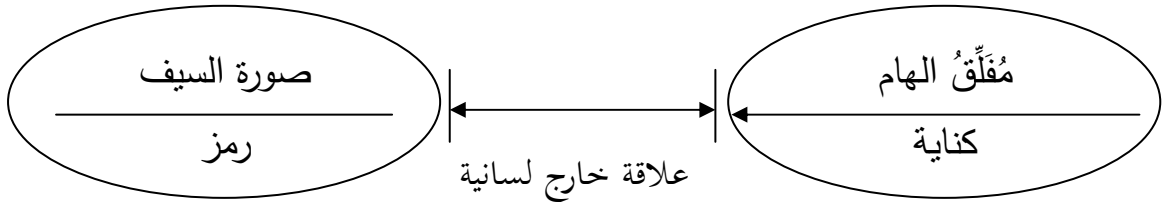
1- الجمهرة، ص: 197.

2- ينظر: الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص ص: 430، 431.

3- ينظر: المبحث الثالث: الفصل الأول من هذا البحث ففيه تفصيل لهذه القواعد.

4- الجمهرة: ص: 195.

للتقويم التداولي "والكناية الرمزية أكثر أهمية، ويقصد بذلك تعويض المجاورة المخصص، الذي صار تواضعا نتيجة لتواتر استعماله في العمليات التواصلية»<sup>(1)</sup> لأن اللغة هنا ليست إلا ترجمة بالكلام لعلاقة خارج لسانية يمكن أن يعبر عنها بلغة طبيعية دون أن يلحقها تغير يذكر، نقصد بذلك، تحول الكناية إلى رمز، فعبرة "مفلق الهام" التي هي كناية عن (علي بن أبي طالب)، وشجاعته، التي صارت مضرب المثل في جميع المشاهد التي شهدناها، تنتقل شيئا فشيئا من صورتها الكنائية اللغوية إلى صورة (رمز) كنائي - إن صح التعبير - ولكنه غير لغوي، كالإشارة إليه بالسيف، ذي الطُّبَّتَيْن (ذي الفقار)، والعكس صحيح، أي قد تنتقل من الرمز إلى الكناية عبر العلاقة الخارج - لسانية.



ومن التعريض قول "أبي عمرة" لمعاوية وقد قال له: «هلا أوصيت بذلك صاحبك؟» فقال: أبو عمرة: «إن صاحبي ليس مثلك»<sup>(2)</sup>.

يقصد في الدين، والشجاعة والعلم، والفضل، والمروءة ومكارم الأخلاق كلها.

ولا شك في أن هذا هو سبيل العرب في الكلام «تستعمل التعريض في كلاهما فتبلغ إرادتها بوجه هو ألطف الوجوه، وأحسن من الكشف والتصريح، ويعيرون الرجل إذا كان يكشف في كل وجه؛ يقولون: فلان لا يحسن التعريض إلا ثلثا»<sup>(3)</sup>.

والتعريض من أدل الآليات على كفاءة المتخاطبين التداولية، وقدرتهما التواصلية، لما فيه

1- بليت (هنريش): البلاغة والأسلوبية، نحو نموذج سيميائي لتحليل النص، ترجمة وتقديم وتعليق: محمد العمري، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء - المغرب، دط، دت، ص: 94.

2- الجمهرة: ص: 154.

3- الثعالبي (أبو منصور إسماعيل): النهاية في الكناية المعروف بالكناية والتعريض، تحقيق: فرج الحوار، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة - تونس، دط، دت، ص: 166.

من ستر القصد، وبعد البغية، مع تلبس بالسياق، كما أنه علامة من علامات النبوغ والذكاء، وحضور البديهة، ولا أدل على ذلك من القصة الآتية، بين عثمان رضي الله عنه، وعمرو بن العاص: «فلما ولي - عثمان - الخلافة، عزل عَمْرًا بن العاص عن مصر، وكان أميراً عليها من يوم فتحها في خلافة الفاروق، إلى أن ولي عثمان، ووَلَّى مكانه عبد الله بن سعد بن أبي سرح، فأرسل الخراج لسنة، أربعة عشر ألف ألف دينار، وعمرو بن العاص حاضر إذ ذاك عند عثمان، وكان عمرو يرسلها ثلاثة عشر ألف ألف دينار، فقال عثمان: قد دَرَّتْ اللقحة يا عمرو، قال: نعم يا أمير المؤمنين، ولكن أجحفتكم فصالحا»<sup>(1)</sup>.

ففي هذا الخطاب تلميح ذكي من عثمان إلى أن عَمْرًا لم يكن ثقة، مؤتمنا على الولاية، ولكنه أورد ظنه ذاك في صورة تعريض، حفاظا على العلاقة، وترسيخا لمبدأ التأدب الأقصى في الكلام، لأن استعماله - التعريض - قد يسهم أيضا في إحداث «آثار اجتماعية حميدة تحافظ على العلاقات الإنسانية، وتيسر التعامل الخطابي»<sup>(2)</sup>.

ومما يروى في هذا المعنى، قول عمر بن الخطاب مكنيا عن الخراج والعشر، وسائر حقوق بيت المال: «وَأَدِرُّوْا لَقَحَةً الْمُسْلِمِينَ» أراد بـ«لَقَحَتَهُمْ» دَرَّةَ الْفِيءِ، والخراج التي منها عطاياهم»<sup>(3)</sup>.

وعليه، فقد يلجأ المرسل إلى استعمال هذه الآليات التلميحية؛ اللغوية والبلاغية لأغراض شتى ومقاصد متعددة، بعضها يرجع إليه، وبعضها إلى مخاطبه، وقد يرجع بعضها الآخر لطبيعة المقام المتخاطب فيه، كما قد يحسم أمر استخدام هذه الإستراتيجية، عامل آخر هو طبيعة موضوع الخطاب نفسه\*، لأن الاستعانة بالتلميح بدل التصريح، قد يكون بدافع رفع الحرج، والتحلي باللباقة، وآداب الحديث الاجتماعية، تيسيرا للتواصل بالخطاب بين أطرافه، وتجسيذا لمقاصده، وتحقيقا لوظائفه المختلف

1- السابق: ص: 156.

2- الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 423.

3- الثعالبي (أبو منصور): النهاية في الكناية، ص: 156.

\* ينظر في هذا الموضوع: أبو زلال (عبد السلام عصام الدين محمد إبراهيم): التعبير عن المخطور اللغوي والمحسن اللفظي، دراسة دلالية، رسالة مقدمة للحصول على درجة الدكتوراه، إشراف: أ.د عبد المنعم تليمة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، (مرقونة)، 2001، ص: 65-71.

# الفصل الثالث:

خطابه صدر الإسلام بين

التوجيهية والإقناعية

# المبحث الأول: الإستراتيجية التوجيهية

## \* تمهيد:

عرفنا في الفصلين السابقين، أن الصلة وثيقة جدا بين مفاهيم؛ الإستراتيجية، والخطاب، والوظيفة، والسياق، وقد انطلقنا بناء على ذلك، نبحث في شبكة العلاقات المتحركة فيها، وأوصلنا بحثنا -في الفصل الأول- إلى التسليم بتحكم عاملين هامين في وسم الخطاب بسمة لغوية معينة، بما تتحدد الإستراتيجية المثلى للتواصل بين طرفيه، هما: السلطة والمقاصد.

وقد بينا -بخوض غمار المدونة- أن الإستراتيجية التضامنية، تنشأ عندما تتلاشى هيمنة العلاقة العمودية على فعل التخاطب، فيقلّ احتكام المتواصلين إلى معيار السلطة، ومن ثمّ يطغى على حركية التفاعل مبدأ التأدب الأقصى، واعتبار ذات الغير، وهكذا يتعزز الفعل التضامني، ويتنامى، أو يولد ويوجد له شكلا معينا في مدينة اللغة (على حد تعبير فتحشتاين) كما قد يُعَيَّب هذا المبدأ - مبدأ التأدب الأقصى - ويُعطّل بتأثير مباشر أو غير مباشر من عاملي السلطة والمقاصد، أو بإيعاز من السياق التخاطبي عموما، مما يفرض على المرسل، توحي نهج مغاير، وتبني إستراتيجية أكثر صرامة، ومباشرة ووضوحا، وبُعدا عن المرونة، والتهذيب هي "الإستراتيجية التوجيهية".

إن "الإستراتيجية التوجيهية"، من هذا المنطلق، ذات بعد وظيفي، تجسد باللغة، جانبا واسعا من التعاملات اليومية للأفراد، في وضعيات حوارية لا حصر لها، تبدأ من البيت، مقر سلطة الأبوية، لتصل إلى مؤسسات اجتماعية عديدة، كالمدرسة، والمصنع، والإدارة وتمر قبل ذلك، بعلاقات إنسانية ملزمة، يرقى فيها فعل التوجيه إلى أعلى درجات الحضور الفعلي الوظيفي.

وهي في كل ذلك تدفع بالمرسل إلى ممارسة فضول خطابي على المرسل إليه، وضغط، وتدخل في خصوصيات واضعة نصب عينيه - المرسل - قصدا محددا وهدفا وحيدا، ألا وهو توجيه المرسل إليه لفعل مستقبلي معين<sup>(1)</sup>.

ولعل هذا الفصل جدير بأن يترصد هذه الممارسة، في خطاب المدونة، من خلال تتبع

1- ينظر: تغزوي (يوسف): الوظائف التداولية، ص: 197.

الآليات اللغوية لإستراتيجية التوجيه لا بوصفها، فعلا لغويا فحسب، وإنما بعدّها وظيفة من وظائف اللغة، ستعنى بالعلاقات الشخصية بين المتفاعلين على حد زعم "هاليداي"، الذي ما فتئ يردد أن: «الوظيفة تعادل الاستعمال، فمفهوم الوظيفة مرادف لمفهوم الاستعمال [...] وبعبارة أخرى تفسر اللغة لا بوصفها مجرد استخدام للغة، بل بوصفه خاصية جوهرية للغة نفسها، وشيئا أساسيا في تطور النظام الدلالي، فكأنها نقول إن تنظيم أية لغة طبيعية يفسر في ضوء نظرية وظيفية»<sup>(1)</sup>.

وقد استنّ (جاكسون) من قبله هذا السّنن؛ إذ أطلق على فعل التوجيه مصطلح "الوظيفة الندائية" \*، وهي عنده «وظيفة تضمينية أو أمرية تحدد العلاقات بين الرسالة والمستقبل، لأن غاية كل تواصل هو الحصول على رد فعل أو استجابة من هذا المستقبل»<sup>(2)</sup>.

وتنقسم أصناف هذا المستقبل/ المرسل إليه، في تفاعله مع المرسل وفق الإستراتيجية التوجيهية إلى:

(1) مرسل إليه مُتَخَيَّل، غير حاضر عند إنتاج الخطاب.

(2) ومرسل إليه شخص معروف عند التلفظ بالخطاب<sup>(3)</sup>.

وطبقا لهذين الصنفين، تشتغل الأدوات اللغوية، ذات الطبيعة التوجيهية، جنبا إلى جنب مع العناصر السياقية المساعدة لها، ومع ما ذكرناه آنفا، من عاملي، السلطة والمقاصد.

على النقيض من الإستراتيجية التضامنية، يقف طرفا الخطاب، في الإستراتيجية التوجيهية، مواقف متباينة، معرفيا، واجتماعيا، وسلوكيا... وهو ما يبرر مثل هذه العلاقة المركزية، الغنية بأفعال الطلب، من أمر ونهي، واستفهام...

كما يبرر وجود هذه الإستراتيجية في الخطاب، بعض الوضعيات التواصلية التي تحتم إنتاج خطابات غير مرنة، كعدم اعتراف المرسل إليه بالتراتبية الاجتماعية، أو رغبة المرسل في ممارسة

1- هاليداي: وظائف اللغة، تر: محمود أحمد نخلة، ضمن (آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر)، ص: 271.

\* ينظر: المبحث الثاني: الفصل الأول، "الخطاب والوظيفة" وقد اخترنا لها مصطلح: "التأثيرية"

2- رايس (نور الدين): نظرية التواصل واللسانيات الحديثة، ص: 103.

3- ينظر: تغزاوي (يوسف): الوظائف التداولية، ص: 197، والشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 323.

السلطة، لإنجاز أفعال لا تقبل التراخي، أو لتصحيح سيورة العلاقات غير المتحكم بها، أو غير المتكافئة، أو لقلة عدد التوصلات بين المتخاطبين، ومن ثم انحسار المعرفة المشتركة، ذات الطابع الإنساني الشخصي<sup>(1)</sup>.

وبعيدا عن الخوض في المسار التاريخي لهذه الإستراتيجية يمكننا القول، إن إستراتيجية التوجيه، تتأسس عمليا، على المفهوم السلبي للتأديب، أي أنها تتوسل لتحقيق هدفها الخطابي، بالاعتماد على الصراحة في التعامل مع الآخر، وعلى حرفية اللغة في دلالتها على الأشياء كما هي في الواقع<sup>(2)</sup>، وهنا تشكل الملامح الأساسية لهذه الإستراتيجية التي تتمثل أساسا في تجانس التنعيم مع الأساليب ذات الطبيعة التوجيهية، كالأمر، والنهي، والاستفهام، والتحذير، والإغراء، وذكر العواقب والتحضيض، والنداء، وألفاظ المعجم والتوجيه المركب، وقد ينوب التنعيم عن هذه الوسائل اللغوية، بمعونة من السياق، فيؤدي هو الآخر فعلا توجيهيا<sup>(3)</sup> وفيما يلي مقارنة لهذه الإستراتيجية، من خلال وسائطها اللغوية مع خطاب المدونة.

### 1) الإستراتيجية التوجيهية وطبيعة المقام الخطابي:

سبق وأن أشرنا - في بداية الفصل السابق - إلى طبيعة الموقف الخطابي، ودوره في تفعيل البعد الإستراتيجي لأي فعل من الأفعال الإنجازية، وها نحن نعيد التذكير في هذا المقام، بالأساس الوظيفي الذي يقوم عليه فعل التوجيه، حتى نبعد عن الأذهان تصور فعل توجيهي، (كالأمر مثلا) معزول عن سياقه من جهة وعن مرسله (سلطة + مقاصد) من جهة أخرى، ونعني بارتباط الفعل سياقيا، مجموع الشروط التي لا يتصور الفعل التوجيهي، إلا مسورا بها، ومتفاعلا معها، وتشمل كل الاستلزمات المسبقة؛ التي تعد قاعدة صلبة ينطلق منها فعل الأمر مثلا، كأن يكون المأمور أهلا لاستقبال الفعل وأن يكون الفعل في حد ذاته ممكنا في السياق...

1- ينظر: السابق، ص ص: 328-329.

2- ينظر: هاليداي: وظائف اللغة، تر: محمود أحمد نخلة، ص: 272.

3- ينظر: الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 339.

ونقصد بارتباط الفعل بالمرسل، توفر المؤهلات العامة، التي تسمح لهذا الفعل بالوجود أولاً، ثم تفرض على المرسل إليه، تحقيقه ثانياً، وتأتي على رأس هذه المؤهلات، السلطة، كما في حال الأمر أو بدرجة أقل، الاستفهام.

إن ما يميز الخطابات التي انتقيناها، لتكون مضمارة للإستراتيجية التوجيهية، هو غناها وثرؤها سياقياً، مما يرفعها إلى مصاف النماذج التي تطفح بالعناصر السياقية ذات الأثر الواضح في الخطاب، ذلك أنها واكبت لحظات تاريخية حرجة في مسار الانبعاث الإسلامي، كخطب الرسول ﷺ، وما تضمنته من سلطة معنوية، يُشكل تواجدها في الخطاب فرصة نادرة باعتبارها سلطة ذات طبيعة غير معهودة، وكخطب المتنافسين حول الخلافة بعده، حتى معاوية بن أبي سفيان، باعتبارها ممارسة لغوية رائدة، واستعمالاً غير مسبوق، للغة العربية في مستويات وأنماط خطابية لا عهد لهم بها، وهنا تكمن القيمة التحليلية للمدونة من حيث هي قراءة جديدة مؤطرة منهجياً، وعلمياً، بوسائل وأدوات إجرائية مكفولة تداولياً.

وسنستعرض فيما يلي، كل وسيلة من هذه الوسائل، مع ما تمارسه من توجيه، وترجيح لعاملي السلطة والمقاصد، بين المرسل والمرسل إليه، في إطار السياق بمفهومه الواسع.

## (2) وسائل التوجيه اللغوية:

تتحقق الإستراتيجية التوجيهية في الخطاب، بوسائل لغوية عدة، تتفاوت من حيث قيمتها وقوتها الإنجازية، بالنظر إلى طبيعتها اللغوية من جهة، وإلى الدور الحاسم للسياق، من جهة ثانية، ثم لما يتمتع به المرسل (من طاقات، صوتية، وحس خطابي، وقدرة على استثمار المعارف المحيطة، وسلطة، وتمثل واضح للهدف) من جهة ثالثة، ومن أهم هذه الوسائل المجسدة للإستراتيجية التوجيهية، الأمر.

أ- الأمر: من أنواع الإنشاء الطلبي، موضوعه، طلب الفعل استعلاءً<sup>(1)</sup>، وقيل في

1- الخطيب القزويني (أبو المعالي جلال الدين): الإيضاح في علوم البلاغة، اعتنى به وراجعته، عماد بسيوني زغلول، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت - لبنان، ط3، دت، ص: 87. وينظر للتوسع: أحمد مطلوب: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، ص: 184-185.

حدّه: «إنه طلب الفعل واقتضاؤه على غير وجه المسألة، وممن دون الأمر في الدرجة»<sup>(1)</sup> وإلى هذا ذهب أكثر من تعرض لتعريفه، كالسكاكي، وعلماء الأصول، ولكنهم اختلفوا بعد ذلك في دلالاته على الوجوب، فقال الخطيب القزويني يشرح كلام السكاكي: «... ثم إنها أعني صيغة الأمر، قد تستعمل في غير طلب الفعل بحسب مناسبة المقام، كالإباحة في مقام الإذن، جالس الحسن، أو ابن سيرين»<sup>(2)</sup> وهناك مجموعة من المحققين، توقفوا في تحديد الدلالة الحقيقية للصيغة، كالغزالي أبي حامد، الذي ذهب إلى أن العرب أرادت بهذه الصيغة الوجوب مرة والندب مرة أخرى، ومن ثم فلا سبيل إلى أن «تنسب إليهم ما لم يصرحوا به، وأن تتوقف عن القول والاختراع عليهم»<sup>(3)</sup>.

ومهما يكن من خلاف، فإن الذي عليه أئمة اللغة، إضافة صيغ بعينها للأمر، كفعل الأمر ولام الأمر<sup>(4)</sup>، وتشتبك في أنها تفيد الدلالة الحقيقية (الوجوب)، إذا توافرت شروط معينة، لكل منها وقرائن إذا وجدت في السياق عرف المعنى المراد.

وقد لخص (حسام أحمد قاسم) العناصر المكونة لدلالة "الأمر" في:

أ- عنصر العلو: وهو أن يكون الأمر أعلى مكانة من المأمور.

ب- عنصر الاستعلاء: ويتعلق بهيئة النطق وطبيعة الأداء الصوتي للأمر، حتى وإن لم يكن عالياً على المأمور في نفسه، فيجوز أن يتحقق الاستعلاء، من المساوي كما يجوز أن يتحقق من الأدنى، وهذا العنصر فيما يبدو مقامي بحث، مرتبط بطريقة أداء الأمر للخطاب.

ج- عنصر الإمكان: أي إمكان قيام المأمور بالفعل.

1- الغزالي (أبو حامد، محمد بن محمد): المستصفى في علم الأصول، طبعه، محمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، دط، 1996، ص: 202.

2- الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، ص: 87.

3- الغزالي (أبو حامد): المستصفى، ص: 205-206.

4- هذا ما ذهب إليه السكاكي، ينظر: الإيضاح، ص: 87.

د- عنصر الزمان: وهو أن المطلوب بالأمر هو القيام بالفعل في المستقبل\*.

هـ- عنصر المصلحة: وهناك مداخل كثيرة تؤكد اعتبار العرب لهذا العنصر في تحديد دلالة صيغة الأمر، منها أنه كان الموجه الرئيسي لصرف دلالة الوجوب إلى الندب في عدد كبير من النصوص، ومن القرائن التي احتكموا إليها في ذلك، ما سمي بـ "نغمة الجزم" وهو أن يعزم الأمر جازماً، قيام المأمور بالفعل.

و- عنصر التفويض: وهو أن يكون تنفيذ الأمر موكولاً للمأمور، مما يجعل الأمر تكليفاً، ويمنعه من الخروج إلى دلالة مجازية.

ز- عنصر الإرادة: لتدل صيغة (افعل) على الأمر، ويحتاج هذا العنصر إلى تحديد دقيق لعناصر السياقين اللغوي والخارجي، سيما ما يتصل بصفات المتكلم وعلاقته بالمخاطب وموضوع الخطاب<sup>(1)</sup>.

ومن أدوات إنجاز الأمر، بشرط توفر ما سبق ذكره، صيغة (افعل) و(لام) الأمر المقترنة بـ "الفعل المضارع"، و"اسم فعل الأمر" و"المصدر النائب عن فعل الأمر" بالإضافة إلى ألفاظ أخرى غير صريحة، مثل: صيغ الإخبار من ذي سلطة، ونحوها...<sup>(2)</sup> وذلك لاعتبارات خطابية لطيفة يقتضيها المقام، أو للاحتراز عن صورة الأمر وما فيها من إظهار العلو، رعايةً لحسن

\*ومما لا خلاف فيه أن المرسل يستعمل الإستراتيجية التوجيهية في خطابه لطلب فعل في المستقبل، ولكن الباعث على هذا يرتد إلى أمر يقع في أحد زمنيين:

- إما أن يكون فعل المرسل إليه وقع في الزمن الماضي، ويستدعى نقده أو الاعتراض عليه، فيكون الفعل السابق هو علة الاعتراض، وبالتالي فهو الدافع للتوجيه إلى فعل في المستقبل.

- وإما ألا يكون كذلك، بل يريد المرسل فعلاً يقع في المستقبل فقط، ينظر: تغزوي (يوسف): الوظائف التداولية، ص 200، 201، بتصرف.

1- ينظر: حسام أحمد قاسم: تحويلات الطلب ومحددات الدلالة، مدخل إلى تحليل الخطاب النبوي الشريف، دار الآفاق العربية، القاهرة - مصر، ط 2007، 1، ص ص: 47 - 64.

2- ينظر: الزهري (نعيمه): الإنشاء وأساليبه، بين ألفية ابن مالك والنحو الوظيفي، ضمن (التداوليات علم استعمال اللغة)، ص: 517.

الأدب<sup>(1)</sup>.

تعد صيغة "افعل" صيغة الأمر الأصلية، وقد قدمنا اختلاف القدماء في دلالتها على الوجوب، تبعاً لمذاهبهم، ومؤازرة لآرائهم ونزعائهم.

إن حضور هذه الصيغة الأمرية في خطاب النبي صلى الله عليه وسلم، يبرره حرصه على تبليغ دعوة ربه، وهداية الناس، بإخراجهم مما هم فيه من الضلال والجهل، والفوضى والفساد الأخلاقي، وقد لخص هذه المهمة حين قال: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

ومن الخطب التي شغلت صيغة الأمر فيها حيزاً بصرياً لافتاً، خطبته التي يقول فيها: «ألا أيها الناس توبوا إلى ربكم قبل أن تموتوا، وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تُشغلوا، وصلوا الذي بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم له... ترزقوا، وتؤجروا وتنصروا»<sup>(2)</sup>.

ففي هذا التوالي لصيغ الأمر، ما يبرره من توق المرسل إلى انتشار هذه الخلال بين أصحابه، وانتفاء ما يضادها تحصيلاً لمنفعتهم، وتحقيقاً لمصلحتهم، التي ذكرها تبريراً في ختام خطابه، بقوله: «ترزقوا، وتؤجروا، وتنصروا».

ونجد مثل هذا الخطاب في مقام آخر، مقام الموّءع، المفضي إلى ربه، في حجة الوداع: «أيها الناس، اسمعوا مني أبين لكم، فإن لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا...»<sup>(3)</sup>.

فلهذا الأمر الصريح المباشر ما يسوغه، ويخفف من حدته، وهو خوف المرسل من انقطاع المقام التواصل، وغيابه عن الفعل بالخطاب، «لعلي لا ألقاكم...».

كما يظهر دور سلطة المرسل في توجيه المرسل إليه، دون اعتبار أثر بنية الخطاب، مستعينا بالفعل الصريح، ذي الحمولة الإلزامية، كقول سعد بن عبادَةَ للأنصار يوم السقيفة: «استبدوا

1- يقول أبو البقاء الكفوي في ذلك: «وقد يستعمل مقام الأمر صيغ الإخبار من الماضي، والمضارع، واسم المفعول، والجملة الاسمية، وذلك لاعتبارات خطابية لطيفة [...] مثل إظهار الحرص في وقوع الأمر المطلوب والاحتراز عن صورة الأمر رعاية لحسن الأدب [...] والقصد إلى المبالغة في الطلب»، الكليات، ص: 198.

2- الجمهرة: ص: 53.

3- نفسه: ص: 57.

بهذا الأمر دون الناس، فإنه لكم دون الناس»<sup>(1)</sup>.

ومن خطابات الفترة المفعمة بالتوجيه، خطاب عبد الرحمن بن عوف، الذي قدّمنا حديثاً عنه، في المباحث السابقة؛ إذ نجد المرسل لا يتوانى في استعمال الأمر الصريح، وهو يوجه أصحابه المرشحين للخلافة، فيقول لهم في غير موارد ولا تلميح: «فاسمعوا تعلموا، وأجيبوا تفقهوا... قلدوا أمركم واحدا منكم، تمشوا الهوينى... علقوا أمركم رحب الذراع...»<sup>(2)</sup>.

وتبدو - في هذا المقام - تعليمات عبد الرحمن حاسمة؛ فهي خطة أزمة، يوصل التقيد بها إلى بر الأمان، وهو ما نلمسه في جمعه بين الفعل وجوابه كما في قوله: «فاسمعوا، تعلموا»، و"أجيبوا تفقهوا، قلدوا... تمشوا الهوينى وتلحقوا بالركب"... وكفيل هذا الجمع بين الأمر ونتيجته أن يخفف من شعور المرسل إليه بسلطة المرسل، أو استعلائه، لما يجد من تحكيمة عنصراً المصلحة، مصلحة المخاطب، فكأن قصد المرسل في هذا الخطاب، مشّت بين الاعتداد بموقعه السلطوي، وإظهار الرغبة في تحصيل مصلحة ظاهرة للمرسل إليه، إن هو جاره في تعليماته.

وعلى غير هذا النسق الخطابي، أجرى علي رضي الله عنه خطابه لشييعته، يحثهم على قتال معاوية رضي الله عنه وأهل الشام، لما يبدو عليه من تمسك بالسلطة، وتعالٍ على مقام المخاطبين، كما في قوله مثلاً: «إن الله قد أكرمكم بدينه، وخلقكم لعبادته، فانصبوا أنفسكم في أداء حقه، وتنجزوا موعوده، واعلموا أن الله جعل أمّاس الإسلام متينة... وأنتم أعلم الناس بالحلال والحرام، فاستغنوا بما علمتم، واحذروا ما حذر الله من الشيطان، وارغبوا فيما عنده من الأجر والكرامة، واعلموا أن المسلوب من سلب دينه وأمانته...»<sup>(3)</sup>.

فهناك فرق بين تعليمات (عبد الرحمن بن عوف) رضي الله عنه، وبين تعليمات (علي)؛ مرده إلى تلبس كل منهما، بالسلطة، وتقمصه لدور الخليفة الغائب في الحالتين، إلا أنه في حال عبد الرحمن مغيب بالقوة، من لدن المرسل إليه، فكانت أوامره صدى لاستعلاء ذات المتكلم (طلبها

1- السابق: ص: 61.

2- نفسه: ص: 97.

3- نفسه: ص: 152.

للعلو) وقد تحررت من ربة الخلافة طوعية، أما في حال علي فشخص الخليفة حاضر بالقوة، ويرفض تغييبه من لدن غيره (معاوية ومماليه)، ومنه كان الخطاب في صورة الأمر الصريح، (افعلوا) دون تقديم للمبررات والدواعي\*، وهو مؤشر على تنازع شديد للسلطة، وصل إلى حد القتال بالسيف.

وينم الخطاب من وجه آخر، عن رغبة الإمام عليّ في استجماع كل أسباب السلطة، من خلال تحضير المرسل إليه نفسيا، وخطايا، كما في قوله: «تَجَزَّوْا مَوْعُودَهُ» وقوله: «أَنْتُمْ أَعْلَمُ النَّاسُ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ».

فلا شك في أن الإمام علي يقصد ما صيّر أصحابه فيما بعد حجة على مناوئهم، إذ أكثر من مع علي هم من أصحاب رسول الله، أولو السابقة في الدين، من البَدْرِيِّين، والعَقَبِيِّين، كعمار بن ياسر، الذي صار معيارا من معايير الحق، بعد أن قال له رسول الله ﷺ: «تَقْتُلُكَ الْفِتْنَةُ الْبَاغِيَّةُ» وليس مع معاوية سوى طلاب الدنيا، والمغرر بهم من اليمانية، وبعض صغار الصحابة، والطلقاء<sup>(1)</sup>.

ولا يخفى فيما هذا من التمييز، والغلبة، وبَدَّ الأقران؛ فقد كان أصحاب عليّ على ثقة من أنهم أصحاب حق، وهم على حق، وسواهم طلاب باطل، وهم على باطل، وفي ذلك يقول قيس بن سعد للنعمان بن بشير: «... فنحن في هذه الحرب كما كنا مع رسول الله... حتى جاء الحق، وظهر أمر الله وهم كارهون، ولكن انظر يا نعمان هل ترى مع معاوية إلا طليقا أعرابيا، أو يمانيا مستدرجا، وانظر أين المهاجرون، والأنصار، والتابعون بإحسان الذي رضي الله عنهم، ورضوا عنه، ثم انظر هل ترى مع معاوية غيرك وصويحك ولستما والله بدريين ولا عَقَبِيِّين، ولا لكما سابقة في الإسلام، ولا آية في القرآن»<sup>(2)</sup>.

فلا غرو أن يستمد علي رضي الله عنه من هذا المعين سلطته، ثم يظهرها بمظهر لا ينازع عليه، كما

\* يبرز هذا البعد الغيبي في خطاب الإمام علي، بوصفه "باب مدينة العلم"، ينظر مثلا: العمري (حسين): الخطاب في نهج البلاغة، بنيتة وأنماطه ومستوياته، ص: 31، 32، 33، وص: 71 فما بعدها.

1- يظهر هذا في مناظرة النعمان بن بشير لقيس بن سعد، ينظر: الجمهرة: ص: 189، 190، 191.

2- ينظر: نفسه: ص: 191.

في قوله: «ثم إني آمركم بالشدة في الأمر، والجهد في سبيل الله، وأن لا تغتابوا مسلما، وانتظروا النصر العاجل من الله إن شاء الله»<sup>(1)</sup>، فصيغة «إني آمركم بـ» تغدو أكثر تعبيرا عن سلطة المرسل، ورغبته في حصول طلبه من المرسل إليه، كما أنها تؤكد على أن قصده - المرسل - هو الأمر تحديدا، وليس فعلا غيره، وقد اعتبرها ليتش أقل "تأديبا" (أي أكثر إمعانا في التوجيه) من صيغة الأمر الصريح (افعل)<sup>(2)</sup>.

ومن صيغ إنجاز الأمر في المدونة، استعمال صيغة الفعل "أمر" في المضارع، (يأمر) كقول بشير بن عمرو لمعاوية وقد وفد عليه من قبل علي: «...يأمرك-علي- بتقوى الله عز وجل، وإجابة ابن عمك إلى ما يدعوك إليه من الحق...»<sup>(3)</sup>.

و قد شعر معاوية بوطأة هذا الفعل "يأمرك" على كاف المخاطب، فغضب، وثار، وقال: لا والله لا أفعل ذلك أبدا، ثم طردهم - المرسل وصاحبيه - من مجلسه<sup>(4)</sup>.

واللافت في خطاب بشير استخدامه الفعل "يأمر" بدل "يوصي" المعهود في مثل هذه التعابير النمطية... فهل لهذا الاستبدال ما يبرره تداوليا؟ أم هو مجرد ترادف للكلمات، ينفي عنها قصدية صاحبها؟

إن كثيرا ما يستعمل هذا الإيهام، في الخطابات السياسية، والقضائية\* والدعائية، الترويجية، بهدف دفع المتلقين لاستقبال المغالطات والتسليم بها، ومن ثم يتحدد افتراض سابق بما يتضمنه الملفوظ، من وجود واقع سابق، على سبيل الافتراض، يوهم به المخاطب، ويعامله على أنه حقيقة<sup>(5)</sup> ومنه يتنامى الموقع السلطوي للمرسل حتى يصير حقيقة لا مناص منها.

1- السابق: ص: 152.

2- ينظر: الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 345.

3- الجمهرة: ص: 154.

4- نفسه: ص: 155.

\* - كما يستعمله المحققون الجنائيون لدفع المتهمين إلى الاعتراف؛ كان يقول المحقق مثلا: على كل حال يا سيد(سميث) أين اشترت "الكوكاين"، فيؤدي الاعتراف بالشق المكاني إلى صحة الافتراض السابق. ينظر: بلبع (عيد): التداولية، البعد الثالث في سيميوطيقا مورييس، ص: 169.

5- ينظر: نفسه: ص ص 169- 170.

إن إيهام المرسل (بشير بن عمرو)، للمرسل إليه (معاوية)، بدأ بتخليه عن فعل يكثر استخدامه مقترنا بالتقوى، "أوصيكم بتقوى الله" ثم تدرج ليحل محله فعلا آخر يكافئه، أداء ولكن يفوقه قوة إنجازية (يأمر)، وتسليم معاوية لبشير كان سيكون مؤثرا، يقتضي تسليمه ضمنا بأحقية "علي" في الخلافة، وأنه إنما ينازعه في ما لا يجوز له.

ومن صيغ الأمر الصريحة، صيغة اسم فعله، وهو على ثلاثة أضرب، مرتجل، مثل: مة وصة، ومصوغ من الثلاثي بشروطه على وزن فَعَالٍ، مثل، نزال ودراك، ومنقول عن الظرف والمظروف، أو الجار والمجرور، مثل: عليك، ودونك<sup>(1)</sup>.

كخطاب عائشة يوم الجمل لأهل البصرة: «يا أيها الناس: صهصة، إن لي عليكم حق الأمومة، وحرمة الموعظة، لا يتهمني إلا من عصى ربه، مات رسول الله ﷺ بين سحري ونحري، فأنا إحدى نسائه في الجنة...»<sup>(2)</sup>.

و"صة" المؤكدة بتكرار لفظها، تدل على أن المرسل (عائشة رضي الله عنها) يتمتع بسلطة فذة، ذكرت بعضا منها (حق الأمومة + حرمة الموعظة + البعد عن التهمة + كانت آخر ما لامسه الرسول قبل موته فقد مات بين سحرها ونحرها + إحدى نسائه في الجنة...).

كما أنها ترغب في أن لا يعلو كلام على كلامها، باعتبارها تمتلك سلطة الأمومة الخاصة، إذا الأصل في استعمال فعل الأمر، هو اعتماد «المرسل على كفاءة المرسل إليه اللغوية والتداولية في تأويلها التأويل المناسب وفهم قصده من الخطاب كونه يدرك تماما دلالة هذه الأسماء»<sup>(3)</sup> على ما وضعت له، من طلب حثيث للأمر، ومن إرادة للإيجاز والمبالغة في المعنى.

ومن صيغ المنقول قول الأشر: «إلي أيها الناس»<sup>(4)</sup>، وقول معاوية: «فعليكم بتقوى الله»<sup>(5)</sup>.

1- ينظر: للاستزادة والتفصيل، عبد السلام هارون، الأساليب الإنشائية في النحو العربي، مكتبة الخانجي بالقاهرة - مصر، ط1، 2001، ص: 154 - 158.

2- الجمهرة: ص: 136.

3- الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 348.

4- الجمهرة: ص: 183.

5- نفسه: ص: 167.

ومن صور الأمر بصيغة المضارع المسبوق بلام الأمر، القليلة في المدونة، قول النبي صلى الله عليه وسلم في أول خطبة له بالمدينة المنورة: «... فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشق من تمر فليفعل»<sup>(1)</sup> وقوله في حجة الوداع: «... فليبلغ الشاهد منكم الغائب»<sup>(2)</sup> وقوله في خطبة مرض موته: «... من كان عنده شيء فليؤده ولا يقل فضوح الدنيا...»<sup>(3)</sup>، وتماثل هذه الصيغ في تعزيزها سلطة الأمر (الرسول)، ولهذا تعد مخالفة المأمور له، في مثل هذه السياقات، تمرداً على السلطة، وخروجاً عن التعاليم<sup>(4)</sup>.

ومن أساليب الأمر غير الصريح، إخبار المرسل ذي السلطة؛ فإن استعماله الأسلوب الخبري يقوم مقام التوجيه بالفعل، وتؤدي السلطة في هذا السياق، «دور التقليل من المجازفة في استعمال هذه الإستراتيجية في إنتاج الخطاب، وذات السبب هو ما يسوّغ استعمال الأمر والنهي الصريحة»<sup>(5)</sup>، كما في اختيار الرسول ﷺ، بغرض الإيجاب في قوله: «... ألا وقتل الخطأ مثل العمد بالسوط والعصا، فيهما الدية مغلظة منها أربعون خلفه في بطونها أولادها... إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء»<sup>(6)</sup>.

ويتجلى أثر السلطة في تحويل دلالات هذه الإخباريات، من مجرد الإعلام إلى الإيقاع، فيُلزم بها المرسل متلقيه، بفضل ما يتميز به عليه من تمتع بالسلطة، لتغدو فعلاً توجيهياً شأنه شأن صيغ الأمر الصريحة، كما يوضحه التمثيل التالي:

**البنية السطحية:** إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية.

**السلطة** **البنية العميقة:** كفوا عن التفاخر أنا أنهيكم انطلاقاً من مقام النبوة وسلطتها عليكم بأن الله أذهب عنكم...

1- السابق: ص: 55.

2- نفسه: ص: 59.

3- نفسه: ص: 60.

4- ينظر: حسام أحمد قاسم، تحويلات الطلب...، ص: 67.

5- الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 347. كذا وردت ولعل في الكلام سقط.

6- الجمعة: ص: 52.

وهذا ما نلمسه في كثير من أخبار القرآن، والسنة، وأساليب الساسة في استمالة الناجين، إذ تنطوي جميعها على بنية عميقة ثاوية، تمارس أفعال التوجيه، دون أن تكون لها بنية لغوية، صريحة في ما تحيل إليه، مما يكسبها بعدا إستراتيجيا مميذا.

### (ب) النهي:

أحد أقسام الإنشاء الطلبي، وهو قسيم الأمر، يدل على طلب الكف عن شيء على وجه الاستعلاء، وصيغته الأصلية "لا" الجازمة للفعل المضارع "لا تفعل" وهو صنو "الأمر"، يفيد الوجوب، إذا توافر شرط الاستعلاء، وإلا أفاد طلب الترك فحسب<sup>(1)</sup>، وعرفه ابن فارس مكتفيا بصيغته فقال: «هو قولك: (لا تفعل)»<sup>(2)</sup>.

ومن استعمالات النهي بصيغته الأصلية (لا تفعل) قول الرسول ﷺ «أعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا» وهو مؤشر على حرص المرسل (الرسول) لأن ينتهي المرسل إليه عن الفعل فورا، ولا عجب في ذلك لأن مهمة الرسول الأولى تلخصت في تخلص العباد من دنس الشرك، وعبادة الأنداد من الحجارة والأوثان، ومما يميز النهي بصيغته الأصلية، وقوعه على الحاضر والغائب، لأن دلالة مؤداة بحرفيتها، أي أنها تحتزن قوة إنجازية تمكنها من التأثير في المتلقي، وإن طال الأمد، ولذلك يكثر استعمالها في الخطابات المتضمنة لتعليمات ذات طابع قار.

ومن أوجه استعمال النهي، إلحاق نون التوكيد بالمضارع، كقوله ﷺ: «... فلا ترجعن بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض...»<sup>(3)</sup>.

وقوله في مقام آخر «ألا لا يمنعن رجلا مخافة الناس أن يقول الحق إذا علمه...»<sup>(4)</sup>.

وتأخذ هذه الزيادة البنائية، منحى آخر في تحقيق المراد بالنهي، باعتبارها مؤشرا تداوليا

1- ينظر: الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، ص: 88. وينظر للتوسع: أحمد مطلوب: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، ص: 667.

2- ابن فارس (أحمد): الصحاح في فقه اللغة، تح: السيد صقر، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة - مصر، دط، دت، ص: 302.

3- الجمهرة: ص: 59.

4- نفسه: ص: 54.

يظهر مراعاة المرسل لعناصر السياق، وطبيعة المرسل إليه، التي قدّر أنها تحتاج إلى زيادة تعلي من سلطته، وثبتتها عند المرسل إليه.

وللنهي صيغ أخرى، غير مباشرة، في الحث على الترك أو طلبه، وهي الألفاظ الدالة على النهي عند إطلاقها بنفسها، منها، مادة حرم، وحظر، ومنع، ونهى، ومشتقاتها<sup>(1)</sup>.

و من شواهدا في خطاب المدونة، ما جاء في خطبة حجة الوداع: «إنّ دماءكم وأموالكم حرام عليكم... كحرمة يومكم هذا...».

وتضاهيها في إفادة النهي، ما يسمى بالألفاظ الدالة على عدم الحلّ بأسلوب النفي، لأن قصد المرسل فيها واحد، مثل قوله ﷺ: «... ولا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه... ولا يجوز لوارث وصية، ولا يجوز وصية في أكثر من الثلث...»<sup>(2)</sup>.

فهذا النوع من النفي، من ذوي سلطة، إنما يفهم منه، الحظر والمنع، لا مجرد النهي.

#### ج) الاستفهام<sup>(3)</sup>

وهو أحد أنواع الإنشاء الطلبي «والألفاظ الموضوعة له [ الهمزة وهل وما ومن أي وكم وكيف وأين وأنى ومتى وأيان ] فالهمزة لطلب التصديق [...] أو التصور [...] وهل لطلب التصديق فحسب [...] والألفاظ الباقية، لطلب التصور فقط»<sup>(4)</sup>.

ويقع على حقيقته إذا استدعى جوابا لازما حال السؤال، ومن صيغ الاستفهام التي تدخل في صميم الإستراتيجية التوجيهية، «كل سؤال ييلور الإجابة في عمل فعلي»<sup>(5)</sup>،

1- ينظر: الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 351.

2- الجمهرة: ص: 59.

3- هو المصطلح الدائر في كتب البلاغة، وإن استعمل بعضهم "الاستخبار" مكافئا له، ومن البلاغيين من فرق بينهما؛ فجعل «الاستخبار ما سبق أولا ولم يفهم حق الفهم، فإذا سألت عنه ثانيا كان استفهاما». ينظر: أحمد مطلوب: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، ص: 109.

4- الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، ص ص: 81- 82. وأحمد مطلوب: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، ص: 109.

5- الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 252.

وبهذا تخرج صيغ الاستفهام التي لا قدرة إنجازية لها، أو التي لها دلالات محولة.

وقد ذكر (حسام أحمد قاسم) شروطاً ثلاثة؛ لإجراء الاستفهام على حقيقته، هي: الزمان، والإمكان، والإرادة، وعدّها أهم العناصر الدلالية التي تحدد الدلالة الاستعمالية للاستفهام في سياقاته المتعددة، ويدل عليها عنصر (نغمة الأداء)، بيد أنه «كالاستعلاء في الأمر، يرتبط بالنص المنطوق، ونحتاج في النصوص المكتوبة إلى الاستدلال عليه لا به»<sup>(1)</sup>.

ونظير ذلك قوله ﷺ في خطبة حجة الوداع: «ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد! قالوا نعم. قال فليبلغ الشاهد الغائب»<sup>(2)</sup>.

وقوله لأهل مكة: «يا معشر قريش (أو يا أهل مكة) ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا خيرا، أخ كريم، وابن أخ كريم...»<sup>(3)</sup>.

وهنا، نشير إلى أن قدرة الاستفهام التوجيهية، تكمن في مدى تحوُّله من صيغة منطوقة أو مكتوبة إلى فعل منجز، كقول علي عليه السلام لبعض أصحابه وقد انكشفوا أمام العدو: «أين فراركم، من الموت الذي لن تعجزوه، إلى الحياة التي تبقى لكم»<sup>(4)</sup>، وجدير بهذا الاستفهام، أن يرد المنكشفين إلى مواقعهم من الجيش، لما فيه من توجيه دقيق إلى معنى الحياة، والموت.

وبذلك يكون السؤال المفتوح أقل توجيهها، شأنه شأن المغلق، لأنهما يأخذان بقاعدة منح الحرية عند (لاكوف)، والتي تقضي بترك الخيار للمرسل إليه في تعيين الجواب المناسب.

ومن ألفاظ الاستفهام كذلك، الألفاظ الدالة على الاستخبار بصيغة الأمر، مثل قول معاوية لأم الخير بنت الحريش "أخبرينا" وكقول علي عليه السلام لأصحابه مستطعاً: «أما بعد فإنكم ميامين الرأي، مراجيح الحلم، مباركو الأمر، مقاويل بالحق، وقد عزمنا على المسير إلى عدونا وعدوكم، فأشيروا علينا برأيكم»<sup>(5)</sup>.

1- حسام أحمد قاسم: تحويلات الطلب ومحددات الدلالة، ص: 116.

2- الجمعة: ص: 59.

3- نفسه: ص: 52.

4- ينظر: الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 254.

5- الجمعة: ص: 140.

وقد يؤدي الاستفهام، بالخبر، حين تضر حروفه، فيكتفي عندها بالتنعيم المصاحب له، وفي ذلك يقول ابن القيم: «... اللهم إلا أن حروف الاستفهام قد يسوغ إضمارها في بعض المواطن؛ لأن الاستفهام هيئة تخالف هيئة المخبر»<sup>(1)</sup>، يقصد في كيفية أدائه، وتلفظه للخبر، كقول معاوية لوفد علي بعد أن عرضوا عليه إجابة ابن عمه وحقن دماء المسلمين: «... ونُظِّلُ دم عثمان؟ لا والله لا أفعل ذلك أبدا»<sup>(2)</sup>.

فبنية الاستفهام هنا، بشكلها الصريح معدومة، لولا ما صاحب الفعل المضارع "نُظِّلُ" من تنعيم دال على الاستفهام، يدل عليه كما قال ابن القيم هيئة المستفهم المخالفة لهيئة المخبر.

ومن أشكال الاستفهام، ذي الحمولة التوجيهية، وإن أفاد غير ذلك، من دلالات التضامن أو تلطيف جو الحوار، وتهيئة أرضيته، ما جرى بين الزرقاء بنت عدي ومعاوية بن أبي سفيان حين دخلت عليه فقال لها<sup>(3)</sup>: «... كيف حالك؟ قالت بخير يا أمير المؤمنين، أدام الله لك النعمة. قال كيف كنت في مسيرك؟ قالت ربيبة بيت، أو طفلا ممهدا... قال أتدرين فيم بعثت إليك؟ قالت وأنى لي بعلم ما لم أعلم، قال: أأنت الراكبة الجمل الأحمر والواقفة بين الصفين بصفين تحضين على القتال وتوقدين الحرب؟ فما حملك على ذلك؟ قالت يا أمير المؤمنين مات الرأس... قال أتخفظين كلامك يومئذ؟».

فعلى الرغم من أن هذا الخطاب لا يوجه المرسل إليه لخطاب عملي معين، إلا أنه يدفعه إلى التلطف بالخطاب، وإنمائه، متدرجا من الأعم إلى الأخص، مراعيًا في ذلك الوظيفة الأساسية للغة، ألا وهي إقامة علاقات مع المخاطب، والتعاون معه، في اتجاه التمكين من التواصل؛ فمعاوية لم يستدع الزرقاء، ويكلفها عناء هذا السفر المضني، وما لابسها من خوف الدخول على السلطان، ووحشة الأهل، وكآبة المنظر، واستشراق المال، ليسألها عن الصحة،

1- ابن قيم الجوزية، (أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب): بدائع الفوائد، خرَّج أحاديثه: شريف محمد، دار التقوى للنشر والتوزيع، القاهرة، دط، 2006، ص: 203.

2- الجمهرة: ص: 154.

3- نفسه: ص: 197.

والحال، ولكنه في الآن نفسه، لم يعاجلها بما يريد، بل ترك الخطاب يتنامى في شكل تساؤلات، محفزة على التلفظ، يمكن أن نصنفها في زمرة الاستفهام التوجيهين «إذ يكفي كونها هي الحافز للمرسل إليه للتلفظ بخطابه، وهذا هو مسوغ تصنيفها هكذا»<sup>(1)</sup>.

ومن هنا يمكن إدراج الاستفهام العام\*، ضمن سياق الاستفهام التوجيهي، لما يؤول إليه، وما يحمله من دلالات ضمنية، لا تتكشف غلا في قضايا الخطاب.

#### (د) التحذير:

يندرج هذا الأسلوب في الإستراتيجية التوجيهية، لما يمتاز به من صراحة خطابية، تدل على صدق المرسل في خطابه للمرسل إليه، على الرغم من خلو الخطاب من منفعة ظاهرة للأول؛ لأن عاملي اختيار الإستراتيجيات كما أسلفنا، لا يخرجان في الغالب على اعتباري السلطة والمقاصد، وهما في هذا الأسلوب على طريقي النقيض، إذ يفترض بالمرسل، صاحب السلطة أن يؤدي خطابه دون التفات لحال المرسل إليه، ليمحض إستراتيجية معينة، ولكنه هاهنا، يتخلى عن سلطته، ليقدم منفعة خالصة للمخاطب، دون أن يحقق تضامنا أو توددا أو تبجيلا.

بمعنى أنه بالتجائه لهذا الأسلوب، يكون أقرب للتضامن منه للتوجيه، لولا ما يوظفه من أدوات وآليات مباشرة تدخل ضمن أفعال النصح الضمني، التي تكشف عادة على حسن نية المرسل الخطابية.

والتحذير في اللغة العربية، «نصب الاسم بفعل محذوف يفيد التنبيه والتحذير ويقدر بما يناسب المقام كـ"احذر"، وباعد وتجنب، وق وتوق ونحوها»<sup>(2)</sup>.

والأصل في أسلوب التحذير أن يشتمل على أمور ثلاثة هي:

1- الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 355.

\* يسمى هذا النوع من الاستفهامات المولدة لاستدراج الآخر نحو اكتشاف حقيقة أو الوصول إلى لب قضية، بـ"التوليد الحواري"، ينظر: بوقرة (نعمان): المصطلحات الأساسية، ص: 103.

2- الغلايني (مصطفى): جامع الدروس العربية، دار نزهة الألباب، دط، دت، ج1، ص: 392.

- (1) المحذّر: وهو المتكلم، المتوجه بتنبيهه لغير.
  - (2) المحذّر: المرسل إليه، المتوجّه إليه بالتحذير.
  - (3) المحذور: أو المحذر منه، وهو الأمر المكروه الذي لأجله أنشئ الخطاب<sup>(1)</sup>.
- وقد ذكر (عباس حسن) معنيين للتحذير، عام، وخاص، أما الأول، فله صور مختلفة منها صورة الأمر باستعمال الفعل " إَحْذَر " ومشتقاته، ومنها صورة النهي إذا أفاد معنى التحذير، والإبعاد، وأما الثاني، فهو (التحذير الاصطلاحي)، وله خمسة أنواع وهي<sup>(2)</sup>:
- (1) ذكر المحذر منه، اسما ظاهرا، غير مكرر، ولا عطف مثل له عليه (محذر منه)، ويجوز في هذا النوع، حذف الفعل والفاعل معا أو ذكرهما معا.
  - (2) ذكر المحذر منه اسما ظاهرا إما مكررا وإما معطوفا عليه مثله بالواو دون غيرها، كقول عكرشة بن الأطرش: «... فالله عباد الله في دين الله»<sup>(3)</sup>، أي اتقوا الله، واخشوا الله، أو احذروا الله ونحوها.
  - (3) أن يكون اسما ظاهرا مختوما بكاف الخطاب للمحذّر، بحيث يكون هذا الاسم هو الموضع أو الشيء الذي يخاف عليه، سواء أكان مكررا أم غير مكرر ومعطوفا أم غير معطوف عليه مثله.
  - (4) أن يشتمل على اسم ظاهر مختوم بكاف خطاب للمحذر، ويكون هذا الاسم كما في النوع الثالث، ولكن لا يجوز في العطف عليه إلا بالواو.
  - (5) وصورته، أن يُذكر المحذر ضميرا منصوبا للمخاطب، هو "إياك" وفروعه ثم المحذر منه، اسما مسبوقا بالواو دون غيرها، أو غير مسبوق أو مجرورا بـ(من) ومثال هذا النوع قول عكرشة محرّضة على قتال جند الشام محذرة قومها من التواكل: «إياكم والتواكل فإن ذلك ينقض عُرا

1- ينظر: عباس حسن: النحو الوافي، دار المعارف، القاهرة- مصر، ط15، دت، ج4، ص:126.

2- ينظر: نفسه، ج4، ص ص:127-130.

3- الجمهرة: ص:191.

الإسلام، ويطفئ نور الحق»<sup>(1)</sup>. ففي هذا الخطاب يظهر لفظ (إيا) مضافا إلى الضمير (كُم) معطوفا عليه المحذر منه، (التواكل) مشفوعا بما يبرره وهو «نقض عرا الإسلام وإطفاء نور الحق»، ويختلف هذا النوع من التحذير عن سابقيه، بما يخلعه من مشاعر الحذب والرأفة على الخطاب، ضنا بالمرسل إليه، أن يهلك، أو تفوته الفرصة، وهو ما يبدو مجسما، ماثلا في حجة عكرشة:

إطفاء نور الحق. ← نقض عرا الإسلام ← التواكل  
 إنكاء نور الحق. ← تمتين عرا الإسلام ← الاجتهاد والتوكل

وقد يلجأ المرسل إلى ترك العطف، ادعاءً، ومبالغة، في لزوم المحذر، المحذر منه فكأنهما لتجاوزهما دون فاصل، شيء واحد، كما في قول خالد بن معمر لما ولّاه عليّ عليه السلام - راية ربيعة - وحمل عليها أهل الشام حملة شديدة، وانهزم ناس من قومه، فصاح فيهم قائلا: «... فإياكم أن تتشاءم بكم العرب والمسلمون اليوم»<sup>(2)</sup> أي: إياكم تشاؤم العرب والمسلمين بكم اليوم، فوالى بين المحذر منه والمحذر دون أن يترك مسافة، وهو ما يسمى في تحليل الخطاب "بالملاءمة"<sup>(3)</sup> وهي إلزامية التكوين الشكلي «إياكم أن تتشاءم العرب...» تبعا لنظام من الضغوط السياقية «حال الانهزام والتخاذل والانكشاف أمام العدو».

إن أسلوب التحذير رغم تعطيله سلطة المرسل، وتمركزه حول مصلحة "المرسل إليه"، لأن الأصل أن يكون مفردا للمخاطب، فحق «التحذير أن يكون للمخاطب وشد مجيئه للمتكلم»<sup>(4)</sup> إلا أنه يبقى أحد أخطر أساليب التوجيه\* التي لا يستهان بها في إظهار كفاءة المتخاطبين التداولية، وإبداء ما كمن من معارف مختزنة في سياقهم التخاطبي، والتي لا يجليها إلا هو.

1- السابق: الصفحة نفسها.

2- نفسه: ص: 186.

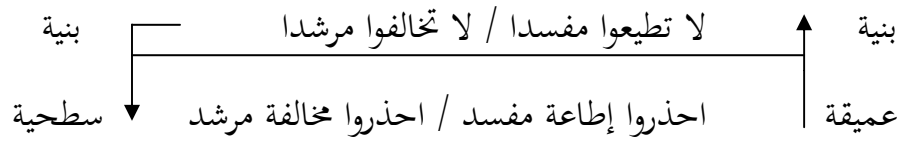
3- بوقرة (نعمان): المصطلحات الأساسية...، ص: 138.

4- ابن عقيل (عبد الله بن عبد الرحمن): شرح ابن عقيل على ألفية مالك، المكتبة التجارية الكبرى بمصر، دط، دت، ج2، ص: 300.

\*أرى أن أسلوب التحذير/ الإغراء، لما يأخذا بعد مكانتهما في الدراسات اللغوية العربية وبقيتا مقتصرين على التداول النحوي الصرف، بدليل إقصائهما من كتب البلاغة.

ومن أمثلة "التحذير" بمعناه العام قول (عبد الرحمن بن عوف): «...احذروا نصيحة الهوى ولسان الفرقة»<sup>(1)</sup> فقد أفاد الفعل "احذروا" معنى التحذير معجمياً وإن ورد على صيغة فعل الأمر.

وقوله في الخطبة نفسها، «لا تطيعوا مفسداً ينتصح، ولا تخالفوا مرشداً ينتصر»<sup>(2)</sup>، ففي هذين التَّهْيِينِ تحذير كامن مؤداه، أحذركم إطاعة مفسد ينتصح، وأحذركم مخالفة مرشد ينتصر.



وقد ظل هذا المفهوم مغيباً، لأنه «لا يناسب مهمة النحو التي هي البحث في أحوال الكلم إعراباً وبناء»<sup>(3)</sup> وإن كان يناسب غير النحو لما يشيعه من حياة في رميم ما وصلنا من تراث.\*

ويمكن حمل كثير من نواهي الشرع على هذا المعنى، كقوله ﷺ في خطبة حجة الوداع: «... فلا ترجعن بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»<sup>(4)</sup>.

أي أحذركم أن ترجعوا على هذه الحال بعدي، ففيه هلاككم، وفناء دولتكم وذهاب ربحكم، وهو معنى مولد من السياق، ومما يصاحب التلفظ من إشارات وإيماءات، وحركات جسدية.

### هـ) العرض والتحضيض:

وهما أسلوبان متقاربان في الوظيفة، لأن «الجامع بينهما التنبيه على الفعل إلا أن

1- الجمهرة: ص: 97.

2- نفسه: ص: 98.

3- عباس حسن: النحو الوافي، ج4، ص: 126.

\* يتعدى هذه المعاني ما يسمى الأغراض البلاغية التقليدية، إلى البحث في الدلالات المفهومية التي يرشحها السياق الفعلي لا المفترض كما في حال الغرض البلاغي الذي هو أشبه بالمتخيل/المجرد.

4- الجمهرة: ص: 59.

التحضيض فيه زيادة تأكيد وحث على الفعل، فكل تحضيض عرض لأنك إذا حضضته فقد عرضت عليه»<sup>(1)</sup> وهي في الأصل جمل خبرية في معنى الأمرية<sup>(2)</sup> وأدواتها هي: لولا، لو ما، هلا، ألا، إلا ولو أحيانا، والشائع عن النحاة أنها مركبة من كلمتين، وبسبب هذا التركيب أدت معنى جديدا<sup>(3)</sup>.

والعرض هو الطلب برفق ولين، أما التحضيض فهو الطلب بشدة<sup>(4)</sup>، فالفرق بينهما أن التحضيض مشتمل على الحث والإزعاج، والعرض على اللين والتأدب<sup>(5)</sup> فهما مختصان حينئذ بالفعل، فإذا قصدت بهما التوبيخ كان الفعل ماضيا، وإن قصدت الحث على الفعل كان مستقبلا<sup>(6)</sup>.

تنبثق القيمة التوجيهية لهذين الأسلوبين من معنى الطلب الكامن فيهما، "معنى الأمرية" وكثيرا ما يعتمد في تحصيل معانيها المتداخلة عل طريقة التلفظ بهما في السياق.

إذ «يظهران غالبا في صورة المتكلم وفي اختيار كلمات رقيقة دالة على الرفق»<sup>(7)</sup> أو على ضده، ومن الأمثلة القليلة التي وجدناها في المدونة، قول معاوية لوفد علي بن أبي طالب، وقد عرضوا عليه التنازل عن الخلافة، والسمع والطاعة لصاحبهم، فقطع عليه الكلام - أي على أبي عمرة - وقال: «هلا أوصيت صاحبك بذلك»<sup>(8)</sup>.

إن قطع معاوية كلام أبي عمرة، في سياق التخاطب، يعد مؤشرا قويا على الحالة النفسية

1- السيوطي (جلال الدين): همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تح: عبد الحميد هندواوي، المكتبة التوفيقية، دط، دت، مصر، ج2، ص: 390.

2- عباس حسن: النحو الوافي، 4 / 814.

3- ينظر نفسه: 4 / 512.

4- ينظر: الجوجري (شمس الدين محمد بن عبد المنعم): شرح شذور الذهب، تح: نواف بن جزاء الحارثي، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط2004، ج2 / 838.

5- ابن هشام (جمال الدين): مغني اللبيب عن كتب الأعراب، ج2 / 103. عبر الموقع:

<http://www.ALWRAK.NET> يوم: 20/04/2004 في الساعة: 22:00.

6- ينظر: ابن عقيل، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، ج2 / 394.

7- عباس حسن: النحو الوافي، ج4 / 369.

8- الجمهرة: ص: 154.

التي صاحبت تلفظه بالخطاب في صورة التوبيخ والتنديم، المتولدين من مجاورة الحرف "هـ" للفعل الماضي "أوصيت"، فتنزل في إفادة الطلب منزلة اللوم، والتوبيخ لترك الفعل في الماضي، مع القدرة عليه<sup>(1)</sup>، فكأن معاوية، يوبخ بشير بن عمرو، على تجاوزه حدود اللباقة أولاً، بأن خلع عنه صفة الخليفة، وأثبتها لصاحبه دون وجه حق، ثم أمره متنصحا «يأمرك - أي علي - بتقوى الله، إجابة ابن عمك...» ثانياً.

ويكون التنعيم في مثل هذه السياقات، حكماً فصلاً، يرجح الدلالة المقصودة من لدن المرسل، ويعزز الطبيعة التوجيهية للملفوظ في نفس المرسل إليه.

وكثيراً ما يسهم هذا العامل المصاحب "التنعيم" في إثراء الدلالة، وتوسيع حقلها لتشمل معانٍ كثيرة، كما في خطاب (عكرشة بنت الأطرش) السابق، المحرض على (معاوية) الذي تقول فيه: «... فالله الله عباد الله في دين الله»<sup>(2)</sup>.

فمن «أدوات التحضيض تكرار كلمة (الله)، كما تتكرر كلمة (إياك) في التحذير»<sup>(3)</sup> لما تتضمنه من حض على إتيان الفعل، بالصورة التي ترضي الله ولا تسخطه، ومن ثم تكرر هذا اللفظ أربع مرات، إمعاناً في تقرير الطلب، وغرسه في نفس المرسل إليه.

#### (و) النداء:

من أنواع الإنشاء الطلبي، وهو «استدعاء مطلوب من مخاطب أو في تقدير مخاطب، باسمه مع (يا) وأخواتها لفظاً أو تقديراً، وقيل: هو تصويتك لمن تريد إقباله عليك لتخاطبه»<sup>(4)</sup>، وحروفه خمسة هي: هي، يا، وأيا وهيا وأي والهمزة<sup>(5)</sup>.

ولا يكون النداء فعلاً توجيهياً إلا إذا كان لتنبيه المرسل إليه، وتحفيزه للقيام بفعل أو ردّ

1- ينظر: الخطيب القزويني: الإيضاح، ص: 81.

2- الجمهرة: ص: 191.

3- الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 360.

4- النيلي (تقي الدين إبراهيم بن الحسن): الصفوة الصفية في شرح الدرة الألفية، تح: محسن بن سالم العميري، مركز إحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة- العربية السعودية، دط، 1415هـ، ج 1 / 185.

5- ينظر: أحمد مختار عمر (وآخران): النحو الأساسي، منشورات ذات السلاسل، الكويت - الكويت، ط 1994، 4، ص: 308.

فعل معين، كقول النبي ﷺ: «أيها الناس، كأن الموت فيها على غيرنا قد كتب...»<sup>(1)</sup>.  
 وقوله: «يا معشر قريش (أو يا أهل مكة) ما ترون أني فاعل بكم...»<sup>(2)</sup>. وقد يصدره بحرف من حروف التنبيه والاستفتاح كقوله: «ألا أيها الناس، توبوا إلى ربكم قبل أن تموتوا...» ومثل هذا كثير في كلامه ﷺ، وما كان بدعا من الكلام<sup>(3)</sup>.

وإن كان استعمال أبي بكر له - النداء - أقرب في هذا الخطاب، لما ذكرناه من دفع المرسل إليه نحو فعل موجه، إذ أقبل ومعه عمر وأبو عبيدة حتى دخلا سقيفة بني ساعدة والأنصار مجتمعون فقال: «أيها الناس، نحن المهاجرون، أول الناس إسلاما وأكرمهم أحسابا...»<sup>(4)</sup>.

ففي هذا الخطاب بالنداء، توجيه للمرسل إليه، بأن ينتبه، ويلتفت، ويستجمع كل جهده ليتلقى مقالة المرسل، التي تشكل بالنسبة إليه رأيا مخالفا يتشوق إلى سماعه.

ونحن نتصور هذا المشهد، مشهد اقتحام أبي بكر وصاحبيه، خلوة الأنصار الخالصة، وكيف فجأهم بخطابه مستفتحا: بـ«أيها الناس...» وكيف أداها، مضمنة معاني الحزن، والأسف، وهو بعد لما يدفن صاحبه رسول الله، تتخللها نبرة الحزم، وعبرة الأسى، وتخنقها شهقة الإرث الثقيل والحمل العظيم، الذي لا شك استشرع بوادره، وانتهى إليه بعض إصره، وهو يسمع ويرى تلاحي الفريقين بالسقيفة.

ومن هنا تبدى وظيفة النداء التوجيهية، التي تعمل على عطف الأعناق بالالتفات مظهرا، وعلى ليّ القلوب بالإقبال مخبرا، وجدير بهذا الاستعمال أن يمثل لاتجاه بارز في تراثنا اللغوي، «يعنى بالمقام وما يتصل به من قرائن غير لفظية تشمل منزلة المتكلم والسامع وعلاقة كل منهما بالآخر، وحالة كل منهما النفسية والذهنية، وحركاته الجسمية، وسلوكه، والبيئة المكانية التي

1- الجمهرة: ص: 52.

2- نفسه: الصفحة نفسها.

3- ينظر: نفسه: ص: 55، 57، 60.

4- نفسه: ص: 63.

تشهد الحدث اللغوي، وجمهور المشاركين فيه»<sup>(1)</sup>، لأن الغرض الإنجازي من الطلبات هو جعل المرسل إليه يتأثر ليفعل شيئاً أو يخبر عن شيء، فهو بهذا المعنى: «ضميمة اسمية تشير إلى مخاطب لتنبيهه، أو توجيهه، أو استدعائه، وهي ليست مدججة فيما يتلوها من كلام بل تنفصل عنه بتنغيم يميزها»<sup>(2)</sup>، ولذلك أوردناه سلفاً ضمن الإشارات الشخصية لأنه لا يفهم إلا إذا كان له مرجع يعود إليه.

والتسليم بالدور الحاسم للتنغيم في إضفاء دلالة النداء، يقودنا إلى تبيين جهود المتوكل، وحسن تمثله لوظيفة المنادى في اللغة العربي، وما تتميز به عن سواها من اللغات الأخرى، وهو ما دعاه إلى إدراجها وظيفة جديدة من وظائف النحو الخمسة<sup>(3)</sup>.

وتظهر هذه الخاصية في الخطاب الندائي، عندما تدخل الأداة على الضمائر المنفصلة، مبهمة المرجع، أو متعدده، كنداء (عبد الرحمن بن عوف) ﷺ أصحابه، بقوله: «يا هؤلاء، إن عندي رأياً وإن لكم نظراً فاسمعوا تعلموا، وأجيبوا تفقهوا»<sup>(4)</sup>.

إذ تبدو القوة الإنجازية لهذه العبارة، في حالة خضوعها لحمولة دلالية مسبقة، لأنها لم تنطلق من مرجع واضح، مشترك بين المرسل والمرسل إليه، فصارت كأنها نداء لكل واحد منهم باسمه المقصور عليه، وإن أفادت الشمول.

كما نلمس الميزة نفسها، في ما يسمى "التناوب الحواري" عندما يتداول أكثر من متكلم على الخطاب، فيستغل كل منهم الوظيفة الندائية، لصرف المخاطبين على سماعه، والإعراض عن خصمه، ومن المواقف المجسدة لهذه التمثيلية الحوارية، ما دار بين (عمر بن الخطاب)، و(الحباب بن المنذر بن الجموح)، و(أبي عبيدة)، و(بشير بن سعد) في السقيفة:

فبعد أن خطب أبو بكر، قام الحباب بن المنذر فقال:

«يا معشر الأنصار، املكوا عليكم أمركم في الناس في فيئكم وفي ظلكم ولن يجترئ

1- نخلة (محمود أحمد): آفاق جديدة...، ص ص: 84-85.

2- نفسه: ص: 19.

3- ينظر: المتوكل (أحمد): الوظائف التداولية في اللغة العربية، ص: 7 (مقدمة).

4- الجمهرة: ص: 97.

- مجتزئ على خلافكم... فإن أبي هؤلاء إلا ما سمعتم، فمننا أمير ومنهم أمير».
- فقال عمر: «[ ويبدو أنه كان قائما ] هيهات لا يجتمع اثنان في قرن...».
- فقام الحباب بن المنذر: [ مرة أخرى، ويبدو أنه كان في مجمع الأنصار، يقوم كلما أراد أن يتكلم ]: «يا معشر الأنصار املكوا على أيديكم، ولا تسمعوا مقالته هذا وأصحابه...».
- فقال عمر: "إذن يقتلك الله، قال: بل إياك يقتل، فقال أبو عبيدة: يا معشر الأنصار، إنكم أول من نصر وأزر فلا تكونوا أول من بدل وغير".
- فقام بشير بن سعد - أبو النعمان بن بشير - فقال:
- «يا معشر الأنصار، إنا والله كنا أولى فضيلة في جهاد المشركين... ما أردنا إلا رضا ربنا، وطاعة نبينا والكبح لأنفسنا فما ينبغي لنا أن نستطيل على الناس بذلك»<sup>(1)</sup>.
- يحللنا هذا المشهد الحي، إلى قيمة (النداء) الإنجازية وما يؤديه من وظيفة في الاستعمال، بينها الاختلاف في الموقف النفسي الذي يعبر عنه المتكلم، والاختلاف في القوة التي يعرض بها الغرض الإنجازي، ثم الاختلاف في منزلة كل من المتكلم والسامع، وما يحيط بهما من عناصر الخطاب والسياق، وكذا الاختلاف في أسلوب أداء الفعل...<sup>(2)</sup>، كالتباين الشديد بين الإعلان والإسرار، ورفع الصوت وخفضه. ولنا أن نتصور ما كان عليه عمر، والحباب من "تصارع" خطابي، بلغ بهما مبلغا عظيما، حتى علت أصواتهما، وكيف كان الحباب حريصا لا يكل ولا يمل من التلطف للأنصار حتى يسمعوا مقالته، ولا نشك فيما كان يتعاضد به من أداء صوتي لعبارة "يا معشر الأنصار" الذي هو واحد منهم، يقوم ويجلس، ويفاوض، ويجادل بل ويهدد "هذا وأصحابه" - يقصد أبا بكر وصاحبيه - بالإجلاء من المدينة، أو يعيدها جذعة «أما والله لنعيدها جذعة»<sup>(3)</sup>.

ولنا - كذلك - أن نتصور، هدوء أبي عبيدة، وحسن تلاففه للأنصار، وثبات بشير بن

1- السابق: ص 63 - 65.

2- ينظر: نخلة (محمود أحمد): آفاق جديدة... ص 74-78، وبلغ بما (سيرل) اثني عشر مجلدا.

\* الجذعة: الشابة الفتية، يريد الحروب والغارات.

3- الجمهرة: ص 65.

سعد، وسعة أفقه، كل ذلك يمكن استجلاؤه من خلال طريقة التلفظ بالنداء. ولذلك قلما استعمل النداء في مثل هذا السياق، وحده، إذ يرد غالبا لتوجيه تابع، أو إرشاد مسترشد، أو إيحاء قريب<sup>(1)</sup>.

كما في الخطاب الآتي: «...فتقدم عدي إلى قومه، فاجتمعت إليه رؤساء طيء فقال لهم: «يا معشر طيء، إنكم أمسكتكم عن حرب رسول الله ﷺ في الشرك...وعليّ قادم عليكم، وقد ضمنت له مثل عدة من معه منكم فحِقُّوا معه...»<sup>(2)</sup>.

وكقول أبي موسى الأشعري وكان عامل علي على الكوفة: «أيها الناس: إن أصحاب النبي ﷺ الذين صحبوه في المواطن كلها أعلم بالله عز وجل وبرسوله ﷺ ممن لم يصحبه...»<sup>(3)</sup>. وقوله في خطبة أخرى: «أيها الناس: أطيعوني تكونوا جرثومة من جراثيم العرب يأوي إليكم المظلوم ويأمن فيكم الخائف»<sup>(4)</sup>.

وفي المدونة نماذج كثيرة يقوي بعضها بعضا في إثبات ما للنداء من مقدرة على توجيه المخاطبين، أو التمهيد لتوجيههم.

### ز) التوجيه بألفاظ المعجم:

ومن الألفاظ التي يستعملها المرسل ليؤدي التوجيه، «لفظ الوصية بمختلف تقليباتها الصرفية...[والنصح] والوصية تارة، أو التوسل، أو المناشدة، أو الإشارة، أو الاقتراح وغيرها كثير»<sup>(5)</sup>.

كقول الرسول ﷺ: «أوصيكم بتقوى الله، فإنه خير ما أوصى به المسلم المسلم، أن يحُضَّه على الآخرة»<sup>(6)</sup>.

1- الشهري: إستراتيجيات الخطابة، ص: 360.

2- الجمهرة: ص: 128.

3- نفسه: ص: 131.

4- نفسه: ص: 131.

5- الشهري: إستراتيجيات الخطابة، ص: 360.

6- الجمهرة: ص: 56.

وقوله: «أوصيكم عبادَ الله بتقوى الله، وأحثكم على طاعته»<sup>(1)</sup>.

فقد استعمل الرسول ﷺ بعض الألفاظ المنشأة، ليوجه المرسل إليه، إلى سلوك معين، ولو تمعنا في هذه الألفاظ، لوجدنا أنها محور التخاطب، من حيث توليدها للدلالات المؤثرة في المخاطب، كلفظي "أوصيكم، وأحثكم".

ويؤدي استغناء المتكلم عنها، أو استبدالها بما ينوب، إلى إضعاف القوة الإنجازية التي كانت تتمتع بها قبل.

ومن ذلك استعمال لفظ "أشيروا" في مثل قول علي رضي الله عنه، حين دعا من كان معه من المهاجرين والأنصار فجمعهم، ثم حمد الله وأثنى عليه، وقال: «أما بعد: فإنكم ميامين الرأي، مراجيح الحلم، مباركو الأمر مقاويل بالحق وقد عزمنا على المسير إلى عدونا وعدوكم، فأشيروا علينا برأيكم»<sup>(2)</sup>.

إن المتمعن في هذا الخطاب على وجازته، وإحكامه، يدرك رغبة الإمام عليّ الحثيثة في توجيه أصحابه توجيهًا خاصًا، فيه من التأني والتعقل ما يمنعهم من التسرع، وعدم تقدير العواقب، ولذلك حضرهم، ومهد لهم بما يهيئهم لاستنباط الأصوب من القول، وكأنه يقول: لا يتكلمن منكم إلا من حاز هذه الصفات، أن يكون ميمون الرأي، راجح الحلم، مبارك الأمر مقوال الحق، ثم أعقب ذلك بطلب الإشارة عليه، وهنا يظهر ما ذكرنا من مركزية هذا الفعل، في إنتاج الخطاب.

ومن ألفاظ التوجيه المعجمية، لفظ (أنشدك) وهو من (نشد) قال صاحب لسان العرب: «نشدت الضالة إذا ناديت وسألت عنها، وأنشدها عزفها... والناشد المعرف (الذي ينشد ضالته) وهو من النشيد أي رفع الصوت أي سألتك بالله برفع نشيدي أي صوتي، ونشدتك الله، نشدة، ونشدة ونشدانا، استحلقتك بالله»<sup>(3)</sup>. وترد بمعنى أستحلفك، ونشدتك، سألتك

1- السابق: ص: 57.

2- نفسه: ص: 140.

3- ابن منظور: لسان العرب، ج 6/ 4422.

وأقسمت عليك وطلبت ورغبت<sup>(1)</sup>.

وقد ورد هذا اللفظ في خطاب أبي عمرة لمعاوية لما وفد عليه من قِبَلِ عليٍّ وقال له: «يا معاوية: إن الدنيا زائلة، وإنك راجع إلى الآخرة وإن الله عز وجل محاسبك بعملك، ومجازيك بما قدمت يداك، وإني أنشدك الله عز وجل أن تفرق جماعة هذه الأمة، وأن تسفك دماءها بينها»<sup>(2)</sup>.

ويظهر أن اختيار أبي عمرة لهذا اللفظ، كان باعتبار ما يطفح به من دلالات ومعاني، على ما ذكرنا، ففيه معنى القسم، والطلب والرغبة، والاستخلاف، وفيه معنى رفع الصوت فوق المعتاد، فكأنه يستعين بما فيها من حمولة، وشحن معنوي، لدفعه إلى القيام بفعل غير معتاد، وهو التنازل عن الخلافة، وحقن دماء المسلمين، وقد أدرك معاوية مرماه، الذي قصد إليه، فقطع عليه كلامه<sup>(3)</sup>.

وهكذا، نسجل السند التوجيهي الذي تقدمه ألفاظ المعجم للخطاب، وتتجه للمرسل في سبيل تحقيق هدفه الخطابي وإصابة مرماه من الكلام، لأن البعد التداولي للخطاب يقوم على تكافل الأنظمة بضوابطها الداخلية والخارجية، بما يحقق نفعية الخطاب، وفق اهتمام التداوليات «وهو أمر لا يتحقق إلا بمراعاة استعمال اللغة من خلال التركيز على الترابط بين النظامين»<sup>(4)</sup> السابقين الداخلي والخارجي.

### ح) ذكر العواقب:

وهو من «الآليات المباشرة، وبالتالي الصريحة، وهذا ما ما يستعمله المرسل ليوجه المرسل إليه وفق ما يريده هو غير مكترث بمنفعته»<sup>(5)</sup>.

- 1- ينظر: ابن سيدة المرسي (أبو الحسن علي بن إسماعيل): المحكم والمحيط الأعظم، تح: عبد الحميد هنداي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، دط، 2000، ج 29/8.
- 2- الجمهرة: ص: 154.
- 3- نفسه: ص ص: 154 - 155.
- 4- دي بوغراندي (روبرت): النص والخطاب والإجراء، تر: تمام حسان، عالم الكتب، ط 1998، 1، بيروت - لبنان، ص: 86.
- 5- الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 361.

ومن السياقات التي تنجح هذه الآلية في تقمصها، وإدراك أبعادها، سياق الوعظ والإرشاد، ومقام التدافع السياسي...

إن كثيرا من الخطابات التي تتألف منها فترة صدر الإسلام، تعتمد إلى انتهاج هذا النهج الخطابي الموجه للعقل، بذكر ما ينفعه أو ما يضره، في غير الصور الكلامية التقليدية كالأمر والنهي.

تكاد تشترك هذه الآلية في ما تصبو إليه من أغراض، وفي الشكل الذي تتخذه لغويا مع آليات الإستراتيجية التلميحية، لولا ما تمتاز به عنها، من تضمن للأفعال التوجيهية الصريحة كالأمر، والنهي المغلفة بطبقة سميكة من الحيل الأسلوبية، التي تخفف من حدة شعور المرسل إليه بالزاميتها، أو وجوبها.

ومن أشكال هذا التوجيه، بتمثيل العواقب للمتلقي، وتحسيدها على مرأى منه، حيث يصبح كل فعل منها منوطا بغيره، وتصبح الأفعال في الخطاب، شبكة من التوجيهات غير المباشرة، قول طلحة مطالباً بدم عثمان: «إن في ذلك إعزاز دين الله عز وجل وسلطان، وأما الطلب بدم الخليفة المظلوم فإنه حد من حدود الله، وإنكم إن فعلتم أصبتم وعاد أمركم إليكم، وإن تركتم لم يقيم لكم سلطان، ولم يكن لكم نظام»<sup>(1)</sup>.

فقد تجنب المرسل في هذا الخطاب، إيراد صيغ الأمر والنهي في صورها الصريحة، لاعتبارات معينة؛ سياقية، وغير سياقية، ولكنه في المقابل سعى إلى توجيه (المرسل إليه) الوجهة التي يريدها، بتركيب خطابي أساسه ذكر ما يترتب على ترك الفعل، أو إقراره من عواقب، معتمدا على الخاصية المودعة في بعض الحروف كحروف الشرط، والتفصيل، كقوله مثلا:

(1) "أما الطلب بدم الخليفة المظلوم، فإنحد من حدود الله".

(2) "إنكم إنفعلتم أصبتم" — وعاد أمركم إليكم".

(3) «وإن تركتم لم يقيم لكم سلطان — ولم يكن لكم نظام».

1- الجمهرة: ص: 127.

فقد حاول (المرسل) أن يحيط في خطابه بعواقب (الفعل) و(الترك) ليحصر توجه المرسل إليه، ويلزمه، ويدفعه إلى السلوك الذي يريده، مستعينا بأدوات لغوية كأدوات التوكيد، والشرط، وكإضافة "الحد" إلى "الله"، ونعت عثمان "بالخليفة المظلوم".

ونجد مثل هذا التوظيف في خطاب الحسن بن علي لأهل الكوفة يحثهم على نصرته أبيه: «... فإن الخذلان يقطع نياط القلوب، وإن الإقدام على الأسنة، نخوة وعصمة، لم يتمنع قوم قط إلا رفع الله عنهم العلة، وكفاهم حوائج الذلة، وهداهم إلى معالم الملة»<sup>(1)</sup>.

فقد عمد (المرسل) إلى تعداد صفات ومزايا المتمنعين عن الضيم، الأباة، الذين لا يبالون أن يلقوا الأسنة بصدورهم العارية، والسيوف بصفائح أعناقهم الحاسرة، وفي هذا المديح والثناء، أوامر ونواهٍ ثاوية، فكأنه يقول لهم: أقدموا، تُعزوا، وتمنعوا، ترفعوا، وتهدوا وتكفوا. وفي نطاق البحث أمثلة كثيرة، طويناها بما نشرنا من نماذج مؤدية عنها.

#### ط) التوجيه المركب:

وهو أن يجمع المرسل بين أكثر من أسلوب توجيهي في السياق الواحد، كاستعمال الأمر والنهي، معضدا أحدهما الآخر في تحقيق الهدف من الخطاب، مثل الخطاب النبوي الآتي: «...أحبوا من أحب الله، وأحبوا الله من قلوبكم ولا تملوا كلام الله وذكره، ولا تقسوا عليه قلوبكم، اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، اتقوا الله حق تقاته»<sup>(2)</sup>.

فقد راوح النبي ﷺ بين أسلوبَي الأمر والنهي، لا على سبيل التعارض المعنوي، بل ليعلم كل منهما الآخر، ويثبت أحدهما، ما شرع فيه من معاني عند الآخر.

ومنه قول الحباب بن المنذر:

«يا معشر الأنصار، املكوا على أيديكم، ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه، فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر»<sup>(3)</sup>.

1- السابق: ص: 153.

2- نفسه: ص ص: 43، 54.

3- نفسه: ص: 64.

ففي هذا الخطاب، جمع بين النداء "يا معشر الأنصار" والأمر "أملكوا أيديكم" والنهي "ولا تسمعوا..." هو تركيب أراد به المرسل أن يوجه به المرسل إليه لأكثر من فعل، جامعا بين معان يبدو تناقضها، إلا أنها في سياق الخطاب غير ذلك.

وقد يجمع (المرسل) بين أسلوبين أو أكثر، فيجعل أولهما ممهدا لها، إذ تبدو مركبة تركيبا استنتاجيا، لا ينفك بعضه عن بعض، كالاستفهام والأمر، النداء أو الاستفهام والنهي، أو هذه الأساليب جميعا، كما في قول عثمان: «...اعتبروا بما مضى ثم جدّوا ولا تغفلوا فإنه لا يُغفل عنكم، أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين آثروها وعمروها، ومتعوا بها طويلا، ألم تلفظهم؟ ارموا بالدنيا حيث رمى بها الله واطلبوا الآخرة»<sup>(1)</sup>.

فقد ألّف عثمان رضي الله عنه خطابه من الأمر، والنهي ثم ركب عليهما الاستفهام، وجعله أقوى في الدلالة عليهما، وفي الحثّ على معانيهما.

– اعتبروا ثم جدّوا ← لا تَغْفُلُوا  
← أين أبناء الدنيا؟  
← ألم تلفظهم؟

أي: إن لم تعتبروا وتجدّوا، غفلتم عن الآخرة، فكنتم أبناء الدنيا المفلوظين. أو كالجمع بين الأمر والنداء، حيث يجعل أحدهما مطية، للآخر، يخفف حدته، ويستميل به قلوب المخاطبين، كقول (الزرقاء بنت عدي): «...فصبرا يا معشر الأنصار على الغصص»<sup>(2)</sup>.

فقد اعترضت بالنداء جملة الأمر، زيادة في إمضائه، وطلبا لإقبال المخاطبين عليه، إذ الفرق واضح بين التركيبين من حيث قوّتهما الإنجازية:

أ- فصبرا على الغصص، يا معشر المهاجرين والأنصار.

ب- فصبرا- يا معشر المهاجرين والأنصار- على الغصص.

ويمكن أن يرتقي هذا الاستعمال إلى حد التركيب المزجي، فهو - بما يؤديه من إنجاز -

1-السابق: ص:101.

2-نفسه: ص:197.

أرفع درجة مما سبق ذكره من النماذج، لأن تأثيره في المتلقي، راجع إلى تمازج أسلوبين طلبيين لكل منهما خطره وأثره، ومزيتة الخطائية، التوجيهية:

(أ) صبرا على الغصصيا معشر المهاجرين والأنصار

$$2 \ 1 = (1^+ \ 1)$$

(ب) 1+2 يا معشر المهاجرين والأنصار صبرا على الغصص

$$("1+1)=1 \ 2$$

(ج) "1+2+1 صبرا يا معشر المهاجرين والأنصار على الغصص  

$$2'1 \quad "1$$

فلا شك أن إقحام النداء، وسط أسلوب الأمر، هو ما أكسب هذا التركيب قوة توجيهية، فاقت ما في النموذجين (أ) و(ب)، هذا - طبعا - بالنظر إلى السياق، مقام التخاطب، ألا وهو الحز على الجهاد، والوقوف بين الصفيين، وإيقاد الحرب<sup>(1)</sup>.

إن الإستراتيجية التوجيهية، بما حفلت به من آليات وأدوات لغوية وغير لغوية، لهي إحدى الإستراتيجيات التي تتباين حولها الرؤى، لما تتميز به من مباشرة، وصراحة في طلب مقصدها، وما تسم به العلاقات الاجتماعية من جدية، وبعد عن التضامن، وتلافٍ لمبدأ التأدب، والتأدب الأقصى، فهي إحدى الإستراتيجيات المؤسسة للعلاقات الواضحة بين طرفي الخطاب، الملزمة لهما بالتواصل المفعم بصيغ الطلب، من أمر ونهي، واستفهام، ونداء... صريح وغير صريح، لكنها في نهاية المطاف، لا تتوانى في إظهار سلطة المرسل، ومقصدية، اللتين يجوز منازعتهما إياه في الإستراتيجيتين؛ التلميحية، والحجاجية، ولهذا يبقى استعمالها محدودا في سياقات خطائية، تتطلب هذا النوع من التعامل الواضح والصريح، وتبتعد كما أسلفنا عن الخطابات المرنة، التي لا تتلاءم مع طبيعتها الإنجازية.

1- السابق: الصفحة: نفسها.

# المبحث الثاني:

## الإستراتيجية الإقناعية

## \*تمهيد:

تعد الإستراتيجية الإقناعية إحدى أشد إستراتيجيات الخطاب، حرصا على تجسيد هدف المرسل من إنتاج خطابه، وأكثرها تركيزا على تحصيل الوسائل اللغوية وغير اللغوية، لإيجاد سلطة ما يتخذها المتكلم وسيلة لتحقيق منفعه من الخطاب، كما أنها تعتبر من أقدم الطرق الخطابية التي لجأ إليها الإنسان، وهو يعرض أفكاره، ويبيدي آراءه، ويسعى إلى التمكين لها بواسطة اللغة، في واقف عدة دعت إليها؛ فقد كانت هذه الإستراتيجية-مثلا- واضحة في القرآن الكريم وأقوال الرسول ﷺ، وخطابات من بعده من الخلفاء، وإن كنا لا نعدمها قبل ذلك في «المنجزات الخطابية والمنافرات القبلية في العصر الجاهلي»<sup>(1)</sup>، ثم تنامت مع مجيء الإسلام، وتبلورت مع تقعيد المعارف والعلوم اللغوية، والدينية، والطبيعية، وصارت مظهرا عاما وطابعا مميزا للحركة الفكرية والفلسفية والعلمية إبان الدولة العباسية، وما تلاها، لظهور الحاجة الماسة إلى الحجاج والجدل من جهة، وذيوع ترجمات رائدة في هذا المجال تمثلت - تحديدا - في المؤلفات الأرسطية، والأفلاطونية من جهة أخرى، وقد استتبع ذلك، ظهور مناقشات، ومراجعات واستدراكات من الأهمية بمكان، عبرت عنها تأليف ابن سينا، والفارابي، وابن رشد وغيرهم<sup>(2)</sup>.

كما ظل مصطلح "الحجاج" لصيقا بالخطابة، التي شكلت هي الأخرى وسطا مثاليا، ومضمارا واسعا تفنن فيه المتكلمون وأصحاب الفرق، والمذاهب، والفقهاء، بإجراء وسائل الإقناع، والجدل، وتبكييت الخصم، وإلزامه الحجة، حتى غدت الخطابة العربية في تلك الفترة "خطابة حجاجية" ذات طابع عقلي صرف<sup>(3)</sup> وصارت المجال المفضل للحجاج، كما أنها باتت تمثل «آلية الخطاب الإقناعي [وكان] فن الخطابة فن الخطاب الفاعل فالقول هنا فعل كما

1- الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 447.

2- الزماني (كمال): حجاجية الصورة في الخطابة السياسية لدى الإمام علي رضي الله عنه، عالم الكتب الحديث، إربد- الأردن، ط1، 2012، ص: 101.

3- نفسه: الصفحة نفسها.

هو شأن أفعال اللغة»<sup>(1)</sup> ومن ثمّ وجدت العلاقة الطبيعية بين الحجاج والخطابة<sup>(2)</sup>، بل بتعبير أدق، بين الإقناع بالحجاج وبين الخطاب، لأن الإقناع قد يتأتى بغير الحجاج، كما قد يحيا في غير الخطاب، وسيوضح ذلك فيما هو آت من المباحث، وإن كان السؤال الذي يعترض سبيل حوضنا غمار هذه الإستراتيجية هو ما المقصود بالإقناع، وكيف يكون تعلقه بالحجاج؟

## 1) الحجاج والإقناع:

تتميز اللغة بأنها ذات منزع حجاجي، متأصل فيها وإن كانت هذه الخصيصة ألصق بالخطاب منها باللغة، إلا أنه يمكن الحديث عن قاسم مشترك، يمدّ كلا منهما، في صورته وهيئته، وهو منشغل في الحالتين بتمثيل وظيفته المنوطة به، أقصد الفعل الكلامي في ارتباطه بكل من الخطاب واللغة، وأدائه الوظيفي "التأثير والإقناع"، وهما الوظيفتان اللتان منحهما "أوستين" و"سول" للأفعال التأثيرية تحديداً، حين تؤدّي في مقامات وسياقات معينة<sup>(3)</sup>.

ومن هنا يشرع القول، بأن الدور الحجاجي لأفعال الكلام عامة، متوقف على توافر عدة شروط منها ما يخصنا في هذا المقام، وهو، مقصدية الخطاب وفاعلية الإستراتيجية التي يتوخاها المرسل ومدى التزامه بما سماه "سول" بالشروط التمهيديّة التي سبق وأن تحدثنا عنها. وقد يتبادر إلى الأذهان في ثنايا هذا التقديم سؤال منهجي، مفاده، ما العلاقة الموجبة للعقد بين أفعال الكلام من جهة، والحجاج والإقناع من جهة أخرى؟

ومنه نقول، إن الأصل في الفعل الكلامي، أنه لا غرضي، أي لا يحمل هدفا مستقلا في ذاته، خارج الخطاب — أو النظم بمفهوم الجرجاني — وأن ما يجعله ذا طبيعة معينة، جملة أمور منها؛ اتساقه ضمن إطار خطابي محدد، أو خضوعه لإرادة الإستراتيجية التي يتوخاها المرسل، ومن ثمّ يقع موقعه، ويحقق وجوده، وقد يتغير هذا الموقع، وتبدل الوظيفة\*، إذا ما تغير السياق العام المؤطر له، أو إذا ما تعدّلت القوى المشكلة للمنظومة المؤثرة فيه.

1-ريكور (بول): الخطابة، الشعرية، التأويلية، تر: ياسين المنصوري، ضمن الحجاج، مفهومه ومجالاته، دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، إعداد وتقديم: حافظ إسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث، إريد — الأردن، ط1، 2010، ج3، ص:206.  
2- ينظر: أعراب (الحبيب)، الحجاج والاستدلال الحجاجي، ضمن(الحجاج مفهومه ومجالاته)، ج3، ص ص:42-47.  
3- ينظر: صحراوي (مسعود): في الجهاز المفاهيمي للدرس التداولي المعاصر، ضمن (التداوليات علم استعمال اللغة)، ص:59.

ويظهر هذا التنوع الوظيفي في اللغة العربية - مثلاً - على مستوى الروابط والأدوات، التي لا «يمكن أن تعرف صفتها الحجاجية إلا بإحالتها على قيمتها الإنجازية داخل الخطاب، كألفاظ التعليل، والإضراب، والاستدراك، والنفي والقصر، وقد يمتد هذا التعدد الوظيفي للعامل الحجاجي الواحد، إلى بعض الآليات البلاغية كالاستعارة، والكناية، والتشبيه أو الاستفهام، والأمر والنهي... الخ»<sup>(1)</sup> مما يجعل تحقق الوظيفة الحجاجية للملفوظ مرتبطاً بالإستراتيجية الخطائية الخاضع لها خطاب المرسل، ولذلك ألحنا في ثنايا الفصل السابق، إلى البعد الحجاجي لبعض الأدوات والآليات إذ على الرغم من كون الخطاب موسوماً بالطابع التلميح، إلا «أن الأدوات الصريحة [كانت] أظهر في أصل وجود ظواهر الحجاج وفي قوتها»<sup>(2)</sup>.

إن الخلاصة التي نستنتجها، ونسجلها جواباً للسؤال السابق، هي أن نظرية الحجاج في اللغة إنما انبثقت وولدت من رحم نظرية أفعال الكلام التي مهد لها "أوستين" و "سورل" وطورها - في شقها الحجاجي - "ديكرو" الذي اقترح في هذا الإطار إضافة فعلين لغويين هما: «فعل الاقتضاء، وفعل الحجاج»<sup>(3)</sup>.

وقد كان لهذا الاقتراح أثره البالغ في الدراسات التداولية، باعتبارها المجال الشرعي الذي يجمع في غير استحياء بين مكونات تبدو غير متجانسة، أو لا يصلح التوليف بينها في نشاط إنساني واحد، وهي: "اللغة، والمنطق والسياق" ولعلها من هنا كانت مرقعة الدراويش في منطق البعض<sup>(4)</sup>، أو "غرفة مهملات اللسانيات" في نظر البعض الآخر<sup>(5)</sup>.

\* \_ أشار المتوكل إلى هذا التعدد الوظيفي في المستوى العلاقي، ينظر: الخطاب وخصائص اللغة العربية، دراسة في الوظيفة والبنية والنمط، دار الأمان، الرباط \_ المغرب، ط1، 2010، ص: 41\_42.

1- ينظر: الشهري (عبد الهادي بن ظافر): آليات الحجاج وأدواته، ضمن (الحجاج مفهومه ومجالاته)، ج1، ص: 79، وينظر: بوقرة (نعمان): الخطاب الأدبي ورهانات التأويل، ص: 125، وينظر أيضاً: الحباشة (صابر): من إشكاليات تطبيق المنهج الحجاجي على النصوص، ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته، ج4، ص: 193.

2- صحراوي (مسعود): في الجهاز المفاهيمي للدرس التداولي المعاصر، ص: 61.

3- العزاوي (أبو بكر): اللغة والحجاج، العمدة في الطبع، ط1، 2006، ص: 15.

4- ينظر: بلخير (عمر): تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، ص: 7.

5- ينظر: صحراوي (مسعود): في الجهاز المفاهيمي للدرس التداولي المعاصر، ص: 40.

ومع ذلك ظلت اللسانيات التداولية، وفيّة لوظيفة اللسانيات عموماً، والمتمثلة في الحفاظ على وظيفة الخطاب التواصلية\*، وحشد كل ما من شأنه تعزيزها، بين طرفيه، وطفقت لذلك، تحتوي كل التخصصات المساعدة على تحقيق هذه الغاية، كعلم النفس، وعلم الاجتماع، والفلسفة، وغيرها من العلوم الإنسانية والاجتماعية على اختلاف وسائلها وتعدد غاياتها، فأدخلت ضمن نطاق بحثها "الدرس الحجاجي" الفلسفي، وكسته حلتها وخلعت عليه ميزاتها، على اعتبار «أن كل اتصال هدفه الإقناع»<sup>(1)</sup> وأن الإقناع والحجاج جزآن «من عملية واحدة، ولا اختلاف بينهما إلا في التوكيد EMPHASIS»<sup>(2)</sup> بمعنى أن الحجاج يولي اهتماماً خاصاً للدعوى المنطقية، كما لا يهمل أيضاً الدعوى الأخلاقية والعاطفية، أما الإقناع فيتسلط على التوكيد الذي يُبطل ضده<sup>(3)</sup>.

ومن أقدم التعريفات التي وصلتنا للإقناع، تعريف أرسطو الذي يعتبر فيه «مسلمة الإقناع عملية خطابية يتوخى بها الخطيب تسخير المخاطب لفعل أو ترك بتوجيهه إلى اعتقاد قول يعتبره كل منهما (أو يعتبره المخاطب) شرطاً كافياً ومقبولاً للفعل أو الترك»<sup>(4)</sup>.

إذ يتضح من خلال هذا التعريف، تمحور فعل الإقناع عند أرسطو حول الخطيب بما يمثله من قيمة ووزن تواصلية داخل الدارة التواصلية، علاوة على امتلاكه زمام العملية الخطابية بأسرها، فهو الفاعل الأول، المتلفظ، ذو الإرادة الكاملة في إنشاء "الفعل التواصلية" وتحريك رآكه، ثم هو في النهاية من يقرر بلوغ التواصل حدّه الغائي، من عدمه.

وقد أدى انتقال هذا المفهوم إلى الثقافة العربية الإسلامية، عصر بني العباس - مع ما وجده من استعداد فطري، وقابلية تبلورت إثر توارد المعارف الدينية وتوافر عوامل التدوين،

\*يعد (دايك) أبرز من مكن لهذا الطرح بعد دعاوى (تشومسكي) النافية عن اللغة سمتها التواصلية؛ " بخلاف ما يعتقد تشومسكي (1980 ب) من أن اللغة هي مجموعة من الجمل يتوسل للتعبير عن الفكر في استقلال عن رقابة المثيرات... برهن ديك (ديك 1986) على أن الوظيفة الأولى للغة هي التواصل " جريا على آراء فلاسفة اللغة العادية، أمثال : سورلوس تراوشن ينظر: البوشيخي: التواصل اللغوي، ص: 36.

1- العبد (محمد): النص الحجاجي العربي، دراسة في وسائل الإقناع، ضمن (الحجاج مفهومه ومجالاته)، ج 4، ص: 7.

2- نفسه، ص: 6.

3- نفسه، الصفحة نفسها.

4- العشراوي (عبد الجليل): الحجاج في الخطابة النبوية، عالم الكتب الحديث، إربد - الأردن، 1، 2012، ص: 16.

والتأليف والتعليم\* - إلى احتفال «المؤلف العربي بالطبيعة الحجاجية لتراثه، وسعيه للمزاوجة بين الوافد والرافد، مثل ما اضطلع به الجاحظ حين انطلق من واقع حال الخطابة العربية القديمة، فجاءت نظرتة لشكل التلقي منسجمة مع ما تعتمد تلك الخطابة من الطلاوة والحلاوة والفخامة والجلالة وما لذلك من تأثير السحر في لب المتلقي وتأكيدها على أهمية المقوم الصوتي في مقام الاحتجاج»<sup>(1)</sup>.

ويندرج وعي الجاحظ المبكر، بالقيمة الحجاجية للكلام، ووظيفته، ضمن مشروع مماثل، يروم تقنين الفعل الخطابي، باستقصائه في المقامات الممكنة، المتحققة وغير المتحققة، ولذلك لا يمكن عدّ ما أورده الجاحظ من نماذج نظرية (كرسالة بشر بن المعتمر، وآراء الأقدمين في البلاغة والبيان)، وأخرى تطبيقية (كخطب النبي، والصحابة، وفصحاء العرب)<sup>(2)</sup> من قبيل الحشو أو الاستطراد الذي وسم به، وإنما ينم هذا الربط الموسوعي بين نماذج الخطابة على تباعد أعصرها، بالتمثل الكامل لوظيفتين اثنتين للكلام هما: «الوظيفة الخطابية، وما يتصل بها من إلقاء وإقناع واحتجاج، ومنازعة ومناظرة [...] ووظيفة الفهم والإفهام» القائمة على الشق التواصل للخطاب، الذي يفترض فيه القصديّة، أي حملة لفكرة، وطلبه لغاية فلا يكون حينها إلا في فلك الفهم والإفهام.

كما يمكن أن نقف ونحن نتحدث عن اشتغال القدماء بالحجاج والإقناع، عند محاولتين مهمتين لكلٍ من (أبي الحسين إسحاق بن وهب) (ت: 337) و(حازم القرطاجني) (ت: 684) في الأولى يُعزى فضل الكشف عن الجهاز المفاهيمي "لأدب الجدل والمجادلة"، بدءاً بوضع الحدود الدقيقة، والمقاصد، والآليات، والأخلاق، وإلى الثاني يرجع سبق رصد العلاقة بين الإقناع والتخييل: إذ ميز بين جهتين للكلام هما: الإخبار والاقتصاص، أو

\* ينظر في هذا الصدد: طبانة (بدوي): البيان العربي، دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند العرب ومناهجها ومصادرها الكبرى، مكتبة الأنجلو المصرية ومطبعة الرسالة، القاهرة - مصر، ط3، 1962.

1- نفسه، ص: 49.

2- ينظر: الجاحظ: البيان والتبيين، ج1، ص: 76، وينظر: صمود (حمادي)، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطور إلى القرن السادس (مشروع قراءة)، منشورات الجامعة التونسية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تونس، دط، 1981، ص: 195.

الاحتجاج والاستدلال، كما ميز بين طريقتين للإقناع، هما: التمويهات والاستدراجات<sup>(1)</sup>.

إن ما يطبع هذه الجهود الرائدة عند العرب القدماء، هو عدم ترابطها اصطلاحيا وتذبذبها في الإشارة إلى المفهوم المقصود، باستعمال مصطلحات متقاربة، كالجدل والحجاج، والتنازع، والتبكيك، والإقناع، والاستدلال، والبرهان...الخ.

فعلى الرغم من أن الدرس الحجاجي لم يبق نبذة غريبة لما ابتعثه من جذور في المتن التراثي العربي، إلا أنه ظل مضطربا في آلياته، ومصطلحاته، ومفاهيمه<sup>(2)</sup> إلى يومنا هذا، وهو ما يفسر الخلط الواضح بين نوعين من الحجاج ارتأى البحث ألا يتجاوز الإشارة إليهما، لما في ذلك من إبانة القصد، وهما: الحجاج الفلسفي والحجاج التداولي، أو الحجاج القائم على المقاصد الأرسطية والبلاغية القديمة والحجاج الباعث للبلاغة الجديدة<sup>(3)</sup>، ولعل أحدا يتساءل عن جوهر الفرق بينهما، فنجيب:

إن نقطة انطلاق أرسطو في تعريفه للبلاغة (الخطابة)\* إنما هي "الكشف عن الطرق الممكنة للإقناع"<sup>(4)</sup> وهو بدوره متوقف التحقق على ثلاثة أركان هي:

أ- "الإيتوس Ethos" أو أخلاق القائل.

ب- "الباتوس Pathos" أو وضع السامع في حالة ما.

ج- "اللوجوس Logos" ما يحمله القول نفسه من خصائص إثباتية أو إقناعية<sup>(5)</sup>

- 1- ينظر: العبد (محمد): النص الحجاجي العربي، دراسة في وسائل الإقناع، ضمن (الحجاج مفهومه ومجالاته)، ج4، ص: 7-11.
- 2- ينظر: الحباشة (صابر): من إشكاليات تطبيق المنهج الحجاجي على النصوص - حجاجية المفردة القرآنية نموذجاً - ضمن (الحجاج مفهومه ومجالاته)، ج4، ص: 189-191.
- 3- ينظر للتوسع: صولة (عبد الله): البلاغة العربية في ضوء البلاغة الجديدة (أو الحجاج)، ضمن (كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته)، ج1، ص: 28-55، وينظر: العزاوي (أبو بكر): الحجاج في اللغة، ص: 56-75.
- \* نستغني بذكر المصطلحين "خطابة وبلاغة" عن كثير من الجدل المعرفي حول ترجمة الكلمة اليونانية (ريطورية)، ينظر: إسماعيلي علوي (حافظ): مقدمة كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، ج1، ص: 01، وينظر: أوكان (عمر): اللغة والخطاب، ص: 164-176، وفيه تفصيل مهم.
- 4- نقلا عن صولة (عبد الله): البلاغة العربية في ضوء البلاغة الجديدة أو الحجاج، ص: 28.
- 5- ينظر نفسه، ص: 28-30.

وقد ساد هذا المفهوم ردحا من الزمن، وتأثر به الأقدمون من العرب كما أسلفنا، وهو ما نجد له صدًى مدويا في مؤلفات الجاحظ تحديدا والمعتزلة عامة.

أما لحظة الانعطاف التاريخية، والتي شكلت شبه قطيعة مع التراث الخطابي الأرسطي فكانت مع ميلاد كتاب "مصنف في الحجاج" لـ"شاييميرلمان" و"أولبريختيتيكا" "L.O.Teyteca etCh.Perelman"، الذي حددا فيه بوضوح رغبتهما في تجاوز الفهم التقليدي للخطابة (البلاغة)، ونعيا عليها اهتمامها قبل كل شيء بفن الكلام «في جمع من الناس، بوجه مقنع، فكانت تتعلق إذن باستعمال اللغة المنطوقة وبالخطاب أمام حشد مجتمع في الساحة العامة بهدف كسب ميل هذا الحشد إلى دعوى يتم عرضها عليه»<sup>(1)</sup>.

إن ثورة "بيرلمان" - إذن - كانت على تحجر البلاغة (الخطابة) الأرسطية، وجمودها، واقتصارها على الشكل الخطابي اليوناني - اللاتيني، المتمثل في الكلام المنطوق، وما يصاحبه من وسائل خارج-لسانية، ظلت البلاغة الأرسطية وفية لها، على الرغم من تغير مبررات وجودها؛ أقصد الاحتكام الكلي لعنصر "الإيتوس" و"الباتوس" على حساب العنصر الثالث "اللوغوس" الذي يصبح في بعض المواقف ثانويا، غير ملتفت إليه إلا في صورته القولية الشفوية.

لقد أدرك "بيرلمان" من خلال تمحيصه للتراث اليوناني الفلسفي، أن الإمعان في إهمال التحليل اللغوي، للخطاب في شكله المكتوب، يؤدي لا محالة إلى قصور قاتل للبلاغة، ولذلك رفع راية التجديد، بإنتاج بلاغة جديدة «تحت تسمية مرادفة لها هي الحجاج»<sup>(2)</sup> وعرف الباحثان هذا الحجاج بالقول «إن موضوع هذه النظرية [نظرية الحجاج] هو دراسة التقنيات الخطابية الموصلة إلى استثارة أو تقوية ميل النفوس إلى الدعوي الذي نعرضها عليها بغية التصديق بها، وما يميز ميل النفوس إلى الدعاوى هو كونه يتم بمقادير متغيرة [...] فمن حسن التصرف المنهجي أن لا يتم الخلط في البدء ما بين مظاهر الاستدلال المرتبطة بالصدق وتلك

1- بيرلمان(شاييم) وتيتيكا(لوسي أولبريخت): مقدمة كتاب مصنف في الحجاج، تر: رشيد الراضي: ضمن(الحجاج مفهومه ومجالاته)، ج5، ص:65.

2- صولة (عبد الله): البلاغة العربية في ضوء البلاغة الجديدة (أو الحجاج)، ص:31.

المرتبطة بالميل [...] بهذا الشرط فقط يكون من الممكن تطوير نظرية في الحجاج ذات حمولة فلسفية»<sup>(1)</sup>.

واضح من القول أن الخلاف الجوهرى بين البلاغتين القديمة والجديدة حسب "بيرلمان" كامن في تركيز الأولى على عوامل خارجة عن إطار القول، أي بناء الفعل الإقناعي على حجية "الباتوس" الذي يتجه إلى الجمهور ويحاول أن يضعه في حالة نفسية معينة بغية إقناعه، حتى وإن كانت الحجتان الأخريان دونه في القيمة الخطابية والتأثيرية وهو ما اعتبره "بيرلمان" حصرا لدراسة الحجاج في «ذاك الحجاج الذي يتكيف مع جمهور جاهل»<sup>(2)</sup> وهو أحد المعاول التي سرّعت بفنائها و«تعرضها لهجوم كاسح من لدن أفلاطون في محاورته جورجياس والتي مهدت لتراجعها في المنظور الفلسفي»<sup>(3)</sup>.

إن تنكر "بيرلمان" لصورة البلاغة الأرسطية، لا يعني بأية حال من الأحوال، عدم إفادته منها، أو استثمار بعض آلياتها، كما لا يعني إبطال مسلماتها الأساسية، كفكرة المخاطب «الذي نستحضره بمجرد التفكير في الخطاب فكل خطاب يتوجه إلى مخاطب»<sup>(4)</sup> وإن كان لا ينسى كذلك أن يبني عليها مسلمات أخرى، منها أن «الأمر نفسه يصح أيضا في كل مكتوب»<sup>(5)</sup> فلم نواصل قصرها على الشفوي فقط؟

من هنا - إذن - بدأت مرحلة جديدة في الفكر الغربي، شكلت لبنتها الأولى بلاغة "بيرلمان" (الحجاجية)، لتتبعها لبنات أخرى، كان لكل من "ديكرووأنسكومير" فضل وضعها في بناء البلاغة أو (الحجاج) والذي صب جهوده كلها في بوتقة البحث عن الوسائل الخطابية التي تحقق إذعان العقول، أو التكتيك الذي يستخدم اللام لتحقيق الإقناع أو الاقتناع<sup>(6)</sup>.

1- بيرلمانوتيتيكا: مقدمة كتاب مصنف في الحجاج، ص: 64.

2- نفسه، ص: 67.

3- نفسه، الصفحة نفسها، وينظر النقاري (حمو) : حول المنهج الكلي بين أفلاطون وأرسطو وحول التقنين الأرسطي لطرق الإقناع ومسالكه، مفهوم الموضوع، ضمن (الحجاج مفهومه ومجالاته) ج: 3، ص: 5-6.

4- بيرلمانوتيتيكا: مقدمة كتاب مصنف في الحجاج، ضمن (الحجاج مفهومه ومجالاته) ج: 5 ص: 66.

5- نفسه، ص ن.

6- ينظر: صولة (عبد الله): البلاغة العربية في ضوء البلاغة الجديدة أو الحجاج، ضمن (الحجاج مفهومه ومجالاته)، ج: 1 ص: 31.

وهو الهدف الذي إليه تسعى دراستنا، من خلال البحث في صور الإقناع بالحجاج، وفي طرقه المخصصة، وتقنياته اللغوية والبلاغية وشبه المنطقية.

## (2) آليات الإقناع بالحجاج وتقنياته:

للإقناع آليات كثيرة، بعضها لغوي وبعضها غير لغوي، تسهم جميعها في حمل المخاطب على فعلٍ أو تركٍ، امتثالا لرغبة المتكلم، في إفهام دعواه المخصصة والتمكين لها، وتشترك هذه الآليات كلها في أنها تصبو إلى توليد الإقناع لدى المرسل إليه بحشد كل ما من شأنه التأثير فيه، إلا أن ميزة الحجاج دون هذه الآليات تكمن في كونه أبرز آلية تتجسد عبرها إستراتيجية الإقناع<sup>(1)</sup> حين يكون للغة حضور خاص في الخطاب، وحين تتركز وظيفتها على الإقناع فيكون كل اتصال هادفا إلى تحصيل رد فعل موافق لهدف المتكلم، ولذا كان ارتباط الإقناع بالحجاج «ارتباط النص بوظيفته الجوهرية الملازمة في محيط أنواع نصية أخرى كالوصفيات والسرديات»<sup>(2)</sup>.

وبهذا يتضح البعد الإستراتيجي للإقناع بالحجاج، في كونه إحدى الوسائل المتميزة التي تنوب عن القوة والإرغام المادي لبسط الآراء، وحمل المخاطبين على تبنيها. فهو «الأداة السلمية التي تتضمن التغيير في معتقدات المرسل دون خسران»<sup>(3)</sup>، وهو تغيير قوامه اللغة وما تحمله من أفكار ومعارف، تتخذ لها من الخطاب مضمارا رحبا لحل النزاعات، وتقريب وجهات النظر، وصهر الخلافات بين الأطراف المتخاطبة، فيجري كل ذلك بالاعتماد على تقنيات مخصصة يمكن تقسيمها إلى:

1) أدوات لغوية صرفة: مثل ألفاظ التعليل، بما فيها الوصل السببي، والتركيب الشرطي، والأفعال اللغوية، والحجاج بالتبادل...

2) و آليات بلاغية: كالاستعارة والبديع والتمثيل، وتقسيم الكل إلى أجزائه...

3) وآليات شبه منطقية: مجسدة في السلم الحجاجي وما ينطوي عليه من آليات وأدوات

1- ينظر: الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 456.

2- العبد (محمد): النص الحجاجي العربي، دراسة في وسائل الإقناع، ضمن (الحجاج مفهومه ومجالاته)، ج4، ص: 7.

3- الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 459.

لغوية، وروابط حجاجية<sup>(1)</sup>...

يتجلى مما سبق أن الحجاج، ليس مجرد ممارسة لغوية هدفها التأمل، أو استعراض المهارات الخطابية بل هو إستراتيجية تواصلية تسعى إلى التأثير في الغير، وسيلتها اللغة وغايتها الإقناع وحدّاهما - بتعبير طه عبد الرحمن - «العاقلية والمعاقلة»<sup>(2)</sup> حيث ترتبط الأولى بسلوك المتكلم التخاطبي القاصد لهدف معين وتشير الثانية إلى إمكان تحقق هدف الخطاب من لدن المرسل إليه.

## 2-1- تقنيات الحجاج اللغوية:

ونعني بها - كما سلف - ما يعتمد إليه المخاطب من توظيف أدوات لغوية صرفة، اشتهرت بمعانيها، ودلالاتها المخصوصة، وما تنطوي عليه من قدرات حجاجية إقناعية كألفاظ التعليل مثلاً.

أ- ألفاظ التعليل: وهي كل لفظ أبان عن علة القيام بالفعل أو الاتصاف به، مثل: المفعول لأجله، وكلمة السبب، ولأن...

والمفعول لأجله أو لهُ أو من أجله، «كل مصدر معلن لحدث مشارك له في الزمان والفاعل [...] فلو فقد المعلل شرطاً من هذه الشروط [الأربعة] وجب جره بلام التعليل»<sup>(3)</sup> كقوله ﷺ: «... قد علمكم الله كتابه، ونهّج لكم سبيله ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين فأحسنوا كما أحسن الله إليكم وعادوا أعداءه وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وسماكم المسلمين، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيى عن بينة»<sup>(4)</sup>.

فقد استعمله ﷺ، في سياق الاحتجاج للتشريع، وبيان علة وجود الأحكام، وأنها ما وجدت إلا لغاية هي تحقيق العلم السابق، بمن يصدق أو يكذب فيكون الهالك على بينة من

1- ينظر: الشهري (عبد الهادي بن ظافر): آليات الحجاج وأدواته، ضمن (الحجاج مفهومه ومجالاته)، ج1، ص: 79.

2- ينظر: عبد الرحمن (طه): في أصول الحوار وتحديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - المغرب، ط2، 2000، ص: 154- 155.

3- قلاطي (إبراهيم): قصة الإعراب، ص: 60.

4- الجمهرة: ص ص: 56- 57.

ربه وكذلك المهتدي.

وكقوله في خطاب حجة الوداع مبينا علة تحريم النسيء: «...أيها الناس إنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونهم عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض»<sup>(1)</sup> فقد ضمّن كلامه الآية التي تبين سبب تحريم النسيء، وما يفضي إليه من استباحة للدماء والأعراض والمحرمات، في سبيل توليد الإقناع لدى المخاطب.

ومن المقامات التخاطبية التي وظف فيها المفعول لأجله، توظيفاً تحاججياً، مبنيًا على افتراض مخاطب منكر، قول عمار بن ياسر يوم صفين في عثمان رضي الله عنهما: «فقال هؤلاء الذين لا يبالون إذا سلمت لهم دنياهم ولو درس هذا الدين لم قتلتموه؟ فقلنا لإحداثه، فقالوا: إنه لم يحدث شيئاً، وذلك لأنه مكنهم من الدنيا فهم يأكلونها ويرعونها [...] فخدعوا أتباعهم بأن قالوا: قتل إمامنا مظلوما ليكونوا بذلك جبابرة وملوكا...»<sup>(2)</sup>.

فهو يحاول أن يقنع شيعته، وعليها، بأن عثمان ما قتل إلا لما أحدثه في سيرة من سبقه من المهديين، وأن معاوية ومن معه ما تولوا أمره، وطلبوا وتره إلا لأجل غاية واحدة هي الاستبداد بالملك، والتجبر في الأرض، مستعينا في كل ذلك بالخاصية الحجاجية للمفعول له (لإحداثه)، (ليكونوا).

ومن ألفاظ التعليل التي تعد إحدى أدوات تحقيق الإقناع بتبرير الفعل، "لأن" كما في الخطاب السابق، حيث برّر المرسل انتصار أهل الشام لعثمان، لأنه «مكنهم من الدنيا فهم يأكلونها ويرعونها ولا يبالون لو انهدمت الجبال...»<sup>(3)</sup>.

ويظهر الأداء الحجاجي لـ "لأن" من خلال ربطه بين الفعل وسببه، فهؤلاء المنافحون عن عثمان لم يروا بأساً في ما صنع، لأنه مكنهم من الدنيا، أي أن انتفاء الفعل، انتفاء لما ترتب عنه.

1- السابق، ص: 58.

2- نفسه، ص: 181.

3- نفسه، ص: نفسها

إن لجوء المرسل في مثل هذه المواقف إلى الخاصية الإقناعية للام التعليل و"أن" المؤكدة، سببه محاولة إقناع المخاطب بترادف فعلين على نسق واحد، على شاكلة الشرط، يؤدي أحدهما إلى الآخر وجودا وعدما.

ومن الأدوات التي تضاهي "لأن" في تحصيل الإقناع، واستمالة المخاطب "كي" وهي حرف مصدر، تقول وما بعدها بمصدر يعرب في محل جر بلام جر تعرف بلام كي، قد تذكر قبلها، أو تحذف أو تقدر، تفيد التعليل، مثلها مثل "لعل"<sup>(1)</sup> كما في خطاب "الأشتر" الآتي: «...قد وطنوا على الموت أنفسهم، كيلا يسبقوا بوتر ولا يلحقوا في الدنيا عارا»<sup>(2)</sup>.

فالسبب الذي لأجله وطن هؤلاء أنفسهم على الموت، وزهدهم في الحياة، هو مسابقتهم في أخذهم بثأرهم، وأن لا يوصموا بعار في محياهم ومماتهم. وقد ركب خطابه على الدلالة السببية للرباط "كي" وقدرتها على إقناع المخاطب بتعلق الحدثين أو الحكمين، أحدهما بالآخر في إفادة المقصود.

ولكن، هذا لا يعني أن توافر الخطاب على بعض أدوات الحجاج، كفيل بأدائه الوظيفة الإقناعية، لأنه هذه العملية و«باعتراف الباحثين لا تتم بهذه البساطة، إذ أنه ليس بمجرد أن نلتفظ بقول معين ق<sup>1</sup> نكون قد حملنا المخاطب على استنتاج ق<sup>2</sup>»<sup>(3)</sup> لأن الحجاج في اللغة يمر عبر تفسيرات متعددة لها، ضمن معطيات سياقية معينة باعتبارها - أي اللغة - نشاطا كلاميا لا يتحقق إلا في الواقع.

ومن هذا المنطلق، ربط "ديكرو" بين الحجاج وفعل الاستنتاج من زاوية خاصة جدا تتمثل في فهم الخطاب الحجاجي على أنه «مجموعة من التخاطبات المرتبطة بعوامل تبليغية، ولغوية منوطة بما يقوم به المتخاطبان من عمليات ذهنية ينجر عنها عدد من الاستنتاجات الخاضعة لمقدمات»<sup>(4)</sup> منها ما يسمى بالوصل السببي في التراكيب الشرطية الظاهرة والمضمرة

1- ينظر: فلافي (إبراهيم): قصة الإعراب، ص: 365.

2- الجمهرة، ص: 184.

3- بلخير (عمر): تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، ص: 121.

4- نفسه، ص: 124.

كخطاب زياد بن كعب لأهل "أذربجان" الذي يقول فيه : «أيها الناس إنه من لم يكفه القليل لم يكفه الكثير، وإن أمر عثمان لم ينفع فيه العيان ولم يشف فيه الخبر، غير أن من سمعه ليس كمن عاينه، وإن المهاجرين والأنصار بايعوا علياً راضين به، وإن طلحة والزبير نقضا بيعه علي على غير حدث، وأخرجنا أم المؤمنين علي غير رضا فسار إليهم ولم ينلهم، فتركهم وما في نفسه منهم حاجة، فأورثه الله الأرض وجعل له عاقبة المتقين»<sup>(1)</sup>.

فقد أقام المرسل خطاطته الحجاجية، على الربط السببي، بين المقدمات وما تؤول من نتائج، بالانتقال من قضية إلى أخرى في تسلسل محكم باستعمال روابط معينة، بغية إقناع المخاطبين بوجوب نصرة علي، وتأييد حقه في الخلافة، فانطلق من مقدمات صغرى، أعطى فيها لنفسه شرعية إطلاق الأحكام، لأنه شاهد وعاین وليس من سمع كمن عاین، ثم انتقل إلى إثبات حكم آخر، بناء على ما شهدته، وهو إتباع أكثر المهاجرين والأنصار لعلي، ولزومهم بيعته، وهذا الإجماع حجة على من خرج منهم، كطلحة والزبير، وقد ساق ما ساقه من حجج في انسجام وتناسق مكناه من أن يصيب الهدف ويقنع، لأن «الاستدلال السببي الذي يستند بشكل جيد على سلامة شفووية، مرتبة في أقسام وفروع له ميزة حسنة تتمثل في الوضوح والصرامة الجلية من خلال بنيته... ويمكن لانسجامه أن يصيب الهدف ويقنع ويكثر استعماله في حل المشاكل»<sup>(2)</sup>.

ويظهر في غير خفاء في جواب قيس بن سعد للنعمان بن بشير يوم صفين الذي يقول فيه: «...قتل عثمان من لست خيراً منه، وخذله من هو خير منك، أما أصحاب الجمل فقاتلناهم على النكث وأما معاوية فلو اجتمعت العرب على بيعته لقاتلهم الأنصار»<sup>(3)</sup>.

وفي خطاب سعد بن عباد للأَنْصار يوم السقيفة الذي قال فيه: «...لكم سابقة في الدين وفضيلة في الإسلام... فرزقكم الله الإيمان به وبرسوله والمنع له ولأصحابه والإعزاز له

1- الجمهرة، ص: 139.

2- بلنجر (ليونيل): عدة الأدوات الحجاجية، ترجمة: فضيلة قوتال، ضمن (الحجاج مفهومه ومجالاته)، ج 5، ص: 140.

3- الجمهرة، ص: 190.

ولدينه... وتوفاه الله وهو عنكم راضٍ...، استبدوا بهذا الأمر دون الناس فإنه لكم دون الناس»<sup>(1)</sup>.

إن تأخير المرسل (سعد) للنتيجة بعد سوق مقدمات كثيرة، يفضي بعضها إلى بعض، إستراتيجية هدف بها إلى إظهار ما للمخاطبين (الأنصار) من مزايا متفردة، لا يجوز عليها سواهم من الناس، لإقناعهم في نهاية الخطاب، بوجوب الاستبداد بالخلافة، والمنافحة عن هذا الرأي الحق على بيّنة ظاهرة وحجة لا تقبل مطعنا، لأن الأمر في الحجاج يتعلق «ببيان أننا قادرون على الظفر بقبول السامعين لمعقولية ومقبولية قرار من القرارات انطلاقا مما يسلمون به مسبقا... فالخطاب الإقناعي يتوخى إذن نقل الميل أي تلك الخاصية الذاتية التي لها القدرة على التغير بتغير الذوات»<sup>(2)</sup> وهو ما نلمسه في خطاب بشير بن سعد لأبي النعمان بن بشير الذي نقل فيه ميله إلى خلاف ما ذهب إليه سعد بن عباد، فغيّر بذلك مجرى المناظرة، وكسر الإجماع بعد أن قال: «يا معشر الأنصار، إنا والله لئن كنا أولى فضيلة في جهاد المشركين، وسابقة في هذا الدين، ما أردنا به إلا رضا ربنا وطاعة نبينا، والكدح لأنفسنا، فما ينبغي لنا أن نستطيل على الناس بذلك... ألا إن محمدا ﷺ من قريش وقومته أحق به وأولى وائم الله لا يراني الله أنازعهم هذا الأمر أبدا، فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم»<sup>(3)</sup>.

فقد انطلق من مقدمات سعدٍ نفسها، إلا أنه مال بها إلى ما يخالف رغبة الجماعة، معتمدا على معقولية ومقبولية ما ذهب إليه، وعلى التأثير الذواتي في مقام التحاجج.

ويرد هذا النوع أيضا من التعليل السببي في شكل تراكيب شرطية غير مضمرة العلاقة بين السابق واللاحق، كخطاب عكرشة بنت الأطرش لمعاوية متظلمة حقها وحق فقراء مصرها في الزكاة: «... فاذكري حاجتك، قالت: إنه كانت صدقاتنا تؤخذ من أغنيائنا، فترد على فقرائنا، وإنا فقدنا ذلك، ... فإن كان ذلك عن رأيك فمثلك تنبه من الغفلة، وراجع التوبة، وإن كان

1- السابق، ص: 61.

2- بيرلمان (شاييم): المنطق الصوري والمنطق غير الصوري، تر: أسامة المشي، ضمن (كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته)، ج5، ص: 193.

3- الجمهرة، ص: 65.

عن غير رأيك فما مثلك من استعان بالخونة، ولا استعمل الظلمة...»<sup>(1)</sup>.

ففي هذا الاستقصاء الخطابي، محاصرة حجاجية، للمخاطب، مؤداها، الربط السبيبي الشرطي، بين مقدمة ونتيجتها، ربط غير قابل للنقض، لانبنائه على تقسيم منطقي، صارم. فإما أن يكون معاوية عالما بهذه المظلمة، أو جاهلا بها، وهو في الحالين مطالب برد فعل، يشكل ركنا لا غنى عنه في بناء الخطاب الشرطي.

(1) رفع العقوبة ← إن كان قاصدا إلى صرف الزكاة في غير أهلها.

(2) إحقاق الحق ← إن كان غير قاصد، بمراجعة العاملين عليها.

وقد ظهرت آثار هذه المحاصرة في محاولة معاوية طلب العذر وتلمس المخرج فلم يفلح حين قال لها: «يا هذه إنه ينوبنا من أمور رعيتنا أمور تنبثق، وبحور تنفهم، قالت: يا سبحان الله! والله ما فرض الله لنا حقا فجعل فيه ضررا على غيرنا وهو علام الغيوب»<sup>(2)</sup>.

كما تظهر هذه التراكيب، مدى سلطة الخطاب الشرطي، على المخاطب، دون اعتداد بالمنزلة، منزلة طرفي الخطاب، لأن في تأسيس المرسل للمقدمة، تمكين آلي للنتيجة، فيجد المرسل إليه نفسه، مجبرا - وإن علت مرتبته، وعظمت سلطته - على التسليم لمذهب المرسل ومقصده.

ولهذا كانت لألفاظ التعليل عموما وأساليب الشرط خصوصا، أثرا إقناعيا لا ينكر في الإستراتيجية الإقناعية، مثلها مثل بعض الأدوات الأخرى، كالوصف بالصفة واسم الفاعل واسم المفعول وغيرها.

#### ب- الوصف:

ويكون بذكر صفة المتحدث عنه، أو اسم الفاعل، أو اسم المفعول، وتتجلى حجية هذه الصيغ في إثبات حكم معين لقضية ما، على سبيل ادعاء أنها أجدر من سواها، أو أحق من غيرها بالنعته والتعريف، ويشمل كل «تابع مشتق أو مؤول بمشتق يكمل متبوعه بمعنى

1- السابق، ص: 192.

2- نفسه، الصفحة نفسها.

جديد يناسب سياق الحديث»<sup>(1)</sup> إما لإيضاح هذا المتبوع، أو تخصيصه أو إنشاء مدح أو ذم، أو إتمام فائدة الخبر الأساسية<sup>(2)</sup>.

ومن الخطابات التي تجلي دور الوصف بالصفة في استمالة المخاطب وإقناعه، خطاب معاوية "لشيث بن رعي"، الذي حاول فيه زرع الفرقة بين وفد عليّ المفاوضين له؛ فبعد أن تكلم بشير بن عمرو، ذهب سعيد بن قيس يتكلم فبادره "شيث بن رعي" فتكلم فلما فرغ، قال معاوية: «أما بعد، فإن أول ما عرفت من سفهك وخفة حلمك، قطعك على هذا الحسيب الشريف سيد قومه منطقته...أيها الأعرابي الجلف الجافي...»<sup>(3)</sup>.

إن توظيف المرسل (معاوية) لآلية الوصف بالنعته، يندرج في سياق استعانهه بالإستراتيجية الإقناعية لفرض واقع جديد أو خلق وضعية تخاطبية غير التي كانت عبر بعث التوتر في المخاطبين، الثلاثة، ودفعهم إلى تجاذب خطابي شكلت الصفات المتتابعة، والمدح المكيل شرارته الأولى.

لقد راهن معاوية من خلال إيراد زمريتين متضادتين، على تلقي سعيد بن قيس لهما بإتمام ما تقتضيه، من مقارنة الزمرة (أ) التي تخصه (الحسيب، الشريف سيد قومه) والزمرة (ب) التي تخص "شيثا" (الأعرابي، الجلف، الجافي)، وكان في إمكان هذا التحرك الإستراتيجي أن يتيح لمعاوية هامش مناورة، وإمكانية تفاوضية، لو أن المقام لم ينقطع بغضبه، وخروج القوم من عنده.

إن لجوء المرسل لهذه الآلية، هو إقرار صريح بالطاقة الإقناعية الكامنة في النعته، وما فيه من قدرة تصويرية كاريكاتورية، تظهر المنعوتين على غير ما هما عليه في الواقع، وتجسد الفوارق المغيبة، وتشخصها أيما تشخيص، فيبدو المنعوت على خلاف ما هو مدرك في الحقيقة، فتنشأ حينها، أحكام جديدة لم تكن لتوجد لولا هذه النعوت والصفات.

إن قطع "شيث بن رعي" كلام صاحبه "سعيد بن قيس الهمداني"، كان بحسب العادة

1-قلائي (إبراهيم): قصة الإعراب، ص: 97.

2- نفسه، ص نفسها، وينظر: أحمد مختار عمر و(آخران): ص: 495.

3- الجمهرة، ص: 155.

مدرجا في سياق التعاون على إقناع معاوية (الآخر)، ولكنه استحال بسبب النعت المدحي لـ"ثبث"، من قبل "معاوية"، سوء أدب وتطاولا، وسلبا لحق، وقدحا في سيادة، وجراءة كادت أن تنسف بالهدف المشترك بينهما.

وقد يستعين المرسل بالوصف\* ليثبت في نفوس مخاطبيه سماتٍ بعينها، تميز القضية مثار الحديث عن سواها، كما في قول عمار بن ياسر، وهو يخاطب أنصار "علي" يوم صفين محتجا لقتله "عثمان" رضي الله عنهما: «...إنما قتله الصالحون المنكرون للعدوان الآمرون بالإحسان...»<sup>(1)</sup>.

إن احتجاج بن ياسر لمن ثار على عثمان، مستندا أساسا إلى صفات هؤلاء الثائرين، الذين لم يرضوا بما أحدثه بعد صاحبيه - حسب عمار بن ياسر - من محاباة أصحابه، وأبناء عمومته، ولذلك فهو لا يقرهم على ما فعلوه إلا لأنهم الصالحون، المنكرون للعدوان، الآمرون بالإحسان، ولهذا لا يشك المخاطب في أن من كان هذا وصفه ونعته، أحق بالمؤازرة والنصر ممن سواه.

ومن بين الخطابات الكثيرة التي تصلح مثالا للدلالة على القدرة الإقناعية المودعة في هذه الآلية اللغوية، خطاب الأشتر النخعي بـثناصرين يبرر فيه تأييده لـعلي، ويدعو الناس إلى التآسي به فيقول: «...معنا ابن عم نبينا، وسيف من سيوف الله، علي بن أبي طالب، صلى مع رسول الله ﷺ، لم يسبقه إلى الصلاة ذكر حتى كان شيخا لم يكن له صبوة ولا نبوة ولا هفوة ولا سقطه، فقيه في دين الله تعالى، عالم بحدود الله، ذو رأي أصيل وصبر جميل وعفاف قديم...».

إن من الواضح، في خطاب "الأشتر" تركيزه على سرد صفات عليّ ونعوته، التي تفرد بها، وامتناز عن سواه، كسابقه إلى الدين، وحسن سيرته في المسلمين وعلمه وفقهه ورجاحة عقله، وشدة صبره وتعففه... وهي خلال لم يذكرها المرسل إلا وهو متيقن بعظيم أثرها في المتلقين، وبعيد فعلها في نفوسهم لما يعرف عنهم من ميل إلى محاسن الأخلاق ونبيل الشيم.

\* يسمى النعت كذلك وصفا، ينظر: أحمد مختار عمر (وآخران)، النحو الأساسي، ص: 495.

1- الجمعة، ص: 181.

ومن أشكال الوصف، الوصف بالمشتقات الوصفية، وهي، اسم الفاعل، واسم المفعول والصفة المشبهة واسم التفضيل وصيغ المبالغة وهي تدل على ذات ومعنى<sup>(1)</sup>.

أما اسم الفاعل فهو الوصف الدال على الفاعل الجاري على حركات المضارع وسكناته<sup>(2)</sup>، وقد يؤدي لذلك في الكلام لإلحاق وصف أو حكم بذات إلحاقاً عارضاً حادثاً أو مطلقاً، شبه دائم<sup>(3)</sup>، ويستمد خاصيته الحجاجية مما يلصقه بالموصوف به على سبيل الفاعلية، والعلية، كقول أم الخير في علي بن أبي طالب يوم صفين: «...وها هو ذا مفلق الهام ومكسر الأصنام صلى والناس مشركون، وأطاع والناس كارهون...»<sup>(4)</sup>.

فوصفها "عليّاً" بأنه "مفلق الهام، ومكسر الأصنام"، إحالة إلى مآثره الكثيرة التي تستعصي عن الحصر، ولا يؤديها إلا إثبات هذا الوصف له، فهو له كاللقب الذي لا يعرف إلا به.

وضمّنت في الخطاب نفسه، وصفين يدل عليهما المذكوران "مشركون" و"كارهون" لتجعل المتلقي يقارن بين الموصوفين، "علي" و"معاوية"، ومن ثم يستنتج أولاهما بالخلافة والتأييد.

وقد لا يُصدر المرسل وصفه مباشرة، بل يمهّد له بمقدمات تهيئ المخاطب، وتحضّره لاستقبال الوصف باسم الفاعل على أنه نتيجة منطقية وتتويج حتمي لتنامي الخطاب حجاجياً، كقول علي بن أبي طالب: «ونحن سائرون إن شاء الله إلى من سفه نفسه وتناول ما ليس له وما لا يدركه معاوية وجنده، الفئة الطاغية الباغية يقودهم إبليس...»<sup>(5)</sup>.

فقد كان منتهى الإمام علي تتويج خطابه بوصف جامع مانع، مقنع، يصير كالعلم لمعاوية وأتباعه، وهو قوله "الفئة الطاغية الباغية" ولا يخفى على المتلقي المسلم ما يندرج تحت

1- ينظر: أحمد مختار عمر (وآخرون): النحو الأساسي، ص: 135.

2- ينظر: السجاعي (أحمد): حاشية السجاعي على شرح قطر الندى، منشورات الوقائع المصرية، دط، 1299هـ، ص: 126.

3- ينظر: عباس حسن: النحو الوافي، ج3، ص: 238-239.

4- الجمهرة، ص: 195.

5- نفسه: ص: 152.

هذين الوصفين من النعوت الذميمة والخصال الرذيلة.

وأما اسم المفعول فهو وصف صيغ من الفعل المبني للمجهول للدلالة على من وقع عليه الفعل على سبيل التجدد والحدوث، فإن دل على الثبوت كان صفة مشبهة<sup>(1)</sup>، ويصنف على أنه من الأوصاف الحجاجية المستعملة<sup>(2)</sup> لما يدل عليه من وقوع الحدث، على سبيل الحدوث والاتصاف.

ويبرز بعده الإقناعي حين يقع مدحا أو ذما كقول علي عليه السلام: «واعلموا أن المسلوب من سلب دينه وأمانته، والمغرور من أثر الضلالة على الهدى، فلا أعرفن أحداً منكم تقاعس عني وقال في غيري كفاية فإن الذود إلى الذود إبل»<sup>(3)</sup>.

ولعل أدل مثال على حجاجية الوصف باسم المفعول، ما أقره شيث بن ريعي حين لخص خطر دعوة معاوية بقوله: «يا معاوية إني قد فهمت ما رددت على ابن محصن، إنه والله لا يخفى علينا ما تغزو وما تطلب، إنك لم تجد شيئا تستغوي به الناس وتستميل به أهواءهم وتستخلص به طاعتهم إلا قولك «قُتِلَ إمامكم مظلوما فنحن نطلب بدمه، فاستجاب لك سفهاء طغام»<sup>(4)</sup>.

فقد أدرك "شيث" أثر اسم المفعول "مظلوما" في نفوس العرب، لما جُبلوا عليه من نجدة المظلوم، والانتصار له، والأخذ على يد الظالم وكبته، فاستمال بذلك من الناس ما كان له عوناً على عليّ وشيعته، إذ وضع عثمان في مرتبة تستدعي الإنصاف والنصرة من الآخرين، ولو كان وضعه في مرتبة أخرى بأن جعله ظالماً، أو وصفه بالعفة أو الحياء مثلاً فلن يحقق له الطلب بالتأثر والاستعانة بالناس، ومن ثم كان لاسم المفعول والوصف به حضوره المؤثر في خطاب الإقناع بالحجاج كغيره من آليات الإقناع اللغوية الأخرى.

وأما صيغ المبالغة أو مبالغة اسم الفاعل فهي «صيغ تدل على المبالغة في الحدث، تحوّل

1- ينظر: أحمد مختار عمر (وآخرون)، النحو الأساسي، ص: 136.

2- ينظر: الشهري، إستراتيجيات الخطاب، ص: 489.

3- الجمهرة: ص: 152.

4- نفسه، ص: 155.

صيغة فاعل للدلالة على الكثرة والمبالغة في الحدث»<sup>(1)</sup> صيغها خمس مشهورة هي: فَعَّال وفعول ومفعال وفعل وفعل<sup>(2)</sup>.

وهي في عملها كاسم الفاعل، إلا أنها أقوى منه حجة لمكان المبالغة فيها، وشدة ما تدعيه من وصف لصاحبها، كما يظهر في الخطاب الآتي للسيدة "عائشة" وهي تصف "عثمان" وتنتصر له: «كان الناس يتجنون على عثمان رضي الله عنه ويزرون على عماله ويأتوننا بالمدينة، فيستشيروننا فيما يخبروننا عنهم، فننظر في ذلك فنجده بريًا تقيا وفيا، ونجدهم فجرة غدرّة كذبة يحاولون غير ما يظهرون...»<sup>(3)</sup>، فالحاق هذه الأوصاف على زنة واحدة، من طريق المبالغة (فعل)، حجة رمت بها السيدة عائشة من كان يرى في عثمان الإحداث والجور وقد ضاعف أداء حجتها للوظيفة الإقناعية، إيرادها ما يضادها من صفات حازها مناوئوه «الفجرة، الغدرّة، الكذبة».

وقد تلبس صيغ المبالغة أحيانا مع الصفة المشبهة التي «هي صفة مشتقة تؤخذ من الفعل لتدل على حدث ثابت في الموصوف ثبوتا ملازما له»<sup>(4)</sup>. أي أنها أكثر دلالة على اتصاف الذات بالحدث، كقول الحسين بن علي يصف الحرب «...ألا إن الحرب شرها وريع وطعمها فظيع...»<sup>(5)</sup> فقد اشتق من الفعلين الثلاثين اللازمين صيغة (فعل) لأنه «الصفة المشبهة - في الغالب - تأتي من الفعل الثلاثي المضموم العين على أربعة أوزان هي: فَعَّل، فعال، فعول، فعيل»<sup>(6)</sup> وقد استعان بها المرسل، ليثبت صفتين لصيقتين بالحرب، هما الوراعة والفضاعة، حتى ينبه المخاطبين (أهل الكوفة) ويحذرهم، ويقنعهم بالاستعداد لها على الوجه الذي لا يلقي بهم إلى التهلكة «فمن أخذ لها أهبتها واستعد لها عدتها ولم يألم كلومها قبل

1- قلاقي (إبراهيم): قصة الإعراب، ص: 408.

2- نفسه، ص نفسها.

3- الجمهرة، ص: 127- 128.

4- قلاقي (إبراهيم): قصة الإعراب، ص: 412.

5- الجمهرة، ص: 153.

6- قلاقي (إبراهيم): قصة الإعراب، ص: 412.

حلولها فذاك صاحبها...»<sup>(1)</sup>.

يقصد أن يبين لهم عظيم شر الحرب الذي يدعو الناس إلى أن يكفوا عن خوض غمارها، ويَزَعُّهم عن اقتحام أهوالها إلا أن يأخذوا لها أهبتها ويجدُّوا في تحصيل آلتها وعُدَّتها. وهذا لم يتم له إلا بتوظيف آلية الوصف بالصفة المشبهة لما تفيده من ثبوت الصفة في الموصوف ورسوخها.

### ج-تحصيل الحاصل:

وهو ضروب، منها «أن المرسل قد يحيل ذهن المرسل إليه إلى السمات اللازمة للدل والمعروفة عنده دون أن يصرح بها، لأن المرسل إليه يدرك حجة المرسل»<sup>(2)</sup> ويعبر هذا الضرب على ما يوليه المرسل للمعارف المشتركة بينه وبين المرسل إليه، ودورها في تحصيل الإقناع، بترك التصريح والاكتفاء بالتلميح، والإيهام، وربما استعمله المتكلم في سياق التحاجج قاصدا دفع المخاطب إلى اختيار الحجج المدرجة في معجمه الذاتي بحسب ما يتوافق مع معطيات السياق المعقدة، كضيق المقام التخاطبي أو عدم ملاءمته أو لرغبته في نقل معنى خاص لا يود مشاركته مع مجموع المخاطبين، أو ربما يرجع إلى طبيعة المتحدث فيه نفسها، كالتعبير عن المحذور بتكرار اللفظ الدال عليه دون شرحه.

ومن المواقف التي جسدت هذه الآلية الإقناعية، ما عبر عنه يزيد بن قيس في قوله لمعاوية: «...إن صاحبنا من قد عرفت وعرف المسلمون فضله، ولا أظنه يخفى عليك...»<sup>(3)</sup>.

فعلي عليه السلام، حسب صاحبه يزيد، أعرف من أن يُعرَفَ، ولذلك أحجم عن ذكر خصاله مكتفيا بإيراد اللفظ المبهم الجامع لها (مَنْ)، وهو في هذا معتدُّ بالمعارف المشتركة، التي يستحضرها المرسل إليه (معاوية)، فيختار منها ما يخدم مقامه التواصلية، على حسب ما تكفله كفاءته التداولية.

1- الجمهرة، ص: 153.

2- الشهري (عبد الهادي بن ظافر): آليات الحجج وأدواته، ضمن (الحجاج مفهومه ومجالاته)، ج1، ص: 92.

3- الجمهرة، ص: 157.

ومن آليات الإقناع الحجاجية كذلك، ما يسمى:

### د- الحجاج بالتبادل:

وهو بلورة المخاطب لعلاقات متشابهة بين السياقات لنقل وجهة نظر متبادلة بين المرسل والمرسل إليه<sup>(1)</sup>.

كقول النبي ﷺ لفتى من قريش أتاه فقال: يا رسول الله ائذن لي في الزنا فأقبل القوم عليه وزجروه فقالوا: مه مه، فقال: "أدْئُة" فدنا منه قريباً فقال: «أتحبه لأملك» قال: «لا والله جعلني الله فداك» قال: «ولا الناس يحبونه لأمهاثهم». قال: أفتحبه لابتك قال: «يا رسول الله جعلني الله فداك». قال: «ولا الناس يحبونه لبناتهم...»<sup>(2)</sup>.

فقد اعتمد النبي ﷺ، على آلية الحجاج بالتبادل ليختصر طريق الوصول إلى عقل الفتى الشغوف بالزنا، منطلقاً من صورة هذه الفاحشة الجلية في نفسه، وشعوره الكامن في قلبه، واضعاً إياه موضع المتأذي من تبعاتها، فأبدله بالمفعولية الفاعلية، ووضعها في مقام من وقع عليه شرها، وحق به وبأهلها، فما كان من الفتى إلا أن صار بعد ذلك لا يلتفت إلى شيء<sup>(3)</sup>.

إن ما يهم المرسل في هذا النوع من الحجاج هو إقناع المرسل إليه بتطبيق قاعدة العدل، مما يجعل هذا النوع من الحجاج دعوة للمخاطب بترسيخ هذا المبدأ لذلك يكثر استعمال الحجاج بالتبادل في النصح لإقناع المتلقي بما يذهب إليه<sup>(4)</sup>، ولهذا النوع حضور لافت في خطاب النبي ﷺ قد يستقل موضوعاً بنفسه.

وقد يكون الحجاج باستعمال المخاطب للاستفهام، لأنه يعدّ من «أنجع أنواع الأفعال اللغوية حجاجاً» وأشدّها إقناعاً، وأقواها حجة، خاصة إذا كانت الأسئلة تقريرية، فينتج عنها حسب ما يقتضيه الاستلزام الحوارى دلالات لا تقبل الطعن، ونتائج أشبه بالمسلمات، كتلك التي وظفها النبي ﷺ آنفاً، وقد ذكرنا هذا الوجه من الحجاج في هذا الموضع على الرغم أنه

1- ينظر: الشهري: آليات الحجاج وأدواته، ص: 87

2- الهيتمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ج1، ص: 341.

3- ينظر: نفسه، الصفحة نفسها.

4- ينظر: الشهري: آليات الحجاج وأدواته، ص: 86.

مستقل بنفسه في كثير من الدراسات التداولية\*، لنبين تكاتف الآليات الحجاجية في الوصول إلى الهدف من الخطاب، دون التفات إلى درجات هذه الحجج وتصنيفاتها.

وسنتقل فيما يلي إلى تتبع الآليات البلاغية، ودورها في تشكيل الإستراتيجية الإقناعية في خطاب عصر صدر الإسلام.

## 2-2- تقنيات الحجاج البلاغية:

وهي من حيث القيمة عذيلة للوسائل اللغوية، إذ تشكل سُدى النص الحجاجي ولحمته، لأنها وسيلة الخطاب لفرض سلطته على الآخرين، باستدراجهم إلى دعواه المعبر عنها، وإقناعهم بمصداقيتها<sup>(1)</sup>، ولذلك سنقتصر في هذه السطور على استكشاف التقنيات البلاغية ذات الوصال الوثيق بالإقناع؛ كتقسيم الكل إلى أجزائه، والاستعارة والتمثيل والبديع.

### أ- تقسيم الكل إلى أجزائه:

وهو أن يعمد المرسل إلى إيراد حجته في صورتها الكلية، ثم يلتفت إليها مرة أخرى فيجزأها ليصنع من كل جزء منها حجة مستقلة بذاتها، تعد دليلا على صحة دعواه<sup>(2)</sup> كقول ذي الكلاع الحميري وقد طلب منه معاوية أن يخطب الناس: «...فإن كان [عثمان] قد أذنب ذنبا، فقد أذنب من هو خير منه، قد قال الله سبحانه لنبيه: (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر، وقتل موسى نفسا ثم استغفر الله فغفر له، وأذنب أبوكم آدم ثم استغفر الله فغفر له ولم يَعْرِ أحد من الذنوب...»<sup>(3)</sup>.

فهذه حجج مفصلة، ترجع في مجملها إلى القضية الأولى، ليثبت بها المرسل (ذو الكلاع) صحة دعواه إلى أن عثمان مع إذنا به لم يكن مستحقا للقتل، فقد يجتمع في المرء الذنب والصلاح، كما اجتمعا في محمد ﷺ، وفي موسى وآدم وفي كل مسلم، ويمكن التمثيل

\* ينتمي هذا النوع من الحجج إلى آلية (الأفعال اللغوية) ولكن أدرجناه هنا، للسبب السابق ذكره، ينظر: الشهري: آليات الحجاج وأدواته، ص: 83 – 87.

1- ينظر: العبد (محمد): النص الحجاجي العربي دراسة في وسائل الإقناع، ضمن كتاب (الحجاج مفهومه ومجالاته)، ج4، ص: 31.

2- ينظر: الشهري (عبد الهادي بن ظافر): آليات الحجاج وأدواته، ضمن (الحجاج مفهومه ومجالاته)، ج1، ص: 136.

3- الجمهرة، ص: 165 – 167.

لهذه التقنية بما يلي:

- الدعوى الكبرى: عثمان إن أذنب صالح لا يستحق القتل، لأن:
- الدعوى الجزئية1: محمدا ﷺ خير منه وقد أذنب هو الآخر.
- الدعوى الجزئية2: وفعل موسى ما هو أعظم حيث قتل ثم غفر له.
- الدعوى الجزئية3: وأذنب آدم أبونا، ثم غفر له كذلك.

ونلاحظ في تتابع هذه الحجج المفصلة، تناميها، وتعاضدها، بحيث تزداد قوة فيقوي بعضها بعضا كلما أسندت إحداها إلى الأخرى، بينما تضعف وتتهاوى إذا ما انفرط عقدها، وتخلت عن رباطها، ومن ثم تبطل حجيتها، وتلغى قيمتها الإقناعية.

كما نلاحظ تدرج "ذي الكلاع الحميري" في تجزيته حجته الأساسية، فبدأ بالأقرب إلى المخاطب نسبا وزمنا ومكانا، ثم عرج على الأعظم ذنبا مستدلا في كل ذلك بمرجع غير مطعون فيه وهو القرآن (المشترك في التسليم بحجيته، المجمع على صدقه).

ولعل شيئا من التفصيل سيرد في المبحث الموالي حول السُّلم الحجاجي والروابط الحجاجية ودورها في تمكين الإقناع من نفس المخاطب.

#### ب- الاستعارة:

تجاذبت مفهوم الاستعارة في الفكرين الغربي والعربي، تيارات كثيرة ومتباينة، فمنذ أرسطو الذي أقر بحاجة الخطابة والشعر أكثر من سواهما إلى الاستعارة لأنها: «تُخَيِّل في الشيء أمرا زائدا على مفهوم اللفظ»<sup>(1)</sup>، إلى النظرية التفاعلية التي وسعت وظيفتها، وحضورها إلى سائر الخطابات حتى في خطاب الحياة اليومية حيث يصير الخُلم استعارة، والفكر استعارة واللعب استعارة والصورة واللون والحركة... الخ<sup>(2)</sup>.

وهذا ما جعل مفهوم الاستعارة يقف عائقا دون تمثل حقيقتها الحجاجية، لأن المتوطن في مخيال مستعمل اللغة العربية اقتصر هذا الضرب من المجاز على تحقيق غايات نمطية، معروفة

1- أوكان (عمر): اللغة والخطاب، ص: 203.

2- ينظر: نفسه، ص ص: 203-204. وينظر للتوسع: أحمد مطلوب: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، ص ص: 82-106.

سلفاً، لا تتعدى تجاوز الحقيقة إلى مستويات أكثر تعقيداً وتخيلاً<sup>(1)</sup>.

إلا أن المتعمق في طبيعة الصورة الاستعارية ووظيفتها في الخطاب، يدرك في غير عناء ما تمتلكه من قوة ضغط على المخاطب لإقناعه والتأثير فيه، «على اعتبار أن المجاز يحدث في الكلام ما يسميه النحو التوليدي بخرق قواعد الانتقاء الدلالي كما تظهرها قواعد الإسقاط في المكون الدلالي»<sup>(2)</sup> وهو ما يبرر تصنيف المجاز عموماً والاستعارة خصوصاً ضمن العدول النوعي النسقي بوصفه استبدالاً، أو على أنه يمكن وضعه على محوري المشابهة والمجاورة<sup>(3)</sup>.

وينطلق "عمر أوكان" في تعريف الاستعارة الحجاجية من تقسيم أرسطو لها إلى ثلاثة أنواع هي: الجمهورية والشعرية والحجاجية، ويرى أنها لا تكون حجاجية إلا «إذا كانت تهدف إلى إحداث تغيير في الموقف العاطفي أو الفكري للمتلقي»<sup>(4)</sup>، خلافاً للصنفين الأولين اللذين يكتفیان بإحداث المتعة أو الإبلاغ.

والخطاب الآتي لـ "السيدة عائشة" يوضح خاصية الاستعارة الحجاجية، وأثرها في توجيه المخاطب ثم إقناعه، خاصة وهي تعدد مآثر أبيها الصديق، وخليفته (الفاروق) «...مضى رسول الله ﷺ راضياً عنه، وطوقه أعباء الإمامة، ثم اضطرب حبل الدين بعده، فمسك أبي بطرفيه، ورتق لكم فتق النفاق، وأغاض نبع الردة، وأطفأ ما حشّ (أوقد) يهود [...] فرأب الثأني (الإفساد) وأود (عطف ولوى) من الغلظة [...] فولى أمركم رجلاً مرعياً إذا ركن إليه [...] ففرق شمل الفتنة وجمع أعضاد ما جمع القرآن...»<sup>(5)</sup>.

إن خطاب "السيدة عائشة"، لأتباعها "يوم الجمل" لم يكن لأجل الإمتاع أو الإبلاغ،

1- تحجرت الوظيفة الجوهرية للاستعارة في فكر أرسطو ومن تأثر به شرقاً وغرباً، في الوظيفة الزخرفية أي أنها لا تقدم أية قيمة معرفية، ينظر: نفسه، ص: 211، وينظر للاستفاضة: المودن (حسن): حجاجية المجاز والاستعارة، ضمن (الحجاج مفهومه ومجالاته)، ج3، ص: 155-173.

2- صولة (عبد الله): البلاغة العربية في ضوء البلاغة الجديدة (أو الحجاج)، ضمن (الحجاج مفهومه ومجالاته)، ج1، ص: 41.

3- ينظر: نفسه، ص نفسها.

4- أوكان (عمر): اللغة والخطاب، ص: 216. وينظر للتوسع: العزاوي (أبو بكر): الخطاب والحجاج، مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت - لبنان، ط1، 2010، ص: 36-38.

5- الجمهرة، ص: 137.

بما لها ولأيها من مآثر، إذ أهل البصرة أعلم بذلك، وأدرى بخصالها وخصال العُمَرَاء، ومن هنا كان توظيفها للاستعارة، توظيفاً حجاجياً، قائماً على ادعاء مرتبة، لا يبلغ ذهن المخاطب حقيقتها إلا بتجسيدها له في شكل استعارات متتالية ترجح سمات بعينها، من شأنها أن تقنع المخاطب، بأن المرسل لا يضمّر له شراً، ولا يرجو لنفسه مآثرة، ولم يلتمس إثماً ولم يؤنس فتنة يوطئها إياه وأنه صادق، عادل، معذر منذر، لا يرجو إلا الخير لعامة المسلمين<sup>(1)</sup>.

ثم إن مقام التلفظ، جدير بأن يدفع عن هذه الاستعارات المتدافعة، وظيفتي التنميق والإعلام، ويرجح طلب المرسل عبر الاستبدال وعبر محور المشابهة الحقيقية أو الوهمية تغيير موقف أهل البصرة السالب، وحملهم على الأخذ بدم "عثمان"، ومحاربة "علي"، لأن «الغرض من الخطابة هو الإقناع الذي يمكن أن تسهم فيه الأقاويل المخيلة شريطة ألا تكون مكثفة أو غريبة أو مركبة»<sup>(2)</sup> فتحجب عن المتلقي ما تحمله من معانٍ وتحول بينه وبين الإقناع، ومن ثم تبني الموقف أو الفكرة.

لقد كان الطريق الأقرب - إذن - إلى قلوب أهل البصرة وعقولهم، حسب عائشة رضي الله عنها، هو الاستعارة، لأنها تكون جذابة إذا وضعت الأشياء أمام العيون<sup>(3)</sup> حية فيتكلم الجمد ويتجسد المعنوي (طوقه أعباء الإمامة، فمسك أبي بطرفيه، رتق لكم فتق النفاق، أغاض نبع الردة، أطفأ ما حشّ يهود...).

إن نظرة المرسل للاستعارة، في هذا الخطاب قائمة على التفرقة بين التصور الاستعاري والاستعارة اللغوية، بمعنى أنه، لا ينطلق في تجسيد الاستعارات من القوانين التركيبية للغة فحسب، بل يحتكم احتكاماً كلياً، «إلى التصورات الذهنية لدى منشيء الاستعارة وذاكرته التصورية»<sup>(4)</sup>، فيغلب - لهذا الاعتبار - مقصده من الخطاب، على جميع المقاصد الجزئية الدائرة في فلكه.

1- ينظر: السابق، الصفحة نفسها.

2- أوكان (عمر): اللغة والخطاب، ص: 204، وينظر: نفسه، ص: 219- 220.

3- ينظر: نفسه، ص: 222.

4- العشري (محمود): الاستعارة "إستراتيجية حرب، دراسة في الخطاب السياسي للحرب على لبنان"، عالم الفكر، ع4/ 4م، أبريل - يونيو 2013، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت - دولة الكويت، ص: 234.

فقد كان هدف "عائشة" رضي الله عنها الأوحد من وراء هذا الخطاب، إقناع أهل البصرة بصدق نيتها في الخروج من بيتها، لإحقاق حق ضاع، وإبطال باطل ذاع، وأنها لا مطمع لها في خلافة أو سيادة، وكيف تكون كذلك، وهي زوجة النبي ﷺ، بل أخص أزواجه به، وأقربهم إليه، وأحبهم، وآخرهم عهدا بروحه<sup>(1)</sup>، وهي بعد ذلك، ابنة الصديق، ثاني اثنين إذ هما في الغار، الله ثالثهما، ومطفئ نار المرتدين، ورائق فتقهم<sup>(2)</sup>.

إن مفهوم الاستعارة عند "عائشة" رضي الله عنها، محكوم بتوجه معرفي ينظر إليها—أي الاستعارة — بوصفها «آلة معرفية للتبصر بعالم المفاهيم وصناعة المعنى تقع عند أعماق عمليات التفاعل الإنساني مع الحقيقة وأكثرها عمومية»<sup>(3)</sup> وهو ما يبرر اعتمادها الكلي على أثرها في متلقي الخطاب، وتحقيقها لهدفها منه.

كما تكمن فعالية الاستعمال الحجاجي للاستعارة في تناسبه مع السياق، إذ تمثل الاستعارة أبلغ وأقوى الآليات اللغوية، رغم اكتناف السياق لكثير من العناصر، ويظهر التوجه العملي لها في ارتكازها على المستعار منه، فتكون بذلك أجدى من الحقيقة في تحصيل الاقتناع، كما يستعمل المرسل الاستعارة لإعادة تصنيف ذاته أو إبرازها بين مراجع أخرى<sup>(4)</sup>، مثلما فعلت عائشة رضي الله عنها، بعد أن رأت طروء مقاييس وظروف، غيرت نظرة الناس إلى الواقع وأعادت ترتيب معالم الدولة الإسلامية الفتية، ومنظومتها القيمية.

فلا غرو إذن أن يعتبر أرسطو الاستعارة أعظم الأساليب وآية الموهبة والعبقرية وألحق بها من حيث هي نقل أو تخيل عددا كبيرا من وجوه البلاغة<sup>(5)</sup> مثل الكناية والمجاز المرسل والتشبيه والتمثيل، والكناية والطباق والألغاز والرموز... وإن كنا سنكتفي في هذا المقام ببعض الوجوه دون أخرى.

1- ينظر: الجمهرة، ص: 136.

2- ينظر: نفسه، ص: 137.

3- العشري (محمود): الاستعارة "إستراتيجية حرب، دراسة في الخطاب السياسي للحرب على لبنان"، ص: 234.

4- ينظر: الشهري: آليات الحجاج وأدواته، ص: 138.

5- ينظر: أوكان (عمر): اللغة والخطاب، ص ص: 215- 216.

### ج- التشبيه والتمثيل:

يرى الجرجاني أن الفرق بينهما يمكن في «أن التشبيه عام والتمثيل أخص منه، فكل تمثيل تشبيه وليس كل تشبيه تمثيلاً»<sup>(1)</sup> ولكل منهما موقعه في الكلام يزيدده حسناً، ورونقاً، وتأثيراً، غير أن التمثيل «إذا جاء في أعقاب المعاني أو برزت هي باختصار في معرضه ونقلت من صورها الأصلية إلى صورة كساها أبهة، وكسبها منقبة ورفع من أقدارها وشب من نارها وضاعف قواها في تحريك النفوس لها [...] وإن كان حجاجاً، كان برهانه أنور وسلطانه أقهر، وبيانه أهر»<sup>(2)</sup>.

ويستمد التمثيل قدرته على الإقناع، والتمكين للفكرة التي يؤديها، من عقدة الصلة بين صورتين، تاركا فضل استنباط ما بينهما من تماثل للمتلقي، الذي يغدو بدوره مشاركا في تتبع جزئياته، وتفصيله، وحججه وبراهينه، كقول النبي ﷺ لقريش في أول خطبة له: «...والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون ولتحاسبن بما تعملون...»<sup>(3)</sup>.

فقد مثل لهم ﷺ حالا بحال، جاعلا الأقرب الجلي المسلم به، دليلا على الأبعد الخفي المشكوك فيه، فما دام القوم غير جاحدين بالاستيقاظ بعد النوم، فهم لا شك يقرون بالبعث بعد الموت، لأن سبيل إدراك الحقيقتين واحد وهو القياس على المشابه، واستحضار المثل، وهذه إحدى طرق الإقناع باستعمال "التمثيل"<sup>(4)</sup> وما ينطوي عليه من توليد للدلالات الجزئية ضمن إطار المماثلة الكلية، بين قضيتين.

وقد يلجأ المرسل إلى التمثيل المقتبس، لاختصار المعاني، والإفادة مما هو مشترك بينه وبين مخاطبيه، حرصا منه على الإقناع، من أيسر سبيل وأوجزها، كقول "أم الخير بنت الحريش": «...يا معشر المهاجرين والأنصار قاتلوا على بصيرة من ربكم وثبات من دينكم

1- الجرجاني (عبد القاهر): أسرار البلاغة، ص: 84.

2- نفسه، ص: 100.

3- الجمهرة، ص: 51.

4- ينظر: الزماني (كمال): حجاجية الصورة في الخطابة السياسية لدى الإمام علي رضي الله عنه، عالم الكتب الحديث، إريد - الأردن، ط 1، 2012، ص ص: 38، 126 - 130.

فكأنني بكم غدا وقد لقيتم أهل الشام كحمر مستنفرة، فرت من قسورة لا تدري أين يسلك بها من فجاج الأرض»<sup>(1)</sup>.

فهي تريد أن تُنمِّي إلى نفوس شيعتها، جملة من المعاني، والدلالات، بعضها، جديد مستطرف، وبعضها الآخر مشترك، مستقر في المخيال الجمعي، فاختارت "التمثيل" باستحضار صورة موظفة سلفاء، لكن توظيفها، في مقام جديد أكسبها دلالات مستحدثة، لأنها وإن جعلت جند الشام كالحُمُر المستنفرة، التي فرت من قسورة، إلا أنها تريد صورة تمثيلية أدق، وأبعد، وهي إلحاقهم (جند الشام) بما يضارعهم في أفعالهم، وسلوكهم واعتقادهم، وتديبرهم أي بقريش، على اعتبار أنهم أول مقصود بهذا التمثيل والتصوير، فكأنما تحاول أن تؤدي المعنى في طبقتين؛ الأولى إلحاق جند الشام بقريش، والثانية إلحاق كل منهما بمثله، وهو الحمر المستنفرة، لتثبت على سبيل الإدعاء، قوة العلاقة بينهما من جهة، وبين جند علي وأتباع محمد من جهة ثانية، وهو ما يشي به خطابها إياهم بـ "يا معشر المهاجرين والأنصار".

$$(1) \quad \boxed{\text{جند الشام}} = \boxed{\text{مشركو مكة}} \quad \text{كالحمر المستنفرة}$$

$$(2) \quad \boxed{\text{جند علي}} \neq \boxed{\text{جند الشام}} \neq \boxed{\text{مشركو مكة}} \neq \boxed{\text{الحمر مستنفرة...}}$$

$$(3) \quad \boxed{\text{المهاجرون والأنصار}} = \boxed{\text{أتباع محمد صلى الله عليه وسلم}}$$

فقد أرادت "أم الخير" أن توسع من دائرة التمثيل، ليقع في أذهان أتباع علي أنهم امتداد شرعي للنبي ﷺ، وأنهم على الحق، وغيرهم على الباطل، لأنهم أحفاد مشركي مكة وحاملو اعتقاداتهم وهو ما يظهر بجلاء في باقي أجزاء خطابها<sup>(2)</sup>.

وبناء على هذا يمكن أن نقول إن:

اعتماد المرسل على هذا اللون البلاغي من شأنه أن يسم الخطاب بالوضوح، ويجعله

1- السابق، ص ص: 194 – 195.

2- ينظر: نفسه، ص: 195.

أكثر نفاذاً إلى القلوب والعقول<sup>(1)</sup> من خلال الاستعانة بعناصر ومكونات مصدرها البيئة أو المحيط الاجتماعي، والثقافي وهو ما لمسناه فيما سلف.

#### د- البديع:

تكمن حجاجية المحسنات البديعية، في أمرين: أحدهما توزع القيمة الجمالية في البديع بين المعنى واللفظ، أي تعاضد الشكل والمضمون في إبراز الخطاب إبرازاً متفرداً، مما يكسبه رونقاً، وقبولاً لدى المتلقي، ولا شك أن هذا القبول هو نفسه ما يتوق إليه منشئ الخطاب.

وثانيهما، ما تتميز به الألفاظ البديعية من قدرة تأثيرية بما تخلعه على الكلام من جرس موسيقي، تأذن له النفوس، وتصغي له الآذان، ولا يخفى أثر كل ذلك على متلقي الخطاب، وإذعانه لمحتواه<sup>(2)</sup>.

غير أن هذا لا يعني، لزوم الحجاج البديع، أو ارتباطهما معاً ارتباطاً آلياً، بحيث ينتج عن أحدهما، حصول الإقناع، أو يلزم وجود أحدهما وجود الآخر، ولذلك سنتوخى في التمثيل لهذه التقنية من المدونة حذراً مضاعفاً، وسنقتصر على ما هو بادٍ أثره الإقناعي في الخطاب دون سواه.

يقول المراغي، بعد أن أورد تعاريف القدماء له: «... مما سبق نفهم أن مصطلح (البديع) يدور معناه حول التحسين والتزيين في اللفظ والمعنى، فحسن اللفظ من حيث الجرس الصوتي، وحسن الكلمة من حيث أداؤها لمعناها، ويزداد حسن أداء الكلام لمعناه بتأثير الرنين الصوتي كما يتضح في الجناس والسجع والترصيع، والتصريح...»<sup>(3)</sup> ولذلك انقسمت وجوه التحسين إلى قسمين؛ قسم متعلق بالمعنى غير مهمل للفظ، وآخر متجه إلى اللفظ، غير متكرر للمعنى.

1- ينظر: العشراوي (عبد الجليل): الحجاج في الخطابة النبوية، ص: 154.

2- ينظر: حشاني(عباس): خطاب الحجاج والتداولية، دراسة في نتاج ابن باديس الأدبي، ص: 296.

3- المراغي(محمود أحمد حسن): البديع، دار العلوم العربية، بيروت - لبنان، ط1، 1991، ص: 11.

### 1) الحجاج بالتحسين اللفظي:

ويأتي في مقدمتها السجع، والجناس، لما فيهما من الخصائص الصوتية الآخذة بالآذان، الأسرة للألباب، لأنه يمكن «اعتبار الموسيقى رافدا من روافد الحجاج من جهة استيلاء ما وقع على النفوس، وامتلاك الأنغام للأسماع، وما كان أملك للسمع كان أفعل باللب وبالنفوس»<sup>(1)</sup> كما يظهر في خطاب الحسين بن علي الآتي: «...ألا إن الحرب شرها وريع، وطعمها فظيع، فمن أخذ لها أهبتها، واستعد لها عدتها، ولم يألم كلومها، قبل حلولها، فذاك صاحبها...»<sup>(2)</sup> إذ استعمل المرسل، في خطابه، السجع، لما يزرخ به من طاقة صوتية، من شأنها أن تجلي أثر الحرب في الإنسان، أيّا كان، خاصة إذا كان هذا المقدم، غير مستعد لها، ولا أخذ بأسبابها، وقد عمد (الحسين بن علي) إلى هذه المعاني الشائعة للحرب فضمنها في عبارات متناسقة، مسجوعة، تستوقف في امتداد خطابي بصري وسمعي المخاطب، لتدس في خياله، صورة تنفطر لها القلوب، وتطير منها النفوس، لمن يقدم على المهالك، دون أن يعد لها عدتها، ويأخذ لها أهبتها.

وقد يأخذ استعمال السجع منحى آخر، إذا كان مقحما في مقام خطابي تفاعلي، تندفع فيه الأسنة، والسيوف، والخطب، والأشعار، كما في خطبة أم الخير الشيعية بالمعركة يوم صفين: «وهي كالفحل يهدر في شقشقته تقول: «...إنها إحن بدرية، وأحقاد جاهلية، وضغائن أحدية وثب بها معاوية حين الغفلة، ليدرك ثارات بني عبد شمس [...] وها هو ذا مفلق الهام، ومكسر الأصنام، صلى والناس مشركون، وأطاع والناس كارهون...»<sup>(3)</sup> إذ يبدو أن معاوية وجد حُرّ هذا الإحكام في الكلام والتناسق في المعاني، والإتقان في الصنعة، فلم يزل به حتى استقدمها بعد لَأَيٍّ، وقَرَّرَها وقال لها معاتباً: «يا أم الخير ما أردت بهذا الكلام إلا قتلي، ولو قتلتك ما حرجت في ذلك»<sup>(4)</sup>.

1- الدريدي (سامية): الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة، بنياته وأساليبه، عامل الكتب الحديث،

إربد - الأردن، دط، 2008، ص: 127.

2- الجمهرة، ص: 153.

3- نفسه، ص ص: 194-195.

4- نفسه، ص: 195.

ومن الحلّي اللفظية، والأنماط البديعية التي لها تأثير بالغ، في جذب المتلقي، "الجناس" «ففيه من عطف النفوس، وإصغائها ما يملؤها لذة بنغمته التي تجعل العبارة على الأذن سهلة ومستساغة، فتجد من النفس من القبول، وتتأثر به أي تأثير، وتقع من القلب أحسن موقع»<sup>(1)</sup>، خاصة إذا كان عفو خاطر، بعيدا عن الكلفة، صادرا عن الموقف غير نابٍ غن سياق إنتاجه، كقول علي عليه السلام: «...معاوية وجنده، الفئة الطاغية الباغية»<sup>(2)</sup> ففي تقارب لفظي "الطاغية الباغية" من حيث عدد الحروف وهيئتها وترتيبها مع اختلافهما في النوع والمعنى جناس مضارع، وهو «أن يختلف اللفظان المتجانسان في نوع الحروف»<sup>(3)</sup>.

ويتميز هذا النوع من البديع، بتغريب المعنى في نفس المتلقي، وزعزعة إدراكه المعتاد للألفاظ، بقرع سمعه، وتنبيهه إلى لفظين متضارعين يختلفان معنى، ويتشابهان رسما ومبنى، فيقف المتلقي عندهما، متأملا، مستدركا ولا يخفى ما في هذا التوقف من تمكين للمعاني، واستيضاح لدلالاتها في نفس المرسل إليه.

ومن وجوه الجناس، تجنيس الاشتقاق، وهو نمط بديعي، ألحقه البلاغيون بالجناس لاجتماع لفظين على أصل واحد في اللغة<sup>(4)</sup>، كقول سهل بن حنيف مخاطبا عليا: «يا أمير المؤمنين، نحن سلم لمن سالمت، وحرب لمن حاربت ورأينا رأيك... فإن استقاموا لك استقام لك الذي تريد وتطلب...»<sup>(5)</sup>.

ففي خطابه، تجنيس قائم على الاشتقاق من أصل المفردة اللغوي، بين "سلم-سالمت" و"حرب-حاربت" و"استقاموا-استقام".

فإن هذه الألفاظ وإن اختلفت دلالاتها، إلا أنها ترجع إلى أصل لغوي واحد لا تحيد

1- عائشة حسين فريد: وشي الربيع بألوان البديع في ضوء الأساليب العربية، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة - مصر، دط، 2000، ص: 161.

2- الجمهرة، ص: 152.

3- عائشة حسين فريد: وشي الربيع، ص: 180.

4- نفسه: ص: 183، وينظر للتوسع: منير سلطان: البديع تأصيل وتجديد، منشأة المعارف، الإسكندرية - مصر، دط، 1986، ص: 75 - 77، وقد سماه بالاشتقاق الأصغر.

5- الجمهرة، ص: 142.

عنه، فجانس المرسل بين "سلم، وسالم"<sup>(1)</sup> والأصل واحد، لأن الرجل يوصف بأنه "سلم" إذا كف أذاه عن غيره، ووصفه عليًا به، يقصد معاهدتهم على المسالمة وهي وقف القتال، والأصل قصر الأذى وكفه.

وجونس بين "الحرب" و"المحاربة"<sup>(2)</sup>، لاشتراكهما في الأصل وهو الخسار، والهلاك كما أن الجامع بين "استقاموا، واستقام" التأييد والموفقة، وهي معانٍ ينضح بها الخطاب، ويرشحها المقام، ومقتضى الحال.

وقد اضطلعت هذه الأدوات البديعية، بما أكسبت الخطاب من جرس صوتي مؤثر بدور حجاجي، أسهم في تغير رؤية المتلقي للأشياء، وتجاوز به مستويات الزخرفة والتوشية المعهودة، التي ظلت سمًا غالبًا على الوظيفة العامة للبديع عبر مسيرة وجوده الممتدة.

ومن أدوات الحجاج بالتحسين اللفظي، توظيف المرسل "للاقتباس"، في خطابه، وتضمينه شيئًا من القرآن الكريم أو الحديث الشريف من غير دلالة على أنه منهما، مع جواز أن يغير في الأثر المقتبس قليلًا وهو من أكثر أساليب البديع دورانًا على ألسنة خطباء الفترة، خاصة عليًا عليه السلام الذي يبدو تأثره بأسلوب القرآن الكريم جليًا<sup>(3)</sup> إذ معظم ألفاظه مستمدة منه، أو راجعة إليه، ولا تكاد تجد لفظة إلا وهي ضاربة في كتاب الله بسهم وافر، وحظ زاهر، نذكر منها نُبذًا؛ كقوله: «... يقودهم إبليس، ويرق لهم ببارق تسويفه، ويدليهم بغروره»<sup>(4)</sup>، يقصد الاقتباس من قوله تعالى: ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾<sup>(5)</sup> كما لا يخلو كلامه عليه السلام من تناص مكثف، يطول استقصاؤه في هذا الموضع، يصلح لأن يفرد بحثًا مستقلا.

ومنها قوله: «وأرادوا رد الأشياء على أدبارها، والله بالغ أمره، ومصيب ما

1- ينظر: ابن منظور: لسان العرب، ج1، ص:7، ج2، ص:815-817.

2- ينظر: الجارم (علي) ومصطفى أمين: البلاغة الواضحة، البيان والمعاني والبديع، دار المعارف، القاهرة - مصر، بيروت - لبنان، دط، 1979، ص:270.

3- ينظر: ترحيني (فايز): الخطابة والنهج، النخيل للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، دط، 1992، ص:120.

4- الجمهرة، ص:152.

5- الأعراف: الآية:22.

أراد...» يقتبس من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَلِّغَ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾<sup>(1)</sup>.

ومن الخطابات التي تستوقف متلقيها، لكثرة ما تضمنته من اقتباس، خطاب أم الخير بنت الحريش، الذي نذكر منه فيما يأتي بعض مواضعه، مستغنين عن إيراده لطوله، كقولها: «يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم إن الله قد أوضح لكم الحق وأبان الدليل... ثم قالت: قاتلوا أئمة الكفر إنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون... فكأنني بكم غدا وقد لقيتم أهل الشام كحمر مستنفرة فرت من قسورة لا تدري أين يسلك بها من فجاج الأرض باعوا الدنيا بالآخرة واشتروا الضلالة بالهدى، وعما قليل ليصبحن نادمين، حين تحل بهم الندامة، فيطلبون الإقالة، ولات حين مناص... فإلى أين تريدون رحمكم الله عن ابن عم رسول الله ﷺ... خلق من طينته وتفرع من نبعته وجعله الله باب دينه، وأبان ببغضه للمنافقين...»<sup>(2)</sup>.

يتجلى الأثر الحجاجي للاقتباس في خطاب أم الخير من خلال دعمها لدعواها، وما تذهب إليه في نصرتها علياً ﷺ، بالإحالة إلى حجج جاهزة، من القرآن والسنة، لتوفر على المتلقي عناء محضها، أو عرضها على عقله، انطلاقاً من صدقية قائلها المطلقة، فكأنها وهي توظف هذا المحسن البديعي، تستعير لساناً غير لسانها لتعبر عن موقفها، وتؤدي دقائق حالها، وهذا لما يمنحه الاقتباس من القرآن والحديث للخطاب، من قوة، ومن مصداقية، فقد يخضع المقتبس الآية أو الحديث إلى شيء من التغيير «ليجعل المقتبس منصهراً تمام الانصهار في نسيج [الخطاب] ملائماً كل الملاءمة لبنيته الصوتية، حتى يكون الفعل تاماً والتأثير المرجو حاصلًا»<sup>(3)</sup> نلمس ذلك في اقتباسها من قوله تعالى: ﴿كَانَهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ۖ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾<sup>(4)</sup> وتظهر جمالية هذا الاقتباس في إحالتها إلى واقع حاصل لا محالة، يُسأل فيه الكفار عن سبب استحقاقهم عذاب سقر، فيجيبون في غير مواربة:

1- الطلاق، الآية: 03.

2- الجمهرة، ص ص: 193 – 196.

3- الدرديدي (سامية): الحجاج في الشعر العربي القديم، ص: 118.

4- المدثر: الآيتان: 50 – 51.

﴿قَالُوا لَرَنَّا مِنَ الْمُصَلِّينَ ٤٣ وَلَرَنَّا نَكُ نُطْعِمُ الْمَسْكِينِ ٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بَيِّمَ الدِّينِ ٤٦ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ٤٧ فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ ٤٨﴾<sup>(١)</sup>.

ثم إلى ما في هذا الخطاب القرآني من التفات إلى المخاطب، بعد عرض مشهد تحاور المؤمنين والمشركين، حيث يقول تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ ٤٩ كَانَهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ٥٠ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ٥١ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةٌ ٥٢﴾<sup>(٢)</sup> وكأن المرسل (أم الخير) تشير من وراء هذا الاقتباس إلى استحقاق معاوية وجنده للعذاب، لأنهم قادمون عليكم بهذه الصفة، وقد أعرضوا عن كل تذكرة، وعصوا كل ناصح، فلا تألوا فيهم جهدا، وقد بلغت منهم العذر في النصح.

ومن صور اقتباسها من الحديث، قولها: «خلق من طينته ... وجعله الله باب دينه، وأبان ببعضه المنافقين»، مأخوذ من حديث النبي ﷺ: «خلقت أنا وهارون بن عمران ويحيى بن زكريا وعلي بن أبي طالب من طينة واحدة»<sup>(٣)</sup> وقوله: «أنا مدينة العلم وعلي بابها فمن أراد العلم فليأتها من بابها»<sup>(٤)</sup>.

وقوله في الحديث الآخر عن علي قال: «لقد عهد إلي النبي الأمي أنه لا يجبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق»<sup>(٥)</sup> وفي رواية ابن عباس زيادة «من أحببك فقد أحبني ومن أبغضك فقد أبغضني وحببي حبيب الله وبغضني بغض الله، ويل لمن أبغضك بعدي»<sup>(٦)</sup>.

ففي ما ذكرنا، إشارة إلى ما يطويه الاقتباس من معارف مشتركة بين المتخاطبين في السياق، ثم ينشرها حين تدعو الحاجة إليها، وتبرز فضيلة الاستعانة بها على أداء مراد المتكلم،

1- المدثر: من الآية: 43-48.

2- المدثر: الآيات: 49-52.

3- ابن الجوزي (أبو الفرج، عبد الرحمن بن علي): كتاب الموضوعات، ضبط وتقديم وتحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان، المكتبة السلفية بالمدينة المنورة- المملكة العربية السعودية، ط1، 1966، ج1، ص:339.

4- الهيثمي: مجمع الزوائد، ج9، ص:148، وفيه مقال ينظر: ابن الجوزي (أبو الفرج عبد الرحمن بن علي): كتاب الموضوعات، ضبط وتقديم وتحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان، ج1، ص ص:349-355.

5- الترمذي (أبو عيسى): الجامع الصحيح، ج5، ص:643.

6- الهيثمي: مجمع الزوائد، ج9، ص:180.

وتمكنه من نفس السامع، وإقناعه بصحة دعواه وصوابها، وفي ما أوردنا خير مثال لحاجة الحجاج إلى البديع، خاصة والبلاغة عامة، فإذا كان الحجاج صناعة والخطابة مثله فإن في البديع جمال الصناعتين<sup>(1)</sup> وبه يصير الإقناع صناعة بديعية لا غنى عنها لتحصيل غايات المتكلم ومقاصده.

## (2) الحجاج بالتحسين المعنوي:

ومن أشهر أوجهه، الطباق، والمقابلة والتورية، أما الطباق أو المطابقة أو التكافؤ فهو الجمع بين المعنى وضده في الكلام، وهو قسمان: حقيقي ومجازي<sup>(2)</sup> وهو اتجاه واضح في الإقناع بالحجاج لأنه يدعم المعنى بما يخلعه عليه من وضوح وقوة تأثير في ذهن المتلقي فيقع موقعه منه يقول عباس حشاني: «...يقوم الطباق بوظيفة حجاجية هي توضيح المعنى؛ حيث يدعم المعنى بقوة الوضوح، ويجعل الدلالة واضحة مقنعة...»<sup>(3)</sup>.

ومن الخطب التي استقت ملمحها الحجاجي من توافر هذا المحسن بها، خطبة النبي ﷺ الأولى بمكة التي يقول فيها: «... والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم، ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم، والله الذي لا إله إلا هو إني رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة، والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون... ولتجزون بالإحسان إحسانا، وبالسوء سوءا، وإنها لجنة أبدا أو لنار أبدا»<sup>(4)</sup>.

ففي هذا الخطاب صورة بديعية مختلفة، ولكن حرص المرسل على إقناع المخاطبين ألقاه إلى الاستعانة بآليات التفريق والإثبات التي يحصل بها إفهام المرسل إليه لما تكتنزه من قوى حجاجية مثل الطباق والمقابلة، لأن الحجاج قد يكون بالثنائيات الضدية كقوله:

(1) "كذبت الناس ≠ ما كذبتكم".

(2) "غررت الناس ≠ ما غررتكم".

1- ينظر: حشاني (عباس): خطاب الحجاج والتداولية، ص: 305.

2- ينظر: عائشة حسين فريد: وشي الربيع، ص: 18-19.

3- حشاني (عباس): خطاب الحجاج والتداولية، ص: 297.

4- الجمعة، ص: 51.

(3) "إليكم خاصة ≠ إلى الناس كافة".

(4) "لتموتن كما تنامون ≠ لتبعثن كما تستيقظون".

(5) "الإحسان ≠ السوء".

(6) "جنة ≠ نار".

وقد أدت هذه السلسلة من التضادات - وإن اندرج بعضها تحت مسمى "المقابلة" وبعضها الآخر تحت مصطلح "الطباق" - دورا بارزا في إفهام المخاطبين محور الرسالة المحمدية الوافدة، واضطلع بمهمة الكشف عن أسس الدين الجديد، وما يدعو إليه من الإيمان بالله واحدا أحدا، وبالبعث بعد الموت، والجزاء يوم الحساب.

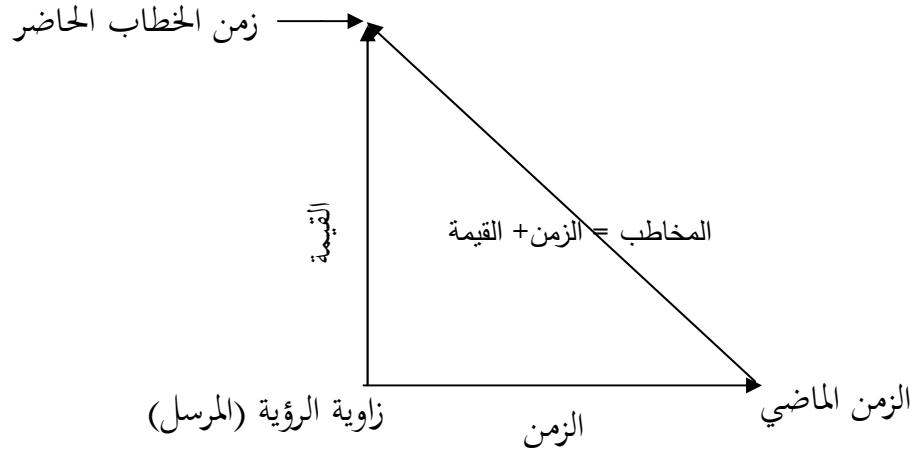
ولم يقتصر النبي ﷺ على توظيف نمط بديعي واحد، وإنما تجاوزه إلى استغلال نمط آخر متصل بالأول ولكنه أوسع منه يقوم على إيراد «معنيين أو معانٍ متوافقة ثم يؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب في نوع من الطباق إلا أنها تختلف في العدد»<sup>(1)</sup> وهو ما يسمى في عرف البلاغيين بالمقابلة، التي تظهر في الثنائيات (1- 4) وقد شكلت ثلثي (3/2) المجال البصري والسمعي للخطاب، بينما تكفل الطباق بتغطية المساحة المتبقية.

وتأخذ المقابلة أحيانا، موقعها في الخطاب، من حيث هي تركيب يفرضه تنامي الكلام وفق قواعد محتكم إليه سلفا، فيغدو تلافيها، كسرا لمنظومة هذه القواعد المؤطرة للخطاب إجمالا، ومن ثم، يصبح وجودها أمرا لازما، لا محيص عنه، كما في قول عدي بن حاتم يخاطب قومه ويحثهم على نصره علي: «... وقد كنتم تقاتلون في الجاهلية على الدنيا، فقاتلوا في الإسلام على الآخرة»<sup>(2)</sup>.

إن أول ما يلحظ على هذا التركيب، هو خضوعه لبناء فني دقيق، ومتوازن، أكسبه جرّسا صوتيا مقسما بين زمنين، ماضٍ وحاضر، أو بين قيمتين، سالبة وموجبة ليس بينهما رابط سوى المخاطب، الذي به يتجسد الزمن، وفيه تنصهر القيم، ويمكن توضيح ذلك في الرسم البياني الآتي:

1- عائشة حسين فريد: وشي الربيع، ص:30.

2- الجمهرة، ص:128.



ويعدّ هذا التمثيل اللغوي، تجسيدا لمفهوم التضاد الحديث، أو ما يسمى في عرف اللغويين المحدثين بالتوازي، وهو «عبارة عن تماثل أو تعادل المباني أو المعاني في سطور متطابقة الكلمات أو العبارات القائمة على الازدواج الفني وترتبط ببعضها... سواء في الشعر أو النثر»<sup>(1)</sup>.

ويكون لهذه التتابع اللفظي أفضلية في التعبير، لما يحيل إليه من تآلف داخلي للمعاني يرد في صورة «سطور متلاحقة تعرف الصلة بينها بتديد فقرة منها أو بتفصيل عبارة مجملة تذكر في السطر الأول وتشرحها السطور التالية أو بالاستجابة بين الشرط والجواب وبين الصلة والموصول لتعليق المعنى المنتظر على نحو يشبه تعليق السمع بانتظار القافية»<sup>(2)</sup> وقد عرفت هذه التماثلات الفنية في الشعر اليهودي خاصة كما أشار إلى ذلك صاحب "البديع والتوازي" نقلا عن "هوبكنز" "Hopkins"<sup>(3)</sup>.

ففي قول عدي بن حاتم السابق، من التوازي القائم على المقابلة ما يشي أوله بما هو معقود في آخره حتى ليخيل إلى المخاطب أن الكلام لا يحتمل إلا وجها واحدا، لا يعدوه، وهو ما ينتظر تلفظه من لدن المرسل، لقوة ما بين مبدئه ومنتهاه من التلاحم والتلازم والتراتب، ولذا لا يمكننا مجازاة من يرى أن «البديع في الكلام يجري على نمط فن الزخرف في النقوش

1- عبد الواحد حسناالشيخ: البديع والتوازي، مكتبة ومطبعة الإشعاع الفنية، مصر، ط1، 1999، ص:7.

2- العقاد (عباس محمود): اللغة الشاعرة، مزايا الفن والتعبير في اللغة العربية، مكتبة غريب، القاهرة - مصر، دط، دت، ص:32.

3- ينظر: عبد الواحد حسن الشيخ، البديع والتوازي، ص:9.

والممنمات والخط في جميل تكوينه، وحلاوة التواءاته ولطف مستوياته»<sup>(1)</sup>، لأن في ما أوردناه، ما يردُّ قول القائل، إذ لا يعقل أن يعمد المرسل وهو في أخرج المواقف الخطابية إلى ما يوشّي به خطابه، ويزوّق ألفاظه وعباراته دون أن يكون من وراء ذلك وظيفة يتطلبها المقام نفسه، وتقتضيها الحال، وقد مر بنا ما كابده النبي في سبيل إقناع قومه، بدعوته، وأبعادها، من خلال عرض النقيضين، وإيراد المتضادين، وما عاناه "عدي" من مشقة لاستمالة بني جلدته نصره لعلّي، والتزاما ببيعته.

إن توظيف التضاد في الخطاب توظيفا حجاجيا، «من الأمور الفطرية التي لها علاقة وثيقة ببلاغة الكلام إذ الضد أقرب خطورا بالبال عند ذكر ضده»<sup>(2)</sup> مما يبرز غرض المرسل وينقله في صورة بديعة ومؤثرة، أي أن «مفهوم البديع يتجاوز فكرة انحصاره في الجانب التحسيني التزييني ليضطلع بوظيفة حجاجية تستقيم أركانها في ظل غياب التكلف»<sup>(3)</sup> واطراد المحسنات لمنافتهما وظيفة الخطاب الأساسية التي هي التواصل ومن ثم التأثير والإقناع<sup>(4)</sup>.

وعموما يمكن أن نقول إن للإقناع بالحجاج أدوات كثيرة، لغوية وبلاغية، يوظفها منشئ الخطاب طمعا في تحقيق هدفه من إنشائه، وهي وإن تعددت تروم إصابة هذا المقصد وأداء ما هو منوط بها، في الوظيفة الإقناعية، من تغيير لموقف المخاطب أو نظرته إلى قضايا عالمة، دون أن تتناسى حيثيات السياق، ومتطلبات المقام، والعناصر الأخرى الكثيرة المشتركة بين طرفي الخطاب، ولذلك انصب عملنا في هذا الجزء من الدراسة على الخطاب اللغوي البحث، لما له من أثر حسن في كشف ما خفي من جوانب خطاب عصر صدر الإسلام، في حين سنفرد ما بقي من عمر هذا البحث لاستجلاء العلاقة المجازية بين الدعوى والحجة في شكلها شبه المنطقي أو ما يعرف بالسُّلَم الحجاجي دون أن نغضي من دور آلياته اللغوية وروابطه، وما تمثله من قيم حجاجية في الخطاب.

- 1- شلق (علي): العقل في التراث الجمالي عند العرب، دار المدى للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ط1، 1985، ص: 262.
- 2- عائشة حسين فريد: وشي الربيع، ص: 26، وينظر أصل هذا القول عند الجرجاني (بن علي)، الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة، تح: عبد القادر حسين، دار نهضة مصر، القاهرة، ط1، 1984، ص: 258، وهو- مختصرا- "الجنس ميال إلى الجنس والطبع ميال إلى إيقاع المناسبة [...] والنفس الكاملة مفطورة على محبته".
- 3- العشراوي (عبد الجليل): الحجاج في الخطابة النبوية، ص: 71. وينظر: محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص: 105.
- 4- ينظر: العمري (محمد)، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص: 105.

### (3) السلم الحجاجي والروابط الحجاجية:

يرجع مصطلح "السلم الحجاجي" إلى "أوزوالديكرو" "O.Ducrot" وزميله "أنسكومبر" "j.c.Anscombe"، وهو مفهوم يتخذ فكرة توالي الأقوال وتسلسلها في شكل حجج، منطلقاً له، وقد عرفه ديكرو بقوله: «نسمي سلمًا حجاجيًا، كل علاقة ترتيبية لحجج معينة»<sup>(1)</sup>.

ولعله من المفيد أن نشير بشيء من الاختصار إلى الخلفية الفلسفية والمعرفية التي أسهمت في ميلاد هذا المفهوم، والتي يمكن أن نؤرخ لها بفكرة "ديكرو" المغايرة عن أشكال الحجاج وأساليبه، الدائرة حول تخلص الحجاج من تزمّت الاستدلالات البرهانية، والحتمية والضرورة ليفسح له فضاء أرحب «يتسع لضم كافة الحجج التي تشملها اللغة، فضاء لا يحتاج فيه المتكلم إلى معرفة تامة بالمنطق وضروبه لكي يكون محاججا»<sup>(2)</sup>.

وبلغ تبرم "ديكرو" من تمكن المنطق وتحكمه بالخطاب حد الدعوة إلى الانسلاخ عن أطره وقوانينه الصارمة، ونبذها، والاكتفاء بهيكله العامل الحجاجي في طريقتين اثنتين هما: إما هيكله بالوصل والضم، وإما هيكله قائمة على الفصل والنقض<sup>(3)</sup>.

وتكمن وظيفة الروابط الحجاجية - في الهيكل الأولى - في تقوية توجه الملفوظ إلى النتيجة المتوخاة، أي أن وظيفة العامل الحجاجي مقتصرة على فعل التأييد والتقوية، وهي الهيكل التي بلورت مفهوم السلم الحجاجية "Les échelles argumentatives"، بينما تتجسد الطريقة الثانية في صياغة مربعة "Carré argumentatif"<sup>(4)</sup>.

لقد أصبح مفهوم "السلم الحجاجية" بفضل فكرة التدرج في الأقوال والحجج من الأضعف إلى الأقوى، محكوما بقوانين ثلاثة هي: قانون النفي، وقانون القلب، وقانون الخفض،

1- عن الزماني (كمال): حجاجية الصورة في الخطابة السياسية لدى الإمام علي، ص: 140.

2- نفسه، ص: 139.

3- ينظر: صولة (عبد الله): البلاغة العربية في ضوء البلاغة الجديدة (أو الحجاج)، ضمن (الحجاج مفهومه ومجالاته)، ج1، ص: 35، 36.

4- ينظر نفسه، ص نفسها.

مما جعل تصور "ديكرو" للحجاج أكثر مرونة، وارتباطا باللغة<sup>(1)</sup>، وأكثر استشارة لكفاءة المخاطب التداولية؛ لتقاطعهما مع الخطابات المنجزة في سياقاتها التي ترد فيها، وانتمائها إلى ترتيب سُلمي مدعوم «من المخزون اللغوي ونظامه، والتراتيبات المكتنزة في ذهن الإنسان»<sup>(2)</sup>.

إن هدف الحجاج في اللغة، في نظر "ديكرو" لم يعد مرتبطا بالاستدلال الصوري، ولا ممعنا في الفكر المنطقي الصارم، بقدر ما هو أولا وأخيرا سعي إلى اكتشاف منطق اللغة أي القواعد الداخلية المتحركة في تسلسل الأقوال، وتدرجها وتنميتها<sup>(3)</sup>.

وهو ما سنسعى إلى تحقيقه من خلال التعرف على آليات السُّلم الحجاجي اللغوية، وشبه المنطقية، والتي لا تتحقق إلا بما يلي:

#### أ- الأدوات اللغوية:

يبدو أن حسم الخلفيات النظرية أضحت من الصعوبة بمكان، بحيث سرعان ما يتسلسل إلى نفس الباحث اقتناع مفاده، أنها أعقد من أن يفصل فيها برأي، وإن كان هذا الواقع لا يمنعنا من محاولة إيجاد أرضية مشتركة تتحرك عليها هذه الدراسة، وخاصة وهي تروم التطبيق، وإنزال الأدوات والآليات الإجرائية، على خطاب صدر الإسلام.

ولعل ملمح هذه الأرضية ومحورها، لا يكاد ينأى بها بعيدا، عن الإقرار أولا باشتراك النظريات الحجاجية كلها في الاهتمام باللغة الطبيعية، واتخاذها منطلقا سواء في ذلك نظريات البلاغة الجديدة (بيرلمانوتيتيكا)، ونظريات التداولية المدججة (ديكرو وأنسكومبر)؛ فقد جعل ديكرو - مثلا - الحجاج الخاصية الجوهرية للغات الطبيعية، مما دفعه إلى إعادة رسم الحدود بين بعض الثنائيات من قبل "القول والجملة" و"المعنى والدلالة".

وإلى جانب ذلك ظهر مفهوم معدل للخطاب، ووظائفه، اعتمادا على النزعة الحجاجية

1- ينظر: الزماني (كمال): حجاجية الصورة ص ص: 142 - 144، وينظر: السري (زكريا): الحجاج الخطاب السياسي المعاصر، ص ص: 67 - 69.

2- الشهري (عبد الهادي): آليات الحجاج وأدواته، ضمن (الحجاج مفهومه ومجالاته)، ج 1، ص: 98.

3- ينظر: الزماني (كمال): حجاجية الصورة، ص: 140.

للغة، فأصبح لا ينظر إليه إلا بوصفه «مجموعة من الحجج والنتائج التي تقوم بينها أنماط مختلفة من العلاقات [...] ومجموع هذه العلاقات هو ما يكون البنية المنطقية للنص أو الخطاب المقصود، وهو ما نسميه عادة بمنطق الخطاب أو المنطق الطبيعي»<sup>(1)</sup>.

وتحاث هذه السيورة سيورة أخرى يمكن تسميتها بالوظيفة العامة للخطاب «من خلال ربطه بالمتكلم والمخاطب، وملابسات وظروف السياق التخاطبي العام»<sup>(2)</sup> وتنشأ عن هذه الوظيفة وظائف خطابية متنوعة؛ إخبارية، وجمالية، وتفاعلية، وإيديولوجية، وإقناعية...<sup>(3)</sup>

إن رصد أية وظيفة من هذه الوظائف، يستدعي بالضرورة، استنطاق بنية الخطاب اللغوية، في ضوء المفهوم السابق؛ أي البحث في منطق الخطاب من حيث هو حجج متعلقة تصنف في أنماط مختلفة، ولهذا رفض "ديكرو" التعارض بين الدلالة والتداول وقال بإمكان «إيجاد نظرية لسانية حجاجية تتسم بالكفايتين الوصفية والتفسيرية وتكون قادرة بالتالي على رصد ظواهر التلفظ والتخاطب، وتفسير كيفية اشتغالها داخليا [...] بحسب الوضعيات التواصلية»<sup>(4)</sup>.

وتشكل الأدوات اللغوية «التي يكون دورها هو الربط الحجاجي بين قضيتين، وترتيب درجتها بوصفها حججا في الخطاب»<sup>(5)</sup> أساس العلاقة القائمة بين هذه الحجج، ومن ثم عنصرا حاسما لا يمكن تجاوزه عند إرادة ترتيب الحجج داخل الخطاب، والكشف عن مختلف العلاقات المتحركة بها، ومن هذه الروابط: لكن، حتى، بل، فضلا عن، غني عن القول، وغيرها.

ومن الخطب التي تظهر القيمة الحجاجية للربط "حتى" خطبة عائشة رضي الله عنها يوم الحمل في أهل البصرة التي تقول فيها: «... ثم أبي ثاني اثنين الله ثالثهما... فرأب التأيوؤد

1- العزاوي (أبو بكر): الخطاب والحجاج، ص ص: 18-19.

2- نفسه، ص: 19.

3- ينظر: نفسه، ص ص: 19، 36-37.

4- السرتي (زكريا): الحجاج في الخطاب السياسي المعاصر، ص: 49.

5- عبد الهادي (بن ظافر): آليات الحجاج وأدواته، ضمن (الحجاج مفهومه ومجالاته)، ج 1، ص: 102.

من الغلظة، وانتاش من الهوة، واجتحي دفين الداء، حتى أعطن الوارد وأورد الصادر وعلّ الناهل...»<sup>(1)</sup>.

فقد احتجت "عائشة" بمآثر أبيها، وفق ترتيب سلّمي، مستعينة بالرباط الحجاجي "حتى" الذي يفيد الترتيب بمهلة، فهي مثل "ثم" المفيدة للمهلة، شرط أن يكون المعطوف بحتى جزءاً من متبوعه، والمهلة في "حتى" «بحسب الذهن وفي اعتبار المتكلم بأن يجعل المعطوف هو الأدنى أو الأعلى أو الأقدم أو نحو ذلك، لا بحسب الوجود...»<sup>(2)</sup>. فأبو بكر الصديق أبوها، متصف بخلال كثيرة، منها، ليّه عنق الإفساد، وتلينه خشونة الأعراب المرتدين، وبسطه الأمن والدعة، إلى أن أمن القوي الضعيف، لأن "حتى" مختصة بغاية الشيء في نفسه، فإذا دخلت على المضارع نصبت ورفعت، وتكون ناصبة إذا كان الفعل بعدها غاية للذي قبلها، فتكون بمعنى "إلى أن"<sup>(3)</sup>، ومن خصائصها الحجاجية أن تليها الحجة الأقوى في سلم الحجاج، لدالتها على الشمول، أي شمول العقل أو الوصف جميع أصناف الموصوف، فأبو بكر بسط الأمن على ربوع الجزيرة العربية، حتى أمن الكبير والصغير والضعيف والقوي، إذ جعلت "عائشة" ما بعد "حتى" في أعلى درجات السلم، لما يستلزم من شمول الفعل أو الوصف من هو دونه. «وبما أن ما بعدها يكون غاية لما قبلها، فإن السلم يمكن الاحتجاج بأعلاه أو بأدناه»<sup>(4)</sup> كما هو مجسد في الخطاب السابق، وكما هو في خطاب الأشر الآتي:

«... وإن أنفسنا لن تموت حتى يأتي أجلها...»<sup>(5)</sup>.

فقد أراد أن يحتج على الذين يجبنون عن قتال أعدائهم، بأن الموت أجل مقدر، وأن النفوس لا تزهق إلى أن يأتيها أجلها، ويحين، فجعل الحجة الأقوى في أعلى درجات السلم الحجاجي، مما يظهر «عملية التقوية للحجة (reinforcement) في حركة التوجيه الذي تقوم به "حتى" في إخراج الملفوظ من العام إلى الخاص، ومن الكل إلى الجزء، وفي هذا التمشّي رفع

1- الجمهرة، ص: 137.

2- الكفوي: الكليات، ص: 397.

3- ينظر: نفسه، ص ص: 395-396.

4- الشهري (عبد الهادي): آليات الحجاج وأدواته، ص: 111.

5- الجمهرة، ص: 143.

للمغوض وتعدد المفاهيم، أليس من وظائف العامل الحجاجي القضاء على الغموض وحصر النتيجة حصراً<sup>(1)</sup>.

ومن الأدوات التي تفيد ترتيب الحجج، "لكن" وهو حرف استدراك والاستدراك «دفع توهم يتولد من الكلام السابق دفعا شبيها بالاستثناء، ولا بد أن يتقدمها كلام إما مناقض لما قبلها [...] ويمتنع أن يكون مماثلاً له باتفاق [...] فإن كانت الجملة التي قبلها مثبتة وجب أن تكون التي بعدها منفية، بخلاف بلْ فإنه للإعراض عن الأول، ولكن في المفردات نقيضة إلا، وفي عطف الجمل نقيضة بلْ في مجيئها بعد النفي والإثبات»<sup>(2)</sup>.

ومثال "لكن" التي ترد بين متخالفين قول هاشم بن عتبة: «...كذبوا ! ليس لدمه ينفرون ولكن الدنيا يطلبون أنحض بنا إليهم...»<sup>(3)</sup>.

فقد نفى المرسل عن معاوية وأتباعه الحجة التي بها ناصبوا "عليّاً" العداء، وضعفها بإقحام "لكن" المستدركة أو الداحضة، وهي رابط حجاجي وظيفته دحض ملفوظ مخاطب آخر من خلال إخبار، أو تجسيد لفعل مثبت، يجعل حركة التلفظ مرتبطة بالنفي، أو التعديل والتصحيح<sup>(4)</sup>، كما يتجلى في قول قيس بن سعد معذرا لأشياخ الأنصار: «فقال أشياخ الأنصار.. لم تقدمت أشياخ قومك وبدأتهم بالكلام يا قيس؟ فقال: أما إني عارف بفضلكم، معظم لشأنكم، ولكني وجدت في نفسي الضغن الذي في صدوركم، جاش حين ذكرت الأحزاب...»<sup>(5)</sup>.

فقد برز دور "لكن" المستدركة، في إظهار حجة "قيس" القوية، التي سوّلت له تصدر المجلس دون وجهاء قومه.

ويوظف المرسل -أحياناً- هذا الربط الحجاجي، بعد أن يذكر حججاً أقوى، لمخاطبه،

1- الناجح (عز الدين): العوامل الحجاجية في اللغة العربية، مكتبة علاء الدين، صفاقص - تونس، ط 1، 2011، ص: 136.

2- الكفوي: الكليات، ص: 792.

3- الجمهرة، ص: 140.

4- Maingueneau (Dominique): Pragmatique pour le Discours Littéraire, édition Nathan, her, Paris, France, 2001, p57.

5- الجمهرة، ص: 141-142.

أو من يدّعي عليه، ثم يورد "لكن" في سياق دفع ما سبق دحضه جملة واحدة، كقول ذي الكلاع الحميري: «... ثم كان من قضاء الله أن ضم بيننا وبين أهل ديننا بصفين، وإننا لنعلم أن فيهم قوما، قد كانت لهم مع رسول الله صلى الله عليه وآله سابقة ذات شأن وخطر عظيم، ولكني ضربت الأمر ظهرا وبطنا فلم أر يسعني أن يهدر دم عثمان، صهر نبينا صلى الله عليه وآله، الذي جهز جيش العسرة، وألحق في مصلى رسول الله صلى الله عليه وآله بيتا، وبني سقاية وباع له نبي الله بيده اليمنى على اليسرى، واختصه بكرمته...»<sup>(1)</sup>.

ف "ذو الكلاع"، لا ينفي حق علي وأصحابه، من المهاجرين والأنصار، بل أثبت لهم سابقة مع النبي ذات خطر عظيم، ولكنه يضع هذه الاعتبارات في درجة سُلمية أدنى من درجة عثمان، وهو أظهر في الاحتجاج لعثمان وفضله.

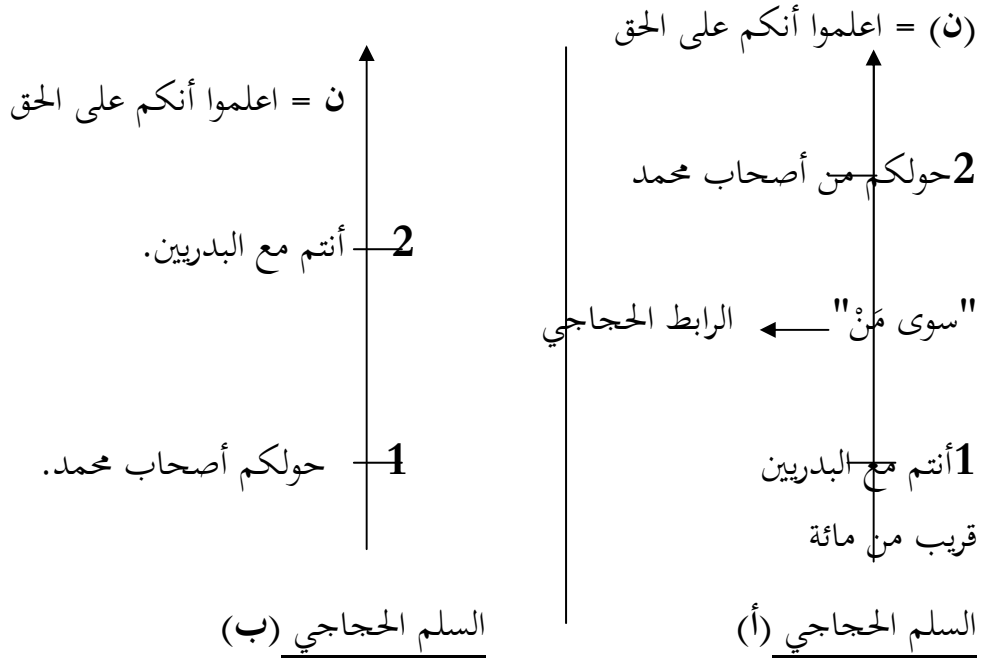
ويمكن عدّ عبارة "سوى من" من أدوات ترتيب الحجج في السُّلم الحجاجي، كقول الأشر: «... واعلموا أنكم على الحق، وأن القوم على الباطل، إنما تقاتلون معاوية وأنتم مع البدرين قريب من مائة بدري، سوى من حولكم من أصحاب محمد، أكثر ما معكم رايات قد كانت مع رسول الله ﷺ، ومعاوية مع رايات قد كانت مع المشركين على رسول الله ﷺ، فمن يشك في قتال هؤلاء إلا ميت القلب...»<sup>(2)</sup>.

فقد لفت "الأشر" في خطابه، إلى أن الحق واضح، لا مرأى فيه، لأن أكثر من هم مع علي، بدريون، فضلا عن الصحابة، كما أن في استعماله لعبارة "سوى من" إثبات لدعواه؛ لما ترتّب عنها من تقوية لحجج، وتضعيف لأخرى، إذ لا شك أنه بنى خطابه على اعتبار تصور حجة المخالف، الذي قد يعترض عليه، بوجود صحابة مع معاوية أيضا، فبدأ بعرض حجة أقوى، رتبها قبل عبارة "سوى من" لإفحام المعارض وإسكاته، ثم عرج على الأضعف أو ما هو محتمل، ويمكن الترميز لذلك بالسُّلم الحجاجي الآتي:

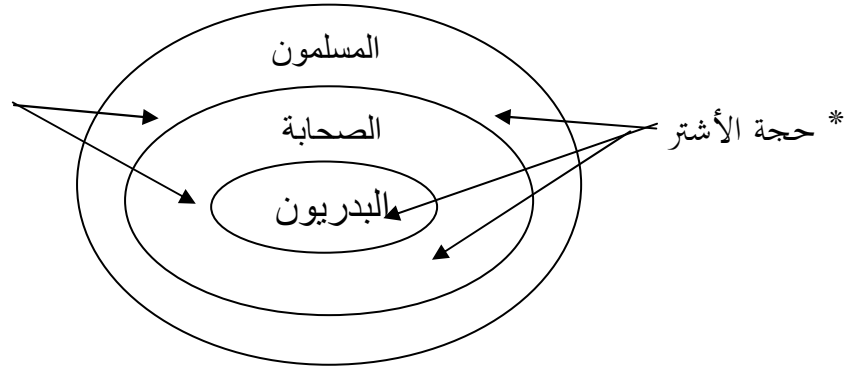
1- السابق، ص: 165.

2- نفسه: ص: 183.

\* يضم هذا الترميز مثالين: "أ" و "ب" أولهما مع وجود الرابط والثاني عند غيابه.



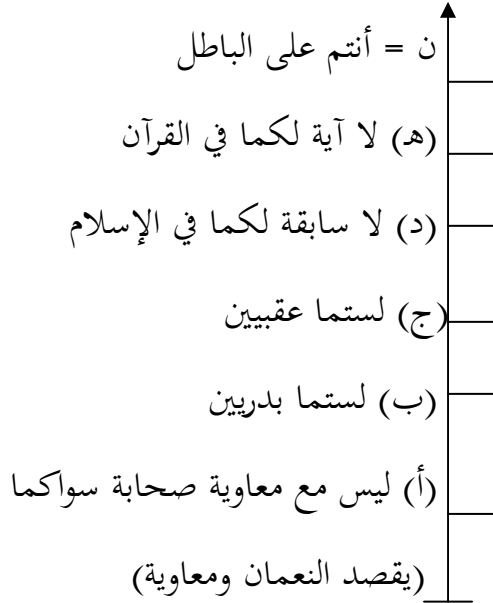
فالرابط بين "الصحابة والبدرين" مندرج ضمن "الكفاءة التداولية" للمتخاطبين لأن النتيجة المستلزمة، مستندة إلى سلسلة من النتائج الجزئية المترابطة، فالبدريون أرفع شأنًا من عموم الوصف بالصحابة، والصحابة أعظم خطراً مما سواهم وهو ما يمثله الرسم البياني الآتي:



وتتجلى القيمة الحجاجية لعبارة "سوى من" في تجاوز المخاطب للحجج المتجاذبة بينه وبين محاججه، إلى حجج أكثر دلالة على الدعوى، وإفادة للمقصود.

وربما استعمل (المرسل) رابطاً آخر، كالواو، لما ينطوي عليه من معاني الربط بين الحجج المتساوقة أو المتساندة، لا مجرد الجمع، كخطاب قيس بن سعد للنعمان بن بشير: «...ثم انظر هل ترى مع معاوية غيرك وصويحبك، ولستما والله بدريين ولا عقبيين، ولا كلما سابقة في

الإسلام ولا آية في القرآن»<sup>(1)</sup>. فقد أورد قيس عددا من الحجج ليثبت صحة دعواه، وهي:



وقد استعان لترتيب حججه بالواو، لأن فيها قدرة على إقناع المخاطب، بتناسق الحجج، وتساندها، في إحكام الدعوى، والتمكين لها، و«هنا يكمن دور الروابط الحجاجية واستثمار دلالاتها في ترتيب الحجج، ونسجها في خطاب واحد متكامل»<sup>(2)</sup>.

### ب) السمات الدلالية:

وفيها تتحدد العلاقة بين الخطاب، والمرسل، من جهة، والمرسل والمرسل إليه من جهة أخرى، من خلال ما يمتلكه كل طرف من رؤية تحركه، وتؤثر به وتحدد الدلالات المقصودة الحاملة لثقافته، وشخصيته، واتجاهاته ومواقفه «لذلك فإن شكل اللغة ومضمونها يتحددان بهذه العلاقة، ويتأثران بها تأثرا واضحا»<sup>(3)</sup> وهو ما نتلمسه في هذا المستوى عبر إخضاع المرسل/المرسل إليه، حججه لترتيب معين فترتقي الحجة الواحدة إلى أعلى السلم من وجهة نظر معينة كما تنزل حسب وجهة نظر أخرى إلى أدنى السُّلَّم<sup>(4)</sup> ومن أمثلة تأثير رؤية المرسل

1- الجمهرة، ص: 190-191.

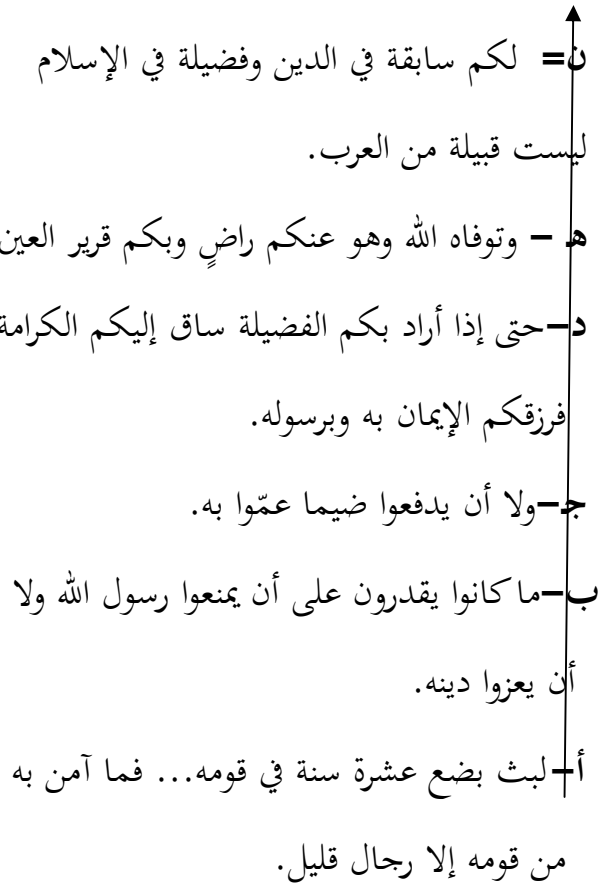
2- الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 472.

3- عكاشة (محمود): لغة الخطاب السياسي، دراسة لغوية تطبيقية في ضوء نظرية الاتصال، دار النشر للجامعات، القاهرة - مصر، ط1، 2005، ص: 88. وينظر نفسه، ص: 132 (هامش).

4- ينظر: الشهري (عبد الهادي بن ظافر): آليات الخطاب وأدواته، ضمن (الحجاج مفهومه ومجالاته)، ج1، ص: 112.

على سُلَّمِيَّة الحجج، ما دار بين أبي بكر، وبين سعد بن عبادَةَ رضي الله عنهما في سقيفة بني ساعدة؛ فقد رتب سعد حججه انطلاقاً من رؤيته الخاصة، لمكانة الأنصار في الإسلام، وقوة علاقتهم بالرسول ﷺ، وفاعلية دورهم في التمكين له، ولمن معه من المهاجرين، فقال: «يا معشر الأنصار لكم سابقة في الدين وفضيلة في الإسلام ليست لقبيلة من العرب، إن محمداً عليه الصلاة والسلام لبث بضع عشر سنة في قومه يدعوهم إلى عبادة الرحمان، وخلع الأوثان فما آمن معه إلا رجال قليل، وما كانوا يقدرّون على أن يمنعوا رسول الله ﷺ، ولا أن يعزّوا دينه، ولا أن يدفعوا عن أنفسهم ضيماً عمّوا به، حتى إذا أراد بكم الفضيلة ساق إليكم الكرامة وخصكم بالنعمة...»<sup>(1)</sup>.

فالأنصار - حسب سعد - أفضل العرب وأحقهم بالخلافة، لأنهم مكّنوا للإسلام ونصروا رسوله ومن كان معه من ضعاف قومه، ومن ثم لم تصلح الخلافة لأحد سواهم بعد الرسول ﷺ، وفيما يلي تمثيل لترتيب حججه في السلم الحجاجي الآتي:



1- الجمهرة، ص: 61.

واعتمد (أبو بكر) ﷺ، على حجج (سعد) نفسها، في ردّه عليه، ولكنه كيفها وفق رؤيته الخاصة، وربّتها بحيث تفضي مجتمعة إلى إثبات أحقية المهاجرين في الخلافة، دون سواهم فقال: «إن الله بعث محمدا رسولا إلى خلقه، وشهيدا على أمته ليعبدوا الله ويوحّدوه وهم يعبدون من دونه آلهة شتى [...] فعُظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم فخصّ الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه والإيمان به والمؤاساة له، والصبر معه على شدة أذى قومهم لهم وتكذيبهم إياهم وكل الناس لهم مخالف زارٍ عليهم فلم يستوحشوا لقلّة عددهم وشنف الناس لهم، وإجماع قومهم عليهم، فهم أول من عبد الله في الأرض وآمن بالله وبالرسول وهم أولياؤه وعشيرته وأحق الناس بهذا الأمر من بعده [...] وأنتم يا معشر الأنصار من لا تنكر فضلهم في الدين ولا سابقتهم العظيمة في الإسلام [...] فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء...»<sup>(1)</sup>.

وفيما يلي ترتيب سلّمي لحججه، التي استقاها من حجج خطاب (سعد) إلا أنه أخضعها لمنظور جديد، سوّغ له إعادة ترتيبها، بما يوافق ثقافته، وشخصيته، واتجاهاته، ومواقفه، فجعل الحجة الأولى ترتيبا عند (سعد)، من حيث الدلالة على أحقية الأنصار، هي الأقوى إثباتا لتفرد المهاجرين بالفضل والسابقة، فهم مع قلتهم وضعفهم، وشنف الناس لهم وإجماع القوم عليهم، لم يألوا جهدا، في نصرة الرسول والصبر معه، لأن الثبات على ضعف وقلة، أبعث على الإعجاب من الصبر على كثرة ومنعة.

ن = أحق الناس بالأمر من بعده.

ب = هم أولياؤه، وعشيرته.

أ = المهاجرون أول من عبد الله في الأرض وآمن بهورسوله.

فللسمات الدلالية - إذن - دور لا ينكر، في المفاضلة بين الحجج وترتيبها، واستمالة

1- السابق، ص ص: 62-63.

المخاطب، ودفعه إلى الإقرار برؤية المرسل الشخصية، وفهمه الخاص للعالم والأشياء من حوله، شأنها في ذلك شأن أدوات أخرى، من قبيل الإقناع بتوكيد الخبر.

### ج) الإقناع بالتوكيد:

وهو شعبة من شعب البلاغة، فيها دقة وغموض<sup>(1)</sup> قد لا يُفطن إليها، لأن المرسل يعتمد إلى السياق الواحد، فينتج فيه أكثر من خطاب، يختلف كل منهما في درجة قوته، ودلالته على المقصود.

وتتوزع درجات توكيد الخبر على مراتب ثلاث هي: الابتدائي والطلبي والإنكاري؛ «فإذا كان المخاطب خالي الذهن من الحكم بأحد طرفي الخبر على الآخر والتردد فيه استغنى عن مؤكدات الحكم [...] فيتمكن في ذهنه لمصادفته إياه خالياً، وإن كان متصوراً لطرفيه متردداً في إسناد أحدهما إلى الآخر طالبا له حسن تقويته بمؤكد [...] وإن كان حاكماً بخلافه وجب توكيده بحسب الإنكار [...] ويسمى النوع الأول من الخبر ابتدائياً، والثاني طلبياً والثالث إنكارياً»<sup>(2)</sup>.

ومن الخطابات المتضمنة لهذا الترتيب الحجاجي، خطبة النبي الأولى بمكة، حين دعا قومه، والتي يقول فيها: «... إني لرسول الله إليكم خاصة، وإلى الناس كافة، والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون...»<sup>(3)</sup>.

فقد ألقى (المرسل) خطاباً مشقّقاً بأداتي التوكيد "إنَّ، واللام" ليثبت لقومه صدقه ويدفع عنهم إنكارهم لدعوته، إنَّ واقعا أو محتملا، وله إذ ذاك أن يخرج الكلام على مقتضى الظاهر كما له أن يخرج على خلافه «فينزل غير السائل منزلة السائل إذا قدم إليه ما يلوح له بحكم الخبر، فيستشرف له استشراف المقر الطالب»<sup>(4)</sup> فدعوى محمد ﷺ بأنه رسول الله، تحتاج إلى توكيد، وإثبات، لما فيها من ادّعاء مخالف لظاهر الأشياء، وخرق لمعتاد الوقائع،

1- ينظر: الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، ص: 20.

2- نفسه، ص: 19- 20.

3- الجمهرة، ص: 51.

4- الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، ص: 20.

ولذلك أنزل المرسل مخاطبيه منزلة المنكر الجاحد، وأنتج خطابه ضمن درجة حاجية محددة. ومن الخطابات المحملة بالخبر الطلبي، خطاب "عثمان" رضي الله عنه، بعد أن بايعه أهل الشورى، الذي يقول فيه: «إنكم في دار قلعة وفي بقية أعمار، فبادوا آجالكم بخير ما تقدرون عليه، فلقد صبحتم أو مسيتم، اعتبروا بمن مضى ثم جدّوا ولا تغفلوا فإنه لا يغفل عنكم»<sup>(1)</sup>. فهو يطلب إليهم تحقيق هذه القواعد، والمبادئ في التعامل مع الدنيا، وتغليب بعض الحقائق التي قد تبدو مخالفة لظاهر الأشياء.

ومن مقامات الخطاب التي تجسد الضرب الابتدائي خطاب (سهل بن حنيف) لـ(علي بن أبي طالب): «يا أمير المؤمنين نحن سلم لمن سالمت، وحرب لمن حاربت ورأينا رأيك ونحن يمينك...»<sup>(2)</sup>.

فقد ألقى "سهل" خطابه غفلا من المؤكدات، مكتفيا في حاجه لدعواه، بالخبر الابتدائي، منزلا مخاطبه منزلة خالي الذهن من أي حكم، إمّا لعلمه بتصديق المخاطب له بناء على المعارف المشتركة بينهما، وإمّا لكون ما ساقه من أخبار من الشهرة حيث لا تحتاج إلى تأكيد، فهي بمثابة المسلمات التي لا يجروّ أحد على نقضها، أو دحضها، وهو ما يثبت الحكم السابق الذي ذكرناه حول ما تؤديه هذه الآلية من دور في تحقيق الخطاب لهدفه الإقناعي، وتحصيل مبتغى المرسل من إنشائه.

#### 4) آليات السلم الحجاجي:

وتشمل كل ما يسهم في ترتيب الحجج، من صيغ صرفية توجه في سياق الخطاب للإقناع، كالتعديدية وصيغ المبالغة وفحوى الخطاب وحجة الدليل.

أ- التعديدية:

وهي في عرف اللغويين: «جعل الفعل لفاعل يصير من كان فاعلا له قبل التعديدية منسوبا

1- الجمهرة، ص ص: 100- 101.

2- نفسه، ص: 142.

إلى الفعل»<sup>(1)</sup> وعرفها عبد الهادي بن ظافر الشهري بقوله: «هي ترتيب الأشياء في سلم بعقد العلاقة بينها، رغم عدم وجود هذه العلاقة قبل التلفظ بالخطاب»<sup>(2)</sup> ويظهر من خلال التعريفين ارتكاز مفهوم التعدية على إيجاد علاقة بين طرفين أو تعديلها، فيختص الفعل الأول بمنعهم، ويقتصر الثاني على موجود، ومن مسوغات التعدية:

### 1) أفعال التفضيل أو اسم التفضيل\*:

وهو الاسم المصوغ من المصدر للدلالة على اشتراك شيئين في صفة مع زيادة أحدهما على الآخر في الصفة، ويصاغ على وزن واحد هو (أفعل) الذي مؤنثه (فعلاء) بشروط، ويرد نكرة مضافة إلى نكرة، أو غير مضافة، كما يرد معرفة<sup>(3)</sup> ويدل أفعال التفضيل غالبا على الاستمرار والدوام ما لم توجد قرينة صارفة، شأنه في هذا شأن الصفة المشبهة<sup>(4)</sup> وتكمن قيمته الحجاجية في إفادته التدرج والترتيب، لاشتماله على معنى المفاضلة، كقول بشير بن عمرو لمعاوية: «... إن صاحبي أحق البرية كلها بهذا الأمر في الفضل والدين والسابقة في الإسلام والقربة من الرسول ﷺ، قال: فيقول ماذا؟ قال: يأمر بك تقوى الله عز وجل وإجابة ابن عمك... فإنه أسلم لك في دنياك وخير لك في عاقبة أمرك...»<sup>(5)</sup>.

إن توظيف المرسل "الاسم التفضيل" في هذا الخطاب، كان حاسما، لما ترتب عنه من تدرج مستلزم، نافٍ للتسوية، باستحضار علاقة مثبتة بين شيئين، منطوية على معنى الدوام والاستمرار؛ وهو ما يظهره التمثيل الموالي:

1- المناوي، الحدادي (زين الدين محمد بن علي بن زين العابدين)، التوفيق على مهمات التعاريف، عالم الكتب، القاهرة- مصر، ط1، 1410هـ-1990م، ص:100

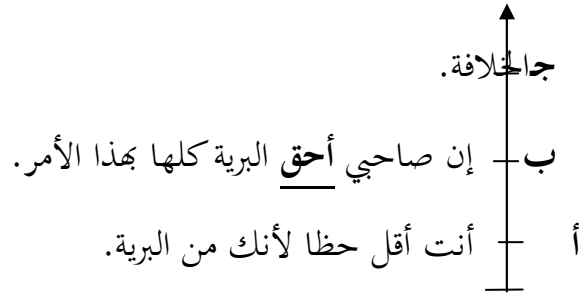
2- الشهري: آليات الحجاج وأدواته، ص:177.

\* ذكر بعضهم فرقا بين "أفعال التفضيل" و"اسم التفضيل" مفاده: "أن أفعال التفضيل هو الذي غلب عليه الفعلية واسم التفضيل هو الذي غلب عليه الاسمية ك (خير منه) و (شر منه)"، ينظر: الكفوي: الكليات، ص:96.

3- ينظر: قلاني (إبراهيم): قصة الإعراب، ص:418، 419.

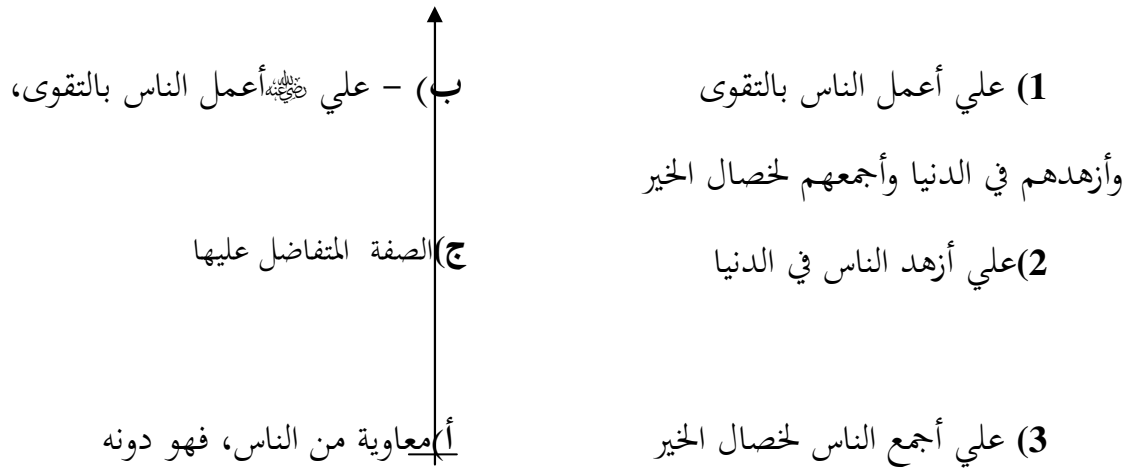
4- ينظر: حسن (عباس): النحو الوافي، ج3، ص:395.

5- الجمهرة، ص:154.



فقد ترتب عن استعمال المخاطب "لأفعل التفضيل" إعادة ترتيب العلاقة بين كل من "علي" و"معاوية"، و"موضوع التنازع (الخليفة)".

ومثل ذلك قوله: "أسلم لك" و"خير لك"، وقول عدي بن حاتم لمعاوية: «إن ابن عمك سيد المسلمين، أفضلها سابقة وأحسنها في الإسلام أثراً»<sup>(1)</sup> وقول يزيد بن قيس لمعاوية أيضاً: «...فاتق الله يا معاوية ولا تخالف علياً، فإننا والله ما رأينا رجلاً قطّ أعمل بالتقوى، ولا أزهد في الدنيا، ولا أجمع لخصال الخير كلها منه»<sup>(2)</sup>، فقد أنزل "علياً" في المراتب الأعلى من حيث نسبته إلى معانٍ بذاتها هي: "التقوى" و"الزهد" و"الخير".



فالعلاقة بين "أ" و"ب" بالنسبة إلى "ج" مرتبطة، بقوة ارتباط أحدهما بصيغة التفضيل، لأن كون عليّ أحق الناس، لا ينفي وجود حق "معاوية" وكذلك "أعمل" و"أزهد" و"أجمع".

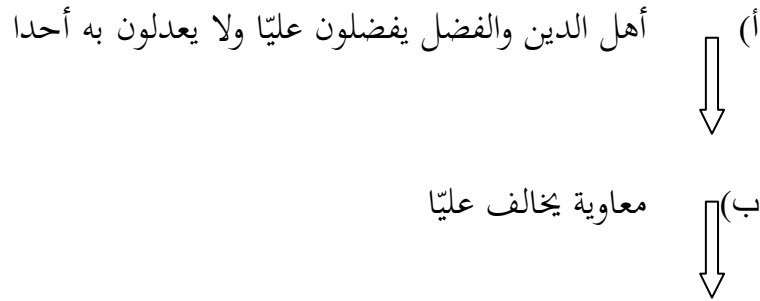
1- السابق، ص: 156.

2- الجمهرة، ص: 157.

وعموماً يمكن القول إن للإقناع ضوابط بدونها لا يحصل التسليم بالرأي<sup>(1)</sup>، ومنها ما هو منطقي دلالي، ومنها ما هو لغوي، صرني، كأفعل التفضيل والقياس الضمني.

## (2) القياس الضمني:

وهو تقدير خفي يفيد مماثلة شيئين في حكم أو أحكام إذا كانت بينها علاقة مشابهة<sup>(2)</sup> وضده الجلي ويسمى كذلك استحساناً إلا أن «الاستحسان قد يطلق على ما ثبت بالنص والإجماع والضرورة»<sup>(3)</sup>، وعلى هذا فالاستحسان أعم من القياس الضمني، وتتجلى خاصية الحاجة في إفادته تعدية الحكم بين اثنين إلى ما عداهما على سبيل القياس الذي تقره العقول ولا تختلف حول الفطر السليمة، ومن صور هذه الآلية الحجاجية قول يزيد بن قيس: «إن أهل الدين والفضل لن يعدلوا بعليّ ولن يميلوا بينك وبينه، فاتق الله ولا تخالف عليّاً»<sup>(4)</sup>. فقول يزيد: "لا تخالف عليّاً" يفيد حكماً بين علي ومعاوية، قائماً على القياس الجلي، كما يحتمل إفادة معنى آخر على اعتبار القياس الضمني، هو مخالفة معاوية لأهل الفضل والدين، من طريق التعدي.



(ج) معاوية يخالف أهل الدين والفضل والجماعة

وعليه فإن التعدية خاصة شكلية تمنحنا إيجاد العلاقة نفسها بين (أ) و (ج) بناء على القائمة بين (أ) و (ب) وبين (ب) و (ج) « والعلاقات التي تقوم على خاصة التعدية هي

1- أبو الزهراء: دروس الحجاج الفلسفي، مجلة الشبكة التربوية الشاملة فيلومرتيلاإلكترونية. Philomartil.com، 2008، ص:14.

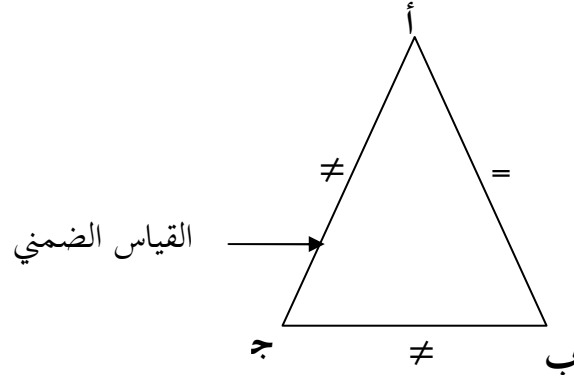
2- ينظر: الكفوي: الكليات، ص:713.

3- نفسه، الصفحة نفسها.

4- الجمهرة، ص:157.

علاقات التساوي، التفوق، والتضمن»<sup>(1)</sup> وربما التباس هذا النوع من القياس مع الاستدلال الاستنتاجي لتقاربهما لولا ما يولده هذا الأخير من إحساس بالإكراه نابع من طابعه القطعي الصارم والنهائي<sup>(2)</sup>، عكس القياس الضمني.

وفيما يلي رسم توضيحي ثانٍ للمثال السابق، يبين طبيعة القياس الضمني الحجاجية.



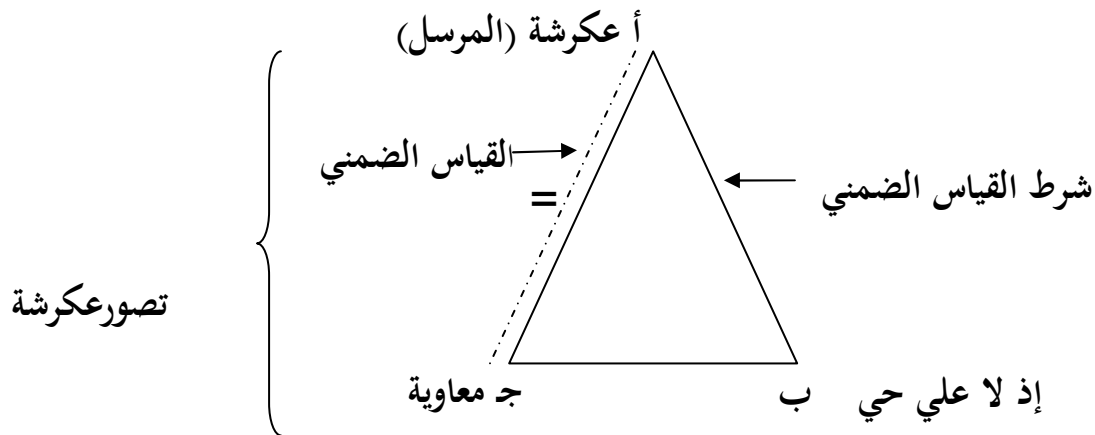
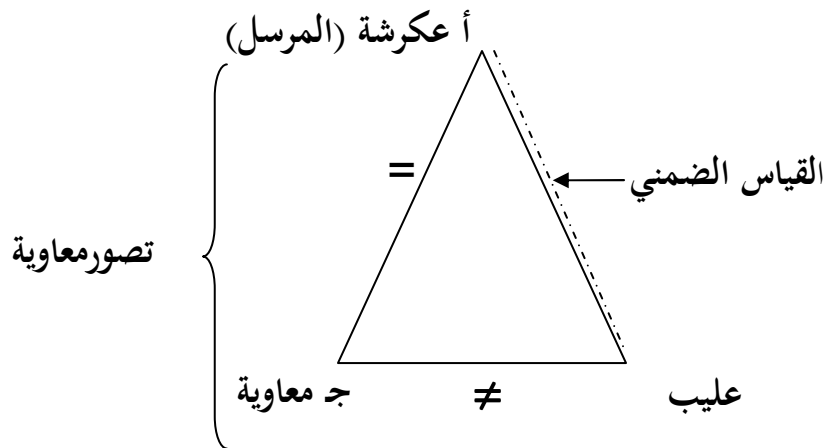
ومن علاقات التعدية التي تفيد التضمن الخطاب الآتي: «دخلت عكرشة بنت الأطرش على معاوية متوكئة على عكاز، فسلمت عليه بالخلافة ثم جلست، فقال لها معاوية: الآن يا عكرشة صرت عندك أمير المؤمنين؟ قالت: نعم، إذ لا عليّ حي...»<sup>(3)</sup>.

إذ يتضمن إقرارها لمعاوية بالخلافة وتسليمها عليه بها، نفيها عن علي، وخلعها عنه، وهو ما أنكره معاوية عليها، بادئ الأمر، لكن جواب "عكرشة" أبطل هذا الاستنتاج، وقوض هذه التعدية، بإقراره لعلائق مخالفة قائمة على الشرط (إذ لا علي حي) وهو ما يتوضح في التمثيل البياني الموالي:

1- الشهري: آليات الحجاج وأدواته، ص: 120.

2- ينظر: أبو الزهراء: دروس في الحجاج، ص: 28.

3- الجمهرة، ص: 191.



فالنتيجة الحجاجية المضمرة في تصور عكرشة، هي، لست أمير المؤمنين عندي لو أن علياً حي، وهي نتيجة غير جلية، تحتاج إلى تعدية الأحكام من خلال ربط العلاقات الخاصة بين الأطراف المتحاجة.

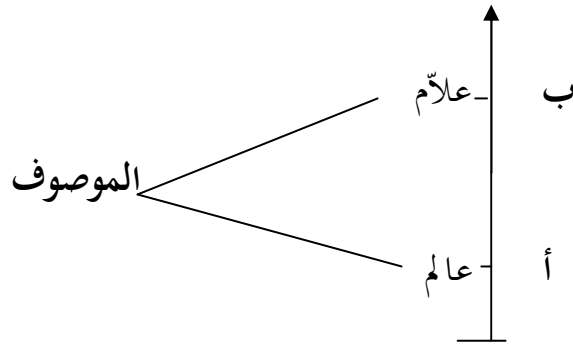
#### ب) صيغ المبالغة:

تستثمر صيغ المبالغة حجاجياً، علاوة على وظيفتها الوصفية، من حيث كونها «تستلزم فعلاً معيناً ذا درجات سليمة»<sup>(1)</sup>.

1- الشهري (عبد الهادي بن ظافر): آليات الحجاج وأدواته، ج1، ص: 121.

ويتجلى هذا الترتيب الحُجَجي في تجاوز المرسل الصفات الدنيا، وادعائه استحقاق الموصوف أعلاها درجة، كجواب عكرشة لمعاوية وقد قال لها: «يا هذه إنه ينبونا من أمور رعيننا أمور تنبثق وبحور تنفهم، قالت يا سبحان الله! والله ما فرض الله لنا حقاً فجعل فيه ضرراً على غيرنا وهو علام الغيوب...»<sup>(1)</sup>.

فقد ارتكز رد "عكرشة" على إسناد صيغة الوصف بالمبالغة، إلى الموصوف (الله) لتظهر درجته، وتومئ إلى كمال تشريعه، وتَنزُّهه عن الخطأ والنقصان لأن الوصف بـ "العلام" أنهض للإقناع من الوصف بـ "العالم" لما في الثاني من إيهام إمكان التفاوت عكس الأول.



ومنه نخلص إلى أن الأوصاف المشتقة، تمكّن المرسل من ترتيب الحجج في سلم حجاجي، بما تحمله من خصائص صرفية، وصيغ متجدرة في الاستعمال اللغوي<sup>(2)</sup> للمتخاطبين باللغة، وهو ما يدركه كل منهما بحكم تكوينه اللغوي ومهارته التداولية خاصة إذا توافرت الكفاءات اللازمة وتضافرت مع ما يتيح السياق التخاطبي العام.

### ج) حجة الدليل:

وهو من الحجج الجاهزة التي يلجأ إليها المرسل، لتدعيم خطابه، وتقوية حجاجه، خاصة إذا وضعها موضعها من السياق، كقول النبي ﷺ: «الناس من آدم، وآدم خلق من تراب ثم تلا:

1- الجمهرة، ص: 192.

2- الشهري (عبد الهادي بن ظافر): آليات الحجاج وأدواته، ج 1، ص: 121.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَىٰكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾<sup>(1)</sup> «<sup>(2)</sup>.

فمع أن النبي ﷺ ذو مكانة عالية، ومنزلة رفيعة، إلا أنه، وظف حجة أقوى، لدفع "أهل مكة" إلى تصديقه والامتثال لأوامره، وكأنه يتنازل عن سلطته الدينية، ليُمكن لسلطة أعلى خطراً، هي سلطة الذي بعثه، فما كان منه إلا أن أحال مخاطبيه إلى نص الآية المتضمن للخبر.

ولا تقتصر الحجج الجاهزة على القرآن أو الحديث وحدهما، بل يمكن للمرسل أن يستعين بكل ما من شأنه أن يدعم دعواه، يرشحه السياق بحسب ثقافة المخاطب وانتمائه، وجنسه، وميولاته.

ومن أبرز أنواع الحجج الجاهزة، التي وظفها خطباء صدر الإسلام، الأمثال والحكم، وقد مرّ بنا قول علي محتجاً لدعواه: «فلا أعرفن أحدا منكم تقاعس عني وقال في غيري كفاية فإن الذود إلى الذود إبل (ومن لا يزد عن حوضه يتهدم)...»<sup>(3)</sup>.

فقد استعان علي رضي الله عنه لإثبات دعواه، بالمثل، ثم بشرط من بيت، على الرغم من سلطته الدينية والدينية، لما لمسه في الحجتين من قدرة إقناعية تفوق قدرة كلامه المنشأ.

وإلى مثل ذلك، التجأ ابنه الحسن رضي الله عنهما حين قال: «...لم يتمنع قوم قط إلا رفع الله عنهم العلة وكفاهم جوائح الذلة وهداهم إلى معالم الملة ثم أنشد:

والصلح تأخذ منه ما رضيت به \*\*\* والحرب يكفيك من أنفاسها جُرْع»<sup>(4)</sup>

فقد ضمّن ما قاله هذا البيت، طلباً لما فيه من الإيجاز، وسرعة النفاذ إلى النفوس، لما جبلت عليه من الميل إلى موزون الكلام، والتعلق به، غير أن هذه الشواهد أو الحجج الجاهزة

1-سورة الحجرات، آية: 13.

2- الحمهرة، ص: 52.

3- نفسه، ص: 152.

4- نفسه، ص: 153.

«تتنسب إلى ترتيب معين بوصفها حججا جاهزة وذلك حسب قوتها الحجاجية فيكون ترتيبها القرآن فالحديث الشريف، وهكذا نزولا»<sup>(1)</sup>.

ويؤدي تجاهل هذه السُّلَمِيَّة أحيانا من لدن المرسل، إلى فشل الخطاب في أداء وظيفته الإقناعية، وقصور هذه الأدوات عن إفراغ حملتها الحجاجية، وبالتالي تقاعس الإستراتيجية الإقناعية بصورة عامة عن إمداد الخطاب بما يحتاجه لإصابة أهدافه وتحقيقها.

ولذلك، يقتضي التوصل بهذه الآليات، تمثلا خاصا من قبل منشئ الخطاب، وإعدادا واعيا، وترتبا دقيقا، وفق ما يتطلبه السياق عموما ومقام التخاطب خصوصا، ليتمكن الخطاب من تحسيد أهدافه وتفعيل مختلف آليات إستراتيجيته.

1- الشهري: إستراتيجيات الخطاب، ص: 544.

# الخاتمة

شكلت المزاوجة بين المقاربة التداولية للخطاب؛ من حيث هي فتح منهجي مستحدث، وخطابة عصر صدر الإسلام، بما تكتنزه وترمي إليه من عتاقة وتراثية وحساسية، مغامرة بحثية غير محمودة المغبة، ما فتئت تنفث في روعنا مشاعر الرهبة والتوجس، وتفرض علينا كثيرا من التثبت في إنتاج الأحكام- وإن كان هذا هو ديدن الباحث- نأيا بناعن أي تأويل قد يشوه منطلقات الطرح العلمي والمنهجي، فيخرجه من طبيعته الجدلية النافعة إلى حال عقيم، ما أكثر وجوده في حياتنا اليومية، ومن بين النتائج التي نثبتها في خاتمة هذا البحث ما يلي:

يكاد يجمع منظرو التداولية على أنها درس جديد وغزير وغامض، تعوزه الحدود الواضحة التي تجمعها وتمنعه؛ ذلك أنه من أكثر المجالات حيوية لما يستوعبه من معارف الفلسفة، وعلم النفس، وعلم الاجتماع وغيرها، إلا أنه في الوقت نفسه بدأ يعرف نوعا من النضج الفكري، والمعرفي الذي كفل له ضربا من الاستقلال العلمي. ويتأسس مفهوما على شقين هما: تعالق البنية اللغوية بمجال استعمالها، من غير إغفال للصلات الرابطة بين العلوم المتشابكة والمتكاملة مفاهيميا؛ كالفلسفة والتداوليات اللغوية، وعلم النفس المعرفي وعلوم الاتصال، فاستخدام مصطلح التداولية، استدعاءً غير مباشر لمعارف تنتمي إلى حقول مفاهيمية تضم مستويات متداخلة، كالبنية اللغوية، والاستدلالات التداولية وقواعد التخاطب وعلاقة البنية اللغوية بظروف الاستعمال، وهي بذلك حلقة وصل بين حقول معرفية عديدة منها: الفلسفة التحليلية (فلسفة اللغة العادية) وعلم النفس المعرفي (نظرية الملاءمة على الخصوص) (THEORIE DE PERTINANCE) ومنها علوم التواصل، واللسانيات وعلوم اللغة.

إن التعريفات الكثيرة للتداولية -على الرغم من تمايزها - تعلي جميعا من دور السياق في تحديد البعد التداولي للخطاب؛ ذلك أن السياق (المقام) هو أحد أهداف المقاربة التداولية، الذي لا يمارفيه اثنان، من منظريها، حتى وإن كان مفهوم السياق نفسه لا يخلو من الغموض والتجاذب.

يمكن أن نطمئن أخيرا، إلى أنه لا تعارض بين "الخطاب" و"الخطابة"؛ إذ يجوز إنزال أحدهما منزل الآخر، دون أن يوحي ذلك بنوع من التشطّي المفهومي الذي قد يفضي إلى لبس محتمل، وإن كنا نسجل إلى جانب ذلك شمولية الخطاب واحتواءه للخطابة؛ فلا فرق بين

الخطاب في صوره المتعددة، من قصر أو طول، أو مشافهة أو كتابة، كما أنه لا فرق بين حضور المتلقي أو غيابه، على اعتبار أن الخطاب وما يصاحبه ينوب عن ذلك ويحتويه بأشكال مختلفة لغوية وغير لغوية.

صار جليا بعد كل ما سبق، أن مفهوم الخطاب تداوليا لا يقوم على التفرقة بين مضامين الخطابات، ولا يولي اهتماما بالغاً للتقسيمات التقليدية التي تقف عند الحدود المميزة للخطاب السياسي أو الديني، أو القانوني، لأن استحضار "القصدية" و"الإستراتيجية" يُسَوِّي بين المضامين والموضوعات.

ينبغي مفهوم الخطاب - تداوليا - علىوظيفتين أساسيتين هما: التفاعلية، والتفاعلية، وهما بدورهما ترسخان قيام الخطاب - أي خطاب - على جملة العناصر الهيكلية المتمثلة في: المرسل، والمرسل إليه، والسياق، هذا الأخير يتميز دون سواه بأنه مؤشر فاصل في تحديد الهدف والمقصد من الخطاب.

يعتبر السياق إطار الخطاب العام الذي يحيا فيه، طلبا لتحقيق مقاصد متوخاة بين المرسل والمرسل إليه، فهومثابة العنصر الفاعل في توضيح، الكلام بل في صحته والوصول به إلى درجة القبول في معناه ومبناه، ولذلك يجزم(براون) و(يول) بأن الفكرة القائلة بإمكان تحليل سلسلة لغوية... تحليلا كاملا بدون مراعاة للسياق قد أصبحت في السنين الأخيرة محل شك كبير، فلا يمكن تصور مقارنة لسانية تتخذ الخطاب موضوعا لها، تنأى بنفسها عن ظروف إنتاج هذا الخطاب، سواء أكان مسموعا أم مكتوبا، لأن اللغة في المقام الأول جزء من نشاط تواصل اجتماعي، ومن ثم فإن معرفة السياق الذي تستخدم فيه اللغة يوضح المعنى الوظيفي للغة ويفرض عليها قيمة حضورية معينة.

يعرف الخطاب -تداوليا- بأنه مجال تظهر الأدوات اللغوية، والآليات الخطابية المنتقاة بفعل سلطة السياق مما يجعله أكثر العناصر المهيمنة في الخطاب لما لآثاره من انعكاس على العناصر الأخرى، وبالتالي على تكوين الخطاب نفسه، فالخطاب بهذا المعنى ممارسة تجري تداوليا في السياق، ولذلك تتسم هذه العناصر بالتغير الدائم.

إن ارتباط السياق بالخطاب، هو ما يحقق وظائف اللغة، ويجدد ما أُخلق من العلاقات بين الرموز ومؤولياتها، على افتراض تقسيم (موريس) للسيميوطيقا، وهو نفسه، يولد ما لا حصر له من المقاصد التي ينزع إليها المرسل، بمعنى أن ما يعنيه الخطاب يعتمد على الإجابة عن أسئلة ضمنية من مثل: من يتلفظ؟ ولماذا؟ ومتى؟ ومن المتلفظ به؟ وما المقاصد المتوخاة؟.

يندرج في هذا المسعى ما وضعه العرب - القدماء - من كتب وتصانيف كثيرة، بلاغية، ونحوية، وفقهية وأصولية، تعد خير مثال، لحاجة المتكلم/ المخاطب إلى ضرب من المعرفة تفتح له ما استغلق، كاشتراطهم فيمن يتصدى للقرآن تفسيراً، أن يكون عالماً بالشعر، والناسخ والمنسوخ وأسباب النزول، حافظاً للحديث عالماً بالسيرة... مطلعاً على عادات العرب وأيامها، وأديانها، ومعتقداتها... الخ، وهو مذهب مشهور عن (ابن عباس)، واشتراطهم في الخطيب معرفته بأحوال المخاطبين ومقاماتهم، وثقافتهم مع مراعاة ما يقتضيه كل ذلك من الإيجاز أو الإطناب، أو التلميح أو التصريح...

إن أبرز ما أضافه (أوستين) للدرس اللساني الحديث، هو تجاوزه التقسيم المنطقي، ونظريته الصورية إلى الأفعال اللغوية، بل إلى اللغة ذاتها، الأمر الذي مكن لظهور اتجاهات جديدة، فلسفية، ولغوية، سرعان ما أفلتت مفهوم الوظيفة اللغوية من ربة التفكير المتعالي، المتسامي على الاستعمال. أو لنقل بإيجاز ووضوح، إن جهود (أوستين)، وتلميذه (سيرل) ومن حذا حذوها أعادت اللغة إلى الاستعمال، وإلى أحضان السياق، وفتحت أفقا أرحب لفهم ما نقوله، وما لا نقوله، حتى أضحي فعل اللغة وفقاً لهذه الوظيفة، وظيفية الإنجاز، من أخلق الأسباب التي بشرت ثم مكنت للبعد التداولي بوصفه نفساً جديداً أمدّ علماء اللغة بآليات مكنتهم من تناول المعاني بشكل علمي واضح.

وهو أحد أهم المبررات التي تشرّع العلاقة بين التداولية والخطابة الإسلامية، كون أعظم التصورات الحديثة في اللسانيات، وما قاربها من علوم، يقوم على استحضار العلاقات المطردة بين السياقات المجتمعية والثقافية، وبين بنيات اللغات وأشكال وظائفها، وملاحظة هذه السياقات التخاطبية، هو الذي من شأنه أن يحدد مسارات التأويلي الخطابي من لدن المتفاعلين، وكيفية بنائها، أو تعديلها، ومن ثم يعطينا فكرة أوضح عن الإستراتيجيات المتخذة،

والآليات الموظفة، بتأثير من علاقات المتخاطبين فيما بينهم، وتموقعاتهم في الإطار الخطابي. أدى تعدد المواقف الخطابية في المدونة، إلى تخير نماذج، حاولنا التوصل بها إلى حكم علمي، قادر على طبع فترة صدر الإسلام، ممثلة في مواقف خطابية مميزة وغير متكررة كأوائل خطب الرسول ﷺ بمكة، والمدينة، وأوائل خطب الخلفاء بعده؛ أبي بكر وعمر، وعثمان وعلي. إن أهم ما يسجل لهذه الخطب - عموما - هو احتكامها، لأهم آليات الإستراتيجيات الخطابية؛ كالتضامنية، بإبراز مشاعر التعاون والتقارب، والتكافل...

لجوء المرسل إلى استعمال هذه الآليات التلميحية؛ اللغوية والبلاغية مبعثه أغراض شتى ومقاصد متعددة، بعضها يرجع إليه، وبعضها إلى مخاطبه، بينما يرجع بعضها الآخر إلى طبيعة المقام المتخاطب فيه، كما حسم أمر استخدام هذه الإستراتيجية في خطب المدونة، عامل آخر هو طبيعة موضوع الخطاب نفسه، لأن الاستعانة بالتلميح بدل التصريح، غالبا كان بدافع رفع الحرج، والتحلي باللباقة، وآداب الحديث الاجتماعية، تيسيرا للتواصل بالخطاب بين أطرافه، وتجسيذا لمقاصده، وتحقيقا لوظائفه المختلفة.

إن ما يميز الخطابات التي انتقيناها، لتكون مضمرا للإستراتيجية التوجيهية، هو غناها وثرائها سياقيا، مما يرفعها إلى مصاف النماذج التي تطفح بالعناصر السياقية ذات الأثر الواضح في الخطاب، ذلك أنها واكبت لحظات تاريخية حرجة في مسار الانبعاث الإسلامي، كخطب الرسول ﷺ، وما تضمنته من سلطة معنوية، يُشكل تواجدها في الخطاب فرصة نادرة باعتبارها سلطة ذات طبيعة غير معهودة، وكخطب المتنافسين حول الخلافة بعده، حتى معاوية بن أبي سفيان، باعتبارها ممارسة لغوية رائدة، واستعمالا غير مسبوق، للغة العربية في مستويات وأنماط خطابية لا عهد لهم بها، وهنا تكمن القيمة التحليلية للمدونة من حيث هي قراءة جديدة مؤطرة منهجيا، وعلميا، بوسائل وأدوات إجرائية مكفولة تداوليا.

إن الأصل في الفعل الكلامي، أنه لا غرضي، أي لا يحمل هدفا مستقلا في ذاته، خارج الخطاب - أو النظم بمفهوم الجرجاني - وأن ما يجعله ذا طبيعة معينة، جملة أمور منها؛ اتساقه ضمن إطار خطابي محدد، أو خضوعه لإرادة الإستراتيجية التي يتوخاها المرسل، ومن ثم

يقع موقعه، ويحقق وجوده، وقد يتغير هذا الموقع، وتبدل الوظيفة، إذا ما تغير السياق العام المؤطر له، أو إذا ما تعدّلت القوى المشكلة للمنظومة المؤثرة فيه.

يظهر هذا التنوع الوظيفي في اللغة العربية - مثلاً - على مستوى الروابط والأدوات، التي لا يمكن أن تعرف صفتها الحجاجية إلا بإحالتها على قيمتها الإنجازية داخل الخطاب، كألفاظ التعليل، والإضراب، والاستدراك، والنفي والقصر، وقد يمتد هذا التعدد الوظيفي للعامل الحجاجي الواحد، إلى بعض الآليات البلاغية كالاستعارة، والكناية، والتشبيه أو الاستفهام، والأمر والنهي... الخ مما يجعل تحقق الوظيفة الحجاجية للملفوظ مرتبطاً بالإستراتيجية الخطابية الخاضع لها خطاب المرسل، وقد ألحنا في أكثر من موضع إلى البعد الحجاجي لبعض الأدوات والآليات؛ فعلى الرغم من كون الخطاب موسوماً بالطابع التلميحى، مثلاً، إلا أن الأدوات الصريحة كانت أكثر تأشيراً على وجود ظواهر حجاجية.

إن انبثاق نظرية الحجاج في اللغة إنما كان من رحم نظرية أفعال الكلام التي مهد لها "أوستين" و"سول" وطورها - في شقها الحجاجي - "ديكرو"، هذا الأخير يرجع إليه فضل اقتراح إضافة فعلين لغويين هما: فعل الاقتضاء، وفعل الحجاج. وقد كان لهذا الاقتراح أثره البالغ في الدراسات التداولية، باعتبارها المجال الشرعي الذي يجمع في غير استحياء بين مكونات تبدو غير متجانسة، أو لا يصلح التوليف بينها في نشاط إنساني واحد، وهي: "اللغة، والمنطق والسياق" ولعلها من هنا كانت مرقعة الدراويش في منطق البعض، أو "غرفة مهملات اللسانيات" في نظر آخرين.

على الرغم من كل ذلك ظلت اللسانيات التداولية، وفيّة لوظيفة اللسانيات عموماً، والمتمثلة في الحفاظ على وظيفة الخطاب التواصلية، وحشد كل ما من شأنه تعزيزها، بين طرفيه، وطفقت لذلك، تحتوي كل التخصصات المساعدة على تحقيق هذه الغاية، كعلم النفس، وعلم الاجتماع، والفلسفة، وغيرها من العلوم الإنسانية والاجتماعية على اختلاف وسائلها وتعدد غاياتها، فأدخلت ضمن نطاق بحثها "الدرس الحجاجي" الفلسفي، وكسته حلتها وخلعت عليه ميزاتهما، على اعتبار أن كل اتصال هدفه الإقناع، وأن الإقناع والحجاج جزآن من عملية واحدة، ولا اختلاف بينهما إلا في التوكيد؛ إذ يولي الحجاج اهتماماً خاصاً

للدعوى المنطقية، دون أن يهمل أيضا الدعوى الأخلاقية والعاطفية، أما الإقناع فيتسلط على التوكيد الذي يُطل ضدّه.

يبقى تسليط أدوات المقاربات اللسانية، عموما، والتداولية خصوصا، على الخطاب التراثي فرضا واجبا، مناطا بأعناق باحثينا، لما يمثله من قيم معرفية ولسانية وحضارية، من شأنها أن تسهم في إظهار الجانب المشرق للحضارة الإسلامية، بمختلف مكوناتها، ومدخلاتها، فالكثير من ما وفد علينا ليس في الحقيقة إلا رجوع صدى لأصوات علمية إسلامية أصيلة، صقلها الذوق المتكامل، والزخم المتجانس الذي أشاعه الإسلام في نفوس وعقول معتنقيه، ولعل بحوثا قادمة أن تذكى هذه الإشكالات، وتضيئ بعض زواياها المظلمة، خاصة ما تعلق منها بالتأويل والتفسير، وإنتاج الأحكام، من حيث ارتباطها بالإستراتيجيات ووظائف الخطاب، فكثير من النصوص التي تبدو مستقرة دلاليا، سرعان ما تتحرك وتثرى إذا ما نفّض عنها غبار الجمود التأويلي، وقرأت في سياق إنتاجها، ومكوناته المختلفة، ومن بين ما تبدى لنا من خلال إعادة قراءة بعض الأفعال اللغوية، ما تحمله الدلالة التبشيرية عند الرسول ﷺ تداوليا، بوصفها إستراتيجية خطابية تهدف إلى تحقيق الوظيفة الأولى للغة (التواصل)، فأكثر المبشرين بالجنة - مثلا - من العشرة جرت بينهم أمور تأولها معاصروهم، دون التفات إلى قصدية الفعل النبوي، الرامي إلى ضبط التأويل وإطلاق الأحكام بمنأى عن استشعار المكونات السياقية ذات الصبغة الكلية، المحملة في الخطاب، وما أكثر مثل هذه الأفعال اللغوية المؤجلة في تراثنا الديني، والتي تُمكّن إعادة بعثها تداوليا من تجاوز ما نحن فيه من تجادل بغير التي هي أحسن وإطلاق للأحكام على غير هدى، وإن كنا في هذه الدعوة غير سابقين، إذ نوه كثير من التداوليين العرب إلى كفاية المقاربة التداولية وانسجامها مع المعرفة الإسلامية عموما، وهو نأمله في ما يأتي من بحوث إن شاء الله، والحمد لله أولا وأخيرا.

# المصادر والمراجع

القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم

### قائمة المصادر والمراجع:

أولاً: المصدر:

- أحمد زكي صفوت: جمهرة خطب العرب في العصور الزاهرة، شركة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة - مصر، ط1، 1933.

ثانياً: المراجع (كتباً ومقالات):

أ\_ باللغة العربية:

- 1- إبراهيم مصطفى (وآخرون): المعجم الوسيط، تحقيق: مجمع اللغة العربية، دار الدعوة، دط، دت.
- 2- إبرر (بشير): رحلة البحث عن النص في الدراسات اللسانية الغربية، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين، الجزائر، ط1، 2009.
- 3- اجعيط (نور الدين): تداوليات الخطاب السياسي، عالم الكتب الحديث، إربد - الأردن، ط1، 2012.
- 4- أحمد مختار عمر (ومصطفى النحاس زهران، ومحمد حماسة عبد اللطيف): النحو الأساسي، منشورات ذات السلاسل، الكويت، ط4، 1994.
- 5- أحمد مختار عمر: علم الدلالة، عالم الكتب المعاصرة، مصر، ط6، مايو 2006.
- 6- أحمد مطلوب: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت - لبنان، ط2، 2000.
- 7- أرمينكو (فرانسواز): المقاربة التداولية، تر: علوش (سعيد)، مركز الإنماء القومي، رأس بيروت، لبنان، دط. 1986.

\* - لم يعتد في ترتيبها ب(ال، وآل، وأبو، وأم، وابن، وابنة)

- 8- إسماعيلي علوي (حافظ): مقدمة كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، إعداد وتقديم: حافظ إسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث، إربد-الأردن، ط1، 2010.
- 9- إسماعيلي علوي (عبد السلام): تداوليات التأويل، ضمن كتاب: (التداوليات علم استعمال اللغة)، إعداد وتقديم، حافظ إسماعيل علوي: عالم الكتب الحديث، إربد-الأردن، ط1، 2011.
- 10- إسماعيلي علوي (عبد السلام): ما التداوليات؟، ضمن كتاب: (التداوليات علم استعمال اللغة)، إعداد وتقديم، حافظ إسماعيل علوي: عالم الكتب الحديث، إربد-الأردن، ط1، 2011.
- 11- أشّار (بيار): سوسولوجيا اللغة، تعريب: تزّو (عبد الوهاب )، منشورات عويدات، بيروت- لبنان، ط1، 1996.
- 12- أعراب (الحبيب)، الحجاج والاستدلال الحجاجي، ضمن (الحجاج مفهومه ومجالاته دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، إعداد وتقديم: حافظ إسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث، إربد - الأردن، ط1، 2010.
- 13- أوستين (جون): نظرية أفعال الكلام العام (كيف تنجز الأشياء بالكلمات)، تر: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء-المغرب، 1996.
- 14- أوكان (عمر): اللغة والخطاب، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2011.
- 15- إيجيلتون (تيري): نظرية الأدب، تر: ثائر ديب، منشورات وزارة الثقافة، دمشق - سورية، 1995.
- 16- الأيوبي (هيثم) وآخرون: الموسوعة العسكرية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت - لبنان، دط، 1981.
- 17- بارتشت (بريحيته): مناهج علم اللغة من هرمان باول حتى نعوم تشومسكي، تر: سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ط1، 2004، القاهرة - مصر.

- 18-** البخاري(أبو عبد الله، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة): الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، تح: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط1، 1422هـ.
- 19-** بدوح(حسن): المحاورة مقارنة تداولية، عالم الكتب الحديث، إربد- الأردن، ط1، 2012.
- 20-** براون ويول: تحليل الخطاب، ترجمة، محمد لطفي الزليطي ومنير التريكي، النشر العلمي والمطابع، جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، 1997.
- 21-** بركة (بسام وماتيو قويدر وهاشم الأيوبي)، مبادئ تحليل النصوص الأدبية، مكتبة لبنان ناشرون والشركة المصرية العالمية للنشر- لوفجمان، ط1، 2002 .
- 22-** بشر(كمال): التفكير اللغوي بين الجديد والقديم، دار غريب، القاهرة- مصر، ط1، 2005.
- 23-** البطاشي (خليل بن ياسر): الترابط النصي في ضوء التحليل اللساني للخطاب، دار جرير للنشر والتوزيع، عمان- الأردن، ط1، 1430 هـ- 2009م.
- 24-** البكوشي (الطيب): التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث، المطبعة العربية، تونس- تونس، ط3، 1992.
- 25-** بلانشيه (فيليب): التداولية من أوستين إلى غوفمان: تر: الحباشة (صابر)، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية - سورية، ط1، 2007.
- 26-** بلبع (عيد): التداولية، البعد الثالث في سيميوطيقا موريس، بلنسية للنشر والتوزيع، مصر، ط1، 2009.
- 27-** بلحاج (عبد الكريم): المفاهيم وأشكال التواصل (مائدة مستديرة)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط - المغرب، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء- المغرب، ط1، 2001.
- 28-** بلخير(عمر): السياق في ظل النظرية المعرفية، مجلة الأثر، ع/18 جوان 2013.

- 29- بلخير(عمر): تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2003.
- 30- بلنجر (ليونيل): عدة الأدوات الحجاجية، ترجمة: فضيلة قوتال، ضمن (الحجاج مفهومه ومجالاته)، دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، إعداد وتقديم: حافظ إسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث، إريد- الأردن، ط1، 2010.
- 31- بليت (هنريش): البلاغة والأسلوبية، نحو نموذج سيميائي لتحليل النص، ترجمة وتقديم وتعليق: محمد العمري، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء- المغرب، دط، دت.
- 32- بنفنست(إميل): ضمن(دفا تر فلسفية)، إعداد وترجمة: محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء- المغرب، ط4، 2005.
- 33- بوخاتم (مولاي): مصطلحات التحليل السيميائي، السرد والخطاب نموذجا، الموقف الأدبي، ع/411، تموز 2005، دمشق-سورية.
- 34- البوشيخي (عز الدين): التواصل اللغوي، مقارنة لسانية وظيفية(نحو نموذج لمستعملي اللغات الطبيعية)، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت- لبنان، ط1، 2012.
- 35- بوقرة (نعمان): الخطاب الأدبي ورهانات التأويل(قراءة نصية حجاجية تداولية)، عالم الكتب الحديث، إريد (الأردن)، ط1، 2012.
- 36- بوقرة(نعمان): المدارس اللسانية المعاصرة، مكتبة الآداب، القاهرة-مصر، دط، 2004.
- 37- بومزبر (الطاهر): التواصل اللساني والشعرية، مقارنة تحليلية لنظرية رومان جاكسون، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة، الجزائر، ط1، 2007م.
- 38- بيرلمان (شايم): المنطق الصوري والمنطق غير الصوري، تر: أسامة المثني، ضمن (كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته)، دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، إعداد وتقديم: حافظ إسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث، إريد - الأردن، ط1، 2010.

- 39- بيرلمان (شاييموتيتيكا أولبريخت): مقدمة كتاب مصنف في الحجاج، تر: رشيد الراضي: ضمن (الحجاج مفهومه ومجالاته)، دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، إعداد وتقديم: حافظ إسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث، إربد - الأردن، ط1، 2010.
- 40- ترحيني (فايز): الخطابة والنهج، النجيل للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، دط، 1992.
- 41- الترمذي، السلمي (أبو عيسى محمد بن عيسى): سنن الترمذي، تح: أحمد محمود شاكر وآخرين، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.
- 42- تغزاوي (يوسف): الوظائف التداولية وإستراتيجيات التواصل اللغوي في نظرية النحو الوظيفي، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2014.
- 43- الثعالبي (أبو منصور إسماعيل): النهاية في الكناية المعروف بالكناية والتعريض، تح: فرج الحوار، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة - تونس، دط، دت.
- 44- الجاحظ (عمرو بن بحر): البيان والتبيين، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، مصر، ط2، 1960م.
- 45- الجاحظ (عمرو بن بحر): مجموع رسائل الجاحظ، تحقيق: محمد طه الجاجري، دار النهضة العربية، بيروت - لبنان، دط، 1983.
- 46- الجارم (علي ومصطفى أمين): البلاغة الواضحة، البيان والمعاني والبديع، دار المعارف، القاهرة - مصر، بيروت - لبنان، دط، 1979.
- 47- جبل (عبد الكريم محمد حسن): في علم الدلالة، دراسة تطبيقية في شرح الأنباري للمفصليات، دار المعرفة الجامعية، القاهرة - مصر، دط، 1997.
- 48- الجرجاني (بن علي)، الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة، تح: عبد القادر حسين، دار نخضة مصر - القاهرة، ط1، 1984.
- 49- الجرجاني (عبد القاهر): أسرار البلاغة، راجعه وعلق عليه، عرفان مطرجي، مؤسسة الكتاب الثقافية، بيروت - لبنان، ط1، 2006.

- 50-** الجرجاني (عبد القاهر): دلائل الإعجاز، قرأه وعلق عليه، محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة - مصر، دط، دت.
- 51-** ابن جعفر (قدامة): نقد النثر، دار الكتب المصرية، دط، دت.
- 52-** الجوجري (شمس الدين محمد بن عبد المنعم): شرح شذور الذهب، تح: نواف بن جزاء الحارثي، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط1، دت.
- 53-** ابن الجوزي (أبو الفرج، عبد الرحمن بن علي): كتاب الموضوعات، ضبط وتقديم وتحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان، المكتبة السلفية بالمدينة المنورة-المملكة العربية السعودية، ط1، 1966.
- 54-** الجوهري (أبو نصر إسماعيل بن حماد): تاج اللغة وصحاح العربية، تح: عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، ط4، 1987.
- 55-** الحباشة (صابر): الأبعاد التداولية في شروح التلخيص، الدار المتوسطة للنشر، تونس، تونس، ط1، 2010.
- 56-** الحباشة (صابر): من إشكاليات تطبيق المنهج الحجاجي على النصوص، ضمن (الحجاج مفهومه ومجالاته) دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، إعداد وتقديم: حافظ إسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث، إربد - الأردن، ط1، 2010.
- 57-** حسام أحمد قاسم: تحويلات الطلب ومحددات الدلالة، مدخل إلى تحليل الخطاب النبوي الشريف، دار الآفاق العربية، القاهرة - مصر، ط1، 2007.
- 58-** حسّان (تمام): الأصول، دار الثقافة، الدار البيضاء، د ط، 1411هـ.
- 59-** حسّان (تمام): اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، ومطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء - المغرب، د ط، 1994.
- 60-** حسّان (تمام): اللغة والنقد الأدبي، مجلة فصول، مج4، ع1، القاهرة.

- 61- حميدة (مصطفى): نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة العربية، مكتبة لبنان، ناشرون، بيروت - لبنان، ط1، 1997.
- 62- خطابي (محمد) : لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- المغرب، ط1، 1991.
- 63- الخطيب القزويني (أبو المعالي جلال الدين): الإيضاح في علوم البلاغة، وراجعته، عماد - بسيوني زغلول، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت - لبنان، ط3، دت.
- 64- خفيف بوبكري (راضية): التداولية وتحليل الخطاب الأدبي، مقارنة نظرية، مجلة الموقف الأدبي، مجلة أدبية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق- سورية، ع/ 399، تموز 2004.
- 65- خليل أحمد خليل، معجم المصطلحات الأسطورية، دار الفكر اللبناني، بيروت- لبنان، ط1، 1996.
- 66- الخولي(إبراهيم محمد عبد الله): التعريض في القرآن الكريم، دار البصائر، القاهرة - مصر، ط1، 2004.
- 67- دايك (فان): النص بنى ووظائف، مدخل أولي إلى علم النص، تر: منذر عياشي، ضمن كتاب(العلاماتية وعلم النص)، المركز الثقافي العربي، بيروت- لبنان، ط1، 2004.
- 68- دايك (فان): النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، تر: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، د ط، 2000.
- 69- ابن دريد الأزدي(أبو بكر محمد بن الحسن): جمهرة اللغة: تح: رمزي منير بعلبكي، دار الملايين، بيروت - لبنان، دط، 1987.
- 70- الدريدي (سامية): الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة، بنياته وأسانيه، عالم الكتب الحديث، إربد - الأردن، دط، 2008.
- 71- دريفوس(أوبير) وراينوف (بول): ميشيل فوكو (مسيرة فلسفية)، تر: جورج أبي صالح، مع مراجعة وشرح: مطاع الصفدي، مركز الإنماء القومي، بيروت- لبنان، دط، دت.

- 72-** ده سوسر (فرديناند): محاضرات في الألسنية العامة: تر: يوسف غازي ومجيد النصر، المؤسسة الجزائرية للطباعة والنشر - الجزائر، دط، 1986.
- 73-** دي بوغراند (روبرت)، النص والخطاب والإجراء، تر: تمام حسان، عالم الكتب، بيروت - لبنان، ط1، 1998.
- 74-** ديكرو (أزوالد) وسشايغر (جان ماري): القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان، تر: منذر عياشي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - المغرب، ط2، 2007.
- 75-** الرازي (محمد بن أبي بكر): مختار الصحاح، تح: محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت - لبنان، دط، 1995.
- 76-** رايس (نور الدين): نظرية التواصل واللسانيات الحديثة، مطبعة سايس - فاس، المغرب، ط1، 2007.
- 77-** ردة بن ضيف الله الطلحي، دلالة السياق، مطبعة جامعة أم القرى، مكة - المملكة العربية السعودية، ط1، 1423هـ.
- 78-** روبول (آن)، اللغة والإيديولوجيا، ضمن: (دفاتر فلسفية)، إعداد وترجمة: محمد سيلا وعبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء - المغرب، ط4، 2005.
- 79-** ريكور (بول): الخطابة، الشعرية، التأويلية، تر: ياسين المنصوري، ضمن (الحجاج مفهومه ومجالاته) دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، إعداد وتقديم: حافظ إسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث، إربد - الأردن، ط1، 2010.
- 80-** ريكور (بول): نظرية التأويل، تر: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - المغرب، ط2، 2006.
- 81-** زكي نجيب محمود: المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري، دار الشرق - بيروت - لبنان، ط3، 1981.
- 82-** الزماني (كمال): حجاجية الصورة في الخطابة السياسية لدى الإمام علي عليه السلام، عالم الكتب الحديث، إربد - الأردن، ط1، 2012.

- 83-** الزمخشري (أبو القاسم، محمود بن عمر): أساس البلاغة: تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط1، 1998.
- 84-** الزهري (نعيمه): الإنشاء وأساليبه، بين ألفية ابن مالك والنحو الوظيفي، ضمن كتاب: (التداوليات علم استعمال اللغة)، إعداد وتقديم، حافظ إسماعيل علوي: عالم الكتب الحديث، إربد-الأردن، ط1، 2011.
- 85-** السجاعي (أحمد): حاشية السجاعي على شرح قطر الندى، منشورات الوقائع المصرية، دط، 1299هـ.
- 86-** السد (نور الدين): الأسلوبية وتحليل الخطاب، دراسة في النقد العربي الحديث (الأسلوبية والأسلوب)، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، د ط، د ت.
- 87-** سرحان (إدريس): التأويل الدلالي - التداولي للملفوظات، وأنواع الكفايات المطلوبة في المؤلف ضمن كتاب: (التداوليات علم استعمال اللغة)، إعداد وتقديم، حافظ إسماعيل علوي: عالم الكتب الحديث، إربد-الأردن، ط1، 2011.
- 88-** السعران (محمود): علم اللغة، دار النهضة للطباعة والنشر، بيروت-لبنان، دط، دت.
- 89-** سعودي (أبو زيد نواري): في تداولية الخطاب الأدبي المبادئ والإجراء، بيت الحكمة، العلمة-الجزائر، ط1، 2009.
- 90-** السكاكي (أبو يعقوب يوسف بن محمد بن علي): مفتاح العلوم، تح: عبد الحميد هنداي، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط1، 2000.
- 91-** ابن سلامة (الربيعي): الوجيز في مناهج البحث الأدبي وفنيات البحث العلمي، منشورات جامعة منتوري، قسنطينة-الجزائر، ط2، 2008.
- 92-** سلدن (رامان): النظرية الأدبية المعاصرة، تر: جابر عصفور، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة - مصر، ط1، 1991.
- 93-** سيويه (أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، البصري) (ت180هـ): الكتاب، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت (لبنان)، د ط - د ت.

- 94-** ابن سيدة المرسي (أبو الحسن علي بن إسماعيل): المحكم والمحيط الأعظم، تح: عبد الحميد هنداي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، دط، 2000.
- 95-** السيساوي (يوسف): الإشارات، مقارنة تداولية، ضمن كتاب: (التداوليات علم استعمال اللغة)، إعداد وتقديم، حافظ إسماعيل علوي: عالم الكتب الحديث، إربد- الأردن، ط1، 2011.
- 96-** السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن): الإتيقان في علوم القرآن، وبالهامش إعجاز القرآن للباقلاني (أبي بكر)، عالم الكتب، بيروت - لبنان، دط، دت.
- 97-** السيوطي (جلال الدين): همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تح: عبد الحميد هنداي، المكتبة التوفيقية، مصر، دط، دت.
- 98-** السيوطي (عبد الرحمن بن أبي بكر): تاريخ الخلفاء، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، دط، 1952 م.
- 99-** شرشار (عبد القادر): تحليل الخطاب الأدبي وقضايا النص، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق - سورية، دط، 2006.
- 100-** شلق (علي): العقل في التراث الجمالي عند العرب، دار المدى للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ط1، 1985.
- 101-** الشهري (عبد الهادي بن ظافر): إستراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت - لبنان، ط1، 2004.
- 102-** الشهري (عبد الهادي بن ظافر): آليات الحجاج وأدواته، ضمن (الحجاج مفهومه ومجالاته)، دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، إعداد وتقديم: حافظ إسماعيل علوي، عالم الكتب الحديث، إربد - الأردن، ط1، 2010.
- 103-** الشهري (عبد الهادي بن ظافر): نحو توسيع مفهوم الخطاب، مقارنة سيميائية تواصلية، - فصول، ع77، شتاء - ربيع 2010، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

- 104-** الصابوني (محمد علي): صفوة التفاسير، دار الكتب العلمية ودار القرآن، بيروت-لبنان، ط1، 1999.
- 105-** صالح (عبد القدوس): شبهة المصطلح، مجلة الأدب الإسلامي، فصلية تصدرها رابطة الأدب الإسلامي العالمية، مؤسسة الرسالة، السنة الثانية، المجلد الثاني، العدد الثامن، سبتمبر-أكتوبر - نوفمبر (1416هـ - 1995م).
- 106-** صائل رشدي: عناصر تحقق الدلالة في العربية - دراسة لسانية - الأهلية للنشر والتوزيع، عمان - الأردن، ط1، 2004.
- 107-** صحراوي (مسعود): التداولية عند العلماء العرب: دار الطليعة، بيروت- لبنان، ط1، 2005.
- 108-** صحراوي (مسعود): في الجهاز المفاهيمي للدرس التداولي المعاصر، ضمن كتاب: (التداوليات علم استعمال اللغة)، إعداد وتقديم، حافظ إسماعيل علوي: عالم الكتب الحديث، إريد- الأردن، ط1، 2011.
- 109-** صلاح إسماعيل عبد الحق: التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، دار التنوير، بيروت- لبنان، ط1، 1993.
- 110-** صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونغمان- مصر، ط1، 1996.
- 111-** صليبا (جميل): المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنجليزية واللاتينية، الشركة العالمية للكتاب، بيروت- لبنان 1994.
- 112-** صمود (حمادي)، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس (مشروع قراءة)، منشورات الجامعة التونسية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تونس، دط، 1981.
- 113-** صولة (عبد الله): البلاغة العربية في ضوء البلاغة الجديدة (أو الحجاج)، ضمن (كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته)، دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، إعداد وتقديم: حافظ إسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث، إريد - الأردن، ط1، 2010.

- 114-** ابن ضيف الله الطلحي (ردة)، دلالة السياق، مطبعة جامعة أم القرى، مكة المكرمة - المملكة العربية السعودية، ط1، 1423هـ.
- 115-** طبانة (بدوي): البيان العربي، دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند العرب ومناهجها ومصادرها الكبرى، مكتبة الأنجلو المصرية ومطبعة الرسالة، القاهرة - مصر، ط3، 1962.
- 116-** طلحة (محمود): تداولية الخطاب السردى، دراسة تحليلية في وحي القلم للرافعي، عالم الكتب الحديث، إريد - الأردن، ط1، 2012.
- 117-** طه حسين (1889-1973): الفتنة الكبرى ضمن (إسلاميات طه حسين) دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، ط3، نيسان (أبريل) 1981.
- 118-** ابن عاشور (الطاهر): التحرير والتنوير، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت - لبنان، ط1، 2000.
- 119-** عائشة حسين فريد: وشي الربيع بألوان البديع في ضوء الأساليب العربية، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة - مصر، دط، 2000.
- 120-** عباس حسن: النحو الوافي، دار المعارف، القاهرة - مصر، ط15، دت.
- 121-** العبد (محمد): النص الحجاجي العربي، دراسة في وسائل الإقناع، ضمن (الحجاج مفهومه ومجالاته)، دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، إعداد وتقديم: حافظ إسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث، إريد - الأردن، ط1، 2010.
- 122-** عبد الرحمن (طه): الدلالات والتداوليات، أشكال الحدود، ضمن كتاب: (البحث اللساني والسيميائي)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط - المغرب، دط، 1981.
- 123-** عبد الرحمن (طه): اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - المغرب، ط1، 1998.
- 124-** عبد الرحمن (طه): في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - المغرب، ط2، 2000.

- 125- عبد السلام هارون، الأساليب الإنشائية في النحو العربي، مكتبة الخانجي بالقاهرة - مصر، ط5، 2001.
- 126- عبدالواحد حسن الشيوخ: البديع والتوازي، مكتبة ومطبعة الإشعاع الفنية، مصر، ط1، 1999.
- 127- أبو العدوس (يوسف): البراغمية مصطلحا نقديا، ضمن أعمال المؤتمر الدولي الثاني للنقد الأدبي بإشراف، عز الدين إسماعيل، القاهرة، 2000 م.
- 128- العربي (ربيعه): الحد بين النص والخطاب، مجلة علامات، ع33.
- 129- العزاوي (أبو بكر): اللغة والحجاج، العمدة في الطبع، ط1، 2006.
- 130- العزاوي (أبو بكر): الخطاب والحجاج، مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت - لبنان، ط1، دت.
- 131- عزة شبل محمد: علم لغة النص، النظرية والتطبيق، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط1، 2007.
- 132- العسكري (أبو هلال): الفروق اللغوية، تحقيق وتعليق: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة، القاهرة - مصر، دط، دت.
- 133- العشراوي (عبد الجليل): الحجاج في الخطابة النبوية، عالم الكتب الحديث، إريد - الأردن، ط1، 2012.
- 134- العشيري (محمود): الاستعارة "إستراتيجية حرب، دراسة في الخطاب السياسي للحرب على لبنان"، عالم الفكر، ع4/م4، أبريل - يونيو 2013، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت - دولة الكويت.
- 135- العقاد (عباس محمود): اللغة الشاعرة، مزايا الفن والتعبير في اللغة العربية، مكتبة غريب، القاهرة - مصر، دط، دت.
- 136- ابن عقيل (عبد الله بن عبد الرحمن): شرح ابن عقيل على ألفية مالك، المكتبة التجارية الكبرى بمصر، دط، دت.

- 137-** عكاشة (محمود): لغة الخطاب السياسي، دراسة لغوية تطبيقية في ضوء نظرية الاتصال، دار النشر للجامعات، القاهرة - مصر، ط1، 2005.
- 138-** علوش (سعيد): معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت (لبنان)، وسوشيريس، الدار البيضاء (المغرب)، ط1، 1985.
- 139-** علي عزت: اللغة ونظرية السياق، مجلة الفكر المعاصر، القاهرة - مصر، ع/76، 1971.
- 140-** عناني (محمد): المصطلحات الأدبية الحديثة، الشركة المصرية العالمية، لونجمان، القاهرة - مصر، ط3، 1996.
- 141-** عياشي (منذر): النص وتحليلاته، مجلة الفكر العربي المعاصر، ع/96-97، 1992.
- 142-** الغزالي (أبو حامد، محمد بن محمد): المستقصى في علم الأصول، طبعه، محمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، دط، 1996.
- 143-** الغلاييني (مصطفى): جامع الدروس العربية، دار نزهة الألباب، دط، دت.
- 144-** ابن فارس (أبو الحسين أحمد بن زكريا): معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت - لبنان، دط، 1999.
- 145-** ابن فارس (أبو الحسين أحمد بن زكريا): الصحاح في فقه اللغة، تح: السيد صقر، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة - مصر، دط، دت.
- 146-** الفاسي الفهري (عبد القادر): المصطلح اللساني، ضمن (أشغال الملتقى الدولي الثالث في اللسانيات)، تونس، 1986.
- 147-** الفراهيدي (الخليل بن أحمد): كتاب العين، تح: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، دط، دت.
- 148-** القرطاجني (حازم): منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، ط3، 1986.
- 149-** قلاقي (إبراهيم): قصة الإعراب، جامع دروس النحو والصرف، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة - الجزائر، دط، دت.

- 150-** ابن قيم الجوزية (أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب): زاد المعاد في هدي خير العباد، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية- مصر، د ط- د ت.
- 151-** ابن قيم الجوزية، (أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب): بدائع الفوائد، خرّج أحاديثه: شريف محمد، دار التقوى للنشر والتوزيع، القاهرة- مصر، د ط، 2006.
- 152-** ابن كثير (إسماعيل بن عمر): تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي محمد بن سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، 1999.
- 153-** كريم زكي حسام الدين: الإشارات الجسمية، دراسة لغوية لظاهرة استعمال أعضاء الجسم في التواصل، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة- مصر، ط2، 2001.
- 154-** الكفوي (أبو البقاء، أيوب بن موسى)، الكليات، قابله على نسخة خطية وأعدده للطبع ووضع فهرسه، عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ط2، 1998.
- 155-** مانغونو (دومينيكا): المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، تر: محمد يحياتن، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2008.
- 156-** الماوردي (أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب): أدب الدنيا والدين، تح: مصطفى السقا، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط4، 1973.
- 157-** المبخوت (شكري): نظرية الأعمال اللغوية، مسكيلياني للنشر والتوزيع، تونس، ط1، ديسمبر 2008.
- 158-** المتوكل (أحمد) دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي، منشورات دار الثقافة، الدار البيضاء - المغرب، د ط، 1986.
- 159-** المتوكل (أحمد): التركيبات الوظيفية قضايا أو مقاربات، دار الأمان للنشر والتوزيع، ط1، 2005، الرباط - المغرب.
- 160-** المتوكل (أحمد): الخطاب وخصائص اللغة العربية، دراسة في الوظيفة والبنية والنمط، دار الأمان، الرباط\_ المغرب، ط1، 2010.

- 161-** المتوكل (أحمد): الوظائف التداولية في اللغة العربية، دار الثقافة، الدار البيضاء- المغرب، ط1، 1985.
- 162-** المتوكل (أحمد): قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية (البنية التحتية أو التمثيل الدلالي التداولي)، دار الأمان، الرباط - المغرب، 1995.
- 163-** المتوكل (أحمد): "الاستلزام التخاطبي" بين البلاغة العربية والتداوليات الحديثة، ضمن (الحجاج مفهومه ومجالاته) دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، إعداد وتقديم: حافظ إسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث، إريد - الأردن، ط1، 2010.
- 164-** المتوكل (أحمد): اقتراحات من الفكر اللغوي العربي القديم بوصف ظاهرة الاستلزام الحواري، كلية الآداب، الرباط- المغرب، 1981.
- 165-** المتوكل (أحمد): قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية دار الأمان، الرباط- المغرب، 1995.
- 166-** محمد عبد المطلب: البلاغة والأسلوبية، مكتبة لبنان ناشرون والشركة المصرية العالمية للنشر- لوجمان بيروت - لبنان والقاهرة - مصر، ط1، 1994.
- 167-** محمد هشام سعيد النجار (منال): المقولات البلاغية، دراسة مقامية، براغماتية، ضمن كتاب: (التداوليات علم استعمال اللغة)، إعداد وتقديم، حافظ إسماعيل علوي: عالم الكتب الحديث، إريد- الأردن، ط1، 2011.
- 168-** محمد هشام سعيد النجار (منال)، نظرية المقام في ضوء البراغماتية، عالم الكتب الحديث، إريد- الأردن، ط1، 2011.
- 169-** محمود زيدان: فلسفة اللغة، دار النهضة العربية، بيروت-لبنان، دط، 1985.
- 170-** مذكور (عاطف)، علم اللغة بين التراث والمعاصرة، دار الثقافة، القاهرة- مصر، دط، 1987.
- 171-** المراغي (أحمد مصطفى): تفسير المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، دط، دت.

- 172- المراغي (محمود أحمد حسن): البديع، دار العلوم العربية، بيروت - لبنان، ط1، 1991.
- 173- مرتاض (عبد المالك): تحليل الخطاب السردى، معالجة تفكيكية سيميائية مركبة لزقاق المدق، ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر، 1995.
- 174- مرتاض (عبد المالك): كتابة النص من أين؟ وإلى أين؟، ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر، 1983.
- 175- مرتاض (عبد المالك) عناصر التراث الشعبي في اللاز، دراسة المعتقدات والأمثال الشعبية الجزائرية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
- 176- مرتاض (عبد الملك): أ- ي : دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة أين ليلاي لمحمد العيد، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د ط، 1992.
- 177- مرتاض (عبد الملك)، في نظرية النقد، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، بوزريعة- الجزائر، دط، 2005.
- 178- المسدي (عبد السلام): الأسلوبية والأسلوب، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت- لبنان، ط5، 2006.
- 179- المسدي (عبد السلام): قاموس اللسانيات، الدار العربية للكتاب، دط، 1984.
- 180- مصطفى محمود: أينشتاين والنسبية، دار العودة، بيروت- لبنان، دت.
- 181- مصلوح (سعد): الأسلوب، دراسة لغوية إحصائية، دار الفكر العربي، القاهرة- مصر، ط1، 1985.
- 182- مصلوح (سعد): في النص الأدبي (دراسة أسلوبية إحصائية)، النادي الأدبي الثقافى جدة- المملكة العربية السعودية - ط1، 1991.
- 183- المعوش (سالم): القواعد المعرفية الإسلامية في أدب صدر الإسلام، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، ط1، 2001.
- 184- مفتاح (محمد): تحليل الخطاب الشعري، إستراتيجية التناص، دار التنوير، بيروت- لبنان، ط1، 1985.

- 185-** مقبول (إدريس): الأسس الإبتيمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيوييه، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد- الأردن، ط1، 2006.
- 186-** المناوي، الحدادي (زين الدين محمد بن علي بن زين العابدين)، التوقيف على مهمات التعاريف، عالم الكتب، القاهرة - مصر، ط1، 1410هـ-1990م.
- 187-** ابن منظور(أبو الفضل، محمد بن مكرم بن علي): لسان العرب، تح:عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة - مصر، دط، دت.
- 188-** منقور (عبد الجليل): علم الدلالة، أصوله ومباحثه في التراث العربي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق- سورية، دط، 2001.
- 189-** منير سلطان: البديع تأصيل وتجديد، منشأة المعارف، الإسكندرية - مصر، دط، 1986.
- 190-** المودن (حسن): حجاجية المجاز والاستعارة، ضمن (الحجاج مفهومه ومجالاته) دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، إعداد وتقديم: حافظ إسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث، إربد - الأردن، ط1، 2010.
- 191-** الميساوي (خليفة)، الوصائل في تحليل المحادثة - دراسة في إستراتيجيات الخطاب، عالم الكتب الحديث، إربد - الأردن، دط، 2012.
- 192-** الناجح (عز الدين): العوامل الحجاجية في اللغة العربية، مكتبة علاء الدين، صفاقص- تونس، ط1، 2011.
- 193-** النجار (منال محمد هشام سعيد): مفهوم البراغمية ونظرية المقام في المقولات المعرفية ولدى علماء العربية ضمن كتاب:(التداوليات علم استعمال اللغة)، إعداد وتقديم، حافظ إسماعيل علوي: عالم الكتب الحديث، إربد- الأردن، ط1، 2011.
- 194-** نخلة (محمود أحمد السيد)(ولادة1948)، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية - مصر، د ط، 2002.
- 195-** النقاري (حمو) : حول المنهج الكلي بين أفلاطون وأرسطو وحول التقنين الأرسطي لطرق الإقناع ومسالكه، مفهوم الموضوع، ضمن (الحجاج مفهومه ومجالاته) دراسات نظرية وتطبيقية

في البلاغة الجديدة، إعداد وتقديم: حافظ إسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث، إربد - الأردن، ط1، 2010.

**196-** النيلي (تقي الدين إبراهيم بن الحسن): الصفوة الصفية في شرح الدرّة الألفية، تح: محسن بن سالم العميري، مركز إحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة - العربية السعودية، دط، 1415هـ.

**197-** هاليداي (مايكل ألكسندر كيركورد ورقية حسن): وظائف اللغة، تر: أحمد محمود نخلة ضمن (آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر)، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية - مصر، دط، 2002.

**198-** الهيثمي (نور الدين علي بن أبي بكر)، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، دار الفكر، بيروت - لبنان، دط، 1412هـ.

**199-** يوسف جمعة سيد: سيكولوجية اللغة والمرض العقلي، عالم المعرفة، ع/145، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت - دولة الكويت، ط1، يناير 1990.

#### ثانياً: المراجع الأجنبية:

- 1- Charaudeau(Patrick) et Maingueneau (Dominique ): Dictionnaire d'Analyse du Discours,Seuil,Paris, France,1éd,2002.
- 2- De Saussure (Ferdinand):Cours de Linguistique Générale , Enag , édition, distribution-Alger,3éme édi,2004.
- 3- Du Bois (Jean) et autres :Larousse, le Dictionnaire de Linguistique et des Sciences du Langage ,Rotolitolombarda, Italie,2012.
- 4- Greimas (A. J) et Courtes (J), Sémiotique, Dictionnaire raisonné de la Théorie du langage, Hachette Université, 1986.
- 5- Grize (Jean Blaise): logique naturelle, et représentations sociales, Invited Lecture Presented at the 1st International Conférence on Social Représentation, Ravello, Italy,
- 6- Larousse, Dictionnaire Encyclopédique 2000, Bordas/her,1999.
- 7- Maingueneau( Dominique ) : Pragmatique pour le Discours Littéraire, édition Nathan, her, Paris, France, 2001.

- 8- Youssef (M .Reda) : AL-Kamel AL-Kabir plus : Dictionnaire du Français Classique Contemporain , Français-Arabe, — مكتبة لبنان ناشرون، بيروت —  
لبنان.

### ثالثا: الرسائل الجامعية:

- 1- أبو زلال(عبد السلام عصام الدين محمد إبراهيم): التعبير عن المحذور اللغوي والمحسن اللفظي، دراسة دلالية، رسالة مقدمة للحصول على درجة الدكتوراه، إشراف: أ.د عبد المنعم تليمة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، (مقونة)، 2001.
- 2- بعبطيش (يحي): نحو نظرية وظيفية للنحو العربي، أطروحة دكتوراه دولة، إشراف: أ.د عبد الله بوخلخال، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة منتوري — قسنطينة — الجزائر، 2005-2006.
- 3- مومني (السعيد): المكان الشعري من نهر الرماد لخليل حاوي، قراءة المكان في علاقته بالتشكيل الشعري، رسالة ماجستير، إشراف: بوجمعة بوبعوي، جامعة عنابة، 1999-2000.

### رابعا: مواقع إلكترونية:

- 1- بلخير (عمر): إجراءات التحليل التداولي للخطاب، مجلة الثقافة، فصلية ثقافية تصدر عن وزارة الثقافة، ع/19، أفريل 2009، عبر موقع:  
<https://omarbelkheir.wordpress.com> يوم: 2015/8/12 في الساعة: 23:00.
- 2- حمداوي (جميل): نظريات وظائف اللغة، عبر الموقع:  
<http://www.doroob.com/?Feed=Rss2&author=750> تمت زيارة الموقع يوم  
2012/04/27 في الساعة 12:00.
- 3- أبو الزهراء: دروس الحجاج الفلسفي، مجلة الشبكة التربوية الشاملة فيلومرتيل الإلكترونية: [Philomartil.com](http://www.Philomartil.com), 2008.
- 4- مقبول (إدريس): السنة النبوية الشريفة ومستويات التمام السياقي، مقارنة لسانية تداولية،  
[ttp://www.alssunnah.com](http://www.alssunnah.com)
- 5- ابن هشام (جمال الدين): مغني اللبيب عن كتب الأعراب. عبر الموقع:  
[hTTP://www.ALWRAK.NET](http://www.ALWRAK.NET) يوم: 2004/04/20 في الساعة: 22:00.

# فهرس الموضوعات

|       |                                                                         |
|-------|-------------------------------------------------------------------------|
| أ - ز | المقدمة.....                                                            |
|       | <b>المدخل: التداولية والخطاب</b>                                        |
| 9     | أولاً: التداولية .....                                                  |
| 9     | 1- ما التداولية؟.....                                                   |
| 18    | 2- في السياق العربي المصطلح بين الترجمة والتعريب والإقليمية.....        |
| 20    | 3- التداولية منهجا لغويا.....                                           |
| 25    | ثانياً: الخطاب.....                                                     |
| 28    | 1- مصطلح الخطاب في السياق العربي (بين حرفية اللفظ ولانهاية المعنى)..... |
| 32    | 2- بين الخطاب والخطابة.....                                             |
|       | <b>الفصل الأول: في البعد التداولي للخطاب تنظيرا</b>                     |
| 37    | المبحث الأول: الخطاب والسياق.....                                       |
| 38    | تمهيد.....                                                              |
| 43    | 1- مفهوم السياق.....                                                    |
| 47    | 2- بين السياق والمقام (من التصارع المكاني إلى التوحد الموضوعي).....     |
| 50    | 3- أنواع السياق.....                                                    |
| 53    | 3-1- السياق النصي.....                                                  |
| 54    | 3-2- السياق الوجودي.....                                                |
| 55    | 3-3- السياق المقامي.....                                                |
| 55    | 3-4- سياق الفعل.....                                                    |
| 57    | 3-5- السياق النفسي.....                                                 |

|    |                                                            |
|----|------------------------------------------------------------|
| 58 | 4-مقومات السياق وعناصره.....                               |
| 60 | 4-1-المرسل.....                                            |
| 60 | 4-2-المرسل إليه.....                                       |
| 61 | 4-3-الوقائع الخارجية.....                                  |
| 64 | المبحث الثاني: الخطاب والوظيفة.....                        |
| 65 | تمهيد.....                                                 |
| 65 | 1-اللغة/الخطاب: البنية والوظيفة.....                       |
| 65 | 1-1-النموذج الشكلي (الصوري).....                           |
| 66 | 1-2-النموذج التواصل (الوظيفي).....                         |
| 68 | 1-3-النموذج التلفظي.....                                   |
| 69 | 2-وظائف اللغة والتواصل.....                                |
| 70 | 2-1-مفهوم الوظيفة.....                                     |
| 71 | أ-دو سوسير من النفسي إلى الفيزيولوجي.....                  |
| 72 | ب-مالينوفسكي والتصور الأنثروبولوجي.....                    |
| 73 | ج-كارل بوهلر من الانغلاق الصوري إلى الانفتاح التمثيلي..... |
| 75 | د-كارل بوبر والوظيفة الحجاجية.....                         |
| 75 | هـ-رومان جاكسون: نقطة التحول.....                          |
| 81 | و- دزموند موريس والتصور المنطقي.....                       |
| 81 | ز- جيمس بریتون والتصور التربوي.....                        |
| 82 | ح- روبول وهاليداي وليتش.....                               |

|                                                                |                                                                   |
|----------------------------------------------------------------|-------------------------------------------------------------------|
| 86                                                             | ط - وظائف اللغة في ضوء فلسفة التحليل اللغوي.....                  |
| 91                                                             | ي - وظائف اللغة في اللسانيات التداولية بين الإنجاز والمقصدية..... |
| 92                                                             | ي <sub>1</sub> - أوستين والوظيفة الإنجازية.....                   |
| 95                                                             | ك - براون ويول: الوظيفتان التعاملية والتفاعلية.....               |
| 95                                                             | 1- الوظيفة التعاملية.....                                         |
| 96                                                             | 2- الوظيفة التفاعلية.....                                         |
| 98                                                             | المبحث الثالث: الخطاب والإستراتيجية.....                          |
| 99                                                             | تمهيد.....                                                        |
| 100                                                            | 1- مفهوم الإستراتيجية الخطابية.....                               |
| 107                                                            | 2- الكفاءة التداولية (التواصلية).....                             |
| 116                                                            | 3- محددات الإستراتيجية الخطابية في المدونة.....                   |
| 118                                                            | 3-1- المقاصد.....                                                 |
| 123                                                            | 3-2- السلطة.....                                                  |
| <b>الفصل الثاني: خطاب صدر الإسلام بين التضامينة والتلميحية</b> |                                                                   |
| 132                                                            | المبحث الأول: الإستراتيجية التضامينة.....                         |
| 133                                                            | تمهيد.....                                                        |
| 134                                                            | 1- الموقف الخطابي والإستراتيجية التضامينة.....                    |
| 138                                                            | 2- قواعد التفاعل الخطابي والإستراتيجية التضامينة.....             |
| 148                                                            | 3- أدوات التضامن وآلياته اللغوية.....                             |
| 148                                                            | 3-1- الأدوات اللغوية.....                                         |

|     |                                            |
|-----|--------------------------------------------|
| 148 | 3-1-1-1 العلمية.....                       |
| 149 | أ-الاسم.....                               |
| 150 | ب-الكنية.....                              |
| 152 | ج-اللقب.....                               |
| 154 | 3-1-2-ألفاظ المعجم.....                    |
| 165 | 3-1-3-الإشارات.....                        |
| 156 | أ-الإشارات الشخصية.....                    |
| 162 | ب-الإشارات الاجتماعية.....                 |
| 164 | 3-2-آليات التضامن اللغوية.....             |
| 165 | 3-2-1-المكاشفة.....                        |
| 167 | 3-2-2-نكران الذات.....                     |
| 168 | ج- الإعجاب.....                            |
| 169 | 3-2-3- المصانعة.....                       |
| 170 | 3-2-4- الخطاب غير المباشر.....             |
| 171 | 3-2-5- التنعيم.....                        |
| 174 | المبحث الثاني: الإستراتيجية التلميحية..... |
| 175 | تمهيد.....                                 |
| 177 | 1-قصد المرسل/الظاهر والخفي.....            |
| 182 | 2-قصد المرسل ودواعي التلميح.....           |
| 187 | 3-وسائل التلميح اللغوية.....               |

|                                                                |                                                       |
|----------------------------------------------------------------|-------------------------------------------------------|
| 188                                                            | 3-1- الأدوات والآليات اللغوية.....                    |
| 188                                                            | أ-الكنايات والروابط والظروف الإنجازية.....            |
| 193                                                            | ب-الأفعال اللغوية غير المباشرة.....                   |
| 206                                                            | ج-التعبير الاصطلاحي.....                              |
| 212                                                            | د-التشبيه والاستعارة.....                             |
| 216                                                            | هـ-الكناية والتعريض.....                              |
| <b>الفصل الثالث: خطاب صدر الإسلام بين التوجيهية والإقناعية</b> |                                                       |
| 221                                                            | المبحث الأول: الإستراتيجية التوجيهية.....             |
| 222                                                            | تمهيد.....                                            |
| 224                                                            | 1- الإستراتيجية التوجيهية وطبيعة المقام التخاطبي..... |
| 225                                                            | 2- وسائل التوجيه اللغوية.....                         |
| 225                                                            | أ-الأمر.....                                          |
| 234                                                            | ب-النهي.....                                          |
| 235                                                            | ج-الاستفهام.....                                      |
| 238                                                            | د-التحذير.....                                        |
| 241                                                            | هـ- العرض والتحضيض.....                               |
| 243                                                            | و- النداء.....                                        |
| 247                                                            | ز- التوجيه بألفاظ المعجم.....                         |
| 249                                                            | ح- ذكر العواقب.....                                   |
| 251                                                            | ط- التوجيه المركب.....                                |

|     |                                            |
|-----|--------------------------------------------|
| 254 | المبحث الثاني: الإستراتيجية الإقناعية..... |
| 255 | تمهيد.....                                 |
| 256 | 1-الحجاج والإقناع.....                     |
| 263 | 2-آليات الإقناع بالحجاج وتقنياته.....      |
| 264 | 2-1-تقنيات الحجاج اللغوية.....             |
| 264 | أ-ألفاظ التعليل.....                       |
| 269 | ب-الوصف.....                               |
| 275 | ج-تحصيل الحاصل.....                        |
| 276 | د- الحجاج بالتبادل.....                    |
| 277 | 2-2-تقنيات الحجاج البلاغية.....            |
| 277 | أ-تقسيم الكل إلى أجزاء.....                |
| 278 | ب-الاستعارة.....                           |
| 282 | ج- التشبيه والتمثيل.....                   |
| 284 | د- البديع.....                             |
| 285 | 1-الحجاج بالتحسين اللفظي.....              |
| 290 | 2-الحجاج بالتحسين المعنوي.....             |
| 294 | 3-السلم الحجاجي والروابط الحجاجية.....     |
| 305 | 4-آليات السلم الحجاجي.....                 |
| 314 | الخاتمة.....                               |
| 321 | المصادر والمراجع.....                      |
| 343 | فهرس الموضوعات.....                        |
|     | الملخص                                     |

## ملخص

موضوع هذه الدراسة "إستراتيجيات الخطاب" وهو أحد الموضوعات اللغوية المهمة، لارتباطه بمختلف مجالات الحياة، فللمجتمع سياقات كثيرة تتطلب تنوع الخطاب توخيا لأهدافه المتباينة، ومنه نشأت الحاجة إلى الكشف عن استراتيجيات المتخاطبين المتنوعة ورصدها، واستثمارها لتحقيق التواصل. لأن اعتماد الإنسان على إستراتيجية واحدة واقتصره عليها في كل سياقاته التواصلية، سمة الجمود، وعنوان الخمول في التفكير، كما يعد ذلك ضربا من الجهل باللغة وما تتميز به من تنوع في الوظائف التي قصرها المنظور التداولي -منهج الدراسة- على وظيفتين ترتبطان ارتباطا وثيقا بمقاصد المرسل، ووضعه الاجتماعي وأهدافه وميولاته هما:

الوظيفة التعاملية، مجسدة في ما تقوم به اللغة من نقل فعال للمعلومات. والوظيفة التفاعلية وتتجلى في العلاقات الاجتماعية وما يصحبها من غايات.

لقد غدا واضحا -من خلال م سبق- الخطر الرفيع الذي يتبوؤه موضوع استراتيجيات الخطاب، بوصفه طريقا موصلا إلى مقاصد المرسل، وما يمد به وهو يدير حديثه أو ينتج خطابه وما يصاحب كل ذلك من كفاءات تواصلية/تداولية ولا شك أن عصر صدر الإسلام أحق العصور بتسليط آليات المنهج التداولي وأدواته الإجرائية لما حواه من خطب واكبت لحظات تاريخية حاسمة في عمر الدولة الإسلامية الفتية، كخطب الرسول ﷺ، وخطب يوم السقيفة، ويوم الشورى، وخطب موقعتي الحمل وصفين، ومنه قدمت الدراسة مقارنة تطبيقية تمثلت في تتبع استراتيجيات الخطاب الأربع: التضامنية، والتلميحية والتوجيهية والاقناعية على مدى عصر صدر الإسلام، كاشفة بذلك عن نتائج جديدة بالتنويه، فاتحة مجال البحث عن مصراعيه، للدراسات الجادة في ميدان لما يبلغ بعد منتهاه ألا وهو مجال علم استعمال اللغة، في السياقات العادية.

## **Summary**

The present study deals with ‘discourse strategies’, which is one of the important linguistic themes given its relatedness with various life domains. Actually, in any speech community there are many contexts which require a diversified discourse to meet different communicative goals therein. Within this perspective, it has become an urgent necessity to find out and identify discourse strategies in order to exploit them for the sake of achieving communication. Understandably, the reliance on one single strategy in all communicative contexts reflects some sort of rigidity and uncreative reasoning, without forgetting that this is considered a kind of ignorance about language and its various functions. The latter were condensed within the pragmatic perspective-which is the methodological basis of our study- into two main functions that are tightly related to the addressor’s intentions, his social status, goals and orientations: the transactive function which is manifest in the role that does in information conveyance, and the interactive function which represented in the social relationships and its accompanying intentions.

Building on this ground, it can be said that the issue of discourse strategies is so crucial because it is a way through which we can pin down the addressor’s intentions in the course of his interaction and discourse production with all the underlying communicative/pragmatic competences. It is arguably unchallenged that the beginning era of Islam is a historical period worthwhile of a linguistic investigation, through the application of the pragmatic methodology and its performative tools, given that many influential speeches like those of the Prophet Muhammed (PBUH), Saquifa Day, Consultation Day, the camel combat and Saffine were made then. Within this respect, the present study is a practical approach that attempts to track the four discourse strategies; cooperative, implicative, directive and persuasive, all along the beginning era of Islam. The study culminates in revealing and alluding to interesting results as well as opening new horizons for further future research in a domain that still requires a lot of investigation, namely; language use in ordinary circumstances.